



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى الله عليه وسلم

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

حجرات البيات

حجرات القرآن لأهل الأيمان

الخطيب

الشيخ علي حيدر الموند



www.ashraf.com
www.ashraf.com
www.ashraf.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحفة البيان ، خطاب القرآن لاهل الايمان

كاتب:

علي حيدر المؤيد

نشرت في الطباعة:

دار العلوم

رقمي الناشر:

مركز القائمة باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
32	تحفة البيان ، خطاب القرآن لاهل الايمان
32	اشارة
32	اشارة
38	الاهداء
40	المقدمة
40	اشارة
41	القرآن في لسان أهل البيت عليهم السلام
43	القرآن دليل الخيرات
43	أهل البيت وعلوم القرآن عليهم السلام
46	العترة عليهم السلام صنو القرآن
49	قراءة القرآن وحفظه
50	التدبر ضرورة حيوية
51	المسلمون والقرآن
53	معني التفسير
54	النداء وأنواعه
56	الإيمان والمؤمن
60	المؤمن كما وصفه أهل البيت عليهم السلام
61	قد أفلح المؤمنون
63	المؤمن والبصائر الربانية
66	1- احذروا ألاعبب اليهود
66	اشارة
66	في رحاب المفردات

70	شأن النزول
72	عبر من الآية
76	2- الصبر مفتاح النجاح
76	اشارة
76	في رحاب المفردات
77	شأن النزول
78	عبر من الآية
78	وظيفة الإنسان تجاه الخالق تعالى
80	مراتب الصبر
81	هكذا تحلّ المشاكل
84	3- الشكر طريق الكمال
84	اشارة
84	في رحاب المفردات
85	شأن النزول
85	عبر من الآية
89	من مراتب الشكر
92	4- القصص حياة الشعوب
92	اشارة
92	في رحاب المفردات
93	شأن النزول
94	عبر من الآية
95	العفو بدل القصص
96	سوادة يقتص من الرسول صلي الله عليه وآله
98	القصص والمجتمع
100	5- الصوم رياضة المتقين

100	اشارة
100	في رحاب المفردات
101	شأن النزول
101	عبر من الآية
103	فلسفة الصيام
105	حكّم أخري للصيام
106	الصيام والمجتمع
108	6- الإسلام دين السلام
108	اشارة
108	في رحاب المفردات
109	شأن النزول
109	عبر من الآية
110	الشیطان عدو المجتمعات
111	كيف نواجه الشيطان؟
114	7- الإنفاق ضرورة حضارية
114	اشارة
114	في رحاب المفردات
116	شأن النزول
116	عبر من الآية
117	لماذا الإنفاق؟
118	الإنفاق وانقاذ المجتمعات
120	علّموا أبناءكم الإنفاق
121	التشويق إلي الإنفاق
122	8- حقائق عن الصدقات المقبولة
122	اشارة

122	في رحاب المفردات
124	عبر من الآية
124	من شرائط الإنفاق
126	أهل البيت عليهم السلام والنهي عن المنة
130	9- الإنفاق وبناء المجتمع
130	اشارة
130	في رحاب المفردات
131	شأن النزول
131	عبر من الآية
132	لنعد إلي وصايا القرآن
134	بركات الإنفاق
136	10- الربا وضياع الشعوب
136	اشارة
136	في رحاب المفردات
137	شأن النزول
137	عبر من الآية
138	بين الربا والتجارة
140	حرمة الربا في الأخبار
141	من حجكم حرمة الربا
144	11- من شرائط التداين
144	اشارة
145	في رحاب المفردات
147	شأن النزول
147	عبر من الآية
149	دروس وعبر

151	عود علي بدء
152	من قصص التاريخ
154	12- عواقب طاعة أهل الكتاب
154	اشارة
154	في رحاب المفردات
155	شأن النزول
155	عبر من الآية
157	حقائق تقرهما الآية المباركة
160	13- التقوي درع الوقاية
160	اشارة
160	في رحاب المفردات
161	شأن النزول
161	عبر من الآية
162	التقوي في أخبار أهل البيت عليهم السلام
164	من آيات التقوي
165	عاقبة الكفر بعد الإيمان
168	14- من مساوي بطانة الشعوب
168	اشارة
168	في رحاب المفردات
169	شأن النزول
170	عبر من الآية
170	أهل البيت عليهم السلام يحذرون من بطانة السوء
174	خلاصة أعمال بطائن السوء
176	15- حرمة أكل الربا
176	اشارة

- 176 في رحاب المفردات
- 177 عبر من الآية
- 178 الحكمة في تحريم الربا
- 178 حرمة الربا في الأخبار الشريفة
- 179 الفرق بين الصدقات والربا
- 182 16- من عواقب طاعة الكافرين
- 182 اشارة
- 182 في رحاب المفردات
- 183 شأن النزول
- 184 عبر من الآية
- 185 التضاد بين أهل الإيمان والكفر
- 185 من قصص التاريخ
- 188 أعداؤنا الذين نواجههم
- 190 17- التسليم بقضاء الله عز وجل
- 190 اشارة
- 190 في رحاب المفردات
- 191 عبر من الآية
- 192 الهزيمة وبداية التراجع
- 194 الشهادة ثمن الجنان
- 196 18- الثبت في سبيل الله
- 196 اشارة
- 196 في رحاب المفردات
- 197 شأن النزول
- 197 عبر من الآية
- 198 أهل البيت عليهم السلام والتأكيد علي الصبر

199	لكي نعيد مجدنا الزاهر ..
200	إنها مقامات الصبر ..
201	الدعوة إلي المصابرة ..
202	المرابطة علي خطّ أهل البيت عليهم السلام ..
203	التقوي والمرابطة الحقيقيّة ..
204	19- القرآن وحقوق المرأة ..
204	اشارة ..
204	في رحاب المفردات ..
205	شأن النزول ..
206	عبر من الآية ..
207	ماذا عن امتهان حقوق المرأة ؟ ..
210	الاختلاف في الحياة الزوجية ..
212	20- التجارة في الإسلام ..
212	اشارة ..
212	في رحاب المفردات ..
213	شأن النزول ..
213	عبر من الآية ..
215	التجّار والتفقّه في الدين ..
217	عواقب أكل المال بالباطل ..
219	عوامل الانحراف الاجتماعي ..
222	21- من شرائط الصلاة ..
222	اشارة ..
222	في رحاب المفردات ..
223	عبر من الآية ..
225	التدرّج في النهي عن شرب الخمر ..

227 الاشارة إلى مراحل التحريم ..
229 ما المراد بالسكر ؟ ..
230 النهي عن شرب الخمر ..
232 22- إنهم محمد وآله عليهم السلام ..
232 اشارة ..
232 في رحاب المفردات ..
233 شأن النزول ..
234 عبر من الآية ..
235 من هم أولوا الأمر ؟ ..
238 ولاية أهل البيت عليهم السلام ..
242 23- وصايا إلى المجاهدين ..
242 اشارة ..
242 في رحاب المفردات ..
243 شأن النزول ..
243 عبر من الآية ..
245 الحذر مفهوم عام ..
246 حاجة الأمة إلى جمع الشتات ..
247 المسلمون بين اليوم والبارحة ..
248 24- آداب الجهاد في القرآن الكريم ..
248 اشارة ..
248 في رحاب المفردات ..
249 شأن النزول ..
250 عبر من الآية ..
252 الاستفادة من الآية الكريمة ..
254 25- الدعوة إلى القسط ..

254	اشارة
254	في رحاب المفردات
255	شأن النزول
255	عبر من الآية
256	الأناية تحرم إبليس رحمة الله
257	رسالات السماء تحارب الأناية
258	الشهادة والقيام بالقسط
259	من عوامل الانحراف البشري
261	الدعوة إلي شهادة الحق
262	شهادة ذو الشهادتين
264	26- الإيمان بين الحقيقة والخيال
264	اشارة
264	في رحاب المفردات
265	عبر من الآية
267	الإيمان ضرورة حياتية
269	الاعتقاد بنبوة الرسول صلي الله عليه وآله
270	مسك الختام
272	27- القرآن وتولي الكافرين
272	اشارة
272	في رحاب المفردات
273	عبر من الآية
274	الأئمة عليهم السلام يحذرون من المنافقين
276	أسباب موالة الكافرين
277	شواهد من التاريخ
280	28- الوفاء بالعقود

280	اشارة
280	في رحاب المفردات
281	شأن النزول
281	عبر من الآية
283	حضارية الطرح القرآني
284	ماذا عن العقود العبادية ؟
285	التعبّد بأحكام الله تعالى
290	29- إحياء الشعائر الإسلامية
290	اشارة
290	في رحاب المفردات
291	شأن النزول
292	عبر من الآية
293	أحيوا شعائر الله تعالى
294	حفظ الشعائر الحسينية
296	شمولية موضوع الشعائر
298	30- الإسلام والطهارة
298	اشارة
298	في رحاب المفردات
299	شأن النزول
299	عبر من الآية
301	حوار حول الحقيقة
303	تحريف وضوء النبي صلى الله عليه وآله
306	بحث في مفردات الآية
308	31- العدل في الشهادة
308	اشارة

- 308 في رحاب المفردات
- 309 شأن النزول
- 309 عبر من الآية
- 312 المتقون وشهادة الحق
- 314 32- حفظ حياة القائد
- 314 اشارة
- 314 في رحاب المفردات
- 315 شأن النزول
- 315 عبر من الآية
- 320 33- مشروعية التوسل في القرآن
- 320 اشارة
- 320 في رحاب المفردات
- 321 شأن النزول
- 321 عبر من الآية
- 322 معني الشرك الحقيقي
- 325 حديث الوسيلة
- 328 34- ماذا عن موالة أهل الكتاب
- 328 اشارة
- 328 في رحاب المفردات
- 329 شأن النزول
- 330 عبر من الآية
- 331 شواهد من التاريخ الإسلامي
- 332 الحذر من أعداء الله عزوجل
- 334 35- رجال يحبهم الله
- 334 اشارة

- 334 في رحاب المفردات
- 335 شأن النزول
- 335 عبر من الآية
- 337 الإشارة إلى ولاية أمير المؤمنين(عليه السلام)
- 338 صفات أنصار الدين
- 342 36- موالاة أعداء الله
- 342 اشارة
- 342 في رحاب المفردات
- 343 شأن النزول
- 343 عبر من الآية
- 345 ابن العرجاء يسخر بالحجاج
- 346 مراعاة ضوابط الإيمان في الصداقة
- 348 37- الرهبانية في نظر الإسلام
- 348 اشارة
- 348 في رحاب المفردات
- 349 شأن النزول
- 350 عبر من الآية
- 351 المسيحية والرهبانية
- 352 الاستفادة من الطيبات
- 354 38- تحريم الخمر في الإسلام
- 354 اشارة
- 354 في رحاب المفردات
- 355 شأن النزول
- 356 عبر من الآية
- 358 اجتناب مجالس شرب الخمر

359	مع التفاسير الواهية
360	39- الحجّ والابتلاءات الصعبة
360	اشارة
360	في رحاب المفردات
361	شأن النزول
361	عبر من الآية
362	امتحان تحريم الصيد
364	من مقامات الخوف
366	هكذا يصنع الخوف بأهله
368	40- الحجّ والفوائد المشهودة
368	اشارة
368	في رحاب المفردات
369	شأن النزول
370	عبر من الآية
371	حرمة الصيد في الحجّ
372	الحجّ والانتفاع عن المادّيات
373	ما أكثر الضجيج
376	41- أمور لا يسأل عنها
376	اشارة
376	في رحاب المفردات
377	شأن النزول
377	عبر من الآية
379	احفظوا ألسنتكم
380	من آفات اللسان
381	مساواة التشدّد في السؤال

383	التشدّد في صالح من ؟
384	42- بناء النفس في الإسلام
384	اشارة
384	في رحاب المفردات
385	شأن النزول
385	عبر من الآية
386	حالات النفس الإنسانية
389	نقد نظرية الحشد
392	43- حقوق تحفظها الوصية
392	اشارة
392	في رحاب المفردات
393	شأن النزول
394	عبر من الآية
396	حتي نصل الي الحقيقة
397	وصية الرسول صلي الله عليه وآله الخالدة
400	44- الثبات في ساحات الجهاد
400	اشارة
400	في رحاب المفردات
401	عبر من الآية
402	حرمة الفرار من الجهاد
404	رفع معنويات المؤمنين
404	شواهد من التاريخ
406	45- طاعة الرسول صلي الله عليه وآله ونجاة الأمة
406	اشارة
406	في رحاب المفردات

- 407 شأن النزول
- 407 عبر من الآية
- 408 النهي عن ترك موالاته الرسول صلى الله عليه وآله
- 409 فوائد طاعة الرسول صلى الله عليه وآله
- 411 الالتفاف حول أهل البيت عليهم السلام
- 411 ميزان قبول الأعمال
- 414 46- أجبوا داعي الله تعالى
- 414 اشارة
- 414 في رحاب المفردات
- 415 شأن النزول
- 415 عبر من الآية
- 417 لمحات عن العهد الجاهلي
- 418 آثار إجابة دعوة الرسول صلى الله عليه وآله
- 420 47- مآسي خيانة الأمة
- 420 اشارة
- 420 في رحاب المفردات
- 421 شأن النزول
- 422 عبر من الآية
- 422 الأمة تخون الرسول صلى الله عليه وآله في أهل بيته عليهم السلام ؟
- 425 أسباب الخيانة
- 426 48- من آثار التقوي
- 426 اشارة
- 426 في رحاب المفردات
- 427 شأن النزول
- 427 عبر من الآية

428	معرفة حقائق الأمور
429	تحصيل الفرقان العظيم
432	49- الثبات في سبيل الله عزوجل
432	اشارة
432	في رحاب المفردات
433	شأن النزول
433	عبر من الآية
434	نبذة عن الصراع البشري
436	الطريق إلى الثبات
437	فوائد الذكر
440	50- موالاة أعداء الله تعالى
440	اشارة
440	في رحاب المفردات
441	شأن النزول
441	عبر من الآية
443	عبر من قصص الأنبياء عليهم السلام
444	العقيدة والولاء الخالص
446	51- مباحث حول نجاسة المشركين
446	اشارة
446	في رحاب المفردات
447	شأن النزول
447	عبر من الآية
448	اعتراض واو
449	الاختلاف في نجاسة الكافر
450	آثار مقاطعة الكافرين

452 انحرافات زعماء أهل الكتاب ..
452 اشارة
452 في رحاب المفردات
453 شأن النزول
453 عبر من الآية
455 دوافع محاربة الرسول صلي الله عليه وآله
456 رهبانية الإسلام الحنيف
457 وجوه أكل المال بالباطل
460 53- مشكلة التناقل عن الجهاد
460 اشارة
460 في رحاب المفردات
461 شأن النزول
462 عبر من الآية
463 القرآن يذكر بدار الخلود
464 الحرّ الرياحي يتخلّي عن الدنيا
466 54- كونوا مع أهل البيت عليهم السلام
466 اشارة
466 في رحاب المفردات
466 شأن النزول
467 عبر من الآية
469 زيادة إيضاح
470 أقسام الصدق
472 55- الجهاد والبأس الشديد
472 اشارة
472 في رحاب المفردات

- 473 شأن النزول
- 473 عبر من الآية
- 475 التقوي عند قتال الأعداء
- 476 الوصايا الخالدة
- 478 56- الصلاة معراج المؤمنين
- 478 اشارة
- 478 في رحاب المفردات
- 479 شأن النزول
- 479 عبر من الآية
- 480 السجود والقرب إلى الله تعالى
- 481 وصايا العترة عليهم السلام بالصلاة
- 483 القرآن ينهي عن الشرك
- 483 التربية الإلهية
- 486 57- اتقوا حبال الشيطان
- 486 اشارة
- 486 في رحاب المفردات
- 487 عبر من الآية
- 489 من أين يبدأ الاستدراج ؟
- 492 دور العبادات في تركية النفس
- 494 58- مقتطفات من الآداب الإسلامية
- 494 اشارة
- 494 في رحاب المفردات
- 495 شأن النزول
- 495 عبر من الآية
- 498 الخلود إلى الراحة

499	إفشاء السلام
500	قال الرجل : لا .
502	59- الأسرة والآداب الإسلامية
502	إشارة
502	في رحاب المفردات
503	شأن النزول
503	عبر من الآية
505	الاستئذان في الأوقات الخاصة
506	القرآن والتنظيم الأسري
510	60- نعمة النصر الإلهي
510	إشارة
510	في رحاب المفردات
510	شأن النزول
510	عبر من الآية
512	قصة الواقعة
518	من دلالات الآية
520	61- أهمية الذكر الكثير
520	إشارة
520	في رحاب المفردات
521	شأن النزول
521	عبر من الآية
522	الذكر حصن المؤمنين المنيع
523	حكمة التأكيد على الذكر
524	أهمية الذكر القلبي
525	حقيقة الذكر

528	62- الطلاق حياة جديدة
528	اشارة
528	في رحاب المفردات
529	شأن النزول
530	عبر من الآية
531	مقتطفات من أحكام الطلاق
534	الطلاق بالمعروف
536	63- من آداب التعامل مع النبي صلى الله عليه وآله
536	اشارة
536	في رحاب المفردات
537	شأن النزول
538	عبر من الآية
539	كيف نتعامل مع القادة ؟
542	64- القول الجلي في الصلاة علي النبي صلى الله عليه وآله
542	اشارة
542	في رحاب المفردات
543	شأن النزول
543	عبر من الآية
545	الصلوات وتعظيم الرسول صلى الله عليه وآله
547	فوائد الصلوات
549	الصلوات واستجابة الدعوات
550	عود علي بدء
551	لا تصلوا علي صلاة براء
552	65- صور من أذية الرسول صلى الله عليه وآله
552	اشارة

- 552 في رحاب المفردات
- 553 شأن النزول
- 553 عبر من الآية
- 554 مضائق أصحاب الرسالة
- 557 القرآن يفضح المنافقين
- 559 إيذاء الرسول صلي الله عليه وآله في أهل بيته عليهم السلام
- 560 بين الأمة الإسلامية وبني اسرائيل
- 562 66- الالتزام بالقول السديد
- 562 اشارة
- 562 في رحاب المفردات
- 562 شأن النزول
- 563 عبر من الآية
- 565 أهل البيت عليهم السلام والدعوة إلي حفظ اللسان
- 566 عاقبة التزام القول السديد
- 568 67- أسس النصر المبين
- 568 اشارة
- 568 في رحاب المفردات
- 569 شأن النزول
- 569 عبر من الآية
- 572 طرق النصر الإلهي
- 576 68- ولو أنهم أطاعوا الرسول صلي الله عليه وآله
- 576 اشارة
- 576 في رحاب المفردات
- 577 شأن النزول
- 577 عبر من الآية

- 580 حبط الأعمال في مخالفة الأنمة عليهم السلام .
- 581 من أسباب حبط الأعمال
- 582 صور من التاريخ .
- 584 69- آداب التعامل مع الرسول صلي الله عليه وآله .
- 584 اشارة
- 584 في رحاب المفردات
- 585 شأن النزول
- 586 عبر من الآية .
- 588 ولا تتقدموا بين يدي الرسول صلي الله عليه وآله .
- 590 لماذا الأمر بعدم التقديم ؟
- 592 70- آداب التحدث مع الرسول صلي الله عليه وآله .
- 592 اشارة
- 592 في رحاب المفردات
- 593 شأن النزول
- 593 عبر من الآية .
- 596 من آثار الاستخفاف بالرسول صلي الله عليه وآله .
- 598 الأمة تخالف القيادات الإسلامية .
- 600 71- كيف تتعامل مع الأخبار ؟
- 600 اشارة
- 600 في رحاب المفردات
- 601 شأن النزول
- 602 عبر من الآية .
- 602 تزييف الأخبار في التاريخ .
- 606 72- من أجل مجتمع إسلامي فاضل .
- 606 اشارة

- 606 في رحاب المفردات
- 607 شأن النزول
- 608 عبر من الآية
- 608 عوامل انحراف المجتمعات
- 611 التأكيد علي عدم التنايز
- 614 73- لكي لا ينحرف المجتمع
- 614 اشارة
- 614 في رحاب المفردات
- 615 شأن النزول
- 615 عبر من الآية
- 620 74- شرائط الوصول إلي التقوي
- 620 اشارة
- 620 في رحاب المفردات
- 621 شأن النزول
- 621 عبر من الآية
- 622 عاقبة التقوي
- 626 75- قيسات عن النجوي المحرمة
- 626 اشارة
- 626 في رحاب المفردات
- 627 شأن النزول
- 627 عبر من الآية
- 629 الأصل في النجوي
- 632 76- أخلاقيات دعا إليها القرآن
- 632 اشارة
- 632 في رحاب المفردات

- 633 شأن النزول
- 633 عبر من الآية
- 635 صور من معاناة الرسول صلي الله عليه وآله
- 638 77- علي (عليه السلام) يناجي الرسول صلي الله عليه وآله
- 638 اشارة
- 638 في رحاب المفردات
- 639 شأن النزول
- 639 عبر من الآية
- 641 الاقتداء بأمر المؤمنين (عليه السلام)
- 642 البحث حول الناسخ والمنسوخ
- 644 78- التقوي طريق النجاة
- 644 اشارة
- 644 في رحاب المفردات
- 645 شأن النزول
- 645 عبر من الآية
- 647 الوصول الي التقوي
- 648 العلاقة بين التقوي والآخرة
- 650 79- موادة أعداء الله عزوجل
- 650 اشارة
- 650 في رحاب المفردات
- 651 شأن النزول
- 653 عبر من الآية
- 654 المسلمون يوادون أعداء الله
- 656 أسباب البراءة من أعداء الله
- 658 80- كيف نمتحن المهاجرات ؟

- 658 اشارة
- 658 في رحاب المفردات
- 659 شأن النزول
- 660 عبر من الآية
- 662 من شواهد التاريخ
- 663 الاختلاف الفقهي في المسألة
- 666 81- مفهوم التبري في القرآن الكريم
- 666 اشارة
- 666 في رحاب المفردات
- 667 شأن النزول
- 667 عبر من الآية
- 668 الرسول صلي الله عليه وآله يحسن إلي مشركي مكة
- 671 النهي عن تولي أعداء الله
- 674 82- الوقوع في مزالق النفاق
- 674 اشارة
- 674 في رحاب المفردات
- 675 شأن النزول
- 675 عبر من الآية
- 678 تحذير المؤمنين من خطر النفاق
- 680 83- تجارة لن تبور
- 680 اشارة
- 680 في رحاب المفردات
- 681 شأن النزول
- 681 عبر من الآية
- 682 آثار التجارة مع الله عزوجل

- 686 84- الكون مع أنصار الله تعالى
- 686 اشارة
- 686 في رحاب المفردات
- 687 شأن النزول
- 687 عبر من الآية
- 689 أنصار الله عزوجل في القرآن
- 692 85- خصائص يوم الجمعة المبارك
- 692 اشارة
- 692 في رحاب المفردات
- 693 شأن النزول
- 693 عبر من الآية
- 694 من معطيات يوم الجمعة
- 695 السعي لصلاة الجمعة
- 696 مستحبات يوم الجمعة
- 697 الاهتمام بالأمر المهمّة
- 698 86- الإعراض عن ذكر الله عزوجل
- 698 اشارة
- 698 في رحاب المفردات
- 699 عبر من الآية
- 700 منشأ الإعراض عن الله عزوجل
- 702 87- احذروا هؤلاء
- 702 اشارة
- 702 في رحاب المفردات
- 703 شأن النزول
- 703 عبر من الآية

704 خذلان الكوفة لسفير الحسين(عليه السلام) ..
706 بطولات المرأة في كربلاء ..
708 88- الطريق الي إنتقاذ الأهل ..
708 اشارة ..
708 في رحاب المفردات ..
709 عبر من الآية ..
714 89- مباحث حول التوبة النصوحة ..
714 اشارة ..
714 في رحاب المفردات ..
715 شأن النزول ..
715 عبر من الآية ..
717 شرائط التوبة النصوحة ..
718 آثار التوبة النصوحة ..
720 الخاتمة ..
721 تعريف مركز ..

تحفة البيان ، خطاب القرآن لاهل الايمان

اشارة

تحفة البيان ، خطاب القرآن لاهل الايمان

مؤلف: مؤيد، علي حيدر

محل نشر: ، بيروت

ناشر: دارالعلوم

تاريخ نشر: 1424 ق، 2004 م

نوبت چاپ: اول

تعداد صفحات: 689ص

زبان: عربي

موضوع:قرآن - پندها و اندرزاها

موضوع:قرآن - اهل ايمان

ص: 1

اشارة

تحفة البيان ، خطاب القرآن لاهل الايمان

مؤلف: مؤيد، علي حيدر

ص: 3

بسم الله الرحمن الرحيم

ص: 5

إليك أيها الأمير العظيم ..

إليك يا أمير النحل .. وياأبا تراب .. وياباب مدينة العلم ..

إليك ياسيد الوصيين وإمام المتقين

إليك يا من ما نزلت آية تذكر المؤمنين إلا وكنت أميرها وسيدها ..

إليك ياداحي الباب ومفرق الأحزاب ..

إليك ياأبا الحسن ياعلي بن أبي طالب يامفرج الهمم .. وكاشف الكرب ، وحبیب القلب ..

أقدم هذه البضاعة المزجاة

فأقبل متي سيدي هذا الجهد الضئيل السابح في بحر القرآن الكريم

فياكتاب الله الناطق

أنطق ألسنتنا بالصدق ، وسدد خطانا للحق

ويامدار الحق وياقائد الخلق إلي الحق .. ياأمير المؤمنين

سيدي ياساقي الناس في يوم المحشر اقبل وتفضل ..

المؤلف

ص: 7

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَا كَثِيرٌ فِيهِ أُمَّدٌ» .

«كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» .. «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» ..

الحمد لله حمداً كثيراً كما أمر ..

الحمد لله وكفي . والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد المصطفى وعلي آله النجباء ، وعترته الشرفاء ، مهبط البركات ، ومنبع النور والخيرات .

من أولهم وأميرهم الإمام علي (عليه السلام) وزوجته الطاهرة البتول ، فاطمة الزهراء عليها السلام وإبنيهما الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة ، والتسعة المعصومين من أبناء الإمام الحسين (عليه السلام) أئمة المسلمين زين العابدين ، والباقر ، والصادق ، والكاظم ، والرضا ، والجواد ، والهادي ، والعسكري .. وخاتمهم مهديّ هذه الأمة عليهم السلام والتحيّة والإكرام - ..

وعجل الله تعالى فرج إمامنا إمام العصر والزمان الحجّة ابن الحسن (عليه السلام) وجعلنا من أنصاره وأعوانه والمستشهادين بين يديه ، والسائرين علي نهجه القويم والمتمسكين بإمامته وإمامة آبائه الطاهرين عليهم السلام .

والعن اللهم كل من آذى وظلم محمداً وآله صلي الله عليه وآله من الأولين والآخرين من الآن إلي قيام يوم الدين إله الحق آمين ..

القرآن في لسان أهل البيت عليهم السلام

أما بعد .. فالقرآن الكريم : هو كتاب الله المنزل علي الرسول المبجل محمد بن عبد الله صلي الله عليه وآله .

فقد قال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((هو كلام الله ، وقول الله ، وكتاب الله ، ووحى الله وتنزيله ..)) (1).

فهو النبا العظيم ، قوله فصل وحكمه عدل يسير مع الأمة كمسير الشمس والقمر ، حيث إنهما يأتیان للعالم كل يوم بالجديد والمفيد ..

وكذلك القرآن الكريم ، فهو لكل قوم .. بل لكل البشر . وفي كل عصر ومصر منذ أن نزل علي رسول الله صلي الله عليه وآله وإلي آخر لحظة من عمر الكون باقياً بقاء الحق والصدق والقسط والعدل .

وهو لكل الأتوام يكون غصناً طرياً وفي كل الأوقات نوراً مضيئاً ، وفي كل العصور غوثاً ندياً ، ولكل المؤمنين معاذاً وملاذاً أبدياً ..

فعن الإمام الرضا (عليه السلام) قال : ((هو (القرآن) حبل الله المتين وعروته الوثقي ، وطريقته المثلي ، المؤدي إلي الجنة والمنجي من النار ، لا يخلق من الأزمنة ولا يغت علي الألسنة لأنه لا يجعل لزمان دون زمان ، بل جعل دليل البرهان ، وحجة علي كل

ص: 10

1- توحيد الصدوق : ص 223 ح 3 .

إنسان ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ..(1)

وهو المعجزة الخالدة التي أيد بها الله سبحانه رسوله المصطفى صلي الله عليه وآله وكشف به عن رسالته الخاتمة التي تحدت - وما زالت تتحدت - جميع الناس علي اختلاف مللهم ونحلهم علي أن يأتوا بسورة من مثله ولو كانت سطرًا واحدًا كسورة الكوثر المباركة ..

فهو أحسن الحديث ، وأجمل القصص ، وأعظم الحكم لأرقي الأمم ، ولكل من يريد أن ينتشل نفسه من ظلمات الجهل والفتن إلي نور العلم والأمن والاطمئنان ..

وإلي ذلك أشار الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله قائلاً : ((القرآن هدي من الضلالة ، وتبيان من العمي ، واستقالة من العثرة ونور من الظلمة ، وضياء من الأحداث ، وعصمة من الهلكة ، ورشد من الغواية ، وبيان من الفتن ، وبلاغ من الدنيا إلي الآخرة ، وفيه كمال دينكم ، وما عدل أحد عن القرآن إلا إلي النار ..(2)

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((أيها الناس ، من استنصح الله وفق ، ومن اتخذ قوله دليلاً هدي للتي هي أقوم ..(3)

أما الصديقة الزهراء عليها السلام فقد قالت عن القرآن : ((لله فيكم عهد قدمه إليكم ، وبقية استخلفها عليكم ، كتاب الله ، بينة بصائره ، منكشفة سرائره ، وبرهان متجلية ظواهره ، مديم للبرية استماعه ، وقائد إلي الرضوان أتباعه ، ومؤد إلي النجاة أشياعه ..(4)

ص: 11

1- عيون أخبار الرضا - عليه السلام - : ج2 ص130 ح9 .

2- الكافي : ج2 ص600 ح8 .

3- نهج البلاغة : خ147 في عظة الناس .

4- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص567 ح4940 .

القرآن دليل الخيرات

هذا وإنّ للقرآن الكريم فضلاً عظيماً لا يعلمه إلا الله ومن نزل عليهم عليهم السلام .

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : ((أيها الناس إنكم في دار هدنة وأنتم علي ظهر سفر والسير بكم سريع ، وقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كلّ جديد ، ويقربان كلّ بعيد ، ويأتیان بكلّ موعود ، فأعدّوا الجهاز لبعد المجاز ..)).

فقام المقداد بن الأسود فقال : يارسول الله صلى الله عليه وآله وما دار الهدنة .. ؟

فقال صلى الله عليه وآله : ((دار بلاغ وانقطاع ، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ، فإنه شافع مشفع ، وماحل مصدق ، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه قاده إلى النار ، وهو الدليل يدلّ علي خير سبيل ، وهو كتاب فيه تفصيل ، وبيان ، وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل ، وله ظهر وبطن ، فظاهره حكم وباطنه علم ، ظاهره أنيق وباطنه عميق ..))⁽¹⁾.

أهل البيت وعلوم القرآن عليهم السلام

نعم إنّ لظهر القرآن بطناً ، ولباطنه بطن إلى سبع بطون وعلمها كلّ عند رسول الله وآله الأطهار عليهم السلام الذين هم أهل القرآن وأهل الذكر كما ورد في الذكر الحكيم .. وقد تظافت الأحاديث حول هذا عند العامة والخاصة لا سيّما عن العبادلة الثلاثة⁽²⁾ الذين اعترفوا أنّ علم القرآن ظواهره وبواطنه عند أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وبالتبع والإرث الرسالي عند أبنائه الكرام كإبراهيم بن كابر ولاحقاً عن

ص: 12

1- الكافي : ج2 ص 599 - 598 ح 2 .

2- العبادلة هم : عبدالله بن عمر ، عبدالله بن عباس ، عبدالله بن الزبير .

سابق، لأنهم حجج الله في الأرض وأئمة الدين وقادة المسلمين إلي رب العالمين في الدنيا والدين .

ففضل القرآن عظيم ، ونوره مبين وهو رحمة مهداة لجميع الناس لانتشالهم من الظلمات إلي النور ، ومن الجور والظلم إلي بحبوحة القسط والعدل ، فهو كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في النهج الشريف :

((أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحها ، وسراجاً لا يخبو توقده ، وبحراً لا يدرك قعره ، ومنهاجاً لا يضل نهجه ، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه ، وفرقناً لا يخمد برهانه ، وتبياناً لا تهدم (تنهدم) أركانه ، وشفاءً لا تخشي أسقامه ، وعزاً لا تهزم أنصاره ، وحقاً لا تخذل أعوانه ، فهو معدن الإيمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ، ورياض العدل وغدرانه ، وأثافي الإسلام وبنيانه ، وأودية الحق وغيطانه ، وبحر لا يترفه المستنزفون ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، وأعلام لا يعمي عنها السائرون ، وآكام (إمام) لا يجوز عنها القاصدون جعله الله رياً لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصلحاء ، ودواء ليس بعده داء ، ونور ليس معه ظلمة ، وحبلاً وثيقاً عروته ، ومعقلاً منيعاً ذروته ، وعزاً لمن تولاه ، وسلماً لمن دخله ، وهدى لمن اتتم به ، وعذراً لمن انتحله ، وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خصم به ، وملجأً لمن حاج به ، وحاملاً لمن حمله ، ومطية لمن أعمله ، وآية لمن توسم ، وجنة لمن استلام ، وعلماً لمن وعي ، وحديثاً لمن روي ، وحكماً لمن قضى ..))⁽¹⁾.

فهذا الكتاب الكريم يحتاج إلي من يطبته ويؤله ويفسره للناس علي أرض الحقيقة والواقع ، وهو ضرورة حضارية في كل عصر ومصر ، لأنه شمس لا تغيب

ص: 13

1- نهج البلاغة : خ198 في القرآن الكريم .

- ولن تغيب بإذن الله تعالى - فكلما تقدّم العلم وتطوّرت الحياة علي هذه الكرة الترابية سيجد الناس - خاصة العلماء - ضرورة لوجود القرآن الكريم بين أيديهم ، لأنّ في القرآن آيات وآيات إلي الآن لم تفسّر بالوجه الأكثر شمولية ، بل اكتفي الأقدمون بإيراد بعض الأحاديث أو ببعض الآراء التي حسبوها أنّها تفسّر الآيات المباركة إلّا أنّنا اليوم نجد - مثلاً - أنّ العلم قد كشف لنا عن الكثير من النظريات العلمية في القرآن الكريم ..

فنظرية كروية الأرض قد نصّ عليها القرآن الكريم حيث قال سبحانه وتعالى : «وَالأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا(1)».

والدحيّة : هي البيضة ..

هذا فضلاً عن نظرية الظلمات والنور المتراكمة التي يلاحظها القارئ موزّعة في أكثر من مكان في القرآن لا سيّما سورة النور العظيمة .

وكذلك الحال بالنسبة إلي نظرية خلق السماوات والمجرات وما شابه حيث قال تعالى : «وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(2)».

ناهيك عن نظرية غزو الفضاء والوصول إلي المريخ التي أشار القرآن إليها في قوله تعالى : «إِنِ اسَّ تَطَعْتُمْ أَن تَتَفَّذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَتَفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(3)» علماً أنّ الرسول الكريم صلي الله عليه وآله وصل إلي أرفع من المريخ واجتاز السماء السابعة حتي أصبح ك «قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ..(4)» وذلك في المعراج

ص: 14

- 1- سورة النازعات (79) : الآية 30 .
- 2- سورة الذاريات (51) : الآية 47 .
- 3- سورة الرحمن (55) : الآية 33 .
- 4- سورة النجم (53) : الآية 9 .

عندما : «ذَنَا فَتَدَلِّي (1)».

وهكذا ، فالقرآن نبراس لكل الأمم ولكل الشعوب الطامحة إلى العلم والحلم والأدب وكل أنواع الفضائل والعلوم الكونية والأخلاقية والتنظيمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها من العلوم التي تجدها مختزنة بين الدفتين ، وربنا سبحانه يقول : «مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ عٍ .. (2)»، أي أننا لم ندع شيئاً مما تحتاجونه - يابني البشر وربما الجن كذلك - إلا وأوضحناه في القرآن الكريم ، فما عليكم إلا التزام القرآن والسير علي منهاجه والإصطباح بأنواره لتصبحوا أسعد وأفضل المخلوقات طرّاً .

العترة عليهم السلام صنو القرآن

ولا- يخفي أنّ هذا الكتاب العظيم له أهل وأناس هم له عدل قد أوجب الباري عزّوجلّ مودّتهم والتمسك بحبّهم وحبّهم والسير تحت قيادتهم الحكيمة ، حيث أمر الباري تعالي بذلك فقال : «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى .. (3)».

وقد فسّر رسول الله صلي الله عليه وآله المراد من مودّته حيث قال : ((إني تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلي الأرض وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتّي يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)) (4).

ص : 15

1- سورة النجم (53) : الآية 8 .

2- سورة الانعام (6) : الآية 38 .

3- سورة الشوري (42) : الآية 23 .

4- بحار الأنوار : ج 37 ص 180 ح 66. وقد ذكر العائمة في كتبهم الحديث بكثرة ، فممن ذكره هم : مسند أحمد: ج 5 ص 182 - 181 ، صحيح مسلم: ج 2 ص 238 - 237 ، صحيح الترمذي: ج 5 ص 663 رقم 3788 ، الطبقات الكبرى: ج 1 ص 194 ، المطالب العالية: ح 1873 ، الخصائص الكبرى: ج 2 ص 266 ، فراند السمطين: ج 2 ص 268 ، منتهي الأرب: ج 1 ص 143 مادة (ثقل) ، حلية الأولياء لأبي نعيم: ج 1 ص 355 ، المناقب للخوارزمي: ص 93 ، تاريخ ابن عساكر: ج 2 من ترجمة الإمام علي (عليه السلام) ، تاريخ ابن كثير: ج 5 ص 208 ، أسد الغابة: ج 3 ص 147 ، مطالب السؤول: ص 8 .

فإنّ مثل هذا الحديث المشهور الذي يسمّى بحديث ((الثقلين)) روته كتب العامّة والخاصّة ، وهو يؤكّد علي وجود القرآن الناطق إلي جانب القرآن الصامت وكلاهما ضروريان لأنّهما ((لن يفترقا)) وأي افتراق بينهما يعني ضياع الأُمَّة ..

فالقرآن بدون أهل البيت عليهم السلام لا يمكن لأحد أن يبلغ علمه وحكمته وأحكامه مهما بلغ من العلم والذكاء ..

وكذا الحال بالنسبة لأهل البيت عليهم السلام فإذا لم تسمح لهم الأُمَّة في تطبيق القرآن علي أرض الواقع ، ولم تهتد بهداهم في الأحكام والتشريعات فإنّه لا فائدة مرجوة في هذه الأُمَّة ..

ولا شكّ ولا ريب أنّ في كلا الحالتين ضياع للأُمَّة ، ولكن إذا اقترن القرآن الصامت بالقرآن الناطق وأخذت الأُمَّة بحجزتهم وسارت علي نهجهم وتمسّكت بحبلهم وعروتهم الوثقي فإنّها ستنموا وتزكوا ويبارك لها الله في كلّ شيء ..

فأهل البيت عليهم السلام لا يقاس بهم أحد في هذه الأُمَّة أبداً لا من الماضين ولا القادمين إلي قيام يوم الدين ، وإلي ذلك يشير الإمام علي(عليه السلام) في إحدى خطبه حيث وصفهم بقوله :

((هم موضع سرّه - للرسول صلي الله عليه وآله - ولجأ أمره ، وعيبة علمه ، وموئل حكمه ، وكهوف كتبه ، وجبال دينه ، بهم أقام انحناء ظهره ، وأذهب ارتعاد فرائضه ..

لا يقاس بآل محمّد صلي الله عليه وآله من هذه الأمة أحد، ولا يسوي بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً .. هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص، حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة ..(1)

وقال (عليه السلام) في موضع آخر: ((نحن شجرة النبوّة، ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينايع الحكم، ناصرنا ومحبتنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة ..)(2)

نعم، إنّ أهل البيت عليهم السلام هم الراسخون في العلم دون غيرهم، ولذا قال أمير المؤمنين (عليه السلام): ((أين الذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرّمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطي الهدى، ويستجلي العمى، إنّ الأئمّة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم؛ لا تصلح علي سواهم، ولا تصلح الولاية من غيرهم))(3)

وقال (عليه السلام): ((هم عيش العلم، وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقتهم، لا يخالفون الحقّ ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحقّ إلي نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن مثبته، عقلوا الدين عقل عناية ورعاية، لا عقل سماع ورواية، فإنّ رواة العلم كثير، ورعاته قليل ..)(4)

ص: 17

- 1- نهج البلاغة: خ 2 يصف فيها آل النبي عليهم السلام.
- 2- نهج البلاغة: خ 109 في أهل البيت عليهم السلام.
- 3- نهج البلاغة: خ 144 في أئمّة الدين عليهم السلام.
- 4- نهج البلاغة: خ 239 يذكر فيها آل محمد عليهم السلام.

وبالرغم من ذلك كله إلا أننا نجد أنّ الأئمة الأطهار عليهم السلام قد حثّوا الأمة علي ضرورة القراءة الواعية للقرآن ، وحفظه ودراسته ومحاولة تفسيره ولو بما يتيسر بقدر المستطاع ، فقد قال الإمام علي(عليه السلام) : ((تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص ، وإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله ، بل الحجّة عليه أعظم ، والحسرة له ألزم ، وهو عند الله أوم ..))⁽¹⁾.

وقال الإمام علي بن الحسين(عليه السلام) : ((آيات القرآن خزائن ، فكلّمنا فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها ..))⁽²⁾.

وقال الإمام علي(عليه السلام) : ((تدبروا آيات القرآن واعتبروا به ، فإنه أبلغ العبر ..))⁽³⁾.

وقد ورد عن الإمام الصادق(عليه السلام) في دعائه قبل قراءة القرآن : ((اللهم إني نشرت عهدك وكتابك ، اللهم فاجعل نظري فيه عبادة وقراءتي تفكراً ، وفكري اعتباراً ، واجعلني ممن أتعظ ببيان مواعظك فيه ، وأجتنب معاصيك ، ولا تطع عند قراءتي كتابك علي قلبي ولا علي سمعي ، ولا- تجعل علي بصري غشاوة ، ولا تجعل قراءتي قراءة لا تدبر فيها ، بل اجعلني أتدبر آياته وأحكامه ، آخذاً بشرائع دينك ، ولا تجعل نظري فيه غفلة ولا قراءتي هزيمة إنك أنت الرؤوف الرحيم))⁽⁴⁾.

ص: 18

1- نهج البلاغة : خ 110 في أركان الإسلام .

2- الكافي : ج 2 ص 609 ح 2 .

3- نهج البلاغة : ق 1985 في التدبير في القرآن .

4- إقبال الأعمال : ص 110 .

التدبر ضرورة حيوية

ولا يخفي أنّ التدبر في القرآن الكريم هو ضرورة دعت إليها الآيات المباركة في القرآن الكريم ذاته ، وقد وردت هذه المفردة في القرآن أربع مرّات وذلك بلفظتين هما ((يدبروا)) و ((يتدبرون)) ، والآيات هي :

1 - «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا(1)».

2 - «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(2)».

3 - «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ(3)».

4 - «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ(4)».

والتدبر يعني التبع الدقيق المتواصل لآيات القرآن الكريم ، مع عقد العزم علي تنفيذ الأوامر الإلهية بدقة وهي فعل الواجبات ، وترك المحرّمات ، والتقرب بالمستحبات والمندوبات ، واجتناب مواطن التّهم والشبهات .

ولسائل أن يسأل : لماذا يدعو الله تعالى إلي التدبر في القرآن الكريم ؟

والجواب عليه : أنّ التدبر في القرآن الكريم ضرورة حياتية وحضارية ملحة ، وذلك لعدّة أسباب نذكر بعضها علي سبيل المثال لا الحصر :

1 - إنّ التدبر في القرآن ضرورة لفقه الدين الإسلامي ككل .

2 - إنّ التدبر في القرآن واجب لفقه السنّة النبويّة المطهّرة .

ص: 19

1- سورة النساء (4) : الآية 82 .

2- سورة محمد (47) : الآية 24 .

3- سورة المؤمنون (23) : الآية 68 .

4- سورة ص (38) : الآية 29 .

3 - إن التدبّر ضروري لفهم الحياة ، فقد قال تعالى : «اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..(1)».

4 - إن التدبّر ضروري لبناء الشخصية الإسلامية والإنسانية المتكاملة .

5 - إن التدبّر ضروري لبناء المجتمع المثالي ، الذي ينعلم فيه التسلّط والقهر والظلم والاستغلال . وينتشر فيه العدل والحرية والمساواة بكلّ معانيها ومبانيها .

وبالتالي فإنّ للتدبّر في كتاب الله دوراً هاماً ، فعلينا جميعاً أن ندرس القرآن ونتدبّر آياته المباركة ، وندعوا الناس جميعاً لقراءته ودراسته بدقّة وإمعان ، علي مختلف ألوانهم وأشكالهم ومختلف صنوفهم واختصاصاتهم .

فإنّ كلاً من الناس يأخذ بقدر ما يفيدّه ويسدّده ويرشده إلي خير وسيلة وطريق في الدارين ، ففي الدنيا يكون مسروراً سعيداً ، وفي الآخرة يكون في الجنّات ورضاً الرحمن .

المسلمون والقرآن

ومن هذا المنطلق أخذ المسلمون ومنذ بداية نزول القرآن يهتمون بالقرآن سواء عبر القراءة أو الحفظ أو الدراسة أو التفسير أو غيرها .

وقد فهم العرب الأوائل القرآن الكريم لأنّه نزل بلغتهم وقد أخذ الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله يوضّح بعض مبهمات اللغوية والفقهيّة وما شابه ذلك ، ومن جانب آخر أخذ الرسول صلي الله عليه وآله يعلم الإمام عليّاً(عليه السلام) كلّ ما تحتاجه الأمة من العلوم كتفسير القرآن وتأويله ومحكمه ومتشابهه وظواهره وبواطنه ولم يدع شيئاً من كلّ ذلك إلّا

ص: 20

فقد قال الإمام علي (عليه السلام) في هذا الصدد وهو يخاطب طلحة بن محمد ((ياطلحة : إنّ كلّ آية أنزلها الله تعالى علي محمد صلي الله عليه وآله عندي بإملاء رسول الله صلي الله عليه وآله وخطّ يدي ، وتأويل كلّ آية أنزلها الله تعالى علي محمد صلي الله عليه وآله وكلّ حلال أو حرام ، أو حدّ أو حكم ، أو شيء ء تحتاج إليه الأمة إلي يوم القيامة ، فهو عندي مكتوب بإملاء رسول الله صلي الله عليه وآله وخطّ يدي ، حتّي أرش الخدش ..)) (1).

وقال الإمام الباقر (عليه السلام) : ((ما ادّعي أحد من الناس أنّه جمع القرآن كلّّه كما أنزل إلّا كذّاب ، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلّا علي بن أبي طالب (عليه السلام) والأئمّة من بعده عليهم السلام)) (2).

وقال الإمام الباقر (عليه السلام) : ((ما يستطيع أحد أن يدّعي أنّ عنده جميع القرآن كلّّه ، ظاهره وباطنه ، غير الأوصياء ..)) (3).

وقد كان الصحابة والتابعون ومن أتى بعدهم آنذاك يكتبون الأحاديث وأسباب النزول أولاً ثم التوضيحات اللازمة من فقه ولغة وعلوم وما شابه ذلك ، وقد فسّموا المفسّرين إلي طبقات ، إلّا أنّ تعقيدات الحياة من جهة وابتعاد الأمة عن زمان ومكان هبوط الوحي ونزول الرسالة من جهة ثانية ، وكثرة البلدان المفتوحة واختلاط الأمم ودخولهم في دين الله أفواجاً من كل الحضارات والأعراق والثقافات أدّي إلي ضعف الفهم للقرآن الكريم ، وقلة الوعي للآيات حتّي في هذه الأيام - عصر

ص: 21

1- كتاب سليم بن قيس : ص 658 - 657 .

2- الكافي : ج 1 ص 228 ح 1 .

3- الكافي : ج 1 ص 228 ح 2 .

الحضارة والثقافة - تجد أنّ ضعف فهم المسلمين واضحاً وجلياً .

لذلك فقد كُتبت التفاسير بأنواعها المختلفة ، فكل راح يكتب من صنعته ، فالأدباء اهتموا بأدب القرآن وأدبه ، والمؤرّخون اهتموا بقصص القرآن وأحداثه المثبتة ، والفقهاء أخذوا يدرسون آيات الأحكام والمواريث والديّات ، واللغويون راحوا يعربون القرآن ويبحثون عن النكات الإعرابية ، وهكذا ولكن يبقى القول إنّ القرآن يتعالى ويرتفع في كل يوم ، فمهما كثرت التفاسير والدراسات القرآنية - وربما تجاوزت الألف كما نقل لي أحدهم - إلاّ أنّها تبقى قليلة ومتواضعة ..

بل إنّّه لا يوجد لدينا تفسير جامع يتناول القرآن من جميع الوجوه الدينية والأخلاقية والأدبية والكونية والعلمية ، لأنّ ذلك يجلّ عن تناول إنسان بمفرده ولا حتّى اللجان والمؤسسات إذ إنّّه لا يمكن للجرّة أن تسع المجرّة .. ولا يمكن للمحدود أن يستوعب الكامل والمطلق ، ولا للداني أن يصل إليّ العالوي مهما حاول السمو والارتفاع فحالّه يكون كحال حبة الرمل التي تخاطب الجبل الشاهق قائلة أنا أكبر منك ..

معني التفسير

التفسير : هو إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز ، ولا يجوز الاعتماد فيه علي الظنون ، والاستحسان ، ولا علي شيء لم يثبت أنّه حجّة من طريق العقل ، أو من طريق الشرع .

إذن : علي المفسّر أن يجري مع الآية حيث تجري ، ويكشف معناها حيث تشير ، ويوضّح دلالتها حيث تدلّ ، وعليه أن يكون حكيماً ، حين تشتمل الآية علي

الحكمة، وخلقياً حين ترشد الآية إلى الأخلاق، وفقهياً حيث تتعرض للفقه، واجتماعياً حيث تبحث في الاجتماع، وهكذا.

وعلي المفسر: أن يوضح الفن الذي يظهر في الآية، والأدب الذي يتجلى بلفظها موضحاً أهم المعارف القرآنية التي يمكن استفادتها.

وهذا بالطبع يبدو متعذراً علينا إلا أننا وانطلاقاً من ضرورة دراسة القرآن وتوضيحه وتفسيره لهذه الأجيال والأجيال القادمة قمنا باختيار موارد النداء للمؤمنين وجمع كافة الآيات التي تتعلق بذلك والبالغ عددها 89 بحثاً قرآنياً، ونستعين بالله تعالى علي ذلك.

النداء وأنواعه

هو مخاطبة شخص يا حدي أدوات النداء المعروفة في لغة العرب .. ويختلف النداء باختلاف أدواته، إلا أن العرب كانت تحبذ النداء بالكني والصفات المحببة حتى أنهم كانوا يكتنون الأطفال منذ الصغر وربما هذا ما أكدته الدين الإسلامي عبر روايات أهل البيت عليهم السلام.

وهناك نوعان من النداء في القرآن الكريم - ضمن سياق نداء المجموع - فتارةً يكون النداء ب ((يا أيها الناس ..)) وأخري ب ((يا أيها الذين آمنوا ..)) فلماذا ذلك؟

الجواب عليه إن التدقيق في مواضع النداء العام ب ((يا أيها الناس ..)) عادةً ما ينطلق من منطلق إرادة السماء في توجيه إنسانية الإنسان، أو تذكيره بعنصره الإنساني فتوجه إلى جميع البشر في قضايا تكون مفيدة لهم جميعاً وتسترعي انتباههم بنفس الوقت.

مثل القضايا العلمية التي لا يشترط الإيمان في تنفيذها ، كالنفاذ من أقطار السماوات والأرض ، فيقول عزّ من قائل : «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطْعَتَكُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ..(1)».

أو كما ذكر تعالي بمسألة الموت وما بعدها فقال : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ..(2)».

أو كما تطرّق إلي طبيعة العلاقة بين الشعوب ، فقال عزّ وجلّ : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ..(3)».

أو كما أشار إلي كيفية العلاقة بين الناس وخالقهم ، فقال : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ..(4)».

فهذه المواضيع شاملة لكلّ الناس فيتوجّه النداء إليهم جميعاً .. حيث يحرك القرآن الكريم عبر هذه الخطابات الإنسان من موقع الإنسانية فيشير في نفسه المشاعر والأحاسيس التي تؤكّد علي ارتباطه بالخالق أولاً وبالبدء والمعاد ثانياً .

أمّا مواضع النداء بالنداء الثاني ب ((يأيّها الذين آمنوا ..)) فهو توجيه خاصّ لضرورة الالتزام بالأوامر الواردة بعد النداء وغالباً ما تكون أحكاماً إلزامية أو آداباً وأخلاقاً إسلامية ..

فالنداء عند ذلك يرمي إلي تذكيرهم بأنهم مؤمنون وأنّ عليهم أن يتقيّدوا تماماً بالأوامر فيهرعون إلي تنفيذها بحذافيرها وبدقّة متناهية علماً أنّ الأوامر في مثل هذه الآيات تكون للجميع إلّا أنّ الالتزام بها يكون من خصائص المؤمنين فقط ، ولذلك

ص: 24

1- سورة الرحمن (55) : الآية 33 .

2- سورة الحجّ (22) : الآية 5 .

3- سورة الحجرات (49) : الآية 11 .

4- سورة النساء (4) : الآية 1 .

توجّه النداء لهم من هذه من جهة ..

ومن جهة أخرى يستفاد من هذا النداء عظم المحبّة والتعظيم للمؤمنين والإقبال عليها برغبة وفرح وسرور كاملين .

إذن : علينا أن نفرّق بين الندائين بين ما يرتبط بالجانب الإنساني الذي يخاطب به جميع الناس ، وبين ما يرتبط بالجانب الإيماني الذي يخاطب به المؤمنون فقط .

ولا يخفي أنّ بحثنا - في هذا الكتاب - من النوع الثاني أي أنّه مختصّ ب ((ياأيها الذين آمنوا ..)) فعلينا دائماً ملاحظة هذه النقطة الهامة .

الإيمان والمؤمن

الإيمان : هو التصديق ..

والمؤمن : هو المصدّق باللّه عزّوجلّ - وبما وعد به .

والمؤمن : هو اسم من أسماء اللّه الحسني ، ومنهم من قال : أنّ ((المؤمن)) في صفات اللّه تعالي هو أن يصدّق ما وعد به عبده من الثواب ..

وقال آخرون : هو مؤمن لأوليائه ، يؤمنهم عذابه ولا يظلمهم ..(1).

وقد وردت كلمة ((الإيمان)) ومشتقاتها بشكل كبير جداً في الكتاب الحكيم فلا تكاد تخلو منها سورة من سور القرآن المباركة ، وعلي سبيل المثال فقد ورد في القرآن لفظ :

((الإيمان)) 17 مرّة .

و((مؤمن)) 15 مرّة .

ص: 25

و ((مؤمنون)) 35 مرة .

و ((مؤمنين)) 144 مرة .

و ((آمنوا)) 258 مرة .

و ((آمن)) 33 مرة .

وقد وردت سورة كاملة باسم ((المؤمنون)) وأخري باسم ((المؤمن)) .

ولا- يخفي أنّ بحث الإيمان هو غاية في الطرافة واللطافة ، فهو ناعم رقيق لأنّه يمَسّ شغاف القلوب ويتغلغل بين حنايا الروح وينطلق من الفؤاد ويستقرّ فيه ..

ولا- ريب أنّ حقائق القرآن لا يعرفها إلا أصحاب القلوب الصافية - كالرسل والأنبياء والأوصياء - عليهم صلوات ربّي جميعاً وعباد الله الصالحين ، فعلينا أن نأخذ منهم معني الإيمان ووصف المؤمن ..

ولا- يختلف إثنان أنّ خير معين ، وأصفي قلب ، وأنقي لسان هو رسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلي الله عليه وآله ومن بعده الأئمّة الأطهار عليهم السلام ، فمنهم نأخذ عقب من أريج العترة الأحاديث النورانية الواردة في هذا المجال .

ففي رواية حمران بن أعين عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : سمعته يقول : ((الإيمان ما استقرّ في القلب وأفضي به إلي الله عزّ وجلّ وصدّقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره)) (1).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال في حديث طويل : ((إنّ الله فرض الإيمان علي جوارح ابن آدم وفسّمه عليها وفرّقه فيها ، فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكّلت من الإيمان بغير ما وكّلت به أختها - إلي أن قال - : فأما ما فرض علي القلب من الإيمان فالإقرار والمعرفة والعقد والرضا والتسليم بأن لا إله إلا الله وحده لا

ص: 26

1- الكافي : ج 1 ص 134 ح 5 .

شريك له إلهاً واحداً لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله صلي الله عليه وآله والإقرار بما جاء من عند الله من نبي أو كتاب)) (1).

وعن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((الإيمان شجرة أصلها اليقين ، وفرعها التقى)) (2).

وعن الإمام الباقر (عليه السلام) : ((الإيمان ما استقر في القلب وأفضى به إلي الله عز وجلّ وصدقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره)) (3).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) : ((لا يبلغ أحدكم الإيمان حتي يحبّ أبعد الخلق منه في الله ، ويبغض أقرب الخلق منه في الله ..)) (4).

فالإيمان إذن ليس كلاماً وحسب ، بل هو روح في القلب يبعث الإنسان نحو التسليم للحقّ ، وهو وفر في النفس يتجلّي في العمل الصالح .. إنه كلمة التقوي تتجلّي في التقيّد بحدود الله سبحانه .. وإنه الرسوخ في العلم عندما يتجلّي في التسليم النفسي للحقّ والإذعان به ..

وعن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف الإيمان :

((الإيمان علي أربع دعائم .. علي الصبر ، واليقين ، والعدل ، والجهد . والصبر منها علي أربع شعب : علي الشوق ، والإشفاق ، والزهد ، والترقب ، فمن اشتاق إلي الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار اجتنب المحرّمات ، ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات ، ومن ارتقب الموت سارع إلي الخيرات .

واليقين منها علي أربع شعب : علي تبصرة الفطنة ، وتأوّل الحكمة ، وموعظة

ص : 27

1- وسائل الشيعة : ج 15 ص 164 ح 20218 .

2- نهج البلاغة : ق 1441 في حقيقة الإيمان .

3- الكافي : ج 2 ص 26 ح 5 .

4- بحار الأنوار : ج 75 ص 252 .

العبرة، وسنة الأولين، فمن تبصّر في الفطنة تبيّنت له الحكمة، ومن تبيّنت له الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين

والعدل منها علي أربع شعب: علي غائص الفهم، وغور العلم، وزهرة الحكم، ورساخة الحلم، فمن فهم علم غور العلم، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم، ومن حلم لم يقرّط في أمره وعاش في الناس حميداً.

والجهاد منها علي أربع شعب: علي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن وشنان الفاسقين: فمن أمر بالمعروف شدّ ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين (المنافقين)، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنئ الفاسقين وغضب لله، غضب الله له وأرضاه يوم القيامة.

والكفر علي أربعة دعائم: علي التعمّق، والتنازع، والزيغ، والشقاق، فمن تعمّق لم ينب إلي الحقّ، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماء عن الحقّ، ومن زاغ ساءت عنده الحسنه، وحسنت عنه السيئة، وسكر سكر الضلالة، ومن شاقّ وعرت عليه طرقة، وأعضل عليه أمره، وضاق عليه مخرجه.

والشك علي أربع شعب: علي التماري والهول، والتردد، والإستلام فمن جعل المرء ديدناً (ديناً) لم يصبح ليله، ومن هاله ما بين يديه نكص علي عقبيه ومن تردد في الريب وطئته سنابك الشياطين، ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما (1).

فالإيمان إذن: هو عزيمة إرادة ونور مركز، يوقّق الله له عبداً صبر وأيقن وعدل وجاهد، وكلّ ذلك لا يأتي إلا بالسعي والعمل والتقوي في كل الحركات والسكنات طيلة عمر الإنسان المؤمن ..

ص: 28

1- نهج البلاغة: ق 31.

وكما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لدي وصفه للإيمان : ((سبيل أبلج المنهاج ، أنور السراج ، به يستدلّ علي الصالحات ، وبالصالحات يستدلّ علي الإيمان ، وبالإيمان يعمر العلم ، وبالعلم يرهب الموت ، وبالموت تختم الدنيا ، وبالدينا تحرز الآخرة ، وبالقيامة تزلف الجنة للمتقين ، وتبرز الجحيم للغاوين ، وإنّ الخلق لا مقصّر لهم عن القيامة مرقلين في مضمارها إلي الغاية القصوي)) (1).

المؤمن كما وصفه أهل البيت عليهم السلام

فإذا كان هذا هو الإيمان فمن هو المؤمن .. ؟

الجواب : إنّ المؤمن هو من يتّصف بجميع صفات الإيمان ، ويتنوّر بأنواره الرحمانية وربما تحوّل المؤمن إلي كتلة نور تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض وهذا ما نصّ عليه الإمام الصادق (عليه السلام) لمّا سئل عن أهل السماء هل يرون أهل الأرض ؟

فقال (عليه السلام) : ((لا يرون إلاّ المؤمنين .. لأنّ المؤمن من نور ، كنور الكواكب

قيل : فهم يرون أهل الأرض ؟ قال (عليه السلام) : لا ، يرون نوره حيثما توجه)) (2).

وفي حديث آخر قيل للإمام الصادق (عليه السلام) لِمَ سَمِّي المؤمن مؤمناً ؟

فقال (عليه السلام) : ((لأنّه اشتقّ للمؤمن إسماً من أسمائه - تعالي - فسمّاه مؤمناً ، وإتّما سَمِّي المؤمن لأنه يؤمن من عذاب الله - تعالي - ويؤمن علي الله يوم القيامة فيجيز له ذلك .. ولو أكل أو شرب أو قام أو قعد ، أو نام أو نكح أو مرّ بموضع قدر ، حوّلّه الله

ص: 29

1- نهج البلاغة : خ156 في وصفه للإيمان .

2- البحار ج64 ص63 ح6 .

من سبع أرضين طهراً ، لا يصل إليه من قدرها شيء ..»(1).

وعن أمير المؤمنين(عليه السلام) : ((إنّ المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكن أتاه عن ربّه وأخذ به .. إنّ المؤمن يرى يقينه في عمله ، والكافر يرى إنكاره في عمله ..))(2).

ونحن إذ نعبر عن الإيمان بالنور ، لعدّة أمور ، منها : إنّ مختلف من حيث القوّة والضعف ومن شخص إلي آخر ، فمن الأنوار ، ما يكون كالشمعة ومنها ما يكون كالشمس كما هو معروف وموصوف ..

قد أفلح المؤمنون

أمّا صفات المؤمنين فإننا نقتبسها من كتاب الله - تعالي - فإنّه أجمل الحديث ، وأصدق القول ، فهو يقول في أول سورة المؤمنون المباركة :

«قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(3)».

ويقول تعالي في ختام سورة الفرقان المباركة : «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ

ص: 30

1- مستدرک الوسائل : ج2 ص612 ح 2881 .

2- نهج البلاغة : الكلمات ق 125 .

3- سورة المؤمنون (23) : الآية 11 - 1 .

عَلَى الْأَرْضِ هُونَاً وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً * وَالَّذِينَ لَا يَشَاءُ هُدُوءَ الزُّورِ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً(1)».

ثم إنَّ لله سبحانه نورين : نور يتجلَّى في كتابه ، ونور يفيضه علي قلوب عباده الصالحين ، فالقرآن الكريم نور الله المنبسط في الكلمات ، .. وقلب المؤمن يعمر بنور اليقين الذي يفيض مباشرة من عند الله عليه .

وحين يلتقي النوران يتكامل العرفان وهناك يشهد المؤمن حقائق الحق ، كما لو أنها لؤلؤة شفافة فوق كفه يقلبها كيف يشاء .

فعندما ينظر المؤمن بنور الله المكنون في آيات الذكر ، فإنَّ حدود المعرفة تصبح مترامية وانبعاثاً من نقطة مركزه هي معرفة الله بالوحدانية وانتهاءً بكل ذرّة في هذا العالم الفسيح يتشكّل عرفان المؤمن شلالاً متدفقاً من نور العلم ..

ص: 31

ولكي يوفر المؤمن في ذاته وسائل الاتصال بضيء القرآن فإن عليه التذكّر بالبصائر التالية :

أولاً: أن يجشم نفسه عناءً ليرتقي إلى درجة الانتفاع بالقرآن لا أن يتمني هبوط كتاب الله (حاشا لله) إلى مستواه . فإن لم تهتد بالقرآن فلا تفسدّه حسب مستوي فهمك ، ولا تضعه في حدود معارفك ، ولا تقنط من فهمه وابق في توتر الباحث وانتفاضة الطالب للحقّ حتّى يفتح الله عليك نافذة من حقائق كتابه .

ثانياً: أن يطهّر قلبه من حجاب الخوف من معرفة الحقّ والتهرّب من مسؤولياته لأنّ القلب الخائف لا يستريح إلى الحقّ ، وإنّما المسلم له أنّي كان هو الذي يفقهه ويبلغ نوره .

ثالثاً: التسليم للحقّ الذي يعتبره الإنسان سلّم إلى معرفة الحقّ الذي يجهله ولذلك فإنّ الاجتهاد في تنفيذ وصايا القرآن وسيلة لمعرفة المزيد من حقائقه .

رابعاً: أن يفرغ قلبه حين قراءة القرآن من أيّة فكرة أو وسوسة أن يوجّهه إلى نور الكتاب مباشرةً ، ومن يفعل ذلك فسوف يجد من فيضه موجات متلاحقة .

ومن هذا المنطلق جاءت محاولتنا هذه لفهم خطاب القرآن واستيحاء توجيهاته للذين آمنوا به والتزموا بنهجه وسلكوا طريقه الأقوم وقد كانت مجموعة من المحاضرات والمجالس أُلقيت علي المنبر الحسيني الشريف ثم رأيت من المناسب أن أجمعها في كتاب لتكون لنا ذخراً وللمؤمنين هدياً ونوراً وقد سمّيته (تحفة البيان).

وقد سعت لأن تكون فصول الكتاب ومضامينه مستندة إلى ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من معاني وتفسيرات لذا حاولت أن تكون الرواية طريقي إلى فهم المعني وتفسير الآيات لا العكس .

وهنا أودّ أن ألفت نظر الفاري الكريم إلي أنّ هناك بعض الأحاديث الشريفة التي تصرّح بنزول بعض الآيات الكريمة في شأن أهل البيت عليهم السلام ولكنك حينما تراجع القرآن الكريم تجد أنّ هذه الآية مذكورة في سورة مكيّة مع العلم بأنّ الحديث يصرّح بأنّها نزلت في المدينة المنوّرة .

وقد اغتنم أعداء أهل البيت هذه النقطة لتكذيب هذا الحديث وردّه قائلين بأنّ هذه الآية مكيّة والقضيّة إنّما حدثت في المدينة ..

والسؤال الآن : ماذا يجب علينا في مثل هذه الحالة ؟

الجواب : أولاً : أنّ الكثير من السُور فيها آيات مدنية أيضاً وإنّما أخذ بالاعتبار الإطار العام الغالب للسورة .

ثانياً : أنّ تقسيم السور إلي مكيّة ومدنية لم يرد في نصّ شرعي ، وإنّما ذكر اعتماداً علي بعض الأقوال . وفي هذه الحالة فإذا تعارض الحديث الشريف مع تلك الأقوال أخذ بالحديث الشريف بلا تردّد .

مثلاً : وردت أحاديث متعدّدة تصرّح بأنّ قوله تعالى : «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ» قد نزل بعد واقعة الغدير في المدينة المنوّرة بينما تذكر التفاسير أنّ السورة مكيّة .. ففي هذه الحالة يجب العمل بالوجه الأوّل وهو أنّ بعض السورة مدنيّة والغالب فيها مكيّة فأخذت بالغالب . أو بالوجه الثاني وهو صرف النظر عمّا هو المذكور والعمل علي ما نصّ عليه الحديث الشريف .

والعجيب أنّ بعض المفسّرين من الشيعة غفلوا عن هذا المعني ، فهم في الوقت الذي يصرّحون بأنّ الآية نزلت في المدينة في شأن أهل البيت عليهم السلام تراهم يذكرون أنّ السورة مكيّة ولا يستثنون .

وبعد هذا نقول : إنّ القول الفصل في تحديد السُور - بين مكيّة ومدنية - يجب

أن يكون علي ضوء أحاديث أهل البيت عليهم السلام لأنهم عدل القرآن وقد نزل القرآن في بيوتهم (وأهل البيت أدري بما في البيت).

وليس بعيداً أن تكون هناك أيدي أموية أو عباسية خفية وراء هذه الأمور ، وقد لعبت دورها في هذا المجال لتضعيف الآيات النازلة في شأن أهل البيت عليهم السلام كما فعلت ذلك في الأحاديث الشريفة .

وفي ختام المطاف أسأل الله تعالى أن يوفقنا لنور الإيمان ، وللعمل بالأركان ، ولتلاوة القرآن وحفظه والتدبر فيه .. وأتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل إلي أساتذتي الذين لهم عليّ حقّ التعليم والتربية وحيث لا تفي كلماتي بأداء ما عليّ من الحقوق العظيمة أتضرّع إلي المولي القدير أن يجزيهم خير جزاء المحسنين كما وأتقدم بشكري وامتناني إلي فضيلة أخينا الفاضل الشيخ جاسم الأديب حيث أزرني في إخراج هذا الكتاب وأسأل الله سبحانه له مزيد التوفيق والتسديد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

الشيخ علي حيدر المؤيد

1424

ص: 34

(1) - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا زَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(سورة البقرة : 104)

في رحاب المفردات

لا- يخفي علي المطلع المحقق أنّ للمفردات وقعاً خاصاً في إيصال المطالب وتوضيح المعني المراد إيجاده علي مسرح الخارج ، فكلمة كانت مفردات الكلام متناسقة ومنظمة فيما بينها كلما كان المعني المراد إيجاده أكثر وضوحاً وأرسخ ثبوتاً في الأذهان والنفوس .

فنحن اليوم علي سبيل المثال بعد مضي مئات الأعوام من صدور بعض الكلمات لقدماء العرب تجدنا نذكر متانة هذه الكلمات ومدى بلاغتها وفصاحتها وهذا إنّما يدلّ علي شدة إنسجام المفردات ومدى تناسقها بحيث إنّ معناها المتوخّي بقي يواكب مسير الزمن ويراود أذهان الشعوب طيلة هذه الأعوام .

وهنا تتجلّي عظمة القرآن الكريم ... ذلك الكتاب البليغ الذي تحدّي فصحاء العرب وأدبائهم علي ما كانوا عليه من الأدب الرفيع والفصاحة العجيبة فجعلهم يرضخون للأمر الواقع ويقرون بالحقيقة المرّة وهي أنّ القرآن الحكيم ذهب ببلاغتهم وأدبهم أدراج الرياح .

ففي أكثر من مرة يصرح القرآن الحكيم بتحدّيه للمشركين وغيرهم علي أن يأتوا بسورة مثله تفوق أو تماثل بلاغة القرآن وفصاحته ، ففي الآية المباركة : «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَي عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ (1)» «قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَمَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ (2)» «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ (3)» «قُلْ لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَي أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (4)».

حقاً إنّ من معجزات القرآن المسلّمة عند الجميع هي بلاغته وفصاحته وأدبه الربّاني الذي جعل الأدباء والبلغاء يتيهون في بحر عظّمته اللامتناهية ، فياتري من أين هذا الإعجاز ؟

الجواب علي هذا السؤال مائل في عدّة أمور ولكن الجواب الذي يخدم البحث هنا هو أنّ المفردات المستخدمة في آيات القرآن تعجز البشرية عن الإتيان بمثلها أو حتّي التفكير بمفردات شبيهة لها .

فكلّ مفردة يستخدمها القرآن الحكيم لها امتدادات وآفاق بعيدة المدى لا يمكن للأشخاص العاديين أن يحيطوا بأبعادها المترامية .

من هذا المنطلق المهم فقد وجدنا من اللازم أن تكون لنا وقفات عابرة مع مفردات القرآن علنا نوفق لإيضاح بعض النكات الدقيقة المودعة في طيّات هذه المفردات القرآنية ، وأول مفردة تستوقفنا في هذه الآية الشريفة هي كلمة (راعنا) .

فراعنا من المراعاة وهو التفقّد للشّيء في نفسه أو في أحواله ، وتقيضه الإثقال ، فنحن نقول مثلاً رعي اللّهُ فلاناً أي حفظه . وقد قال شيخ المفسّرين الطبرسي في

ص: 36

- 1- سورة البقرة (2) : الآية 23 .
- 2- سورة يونس (10) : الآية 38 .
- 3- سورة هود (11) : الآية 13 .
- 4- سورة الاسراء (17) : الآية 38 .

ذلك : المراعاة والمحافظة والمراقبة نظائر وعكسها الاغفال .

وهنا يحقّ للنفس الإنسانية أن تثير استفسارها عبر طرحها للسؤال التالي قائلة : لماذا هذا النهي الشديد اللهجة للمؤمنين في الآية .

إذن - وكما يبدو - هناك أسباب خفية وراء هذا النهي أشارت إليها كتب القدماء عبر الروايات الشريفة المنقولة عن أئمة الهدى ومصايح الدجي الذين نصّ رسول الإنسانية علي أتباعهم وجعلهم عدلاً للقرآن حيث قال : ((إني تارك فيكم الثقلين))⁽¹⁾.

فقد روي عن الإمام الحسن العسكري(عليه السلام) عن جدّه الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) أنّ راعنا(من ألقاظ المسلمين الذين يخاطبون رسول الله صلي الله عليه وآله فيقولون راعنا : أي ارع أحوالنا واسمع منا كما نسمع منك ..

وقيل إنّها راعنا(كانت في لغة اليهود بمعنى)اسمع لا سمعت(ولما سمعت اليهود المسلمين يخاطبون الرسول صلي الله عليه وآله ويقولون له : راعنا قالوا : كنّا نشتم محمّداً سرّاً فتعالوا الآن نشتمه جهراً فكانوا يخاطبون الرسول صلي الله عليه وآله ويقولون : راعنا ويريدون شتمه ، ففطن لهم سعد بن معاذ ومنهم من قال سعد بن عبادة الأنصاري ، فقال : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، أراكم تريدون سبّ رسول الله صلي الله عليه وآله وتوهمونا أنّكم تجرون في مخاطبة ، والله لا أسمعها من أحد منكم إلّا ضربت عنقه⁽²⁾.

ومنهم من قال : أنّها مأخوذة من الرعونة .. أو من الرعية ، أي رعاية الغنم والإبل .. وربما هذه أو غيرها ؛ إلّا أنّ القاسم المشترك بين هذه المعاني ، أنّها كلمة بلغة العرب لا تتصرّف إلي ما يؤذي النبي صلي الله عليه وآله بل الذي حوّرها هم اليهود حيث اتّخذوها كوسيلة من أجل السباب والشتم والانتقاص من شخص الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله أو

ص: 37

1- مسند أحمد : ج5 ص182 - 181 .

2- راجع تفسير كنز الدقائق : ج2 ص113 - 112 .

وليت شعري فإنّها ليست بأول فريفة يفترها اليهود علي نبي الإسلام صلي الله عليه وآله ، فهم منذ أن صدع الرسول صلي الله عليه وآله بالدعوة والرسالة أخذوا ينتقصون منه ومن دعوته وحتى اليوم ، وليس هذا بعجيب علي سيرتهم ، إذ أنّ هذا هو دينهم ودأبهم مع سائر أنبيائهم ..

وحتى لا يكون الكلام مجرد ادّعاءات خاوية عن الواقع إليك عزيزي القارئ الحادثة التالية :

فقد نقل الطبرسي في مجمع البيان عند تفسيره للآية الشريفة «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ(1)» فقال : ذلك أنّ اليهود كانوا يأتون النبي صلي الله عليه وآله فيقولون : السام عليك . والسام : الموت . وهم يوهمونهم أنّهم يقولون : السلام عليك . وكان النبي صلي الله عليه وآله يردّ علي من قال ذلك ، فيقول : وعليك . وقال الحسن : كان اليهودي يقول السام عليك أي : إنكم ستسأمون دينكم هذا وتملونه فتدعونه . ومنهم من قال السام : هو الموت ، فهو سام الحياة بذهابها(2).

ثانياً : انظرنا ، النظر هو الانتظار ، ويقال نظرت فلاناً : أي انتظرته .. ومنه قوله تعالي «(وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَيَّ رِبَّهَا نَاطِرَةٌ(3)» أي أنّها منتظرة للرحمة الربانية ومتحيّنة للطف الإلهي الآخذ بهم إلي الجنة .

إذن - وكما يستفاد من الآية - أنّها تحث المؤمنين أن يطلبوا من الرسول صلي الله عليه وآله الامهال والتؤدة في تبليغ الأحكام وذلك بلفظ (انظرنا) يارسول الله وأمهلنا واصبر علينا ريثما نتعلّم منك الآيات والأحكام ولا تستعجلنا في ذلك لأنّ ذلك ربما يضيّع منا

ص: 38

1- سورة المجادلة (58) : الآية 8 .

2- مجمع البيان : ج 8 مج 9 ص 415 .

3- سورة القيامة (75) : الآية 22 .

الكثير منها .

هذا مع ملاحظة الأمر في الآية الشريفة حيث تقول (واسمعوا) فهذه الكلمة هي فعل أمر للمؤمنين يفيد التقيّد التام بهذا التوجيه الصارم ، والسؤال الذي يطرح هنا هو : أنّ الذي لا يسمع هذا الأمر الإلهي ما هو مصيره ؟ الجواب علي ذلك من نصّ الآية الشريفة حيث قالت : «وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» إذن ، فالذي لا يسمع ما تملي عليه آيات الذكر الحكيم يكون كالكافر الذي له عذاب أليم .

من جانب آخر إنّنا نجد في كلمة (اسمعوا) توجيهاً أخلاقياً رائعاً من قبل الباري تعالي .. لأنّ حسن الاستماع سجيّة أخلاقية طيبة تعبّر عن أدب المستمع قبال المتكلّم وقد أشار أمير المؤمنين (عليه السلام) إلي ذلك قائلاً : ((عوّد أذنك حسن الاستماع ..))⁽¹⁾.

وقال (عليه السلام) : ((من أحسن الاستماع تعجّل الانتفاع ..))⁽²⁾.

وهذا فضلاً عن القاعدة الأخلاقية القائلة : إنّ من يجيد الاستماع ، يجيد الحوار واللقاء دائماً وأبداً .

شأن النزول

اختلفت آراء المفسّرين العظام في شأن نزول هذه الآية المباركة ، فقد ذهب شيخ الإسلام الطبرسي إلي أنّ السبب الرئيسي لنزول الآية هو أنّ المسلمين كانوا يقولون : يارسول الله ! راعنا ، أي استمع منا ، فحرّفت اليهود هذه اللفظة ، فقالوا : يامحمّد ! راعنا ، وهم يلحدون إلي الرعونة ، ويريدون به النقيصة والوقية . ولمّا

ص: 39

1- نهج البلاغة : ق 4211 في المفترقات .

2- نهج البلاغة : ق 672 في الحواس الظاهرة .

عوتبوا قالوا : نقول كما يقول المسلمون ، فنهي الله عن ذلك بقوله «لَا تَقُولُوا رَاعِنَا» وَقُولُوا انظُرْنَا(1)».

وقال عطا : (راعنا) هي كلمة كانت الأنصار تقولها في الجاهلية ، فنهوا عنها في الإسلام .

أما السدي فقد قال : كان ذلك (راعنا) كلام يهودي بعينه ، يقال له رفاعة بن زيد ، يريد بذلك الرعونة ، فنهي المسلمون عن ذلك .

وقال قتادة : إنَّها (راعنا) كلمة كانت تقولها اليهود علي وجه الاستهزاء(2). ونحن حتّي نصل إلي المعني الحقيقي والعلّة الرئيسية لنزول هذه الآية الشريفة لابدّ لنا من أن نوّلي شطر وجوهنا نحو أبواب العلم والهداية الذين جعلهم رسول الإنسانية صلي الله عليه وآله عدلاً للقرآن حيث قال عنهم : ((إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً ، وهما لن يفترقا حتّي يردا عليّ الحوض)) (3).

فهذا الإمام الباقر (عليه السلام) راح يبدّد سحب الابهام حول شأن نزول الآية بيانه العذب الناطق عن لسان السماء حيث قال (عليه السلام) ما مضمونه : إنّه كانت لليهود كلمة يتسأّبون بها وهي عبرانية ألا وهي (راعنا) ، ولما سمعوا بقول المؤمنين لرسول الله صلي الله عليه وآله (راعنا) افترضوه وخاطبوه بها وهم يعنون بها تلك المسبّة ، فنهي المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناها وهو انظرونا بمعني انظر إلينا وانتظرونا من نظره إذا انتظره(4).

ص: 40

1- سورة البقرة (2) : الآية 104 .

2- مجمع البيان : ج 1 مج 1 ص 336 - 335 .

3- مسند أحمد : ج 5 ص 182 - 181 .

4- تفسير كنز الدقائق : ج 2 ص 113 - 112 .

بعد هذا المشوار الشيق الذي قضيناه في رحاب المفردات وشأن النزول يأتي سؤال لا بدّ من طرحه والتأمل في أبعاده العميقة ألا وهو : ما الذي نستفيده من الآية الكريمة في زماننا الراهن ؟

الجواب علي هذا السؤال أنّ الآية غنيّة بالعبر والمواعظ ولكن لمن يجشم نفسه عناءً ويشحذ عقله من الرواسب الفكرية المقيّدة للعقل البشري ، فنحن إذا تخلّصنا من جميع القيود الفكرية وتأملنا في أبعاد هذه الآية نجدها حلي بالدروس المفيدة التي منها :

(1) أنّ الكلام يجب أن يكون بحجم ومستوي المتلقّي لا المتكلّم وهذا ما يتجلّي في الحديث المشهور الوارد عن الرسول صلي الله عليه وآله وهو : ((أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلّم الناس علي قدر عقولهم))⁽¹⁾.

فالحديث الشريف يؤكّد لنا القضية الواردة في الآية ، وهي أنّ درجات الناس متفاوتة ولذلك كانوا يمهلون الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله لكي يستفيدوا جميعاً منه صلي الله عليه وآله فكانوا يطلبون منه الإعادة أكثر من مرّة ومن قبل أكثر من شخص .

بالطبع هذا الأمر غير مقتصر علي الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله بل حتّي مع سائر أهل البيت عليهم السلام الذين كانوا يرافون بحال السائلين ويجيبونهم علي قدر طاقتهم ، فعن الإمام العسكري(عليه السلام) أنّه قال : ((حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام فقالت : إنّ لي والدّة ضعيفة وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء ، وقد بعثتني إليك أسألك ، فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك ، فثنت فأجابتها ، ثمّ ثلثت إلي أن عشرت

ص: 41

فأجابت ، ثم خجلت من الكثرة فقالت : لا أشق عليك يا ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالت فاطمة : هاتي وسلي عمّا بدا لك ، أرأيت من اكتري يوماً يصعد إلي سطح بحمل ثقيل وكراه مائة ألف دينار يثقل عليه ؟ فقالت : لا ، فقالت : اكتريت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الشري إلي العرش لؤلؤاً فأحري أن لا يثقل عليّ)) (1).

إذن إذا كان هذا حال الزهراء عليها السلام مع الجارية ، فالنبي صلى الله عليه وآله أولى وأجدر بذلك لأنه رحمة للعالمين كافة . فالرسول صلى الله عليه وآله كان يخاطب من حوله بهذا المستوي وهذه الكيفية من أجلهم لا من أجله ، ورحمة ورافة بهم لأنه كان بالمؤمنين رؤوف رحيم .

(2) علينا أن نسدّ الأبواب كلّها في وجه الريح العاتية المؤذية ، ونفتحها علي مصراعيها قبال نسيمات الصبا الصباحية العليّة .. لأنّ الأولي تخرب وتضرّ ، والثانية تشفي وتسرّ . فاللغة العربية من أجمل اللغات في العالم وأغناها في الجمل والمفردات المتقاربة المعاني ، فاستبدال كلمة مكان أخرى ليس بالأمر الجديد عليها إلا أنّ الكلمة - راعنا - كانت باباً يرد منه السباب والشتائم من المناوئين ، فإذا أصبحت هذه الكلمة كوسيلة ناجعة للمناققين بحيث تكون لهم مغزاً علي أعظم شخصية في الوجود كشخصية النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ورسالة الإسلام الخالدة .. عند ذلك يكون علينا استبدالها جباً لكل المشاكل الناجمة عنها .. وكلّ ذلك حتي لا نتيح للمناوئين الفرصة في النيل منّا ومن رموزنا المقدّسة ، فالعدوّ يتحين الفرص السانحة والأوقات الملائمة لبثّ تلك السموم .. كما فعل (سعد بن معاذ) الذي انتبه إلي معني هذه الكلمة عند اليهود فحدّر منهم وأنذرهم إن سمعها من أحدهم ، وبذلك قطع ألسنتهم الخبيثة . فحتّي لا تبقي هذه الكلمة مغزاً أتّي الأمر الإلهي باستبدالها بغيرها مثل قوله (انظرنا) التي تقيّد نفس معناها المطلوب دون أي طعن أو غمز .

ص: 42

فعلينا - إذن - أن لا نفسح المجال في استغلال كلمة في غير مدلولها الذي نؤمن به ، سواء أكان المعني المضاد مرتبطاً بها من خلال لغة أخرى أو العرف والتقاليد أو غير ذلك ، فما أكثر الكلمات في عصرنا الراهن التي استوردت من الأعداء علي عللها فقط لأن الآخرين استخدموها ولا ندرى أن المعني الذي نألفه ونؤمن به لهذه الكلمات يختلف تماماً عما يقصده الواصفون لها .

فمثلاً كلمة (الديمقراطية) و (الاشتراكية) و (الأصولية) وغيرها كثير ، فهم يفهمون منها شيئاً ونحن نؤمن بشيء ء وكلانا يستخدم نفس اللفظ والكلمة ، فنحن نعتقد بالانضباط التام بأوامر الباري وعبادته ، وهم يرون التحرر الكامل من كل القيود والعهود الأخلاقية والدينية ... وهكذا .

فعلينا معرفة المعاني الحقيقية للكلام قبل أن نوجهه وإذا رأينا الاختلاط في المعاني المبهمة لها ينبغي أن نوصحها أو نستبدلها بغيرها حتي لا يساء فهمنا أو تتاح الفرصة لعدونا في الإساءة من خلالها إلي معتقداتنا . ولعلّ الحادثة التالية تؤكّد ذلك ، فعن الأصبع بن نباتة قال : سألت ابن الكوّ أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن قوس قزح ، قال : ((ثكلتك أمك يا ابن الكوّ لا تقل قوس قزح فإنّ قزح اسم الشيطان ولكن قل قوس الله ، إذا بدت يبدو الخصب والريف)) (1).

وعن هشام بن سالم عن سعد عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : كنّا عنده ثمانية رجال فذكرنا رمضان فقال : ((لا تقولوا هذا رمضان ، ولا ذهب رمضان ، ولا جاء رمضان ، فإنّ رمضان اسم من أسماء الله لا يجي ء ولا يذهب ، وإثما يجي ء ويذهب الزائل ولكن قولوا : شهر رمضان فالشهر المضاف إلي الاسم ، والاسم اسم الله وهو

ص: 43

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) لما سمع الخوارج يقولون (لا حكم إلا لله) : كلمة حق يراد بها باطل ! نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا لله ، وإنه لا بد للناس من أمير برّاً أو فاجر يعمل في أمرته المؤمن(2).

(3) إنَّ الجزء في الدار الآخرة هو من سنخ العمل وهذا بحث طويل وشاقّ سواء أكان علي الأقوال أم علي الأعمال ، وقد فصلَّ الحكماء والمتكلمون ، علماً أنَّ البحث فيها بهذه العجالة يحتاج إلي تفصيل ولا يمكننا استيعاب جوانبها ..

يبقي القول إنَّ الهمز واللمز يربك المؤمنين ويؤذيهم في هذه الحياة الدنيا ويؤلمهم ، فلا شك أن يكون الجزء العادل من أعدل الحاكمين مؤلماً للكافرين ، ولأنَّه - ألم الكلمة - كما هو معروف نفسي أكثر من الحسي ، فربما كان ألم الكافرين بهذا النوع من الآلام والتي تعدّ أصعب وأشنع من الآلام الحسية . «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(3)» والحمد لله وحده .

ص: 44

1- الكافي : ج 4 ص 70 - 69 ح 2 .

2- نهج البلاغة : خ 40 في الخوارج لما سمع قولهم (لا حكم إلا لله).

3- سورة الأنفال (8) : الآية 51 .

(2) - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (سورة البقرة : 153)

في رحاب المفردات

استعينوا : يقال فلانٌ عوني أي معيني ، وقد أعتته ، قال تعالى : « فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ (1) » والتعاون التظاهر ، قال تعالى : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (2) ».

وقد ذكرت الاستعانة والعون في الروايات الشريفة ، ففي رسالة الإمام الصادق (عليه السلام) إلي النجاشي قال فيها : ((ومن أعان أخاه المؤمن علي سلطان جائر ، أعانه الله علي اجازة الصراط عند زلزلة الأقدام)) (3).

وفي الحديث عن الإمام الرضا (عليه السلام) : ((عونك للضعيف من أفضل

ص: 45

1- سورة الكهف (18) : الآية 95 .

2- سورة المائدة (5) : الآية 2) مفردات الراغب : ص 366 .

3- وسائل الشيعة : ج 17 ص 210 ح 22354 .

الصدقة»(1) وقال شيخ الإسلام الطبرسي في هذه الآية : وفي الآية دلالة علي أنّ في الصلاة لطفًا للعبد ، لأنّه سبحانه أمر بالاستعانة بها ، ويؤيّد قوله سبحانه : «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ(2)».

الصبر : هو الإمساك في ضيق ، يقال صَبَرَتِ الدابة أي حبستها بلا- علف . والصبر حبس النفس علي ما يقتضيه العقل والشرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه(3).

شأن النزول

أخرج الحافظ جمال الدين محمّد بن يوسف (الحنفي) الزرندي في كتابه (نظم درر السمطين) عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((ما أنزل الله تعالي آية فيها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إِلَّا وعلي رأسها وأميرها)) (4).

وعن سليمان الفراء عن أبي الحسن (عليه السلام) في قول الله : «اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» قال الصبر الصوم إذا نزلت بالرجل الشدّة أو النازلة فليصم قال الله : «اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ(5)» الصبر الصوم(6).

ص: 46

- 1- الكافي : ج 5 ص 55 ح 2 .
- 2- سورة العنكبوت (29) : الآية 45 .
- 3- مفردات الراغب : ص 281 .
- 4- نظم درر السمطين : ص 89 .
- 5- سورة البقرة (2) : الآية 153 .
- 6- تفسير العياشي : ج 1 ص 25 ح 41 .

عبر من الآية

كتاب الله حكيم لأنه كلام أحكم الحاكمين .. وهو كتاب أحكمت آياته من لدن خبير عليم .. ومن حكمة الباري تعالي هذه الآيات التوجيهية العظيمة ، وبهذا النداء الباهر .

فالكون والخلق هم كتاب الله التكويني ، ففي كل شيء له فيه آية تدلّ على إنه الواحد ، القادر ، القاهر ، المدبّر ، الخالق ، المبدع الذي ابتدع الكون ابتداءً لا من سابق تجربة سبقته - حاشا لله - بل ابتدع الخلق بعلم وإدارة وحكمة ..

فكل شيء في هذا الوجود خلق لحكمة ، وإلي هذا المعني تشير الآية المباركة «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(1)» وقد قال الطبرسي في تفسير هذه الآية : أي خلقنا كل شيء خلقناه مقدراً بمقدار توجه الحكمة ، فلم نخلق جزافاً ، ولا تخبيثاً(2).

وأشار الإمام الصادق إلي هذا المعني الدقيق لما سأله المنصور العباسي عن علّة خلق الذبابة ، فقال(عليه السلام) : ((ليدلّ به الجبارة)) (3) ، وهذا ما حصل بالفعل سابقاً مع نمرود الطاغية لما دخلت البعوضة في منخره وكانت لا تهدأ إلا بعد أن ينهالوا عليه ضرباً فأذله الله تعالي عبر هذه الحشرة الصغيرة(4).

وظيفة الإنسان تجاه الخالق تعالي

إذن إذا كان الكون قد خلق لحكمة متناهية فما هي الحكمة من خلقه ؟

ص: 47

1- سورة القمر (54) : الآية 49 .

2- مجمع البيان : ج 27 مج 9 ص 324 .

3- بحار الأنوار : ج 47 ص 166 ح 6 .

4- راجع قصص الأنبياء للجزائري : ص 101 .

الجواب : إنّ الحكمة هي من أجل عبادة المؤمنين وعلي رأسهم سيّد البشر قاطبة الهادي البشير محمّد بن عبد الله صلي الله عليه وآله ، وهذا ما يتجلّي في الحديث القدسي الناصّ علي ذلك حيث جاء : ((لولاك لما خلقت الأفلاك)) (1).

ولكن .. إذا كانت حكمة وجود هذا الكون الفسيح هي من أجل الإنسانية وعلي رأسها عباد الله المؤمنون فما هي وظيفة المؤمنين أنفسهم إزاء خالقهم ؟

الجواب مودع في طيّات هذه الآية الشريفة ، فهي تدعوهم - المؤمنين - إلي الصبر ، فأبي صبر دعت إليه الآية الكريمة ؟ وما هو الصبر ؟ وما هي علاقته بالصلاة ؟

الصبر - كما مضى - هو حبس النفس عمّا تدعو إليه من أمور ، والإمام الباقر (عليه السلام) يوجّه شيعته قائلاً لفضيل : يا فضيل بلّغ من لقيت من موالينا عنّا السلام وقل لهم : ((إني أقول لا أغني عنكم من الله شيئاً ، إلا بورع فاحفظوا ألسنتكم ، وكفّوا أيديكم ، وعليكم بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين)) (2).

فمسألة الصبر هي مسألة مقدّمة علي الصلاة كما جاء في الآية لأنّ الصلاة - وهي أهمّ العبادات وأولها - لا يمكن القيام بها ولا حفظها إلا بالصبر ، لأنّها كبيرة إلا علي (الخاشعين) فعلي المؤمنين أن يستعينوا بالصبر أولاً لأداء الواجبات والانزجار عن المحرّمات ، وبالصلاة ثانياً من أجل الارتقاء والسمو إلي ساحات القدس النورانية إذ أنّها الصلة الوثيقة بين العبد وربّه . من هنا فإنّ العديد من الآيات تقرن الصبر مع الصلاة ، فقد قال سبحانه : ((وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا

ص: 48

1- تأويل الآيات الظاهرة : ص 430 .

2- مشكاة الأنوار : ص 46 .

لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَيَّ الْخَاشِعِينَ(1)» وقال أيضاً: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا(2)» وفي آية ثالثة: «وَالصَّابِرِينَ عَلَيَّ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُتَّقِينَ الصَّلَاةِ(3)».

مراتب الصبر

هذا وللصبر أشكال ودرجات أشار إليها أمير المؤمنين(عليه السلام) في الدعاء المعروف بدعاء كميل بن زياد النخعي الذي يقول فيه: ((فهني ياإلهي وسيدني ومولاي وربّي صبرت علي عذابك فكيف أصبر علي فراقك ، وهني صبرت علي حرّ نارك فكيف أصبر علي النظر إلي كرامتك)) فالصبر - وكما يستفاد من الدعاء - له مراتب ، فمنه صبر العوام ، ومنه للخواص .. وهناك صبر خواص الخواص ، ولعلّ أدني مراتبه هو الصبر علي النائبة والمصيبة التي تنزل بالإنسان فيلجأ إلي معالجتها عبر الصبر والتحمّل لها حتي تنقضي عنه .

ولا يخفي أنّ للصبر حكماً وعللاً كثيرة ، فمنها أنّه تكفير للذنوب ، أو رفع للدرجات ، فعن أبي عبد الله(عليه السلام) قال : ((إنّ العبد ليكون له عند الله الدرجة لا يبلغها بعمله فيبتليه الله في جسده أو يصاب بماله أو يصاب في ولده فإن هو صبر بلغه الله إيّاها)) (4).

وعن الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) عن أبيه(عليه السلام) قال : ((جمع رسول الله صلي الله عليه وآله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وأغلق عليهم الباب وقال : ياأهلي وأهل الله إنّ الله عزّوجلّ يقرأ عليكم السلام وهذا جبرئيل معكم في

ص: 49

1- سورة البقرة (2) : الآية 45 .

2- سورة طه (20) : الآية 132 .

3- سورة الحج (22) : الآية 35 .

4- بحار الأنوار : ج68 ص94 ح50 .

البيت ويقول إنَّ الله يقول : إني قد جعلت عدوكم لكم فتنة فما تقولون ؟ قالوا : نصبر يا رسول الله لأمر الله وما نزل من قضائه حتي نقدم علي الله (عزوجل) ونستكمل جزيل ثوابه فقد سمعناه يعد الصابرين الخير كله ، فبكي رسول الله صلي الله عليه وآله حتي سمع نحيبه من خارج البيت فنزلت الآية «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا(1)» أنهم سيصبرون ، أي سيصبرون كما قالوا صلوات الله عليهم(2).

ومن المفسرين من ذهب إلي أن الصبر في هذا المورد يعني الصوم .. ومنهم من قال : الجهاد .. إلا أن الصبر يكون أوسع مفهوماً من كل ذلك ، لأن الصوم يحتاج إلي الصبر وكذلك الجهاد ولعل خير مصداق للإنسان الصابر المحتسب الذي نال بصبره جميع مراتب العلي بحيث بقيت الأجيال من بعد تتغني بصبره وتستلهم الدروس والمواعظ من ثباته وصبره هو سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) ، فهو في يوم عاشوراء رغم كل المصائب والرزايا التي رآها والتي لو نزلت واحدة منها علي الطفل لجعلت رأسه شيباً إلا أنه صلوات الله عليه بقي صابراً محتسباً حتي مضي إلي ربّه شهيداً عطشاناً مظلوماً .

هكذا تحلّ المشاكل

ولا يخفي أن مشاكل الدنيا والابتلاءات بالحقيقة والواقع هي كثيرة بل وكثيرة جداً ، ونحن حتي نواصل مسيرة الحياة الطويلة فلا بد لنا من مواجهتها والبحث عن الحلول لها للخلاص منها ، ومن أجل ذلك فلا بد من طريقتين اثنتين لا ثالث لهما وهما :

(1) المدد الداخلي : أي وازع من الذات الإنسانية ، وهو يمثّل الثبات والتماسك

ص: 50

1- سورة الفرقان (25) : الآية 20 .

2- بحار الأنوار : ج 24 ص 220 ح 16 .

الداخلي وعدم الاضطراب والجزع عند آية مصيبة ، وهي حالة نفسية رفيعة المستوى تحتاج إلي ضبط الأعصاب لدي مواجهة المشاكل والمحن ، وهذه الحالة النفسية تكون بأرفع درجاتها عند العبد المؤمن ، لأنّ المؤمن كالجبل بل أقوى وأشدّ إذ أنّ الجبل يمكن أن تؤثر فيه بفأسك أو آلتك أمّا المؤمن فلا يمكن التأثير عليه ، ولعلّ القصة التالية هي خير شاهد علي ذلك :

فقد روي أنّه كانت هناك امرأة تدعي أمّ عقيل تقطن البادية فنزل عليها في أحد الأيام ضيفان وكان ولدها عقيل مع الإبل ، فأخبرت بأنّه ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر فهلك ، فقالت المرأة للناعي : انزل واقضِ ذمام القوم ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه وقرب إلي القوم الطعام فجعلوا يأكلون ويتعجبون من صبرها ، قال الراوي : فلما فرغنا خرجت إلينا وقالت : يا قوم هل فيكم من يحسن من كتاب الله شيئاً؟ فقلت : نعم ، قالت : فقرأ عليّ آيات أتعزي بها عن ولدي ، فقرأت : «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(1)» فقالت : السلام عليكم ، ثمّ صفت قدميها وصلّت ركعات ثمّ قالت : اللهمّ إنّي فعلت ما أمرتني فأنجز لي ما وعدتني به ولو بقي أحد لأحد ، قال : فقلت في نفسي لبقني ابني لحاجتي إليه ، فقالت : لبقني محمّد صلي الله عليه وآله لأمتّه ، فخرجت(2).

أمّا أصحاب النفوس الضعيفة والإرادة الواهنة فإنّهم يسقطون في أول اختبار ويفشلون قبال آية عقبة تعترض طريقهم فيقفون حائرين جزعين لا حول لهم ولا قوة إلاّ ضرب الكفّين ببعضهما أو ضرب الجبين أو حتّي البكاء كالنساء الثكالي .

ص: 51

1- سورة البقرة (2) : الآية 157 - 155 .

2- بحار الأنوار : ج79 ص153 .

وعليه فالثبات من الإيمان ، والمؤمن هو الذي لا- تزعزعه الهزاهز مهما عظمت أو كبرت ، ومن الامتحانات ونتائجها نعرف شخصيات العظماء بالخصوص ، والتاريخ القديم والحديث هو خير شاهد علي ذلك إذ أنّ أعظم العظماء هم الأنبياء وآل الرسول الكرام وهم أكثر الناس بلاءً ومصيبةً ، وكما في الحديث الشريف : إنّ أكثر الناس بلاءً الأنبياء ثمّ الأوصياء ثمّ الأمثل فالأمثل(1).

(2) المدد الخارجي : وهذا المدد هو نفحات ولطائف الباري سبحانه وتعالى بحيث إنّ يؤيد من يؤيده إمّا عبر الإعجاز أو الإلهام أو غيرها من التسديدات والعنايات الإلهية التي عادة ما تشمل عباده الله الصابرين .

ولعلّ أقرب وأجلّ طريقة للوصول إلي هذا المدد والتسديد هي الصلاة ، ففي الحديث الشريف عن فضيل عن أبي جعفر(عليه السلام) قال : ((يافضيل بلّغ من لقيت من موالينا عدّنا السلام وقل لهم : إنّني أقول : إنّني لا أغني عنكم من الله شيئاً إلا بورع ، فاحفظوا ألسنتكم وكفّوا أيديكم وعليك بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين)) (2).

وكان الإمام علي(عليه السلام) إذا أهّمه شيء فزع إلي الصلاة والدعاء(3).

الملفت للنظر في الآية المباركة - موضوع البحث - هي المعية في آخرها حيث قال تعالى : «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» فهذه المعية من أعلي الدرجات لدي المؤمنين ، فالإنسان البسيط إذا مشي مع مرجع من المراجع العظام أو إنّه وفق لزيارة أحد الأعلام تجده يشمخ بأنفه ويفخر علي أقرانه بذلك ، فما بالك بمن يبشّره جبار السموات والأرض قائلاً لهم : إنّ الله معكم .

ص : 52

1- مستدرك البحار : ج 2 ص 439 ح 2405 .

2- تفسير العياشي : ج 1 ص 68 ح 123 .

3- راجع الكافي : ج 3 ص 480 ح 1 .

(3) - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » (سورة البقرة : 172)

في رحاب المفردات

الشكر : تصوّر النعمة وإظهارها ، وبيضاؤه الكفر وهو نسيان النعمة وسترها(1) وجاءت لفظة الشكر في القرآن في آيات متعدّدة منها قوله تعالى : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (2) ».

وقال أيضاً : « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ (3) ».

وقال أيضاً : « وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (4) ».

وعن رسول الله صلي الله عليه وآله يقول الله تعالى : ((إني والانس والجنّ في نبيّ عظيم ،

ص: 53

1- مفردات الراغب : ص 272 .

2- سورة إبراهيم (14) : الآية 7 .

3- سورة النساء (4) : الآية 147 .

4- سورة الزمر (39) : الآية 7 .

أخلق ، ويُعبَد غيري ، وأرزق ويشكر غيري)) (1).

شأن النزول

ورد عن الإمام العسكري(عليه السلام) : ((قال الله عز وجلّ : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» - أي - بتوحيد الله ونبوة محمد رسول الله صلي الله عليه وآله وبإمامة علي وليّ الله «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ» علي ما رزقكم منها بالمقام علي ولاية محمد وعلي ليقبلكم الله تعالي بذلك شرور الشياطين المتمردة علي ربها عز وجلّ ، فإنكم كلما جدّتم علي أنفسكم ولاية محمد وعلي عليهما السلام تجدد مرده الشياطين لعائن الله ، وأعاذكم الله من نفخاتهم ونفثاتهم)) (2).

عبر من الآية

أمر إلهي وخطاب حنون من الحنان المدان إلي عباده المؤمنين به والمخلصين العمل له بأن يأكلون من الطيبات أينما وكيفما كانت ووجدت .. لأنّ الطيبات للطيبين سواء أكانت من النساء أو سائر النعم الأخرى .

وهذا التوجيه الرباني فيه نكتة لطيفة وهي أنّ الطيب لا يعطي إلا طيباً ولا يمكن أن نأخذ منه إلا طيباً كما في المسك والعطر وجامع الزهور والورود فلا يشتم منه

ص: 54

1- أنوار التنزيل : ج 1 ص 96 .

2- تفسير الإمام العسكري(عليه السلام) : ص 584 ح 348 .

سوي الاريج والعبق الطيب وهذا ما يستفاد من الآية التالية : «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ(1)».

فالمؤمنون طيبون وإذا أكلوا من الطيبات فإنهم يزدادون طيباً أما إذا أكلوا من الخبيث فإن طيبتهم تذهب بالتدرج وشيئاً فشيئاً يصبحون من الناس الخبيثين حتي يبلغ بهم الأمر أن الملائكة تلعنهم .

ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله : ((إذا وقعت اللقمة من الحرام في جوف العبد لعنه كل ملك في السموات وفي الأرض)) (2).

لذلك فإن النداء الرباني جاء ليأمر المؤمنين أن يأكلوا من الطيبات فقط ، ولو أنهم أطاعوا ما تملي عليهم هذه الآيات كما ينبغي لآزادوا طيباً وشفافية وروحانية ..

ومنهم من ذهب إلي أن الطيبات مخلوقة بالذات للمؤمنين .. ولبقية الخلق بالتبعية لهم ، وهذا مذهب بعيد المدى ربما أوصلنا إلي الحديث القدسي المعروف حيث قال تعالي : ((لولاك لما خلقت الأفلاك)) (3) وغيره من الأحاديث المشهورة في الكتب المعبرة أن علة خلق هذا الكون هو من أجل خاتم النبيين صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام.

ومقابل هذه الرؤية الإلهية الداعية إلي الاستمتاع بالطيبات وترك الخبائث ، هناك نظرية أخرى تخالفها تماماً ، إذ أن بعض الرهبان والقساوسة والمتصوفين أخذوا

ص: 55

1- سورة الأعراف (7) : الآية 58 .

2- بحار الأنوار : ج63 ص314 ح6 .

3- تأويل الآيات : ص430 .

يدعون الناس إلي ترك الطيبات والاجتناب عنها ويدعون أن ذلك يوصل إلي حالات خاصة مع الله .

ولا يخفي أن هذه الشبهة ليست بجديدة علي الساحة ، بل حتي في عهد الرسول الأعظم ذهب بعض الصحابة إلي اعتزال الطيب والنساء والطعام ، فبلغ ذلك رسول الله صلي الله عليه وآله فخرج وهو يجردائه ورقي المنبر وقال :

((ما بال أقوام من أصحابي لا- يأكلون اللحم ، ولا يشمّون الطيب ، ولا يأتون النساء ، أما إني آكل اللحم وأشمّ الطيب وأتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني))⁽¹⁾.

ونحن نقرأ في الآية الشريفة : «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ(2)».

إذن ، فالنعم كلّ النعم من الطيبات حلال وهنيئة وهي للمؤمنين خالصة ، فالامتناع عن الطيبات واللذائذ لا مبرر له في هذه الحياة ، وإن كان له مبرر أو محبوبة فالأنبياء والأوصياء هم أجدر به .. بل علي العكس تماماً ، فإننا نجد أن نبي الله سليمان(عليه السلام) كان ملك الأرض كلّها حيث سخّرت له الريح والجبال وكلّ شيء ، ونبي الله يوسف(عليه السلام) الصديق كان ملك مصر ، والإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) كان ولي عهد المأمون - ولا نقاش لنا هنا في الأسباب والنتائج - فكان يلبس ويأكل من أثبات الملوكة ...

فالامتناع عن أكل الطيبات ناتج عن سوء فهم وبعد في البصيرة ، فهذا الإمام

ص: 56

1- الكافي : ج 5 ص 496 ح 5 .

2- سورة الأعراف (7) : الآية 32 .

الصادق(عليه السلام) وهو عميد المذهب الجعفري كان يقول : ((إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْجَمَالَ وَالتَّجَمُّلَ ، وَيَبْغِضُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَاؤُسَ .. فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ عَلَيَّ عَبْدَهُ بِنِعْمَةٍ أَحَبَّ أَنْ يَرِيَّ عَلَيْهِ أَثْرَهَا ، وَلَمَّا قِيلَ لَهُ : كَيْفَ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ(عليه السلام) : يَنْظُفُ ثَوْبَهُ وَيَطْيِبُ رِيحَهُ وَيَجْصَصُ دَارَهُ ، وَيَسْكُنُ أَقْنِيَتَهُ حَتَّى إِذَا السَّرَاجُ قَبْلَ مَغِيبِ الشَّمْسِ يَنْفِي الْفَقْرَ وَيَزِيدُ فِي الرِّزْقِ)) (1).

وبعد أن تقرّر هذا فلا يختلف إثنان أنّ وظيفة العبد ازاء هذا المنعم الذي أحلّ له الطيبات هو أن يشكره ، ففي الشكر تدوم النعم ولازمه أنّه بالكفر تزول النعم والعياذ باللّٰه ، بل قد تتحوّل النعمة إليّ نقمة في كثير من الأحيان .

فهذا سيّد المرسلين صلي الله عليه وآله علي منزله الرفيعة عند الله تعالى يقول عنه أمير المؤمنين(عليه السلام) : ((ولقد قام صلي الله عليه وآله عشر سنين علي أطراف أصابعه حتي تورّمت قدماه واصفرّ وجهه ، يقوم الليل أجمع حتي عوتب في ذلك فقال تعالى : «طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2)» بل لتسعد به)) (3).

وعن بكر بن عبد الله : أنّ عمر بن الخطاب دخل علي النبي صلي الله عليه وآله وهو موقوذ(4) - أو قال : محموم - فقال له عمر : يا رسول الله ، ما أشدّ وعكك ! - أو حمّاك - ! فقال : ((ما منعني ذلك أن قرأت الليلة ثلاثين سورة فيهنّ السبع الطوال)). فقال عمر : يا رسول الله ، غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ، وأنت تجهد هذا

ص: 57

1- وسائل الشيعة : ج 5 ص 7 ح 5746 .

2- سورة طه (20) : الآية 2 - 1 .

3- مستدرک الوسائل : ج 4 ص 118 ح 4278 .

4- الوقيذ والموقوذ : الشديد المرض الذي أشرف علي الموت . لسان العرب مادة وقد ج 3 ص 519 .

الاجتهاد؟! فقال: ((يا عمر، أفلا أكون عبداً شكوراً)) (1).

من مراتب الشكر

ولا يخفي أن للشكر مراحل ومراتب كثيرة أبرزها هو:

(1) الشكر بالقلب: وهو أن يقرّ العبد ويدعن لله سبحانه أنه هو صاحب النعمة عليه وهو المستحقّ للشكر منه علي كل نعمة يرزق بها.

وهذه المرحلة يختلف فيها المؤمنون حسب مستوي إيمانهم ومدى معرفتهم بالله ..

فعن الإمام الصادق (عليه السلام) عن أبيه عن جدّه عليهما السلام قال: ((دعا سلمان أبا ذرّ رحمة الله عليهما إلي منزله، فقدم إليه رغيفين، فأخذ أبو ذرّ الرغيفين وجعل يقلّبهما .

فقال له سلمان: يا أبا ذرّ، لأيّ شيء تقلّب هذين الرغيفين؟

قال: خفت أن لا يكونا نضيجين .

فغضب سلمان من ذلك غضباً شديداً، ثم قال: ما أجراك حيث تقلّب هذين الرغيفين! فوالله لقد عمل في هذا الخبز: الماء الذي تحت العرش وعملت فيه الملائكة حتي ألقوه إلي الريح، وعملت فيه الريح حتي ألقته إلي السحاب، وعمل فيه السحاب حتي أمطره إلي الأرض، وعمل فيه الرعد والملائكة حتي وضعوه مواضعه، وعملت فيه الأرض والخشب والحديد والبهائم والنار والحطب والملح، وما لا أحصيه أكثر، فكيف لك أن تقوم بهذا الشكر؟!

ص: 58

1- أمالي الطوسي: المجلس 14 ح 51.

فقال أبو ذرّ: إلهي الله أتوب، وأستغفر الله ممّا أحدثت، وإليك أعتذر ممّا كرهت)) (1).

أجل هكذا يبلغ الشكر القلبي عند البعض بحيث إنّهم يرون كل ما في الوجود هو لطف ونعمة ينبغي شكرها.

(2) الشكر باللسان: حيث يعبر العبد من خلاله عمّا يجول في خلجات نفسه من أحاسيس تهتف بوجوب شكر المنعم والثناء عليه ازاء آلائه الوافرة ونعمه اللامتناهية.

فهذا الإمام زين العابدين (عليه السلام) يعلمنا درساً عملياً في الشكر باللسان حيث يقول (عليه السلام) في مناجاة الشاكرين:

((إلهي تصاغر عند تعاضم آلائك شكري، وتضائل في جنب إكرامك إياي ثنائي ونشري، جلّلتني نعمك من أنوار الإيمان حلاًّ، وضربت عليّ لطائف برك من العزّ كلاًّ، وقدّدتني منك قلاند لا تحل، وطوّقتني أطواقاً لا تقل فألاؤك جمّة ضعف لساني عن إحصائها، ونعماءوك كثيرة قصر فهمي عن إدراكها، فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إياك يفتقر إلهي شكر، فكلمّا قلت لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد...)) (2).

(3) الشكر بالعمل: وهو التزام الطاعات والواجبات وتعزيها بالنوافل والمندوبات فضلاً عن الانتهاء عن المحرّمات والخبائث والوقوف عند الشبهات ومراعاة الحدود قدر الامكان.

ص: 59

1- عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ج 2 ص 52 ح 203.

2- راجع الصحيفة السجّادية في مناجاة الشاكرين.

فعن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام قال : ((بيننا رسول الله صلى الله عليه وآله يسير مع بعض أصحابه في طرق المدينة إذ ثني رجله عن دابته ثم خرّ ساجداً فأطال في سجوده ، ثم رفع رأسه فعاد ثم ركب .

فقال له أصحابه : يا رسول الله ، رأيناك ثبتت رجلك عن دابتك ثم سجدت فأطلت السجود؟!)

فقال : إن جبرئيل (عليه السلام) أتاني فأقرأني السلام من ربّي وبشّرني أنّه لن يخزيني في أمتي ، فلم يكن لي مال فأتصدّق به ، ولا مملوك فأعتقه ، فأحببت أن أشكر ربّي عزّوجلّ)) (1).

ص: 60

1- أمالي الصدوق : المجلس 76 ح 6 .

إشارة

(4) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (سورة البقرة: 178)

في رحاب المفردات

كتب : الكتب ضمُّ أديم إلى أديم بالخياطة ، يقال كتبت السقاء ، وكتبت البغلة إذا جمعت بين شفريرها بحلقة ، وفي التعارف ضمَّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطِّ وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض باللفظ ، فالأصل في الكتابة النظم بالخط لكن يستعار كل واحد للآخر . ويعبر عن الاثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة ، ووجه ذلك أن الشيء يراد ثم يقال ثم يكتب ، فالإرادة مبدأ والكتابة منتهى (1) ونحن نقرأ في آيات أخر : «كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ

ص: 61

1- مفردات الراغب : ص 440 .

خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ (1)» وفي آية أخرى: «قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ (2)» وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: ((علي كل جزء من أجزائك زكاة)) إلي أن قال (عليه السلام) وزكاة اليد البذل والعطاء والسخاء بما أنعم الله عليك به وتحريكها بكتابة العلوم ومنافع ينتفع بها المسلمون)) (3).

القصاص: هو تتبّع الدم بالقود، قال تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ» ويقال قصّ فلان فلاناً، وضربه ضرباً فأقصّه أي أدناه من الموت (4). بالحرّ: الحرّ خلاف العبد، والحرّية ضربان: الأول من لم يجر عليه حكم الشيء نحو ((الحرّ بالحرّ)) والثاني من لم تمتلكه الصفات الذميمة من الحرص والشهه علي المقتنيات الدنيوية (5).

الأداء: دفع الحقّ دفعة وتوفيته كأداء الخراج والجزية وردّ الأمانة (6).

شأن النزول

أخرج حافظ المشرق محمّد بن إدريس الحنظل المعروف ب) ابن أبي حاتم (في كتاب الجرح والتعديل بإسناده عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس قال: (ما نزلت آية فيها) يأتونها الذين آمنوا (إلا علي رأسها وأميرها وشريفها) ولقد عاتب الله

ص: 62

1- سورة البقرة (2): الآية 183 .

2- سورة آل عمران (3): الآية 154 .

3- بحار الأنوار: ج 92 ص 34 .

4- مفردات الراغب: ص 419 .

5- مفردات الراغب: ص 110 .

6- مفردات الراغب: ص 10 .

عزّوجلّ أصحاب محمّد صلي الله عليه وآله في غير آية من القرآن ، وما ذكر عليّاً إلا بخير(1).

وقيل إنّ هذه الآية نزلت في حيين من العرب لأحدهما طوّل علي الآخر ، وكانوا يتزوّجون نساءهم بغير مهور ، وأقسموا لقتلن بالعبد منّا الحرّ منهم ، وبالمراة منّا الرجل منهم ، وبالرجل منّا الرجلين منهم ، وجعلوا جراحاتهم علي الضعف من جراح أولئك حتّي جاء الإسلام ، فأنزل الله هذه الآية(2).

عبر من الآية

تفتح الآية بندائها التعليمي للمؤمنين : بأنّه فرض عليكم القصاص في القتل وإزهاق الأرواح ، لأنّه إذا لم يقتل القاتل ربما يتجرأ علي الآخرين فيقتل كيف يشاء ومتي شاء ومن يشاء ؟ وهذا بدوره يؤدي إلي الفساد والافساد في العباد والبلاد بلا أدني شكّ .

والعرب قديماً قالوا ((القتل أنفي للقتل)) وهي حكمة جدية بالاحترام والتقدير ، لأنّ أرواح البشر ليست تحت تصرف أحد بل هي ملك لخالقها ، فبأي حقّ تزهق أرواح الآخرين بلا مبرّر؟! والتشريع الإسلامي كان جدّاً رائعاً وحكيماً في هذه المسألة ((القتل)) إذ أنّ الإنسان مقدّس عنده وله حرمة تفوق حرمة سائر المخلوقات الأخرى كما في الحديث الشريف .

وفي عالم اليوم - عصر الحضارة العملاقة - كم هي النداءات والشعارات التي تستنكر مبدأ القصاص بالمثل حيث إنهم يقولون : إنّنا فقدنا واحداً ، فلماذا نفقد

ص: 63

1- الجرح والتعديل : ج3 ص 275 .

2- مجمع البيان : ج 2 مج 1 ص 178 .

والجواب عليه أننا : نخسر الآخر لكي لا نخسر المجتمع .. بل نخسر عدداً من أمثال هؤلاء المجرمين من أجل أن نربح المجتمع كله ويسوده الأمن والاطمئنان ومراعاة الحقوق كاملة .

فالقصاص يجعل للمجتمع حصناً منيعاً ويحول دون تحقّق الجرائم في المجتمع ، أمّا إذا ما عطلّ قانون القصاص فإنّ عمليات القتل وغيرها سوف تتفشّي في المجتمع إذ أنّ كلّ إنسان يحسب أنّ مناويّه سيتعرّضون لقتله فيبادر هو إلي قتلهم قبلهم ، وهكذا تنتشر الجريمة وربما دون أي مبرّر .

فالقصاص مبدأ عادل كل العدل ولا جور فيه إطلاقاً ، بل الجور والظلم هو في تركه ، وهذا ما أكّده الدراسات العالمية حول الجريمة - وخاصة القتل - الناصّة علي أنّ الجرائم لا يخفضها سوي قتل الجناة .

وفي عصرنا الراهن نجد أنّ قوانين العالم أخذت تعود شيئاً فشيئاً إلي هذا القانون السماوي العادل والراعي ولكن مع فارق بسيط في أساليب الاعداد خاصة في الدول المتحضّرة .

العفو بدل القصاص

في نفس الوقت الذي يدعوفيه القرآن الحكيم إلي تطبيق مبدأ القصاص ويؤكّد عليه بشدّة ، تجده إلي جانب ذلك يطرح مبدأ العفو والمسامحة ، واستبدال القتل بالديّة - وهي ثمن المقتول يسلم إلي أهله وذويه - لأنّ الرحمة والتراحم من أهمّ مقوّمات المجتمع القوي المتماسك لذلك يطرحه القرآن في أحلك الظروف وأشدّ المواقف ليقوّي العزائم ويشدّ أواصر المجتمع بقوّة ، فعن أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله - عليه

السلام - عن قول الله عز وجل : «فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أُخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ(1)» قال (عليه السلام) : ((هو الرجل يقبل الدية فينبغي للطالب أن يرفق به ولا يعسره ، وينبغي للمطلوب أن يؤدي إليه بإحسان ولا يمطله إذا قدر)) (2).

ونحن لو رجعنا إلي الآية المباركة وقرأناها نجد أنها مثلما تدعوا إلي القوة والحزم في القصاص كذلك هي تدعو إلي الرأفة والرحمة وهذا ما يستفاد من كلمة أخ ، فكم تحمل هذه الكلمة من معاني وآفاق جليلة ، فلعلّه لا يوجد كلمة في اللغة العربية تحمل ما تحمله هذه الكلمة ((الأخ)) من ناحية الرفق العاطفي واللين حيث إنها تذكر أولياء المقتول بأن هذا القاتل هو أخ لكم في الدين ونظير لكم في الخلق .

والغريب - ولا- غرابة في القرآن - أن الآيات لم تقتصر بتعبير الأخ وإنما أضافت عليها سمة أجمل وأكمل وهي قوله ((فاتّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان)). والسؤال الذي يطرح هنا هو كيف يكون ترك القتل إحساناً؟ فترك القتل ربما يكون معروفاً؟ ولكنه ليس إحساناً؟! وترك القتل والدية قد يكون معروفاً ولكنه ليس إحساناً؟! وإنما ترك القتل والدية والعفو مطلقاً هو المعروف والإحسان ، وهو من أعلي مراتب الصديقين والمقربين لدي الرحمان الرحيم .

سودة يقتص من الرسول صلي الله عليه وآله

وفي مثل هذا الصدد تحضرني قصّة سودة الذي ادّعي أنّ له علي النبي صلي الله عليه وآله حقاً فطالبه بالقصاص فلا بأس بذكرها : ففي التاريخ أنّ رسول الله صلي الله عليه وآله في أواخر حياته قال لبلال : يا بلال هلّم عليّ بالناس ، فاجتمع الناس فخرج رسول الله صلي الله عليه وآله

ص: 65

1- سورة البقرة (2) : الآية 178 .

2- الكافي : ج 7 ص 358 ح 2 .

متعصّباً ببعامته متوكّياً علي قوسه حتي صعّد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ((يامعشر أصحابي أيّ نبي كنت لكم ؟ ألم أجاهد بين أظهركم ؟ ألم تكسر رباعيتي ؟ ألم يعقر جبیني ؟ ألم تسل الدماء علي حر وجهي حتي كنفنت لحيّتي ؟ ألم أكابد الشدّة والجهد مع جهّال قومي ؟ ألم أربط حجر المجاعة علي بطني ؟)) قالوا : بلي يا رسول الله لقد كنت لله صابراً وعن منكر بلاء الله ناهياً . فجزاك الله عنّا أفضل الجزاء . قال : ((وأنتم فجزاكم الله ، ثم قال : إنّ ربّي عزّوجلّ حكم وأقسم أن لا يجوزهُ ظلم ظالم ، فناشدتكم بالله أي رجل منكم كانت له قبل محمد مظلمة إلا قام فليقتص منه فالقصاص في دار الدنيا أحب إليّ من القصاص في دار الآخرة علي رؤوس الملائكة والأنبياء)) . فقام إليه رجل من أقصي القوم يقال له سودة بن قيس ، فقال له : فذاك أبي وأمّي يا رسول الله إنك لما أقبلت من الطائف استقبلتني وأنت علي ناقتك العضباء ويديك القضيب الممشوق ، فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني ولا أدري عمداً أو خطأً . فقال صلي الله عليه وآله : ((معاذ الله أن أكون تعمّدت ، ثم قال : يابلال قم إلي منزل فاطمة ، فأتني بالقضيب الممشوق)) ، فخرج بلال وهو ينادي في سكك المدينة معاشر الناس من ذا الذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة ، فهذا محمد صلي الله عليه وآله يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة . وطرق بلال الباب علي فاطمة عليها السلام وهو يقول : يا فاطمة قومي فوالدك يريد القضيب الممشوق ، فأقبلت فاطمة عليها السلام وهي تقول : ((يا بلال ما يصنع والدي بالقضيب ، وليس هذا يوم القضيب ؟)) فقال بلال : أما علمت والدك قد صعّد المنبر وهو يودّع أهل الدين والدنيا . فصاحت فاطمة وقالت : ((واغمّاه لغمّك يا أبتاه ، من للفقراء والمساكين وابن السبيل يا حبيب القلوب ؟)) ثم ناولت بلال القضيب فخرج حتي ناوله رسول الله صلي الله عليه وآله ، فقال رسول الله صلي الله عليه وآله ((أين الشيخ ؟)) فقال الشيخ : هاأنا يا رسول الله بأبي أنت وأمّي ، فقال

رسول الله صلى الله عليه وآله : ((تعال فاقصص مني حتى ترضي)) ، فقال الشيخ : فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله ، فكشف صلى الله عليه وآله عن بطنه ، فقال الشيخ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله أتأذن لي أن أضع فمي علي بطنك ؟ فأذن له ، فقال : أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من نار يوم النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((ياسودة بن قيس ! أتعفو أم تقتص ؟)) فقال : بل أعفو يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وآله : ((اللهم اعف عن سودة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد صلى الله عليه وآله))⁽¹⁾.

بمثل هذا التعامل الرائع يريد ربنا سبحانه منا أن نتعامل فيما بيننا ، ولهذا فقد خصص النداء في صدر الآية بالمؤمنين إذ أن غير المؤمن لا يختار العفو والإحسان إلي الغير . وبالجملة : فالقصاص حق لأولياء المقتول بلا شك وهو ليس حكماً لازماً أبداً إذ أن لهم خيارات أخرى يختارون منها ما يريدون منها :

1 - العفو عن القاتل وأخذ الدية فقط وتسليمها إلي أولياء القتيل .

2 - المسامحة حتي في الدية وإسقاط الحق تماماً عن القاتل بالإحسان والتفضل عليه من أولياء القتيل .

القصاص والمجتمع

ولا يخفي أن مثل هذه الرحمة تكون محبذة ومرغوبة بشرط أن يتحول الجاني بسببها إلي رجل صالح في المجتمع ، ويكون لبنة صالحة فيه ، أما إذا كانت الرحمة بالنسبة إليه ولأمثاله بمثابة اعطاء الضوء الأخضر لمواصلة جرائمه وتجاسراته علي الغير فهنا تكون الصرامة والحدّة لازمة ومرغوبة إذ أن ترك القصاص في مثل هذه الحالات يؤدي إلي فساد المجتمع وانتشار الفوضى فيه وهذا ما يستشعر من نهاية الآية

ص: 67

1- مناقب آل أبي طالب : ج 1 ص 234 .

المباركة حيث تقول : «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلُهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(1)».

أي إنّ تلك الخيارات هي تخفيف من الله وليس من عندكم ولا معرفة لكم لوجه الحكمة في ذلك وإثما الله سبحانه وتعالى - عالم بحقائق الأمور وحكمة التشريع ذاك - وهو رحمة إلهية لكم ويجب أن تكون سبيل تراحم وتعاطف فيما بينكم أنتم بني البشر ولا سيّما المؤمنين .

وعلي كل ، فقد يتجرأ القاتل أو ذوي المقتول علي حدود الله فيقتلون مرّة وإثنين وثلاث ولا يشملهم القصاص لعلّة ما ولكن يبقى القول إنّ هناك محكمة عادلة تنظر الإنسان وفي هذه المحكمة العادلة الصارمة لا يمكن الفرار أو التهاون في حقوق الغير لأنّ الله تعالى آلي علي نفسه أن يأخذ حقّ المظلوم من الظالم وينتقم له منه .

فالقصاص ضرورة حضارية وحياتية لحياة المجتمع كل المجتمع ، والعفو والإحسان روح وريحان المجتمع الإسلامي .

ص: 68

1- سورة البقرة (2) : الآية 178 .

(5) - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (سورة البقرة : 183)

في رحاب المفردات

الصيام : الصوم هو الإمساك عن الفعل مطعماً كان أو كلاماً أو مشياً ، ولذلك قيل للفرس الممسك عن السير أو العلف صائم . والصوم في الشرع إمساك المكلف بالنية من الخيط الأبيض إلي الخيط الأسود عن تناول الأطيبين والاستمناء والاستقاء وقوله : «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا» فقد قيل عني به الإمساك عن الكلام بدلالة قوله تعالى : «فَلَنْ أَكَلَّمُ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا(1)».

وقد ذكر الصوم في آيات متعددة من القرآن منها : «فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ(2)» . ومنها : «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ(3)»

ص : 69

1- سورة مريم (19) : الآية (26) مفردات الراغب : ص 298 .

2- «(- سورة البقرة (2) : الآية 184 .

3- سورة البقرة (2) : الآية 185 .

ومنها: «أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيِّامِ الرَّفَثُ إِلَيَّ نِسَائِكُمْ(1)» ومنها: «فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ(2)» وفي الحديث الشريف عن أبي عبد الله (عليه السلام): ((من فطّر صائماً فله مثل أجره)) (3).

شأن النزول

أخرج العلامة الهندي (عبيد الله بسمل امرتسري) في كتابه في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عن أحمد والطبراني وابن أبي حاتم وابن عبد البر وابن حجر عن ابن عباس قال: ما أنزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا علي أميرها وشريفها ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلي الله عليه وآله وما ذكر علياً إلا بخير (4).

عبر من الآية

في هذه الآية المباركة ينادي الخالق تعالي عباده المؤمنين قائلاً لهم وفارضاً عليهم حكماً عبادياً جديداً ألا وهو الصوم .. تلك العبادة الخاصة التي أتحنف الله بها المسلمين وفرضها عليهم .

وهذه الفريضة المقدسة (الصوم) لم تختص بها هذه الأمة المسلمة فقط ، بل

ص: 70

- 1- سورة البقرة (2) : الآية 187 .
- 2- سورة البقرة (2) : الآية 196 .
- 3- الكافي : ج 4 ص 68 ح 1 .
- 4- المطالب : ص 51 .

كانت مفروضة علي أمم الأنبياء السابقين من قبل ، وهذا ما يقرّره القرآن والحديث الشريف فضلاً عن الكتب السماوية السابقة ، ففي نفس هذه الآية المباركة جاء : «كَمَا كُتِبَ عَلَي الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (1)». وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : ((جاء نفر من اليهود إلي رسول الله صلي الله عليه وآله فسأله أعلمهم عن مسائل فكان فيما سأله أن قال له : لأي شيء فرض الله الصوم علي أمتك بالنها ثلاثين يوماً وفرض علي الأمم أكثر من ذلك ؟ فقال النبي صلي الله عليه وآله : إن آدم (عليه السلام) لمّا أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوماً ، ففرض الله علي ذريته ثلاثين يوماً الجوع والعطش ، والذي يأكلونه تفضّل من الله تعالي عليهم ، وكذلك كان علي آدم ، ففرض الله تعالي ذلك علي أمتي ، ثمّ تلا رسول الله صلي الله عليه وآله هذه الآية : «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَي الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ (2)»، قال اليهودي صدقت يا محمد)) (3).

وفي التوراة : أنّ نبي الله موسى (عليه السلام) أقام في الجبل 40 يوماً وليلة لا يأكل خبزاً ولا يشرب ماءً .. أليس هذا هو ضرب من الصيام ؟ واليهود عبر العصور وحتى اليوم - يصومون لدي التوبة كما أنّ الانجيل يقول : إنّ المسيح (عليه السلام) صام 40 يوماً .. وكذلك الحواريون صاموا بعد عيسى المسيح (عليه السلام).

والمسيحيون اليوم يصومون بطريقتهم 40 يوماً ويحتفلون بعدها بالعيد الخاصّ بهم .

وهكذا فإنّ لكل قوم صياماً ، ولكل ملّة وأهل عقيدة أيّاماً يصومون فيها

ص: 71

1- سورة البقرة (2) : الآية 183 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 184 - 183 .

3- من لا يحضره الفقيه : ج2 ص73 ح 1769 .

بطريقة معيّنة وأسلوب خاصّ ، فأصل الصوم يتفق عليه الجميع أمّا الكيفية فهي تفرق من ملة إلى أخرى ومن أهل عقيدة إلى أخرى .

فلسفة الصيام

ولعلّ العلة في هذا التشريع السماوي الرائع وثباته علي الأمم هو أنّه يرتبط بقيمة ثابتة عظيمة أقرها القرآن الكريم وأشار إليها الأصوليون حيث قالوا : ثبات القيمة يستلزم ثبات التشريع .

وهذا الارتباط يتجلّي في أروع مصاديقه وأرقى مستوياته الرفيعة في قيمة التقوي ، لذلك فإنّ الله تعالى قال في آخر الآية المباركة «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». فالتقوي : تقوّم السلوك وتقوي العزيمة للعمل الصالح ، وتربي النفوس وتروّض المجتمع بحيث يكون مجتمعاً مثالياً ((متّقياً)) ، والسؤال الذي يطرح هنا هو : ما هي التقوي ؟ وماذا نعني بها ؟

بداية نقول التقوي هي أمر حياتي يمارسها البشر كل يوم في معيشتهم ، ففي كل يوم تجد أنّ الناس يتقون بعض الأمور ويتجنّبونها ، فهم مثلاً يتقون المخاطر والأمراض والمفاسد والأضرار ... الخ .

والتقوي المذكورة في الآية تشارك هذا المعني ولكن تفارقه في نوع المتّقني منه ، وهي الواجبات والمحرمات والشبهات ، فالشارع المقدّس عبر الصيام وغيره من الواجبات يريد غرس بذرة التقوي في نفوس المسلمين ، وعبر ترك المنكرات والمحرمات كالخمر وغيره يروم تنمية ملكة التقوي في النفوس ، ومن خلال اجتناب الشبهات يهدف إلى إيجاد الإنسان المتّقني غاية كل الرسالات السماوية .

فمن خلال الصوم يتمرن الإنسان علي محاربة شهواته برقابة ذاتية ، وبذلك تنمو عنده ملكة الإرادة إذ أنّ الإرادة كأى نعمة أُخري عند الإنسان ، فهي تنمو وتتكامل كلّما انتفع بها الإنسان ومارسها عملياً في ميدان الحياة .

فالإنسان الصائم يمارس إرادته ضدّ شهواته وميولاته كلّما دعت الحاجة إلي المفطّرات فيرفض تلبية هذه الدعوة بقوة إرادته ، فتقوية الإرادة يساعد الإنسان علي تصفية الروح وبناء النفس وتربيتها علي الكمالات الدينية . ونحن إذا لاحظنا الواقع الخارجي نجد أنّ كثيراً من الناس يحبّون أن يصبحوا صالحين ، مؤمنين ، ملتزمين وقد لا يصرّحون بذلك ، ولكن البعض منهم فقط يوفّق لذلك ، وهم ذوي الإرادات القويّة لا الأجسام المتينة ، فبالإرادة يصنع الإنسان المعجزات .

من هنا ، فإنّ الصوم يرّبي إرادة الإنسان التي تأخذ بيده نحو تحصيل التقوي والحفاظ عليها ، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو : كيف ينمي الصوم تقوي الإنسان ؟

الجواب علي ذلك في أمرين أحدها سلبي والآخر إيجابي ، أمّا الأوّل فهو :

التجافي عن المحرّمات والشبهات : وهذا ما يتجلّي في قضية الصوم الداعية إلي ترك المحرّمات والاجتناب عن الشبهات بقدر الامكان ، فعبر الصوم يوفّق الإنسان إلي حبس نفسه عن مثل هذه الأُمور فينال رضي الخالق تعالي عنه ويسخط الشيطان اللعين ، ففي الحديث الشريف أنّ رسول الله صلي الله عليه وآله قال لأصحابه : ((ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب ؟ قالوا : بلى . قال : ((الصوم يُسوّد وجهه)) (1).

ص: 73

1- الكافي : ج 4 ص 62 ح 2 .

وعنه صلي الله عليه وآله قال : ((ما من صائم يحضر قوماً يطعمون إلا سبحت أعضاؤه ، وكانت صلاة الملائكة عليه ، وكانت صلاتهم له استغفاراً))⁽¹⁾.

ثانياً : الإتيان بالواجبات : لا يخفي أنّ الصوم وحده لا يمثل الإسلام ، وإنّما الأحكام هي حلقة متّصلة فيما بينها ، فلا يمكن للعبد أن يأتي بالصوم مثلاً- ويغضّ الطرف عن سائر الواجبات كالصلاة والزكاة وغيرهما .. لذلك ، فإنّ الإنسان إذا توجّه نحو الصوم وحده دون سائر الواجبات فإنّه لا- يحظى بملكة التقوي ، وإنّما إذا أكمل حلقة الواجبات التي منها الصوم فإنّه يوقّق للحوز علي التقوي مراد عباد الله الصالحين .

حِكم أُخري للصيام

هذا وللصوم حِكم أُخري في غاية الأهمية لا يمكن التغاضي عنها ، منها : مواساة الفقراء : فلمّا يمتنع الناس أجمعهم عن الطعام والشراب فإنّهم يدركون عظم ما يقاسي الفقراء والمعدومين من الطبقات الضعيفة في المجتمع ، ففي الحديث عن الإمام الرضا(عليه السلام) بعد أن سئل عن علّة الصيام فأجاب : ((لكي يعرفوا ألم الجوع والعطش فيستدلّوا علي فقر الآخرة ، وليكون الصائم خاشعاً ذليلاً مستكيناً مأجوراً محتسباً عارفاً صابراً لما أصابه من الجوع والعطش ، فيستوجب الثواب مع ما فيه من الانكسار عن الشهوات ، وليكون ذلك واعظاً لهم في العاجل ، ورائضاً لهم علي أداء ما كلفهم ودليلاً لهم في الآجل ، وليعرفوا شدّة مبلغ ذلك علي أهل الفقر والمسكنة في

ص: 74

1- من لا يحضره الفقيه : ج2 ص87 ح 1805 .

الدنيا ، فيؤدّوا إليهم ما افترض الله تعالى لهم في أموالهم))[\(1\)](#).

وأشار الإمام الصادق(عليه السلام) إلي حكمة الصوم فقال : ((ليستوي به الفقير والغني ، وذلك لأنّ الغني لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير ، لأنّ الغني كلّما أراد شيئاً قدر عليه فأراد الله أن يسوّي بين خلقه وأن يذيق الغني مسّ الجوع والألم ليرق علي الضعيف ويرحم الجائع))[\(2\)](#).

فعلّة الصيام هي فردية كأى تشريع عبادي يهدف الوصول إلي ملكة التقوي في الفرد حيث «يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ»[\(3\)](#) و «اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ»[\(4\)](#) و «أُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ»[\(5\)](#).

الصيام والمجتمع

من جانب آخر فإنّ الصوم فريضة اجتماعية كبيرة تصهر المجتمع كلّ في بوتقة واحدة ، وتسوّي بين الناس جميعاً - لا سيّما في شهر رمضان العظيم - حيث إنّ لا فرق بين سيّد ومسود أو أمير ومأمور أو رئيس ومرؤوس ، فالكل في الصيام بدرجة واحدة وحالة واحدة إذ أنّ الجميع يمسك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من الخيط الأبيض حتي الخيط الأسود من الفجر .

كما أنّ هناك رواية تدلّ أنّ شهر رمضان بالحقيقة هو هدية سماوية من ربّ

ص: 75

- 1- وسائل الشيعة : ج 10 ص 7 ح 12697 .
- 2- وسائل الشيعة : ج 10 ص 7 ح 12697 .
- 3- ((- سورة الزمر (39) : الآية 61 .
- 4- سورة آل عمران (3) : الآية 76 .
- 5- سورة الشعراء (26) : الآية 90 .

العالمين اختصّ بها الأمة المرحومة من بين الأمم قاطبة ، ففي الحديث عن حفص بن غياث النخعي قال : سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : ((إنّ شهر رمضان لم يفرض الله صيامه علي أحد من الأمم قبلنا ، فقلت له : فقول الله عزّ وجلّ : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ» (1)) قال : إنّما فرض الله صيام شهر رمضان علي الأنبياء دون الأمم ، ففضّل الله به هذه الأمة ، وجعل صيامه فرضاً علي رسول الله صلي الله عليه وآله وعلي أمته)) (2).

فالصيام هو هديّة مباركة لهذه الأمة ، وفيه ما لا يحصي من المنافع والحكم التي يقصر عقل الإنسان عن إدراكها أو حتّي تصوّرها ولذا فإنّ الباري تعالي يخاطب عباده المؤمنين بأنّ ((كتب عليكم الصيام)) وذلك لمنفعتهم وصلاحهم في الدارين .

ص: 76

1- سورة البقرة (2) : الآية 183 .

2- من لا يحضره الفقيه : ج2 ص99 ح1844 .

(6) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (سورة البقرة: 208)

في رحاب المفردات

السلم : بكسر السين ، السلام والسلم والسَّلْم هو الصلح ... وقيل السلم اسم بإزاء الحرب (1). ومنه قوله تعالى : «وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ (2)» أي مستسلماً له ، منقاداً لما يريد منه ، ونحن نقرأ في آيات أخر : «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (3)» وفي آية أخرى : «فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ (4)».

كافّة : معناه جميعاً ، واشتقاقه في اللغة ممّا يكفّ الشيء في آخره ، ومن ذلك قوله تعالى : «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً (5)» قيل معناه كافين لهم

ص: 77

1- مفردات الراغب : ص 246 .

2- سورة الزمر (39) : الآية 29 .

3- سورة الأنفال (8) : الآية 61 .

4- سورة محمد (47) : الآية 35 .

5- سورة التوبة (9) : الآية 36 .

كما يقاتلونكم كافرين ، وقيل معناه جماعة كما يقاتلونكم جماعة ، وذلك أنّ الجماعة يقال لهم الكافة(1).

شأن النزول

روي العلامة البحراني عن الأصفهاني الأموي - في معني هذه الآية - من عدة طرق إلي علي (عليه السلام) أنّه قال : ((السلم ، ولايتنا أهل البيت)) (2).

عبر من الآية

المجتمع الإسلامي هو مجتمع نقي عامل خالص لوجه الله تعالى .. هكذا يريد الله - سبحانه - لنا وللمجتمع المنشود وإن لم يتحقق بعد في الواقع فوق هذه الأرض إلا أنّ الوعد الإلهي يبشّر به في نهاية المطاف بدولة الإمام المهدي - عجل الله تعالى فرجه - وقيادته ففي الآية الشريفة «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ (3)» وفي آية أخرى : «وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (4)».

والمجتمع هو مجموعة أفراد تربطهم روابط نسبية أو سببية أو مصالح نفسية ، يعملون وفق قانون ما وتحت رعاية وقيادة رجل ما يسهر علي تحقيق العدالة بين المجتمع ، ومجتمع الإسلام هو مجتمع تقوي وعبادة لأنّ الأفراد يجب أن يتقوا الله

ص: 78

1- مفردات الراغب : ص 450 .

2- غاية المرام : المقصد الثاني ب 223 ص 439 .

3- سورة الفتح (48) : الآية 28 .

4- سورة الإسراء (17) : الآية 81 .

ويعبدوه حقَّ عبادته ، وبمثل هذا المجتمع يجب أن تنتفي جميع أنواع وأشكال الظلم والاستغلال .

أي ينبغي أن يسوده السلام ويرفل تحت ظلّه ، ولذلك أطلق علي الرسالة الخاتمة اسم الإسلام ، فقد قال تعالي : «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ(1)» وفي آية أُخري : «هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ(2)». وهذا الاسم الشريف يعني السلم ويرفع شعار السلام لكل من هم تحت رايته في المجتمع ولو كانوا مخالفيين له ، أو غير مقرّين به وبرسوله المصطفى محمد صلي الله عليه وآله كأهل الكتاب وغيرهم من بني البشر .

فالنساء المبارك في الآية الشريفة للمؤمنين بأن يدخلوا في السلم كافة أي ينصهروا ويتألفوا ويتكاتفوا في مجتمعهم الذي يعيشون فيه ، فيبلوروا حقيقة المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه كافة المخلوقات بسلام وأمن حتي غير البشر فهم ينعمون بذلك .

وبعبارة أُخري المجتمع الإسلامي كالجسد الإنساني بالاحساس والشعور فإذا ما وخز الجسد شوكة أو ابرة فإن سائر الأعضاء كلّها تنتبه وتستنفر فيعرف إنَّ خللاً ما أصاب الجسد فيستعد للدفاع والمواجهة إذا لزمّت الضرورة .

الشیطان عدوّ المجتمعات

والمجتمعات كافة لها عدوّ أساسي وهو خفي غير واضح ألا وهو الشيطان ذلك المطرود من رحمة الله الذي يسير من الأفراد مجري الدم في عروقهم ويرافقهم مع الهواء في كلّ حركاتهم وسكناتهم ، وهو في المجتمع أخبث وأفتك إذ أنّ القابليات

ص: 79

1- سورة آل عمران (3) : الآية 19 .

2- سورة الحجّ (22) : الآية 78 .

تختلف والنفوس الضعيفة كثيرة وإذا ما جند بعض الأعوان فإنه يؤجج بؤرة الفساد في المجتمع .

وشيناً فشيناً يدب ديبياً بطيئاً ويمشي بالمجتمع والأفراد خطوة بعد أخرى إلي أن يلقيه في الهاوية وما أدراك ما هي نار حامية .

فالشيطان عدو للإنسان بل للمجتمع الإنساني أجمع وعلينا جميعاً أن نتخذ عدواً كما أشارت الآية المباركة حيث قالت : «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا(1)» .

كيف نواجه الشيطان ؟

ولا يخفي أن مواجهة الشيطان تتطلب الإيمان .. فالإيمان هو الركيزة القويّة ، والدعمامة المتينة ، التي يمكن أن نبني عليها أو علي أساسها الإنسان والمجتمع علي حدّ سواء ، ولا شيء غير هذه الدعامة تصلح لأن تكون قاعدة للسلام في المجتمع الإنساني .

فالركيزة الوحيدة التي أثبتت جدارتها في تشكيل مجتمع فاضل يسوده الودّ والسلام هي ركيزة الإيمان والتقوي وليس غيرها .. وقد جرّبت هذه الركيزة منذ 1400 عام تقريباً وطبقت علي مسرح الواقع فأثبتت كفاءتها وذلك عند بزوغ نجم الإسلام في المدينة المنورة وبداية تشكيل ذاك المجتمع القوي والفريد من نوعه في التاريخ ، فقد كان العرب في جاهليتهم كما تصفهم مولانا الزهراء عليها السلام في خطبتها الغراء : «وَكُنْتُمْ عَلَي شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ(2)» مذقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقبسة

ص: 80

1- سورة فاطر (35) : الآية 6 .

2- سورة آل عمران (3) : الآية 103 .

العجلان ، وموطي الأقدام ، تشربون الطرق ، وتقتاتون الورق ، أدلة خاسئين ، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم)) (1).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) واصفاً حال العرب قبل البعثة في نهجه الرائع : ((إنَّ الله بعث محمّداً صلي الله عليه وآله نذيراً للعالمين ، وأميناً علي التنزيل ، وأنتم معشر العرب .. علي شرّ دين ، وفي شرّ دار منيخون بين حجارة خشن ، وحيات صم ، تشربون الكدر وتأكلون الجشب وتسفكون دماءكم ، وتقطعون أرحامكم ، الأصنام فيكم منصوبة ، والآثام بكم معصوبة (2)).

وقال (عليه السلام) في كلام آخر : ((وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ، أرسله بالدين المشهور ، والعلم المأثور ، والكتاب المسطور ، والنور الساطع ، والضياء اللامع ، والأمر الصادع ، إزاحةً للشبهات ، واحتجاجاً بالبيّنات ، وتحذيراً بالآيات ، وتخويفاً بالمثلات ، والناس في فتن انجذم فيها جبل الدين ، وتزعزعت سوارى اليقين ، واختلف النّجر وتشتت الأمر ، وضاق المخرج ، وعمي المصدر)) (3).

فهذا هو حال العرب قبل أن يمنّ الله عليهم بالإسلام ويرحمهم برسوله الأكرم صلي الله عليه وآله إذ أنّه رحمة مهداة لهذه الأمة ولكلّ الأمم قاطبة ، وإلي ذلك يشير قوله تعالى : «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا (4)».

من جانب آخر فإنّ الذي يخرج الإنسان عن جادة الصواب هو اتّباع خطوات الشيطان الضالّة ، إذ إنّهُ لَمَّا طرد من حظيرة القدس والرحمة راهن علي البشرية وآلي علي نفسه أن يخرج الإنسان من رحمة الله وذلك عبر أساليب وطرق متعدّدة ومختلفة ،

ص: 81

1- الطرائف : ج 1 ص 264 ح 368 .

2- نهج البلاغة : خ 26 يصف فيها العرب قبل البعثة .

3- نهج البلاغة : خ 2 يصف فيها حال الناس قبل البعثة .

4- سورة سبأ (34) : الآية 28 .

فقال: «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(1)».

فتارةً يأتيهم عبر الاغواء والاغراء ، وأخري عبر الفساد والفجور ، وثالثة عبر الكفر والطغيان ، وهكذا ، فهو لن يترك الإنسان وشأنه أبداً ..

وقبال هذا العدو اللدود ينبغي للإنسان أن يعدّ العدة ويستعين بالله ليوفّق للخروج في آخر مطاف حياته سعيداً منتصراً علي شيطانه ..

وهذا ما صنعه المسلمون في صدر الإسلام ، فإنهم أخذوا يتفنّون في مواجهتهم ومقاومتهم لاغراءات الشيطان وأساليبه فسطّروا في صفحات التاريخ أعظم الصور الجميلة الدالة علي عظيم إيمانهم ومدى تفانيهم في ذات الله .

ولعلّ خير شاهد علي ذلك هو استقبال الأنصار لإخوانهم المهاجرين وإيثارهم لهم علي أنفسهم حتّي بلغ الأمر بهم أنّ الرجل يطلّق إحدي زوجته كي يتزوّجها أخوه المهاجر ، وأنّه يقدّم أحد منازله لأخيه المهاجر ، بل إنّ بعضهم قاسمهم أمواله وشاركهم في أعماله ...

وهكذا فإنّ المجتمع الذي تجمعه ركيزة الإيمان والتقوي ، تجده في أحلك الظروف وأشدّها مترابطاً ينظر إلي القيم والمبادئ بعين الاعتبار ، فطوبى للمجتمعات المقدّسة التي تلمّها هكذا مبادئ.

ص: 82

1- سورة ص (38) : الآية 82 .

إشارة

(7) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ»

(سورة البقرة: 254)

في رحاب المفردات

بيع: البيع إعطاء المثلن وأخذ الثمن، والشراء إعطاء الثمن وأخذ المثلن، ويقال للبيع الشراء وللشراء بيع وذلك بحسب ما يتصوّر من الثمن والمثلن(1).

وقد ورد ذكر البيع والمبايعة في أكثر من آية في القرآن، فقد قال تعالى: «فَأَسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ(2)» وقال أيضاً: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا(3)» وقال أيضاً: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ(4)» وقال: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ

ص: 83

1- مفردات الراغب: ص 65 .

2- سورة التوبة (9): الآية 111 .

3- سورة البقرة (2): الآية 275 .

4- سورة البقرة (2): الآية 254 .

وَذَرُوا الْبَيْعَ (1)».

خَلَّة : الخَلَّة المودَّة وذلك لأنَّها إمَّا تتخلَّل النفس فتؤثِّر فيها تأثير السهم في الرمية ، وإمَّا لفرط الحاجة إليها (2) ، ونحن نقرأ في القرآن الكريم : «الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (3)» وفي آية أُخري : «وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (4) وفي آية ثالثة : «لِيُتَبَّي لَمْ اتَّخَذُ فُلَانًا خَلِيلًا (5)».

شفاعة : الإنضمام إلى آخر ناصرًا له وسائلاً عنه وأكثر ما يستعمل في إنضمام من هو أعلي حرمة ومرتبة إلي من هو أدني ، ومنه الشفاعة يوم القيامة (6) ويقال : فلان يشفع لي بالعداوة ، أي يعين عليّ ويضادني (7).

وقد جاء في الآية الكريمة : «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ (8)» وفي آية أُخري : «وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (9)».

ص : 84

1- سورة الجمعة (62) : الآية 9 .

2- مفردات الراغب : ص 154 .

3- ((- سورة الزخرف (43) : الآية 67 .

4- سورة النساء (4) : الآية 125 .

5- سورة الفرقان (25) : الآية 28 .

6- مفردات الراغب : ص 270 .

7- كتاب العين مادة شفع .

8- سورة البقرة (2) : الآية 255 .

9- سورة البقرة (2) : الآية 48 .

روي الحافظ الحاكم الحسكاني (الحنفي) قال : حدّثنا أبو زكريا ابن إسحاق عن حذيفة قال : ((إن أناساً تذاكروا فقالوا : ما نزلت آية في القرآن (فيها) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا في أصحاب محمد صلى الله عليه وآله . فقال حذيفة : ما نزلت في القرآن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا كان لعلي لبها ولبابها)) (1).

عبر من الآية

تتناول هذه الآية المباركة مسألة في غاية الأهمية والدقة وهي: ضرورة الانفاق والبذل في الحياة وقبل الممات لأنه في الآخرة حساب فقط ولا مجال لأي عمل من الأعمال علماً أنّ الإنفاق يكون من أرزاق الرحمن وهباته وعطاياه وليس من ذاتياتنا فإن كل ما نملكه من قوي وطاقات وإمكانات وثروات سواء أكانت مخبوءة بالنفوس أم ظاهرة للعيان هي من رزق الله تعالى وعطائه لنا . فالله سبحانه هو مصدر الخير كلّهُ بل هو خير محض ولا يصدر عنه إلا خيراً ، وإذا كان هناك شيء اسمه شرّ فهو ليس منه تعالى ، بل إما أن يكون من النفس البشرية أو النفس الشيطانية وهذا ما تؤكده الآيات والروايات . لذلك ولأنه تعالى مصدر الخير فإنه يدعو الإنسان إلي الخير وما هذه الآية الشريفة إلا كشاهد صدق علي ذلك ، ففي هذه الآية المباركة يوجّهنا المالك الحقيقي أن ننفق شيئاً ممّا نملك لا كل ما نملك ، وهذا ما نستفيد من كلمة (مّمّا) المركبة من كلمتي (من) و (ما) الموصولة ثم أدغمت النون في الميم ، و (من) كما هو معروف في الأدب العربي تفيد التبعية أي أنفقوا بعض ما رزقناكم فقط .

ص: 85

وما هذه الدعوة الإلهية إلا لحكمة ربانية عظيمة الشأن منه تعالى إذ أنه يعلم بشخ الإنسان وبخله علي نفسه في كثير من الأحيان ، فكيف علي الآخريين ، فطلب الله سبحانه وأمر المؤمنين أن ينفقوا بعضاً من كل فقط وهو شيء يسير إذا ما قورنت بكل النعم والرزق الإلهي للإنسان .

وقد قسّم الانفاق علي نوعين ، فمنه الواجب ، والآخر مندوب مستحب ، أمّا الأول فهي النفقات الواجبة غرار الزكاة والخمس ، وزكاة الفطر وبعض الموارد الأخرى التي حددها الشارع المقدّس وأوضحها رسول الله صلي الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام وتصدي بيانها في عصورنا المتأخّرة المراجع العظام في رسائلهم العملية وكتبهم الفقهية .

أمّا الثاني فهو ما ندب إليه الشارع وشوّق إليه رسول الله صلي الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام إذ لا غني عن هذه الموارد لإنعاش المجتمع الإسلامي وتماسكه وتعاطفه وانعدام الفقر والحاجة فيه إلا بها وبالنفقات الواجبة السابقة الذكر .

ولا يخفي أنّ النفقات غير محدّدة أو مقيّدة بضرب خاصّ مثل الصدقات أو الاعانة وسائر أعمال الخير بل تشمل كل النعم الإلهية والخيرات الربّانية التي يمكن للإنسان أن ينفق لتزكوا وتنمو ، فمثلاً زكاة العلم نشره وتعليم الجاهلين ، وصدقة الجاه إظهاره وحماية المستضعفين ، والجمال .. رحمة ذوي العاهات والدعاء لهم ، والصحّة .. العطف علي أصحاب الأمراض المزمنة في المجتمع ، والقوّة .. معاونة الضعفاء والمسنّين والأطفال عند الحاجة له ، وهكذا ، فلكل ملكة في الإنسان انفاق وتصدّق .

وهذا إمامنا السجّاد(عليه السلام) كان يضرب فيه المثل الأعلى في العطاء والانفاق ، يقول الإمام الباقر(عليه السلام) عنه : ((لَمَّا غَسَلْنَاهُ نَظَرَ الْبَعْضُ إِلَيَّ مَوَاضِعَ الْمَسَاجِدِ مِنْ

ركبته وظاهر قدميه كأنها مبارك البعير)) ، وقد نظر البعض إلي عاتقه وفيه مثل ذلك فقالوا للإمام الباقر(عليه السلام) : يا بن رسول الله قد عرفنا إن هذا من إدمان السجود ، فما هذا الذي نري علي عاتقه ؟ قال : ((أما لولا أنه مات ما حدثتكم عنه ، كان لا يمرّ به يوم إلا أشبع فيه مسكيناً فصاعداً ما أمكنه ، وإذا كان الليل نظر إلي ما فضل عن قوت عياله فجعله في جراب فإذا هدأ الناس وضعه علي عاتقه وتخلّل المدينة وقصد قوماً لا- يسألون الناس إلحافاً وفرّغه فيهم من حيث لا يعلمون من هو ولا يعلم بذلك أحد من أهله غيري فأني كنت اطلعت علي ذلك منه)) (1).

نعم ، فهل إننا نفتدي بإمامنا السجّاد ونسير علي خطاه المباركة فنفتق ممّا أنعمه الله علينا ، أم إننا نمسك أيدينا وننكر المعروف الإلهي ؟
الجواب : إنّ الغالب من الناس اليوم تنحو عن هذه السنّة الإلهية واشتغلوا بأنفسهم وملذّاتها ونسوا أنّ هذه النعم والخيرات المغدقة عليهم سوف تزول في يوم ما وأنهم سيسألون عنها من أين اكتسبوها وفيما أنفقوها .

وقد بالغ البعض في تجافيهم مع خالقهم حيث آل به الأمر إلي عدم اعطاء الحقوق الواجبة من خمس وزكاة وغيرهما ..

ومن جرّاء هذه الحالة تراجع شعوبنا إلي الورا وساد الفقر في المجتمع وكثر المحرومون في البلاد الإسلامية ممّا دفع بالكثير من المسلمين إلي القاء أنفسهم في أحضان الديانات الأخرى أو الفساد والملاهي علّة يستدرّ منها رزقاً يسدّ به رمقه ويؤمن منه معيشتة .

الإنفاق وانقاذ المجتمعات

ونحن اليوم حتي ننقذ مجتمعاتنا الإسلامية من محيط الفقر والاحتياج فلا بدّ لنا

ص: 87

1- بحار الأنوار : ج93 ص23 ح56 .

(1) حثّ الناس علي إعطاء النفقات الواجبة من خمس وزكاة وغيرهما وذلك يكون عبر ذكر الآثار والبركات الربّانية التي تشمل كل من يطهر رزقه وخيراته من الحرام .

(2) تشويق التجّار والأغنياء علي الانفاق ومساعدة الفقراء والمحتاجين في المجتمع إذ أنّ إعانة المؤمن أو المسلم لها آثار كثيرة علي الإنسان في الدنيا قبل الآخرة .

(3) ذمّ البخل والبخلاء في أوساطنا الاجتماعية ، والتأكيد علي عظمة الإنسان المنفق وجلالة قدره وعظم شأنه عند الباري تعالي .

(4) ذكر الروايات والمآثر الإسلامية المؤكّدة علي الانفاق وتفقد المحرومين والمحتاجين ممّن ليس لهم حظّ في متاع الدنيا ، فعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : ((إنّ الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء))⁽¹⁾ وقال الله تعالي : ((المال مالي والفقراء عيالي والأغنياء وكلائي فمن بخل بمالي علي عيالي أدخله النار ولا أبالي))⁽²⁾.

وعن أبي محمد الواشي قال : ذكر أصحابنا عند أبي عبدالله (عليه السلام) فقلت : ما أتغديّ إلا ومعني منهم الاثنان والثلاثة وأقلّ وأكثر ، فقال أبو عبدالله (عليه السلام) : ((فضلهم عليك أعظم من فضلك عليهم)). فقلت : جعلت فداك وكيف وأنا أطعمهم طعامي وأنفق عليهم من مالي وأخدمهم عيالي ؟ فقال : ((إنّهم إذا دخلوا عليك دخلوا برزق من الله عزّ وجلّ كثير وإذا خرجوا خرجوا بالمغفرة لك))⁽³⁾.

(5) ذكر أثر الانفاق ودوره في دفع البلاد وجلب الرزق للفرد والمجتمع ، فعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال : ((مرّ يهودي بالنبي صلي الله عليه وآله فقال : السام عليك ، فقال رسول

1- نهج البلاغة ق : 328 .

2- جامع الأخبار : ص 80 .

3- الكافي : ج 2 ص 200 ح 9 .

اللّه صلي الله عليه وآله : عليك ، فقال أصحابه : إنّما سلّم عليك بالموت قال : الموت عليك ، فقال النبي صلي الله عليه وآله : وكذلك رددت ، ثمّ قال النبي صلي الله عليه وآله : إنّ هذا اليهودي يعصّه أسود في قفاه فيقتله قال : فذهب اليهودي فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله ثم لم يلبث ان انصرف فقال له رسول اللّه صلي الله عليه وآله : ضعه فوضع الحطب فإذا بأسود في جوف الحطب عاصّ علي عود ، فقال : يا يهودي ما عملت اليوم ؟ قال : ما عملت عملاً إلاّ حطبي هذا احتملته فجنّت به وكان معي كعكتان فأكلت واحدة وتصدّقت بواحدة علي مسكين ، فقال رسول اللّه صلي الله عليه وآله : بها دفع اللّه عنه ، وقال : إنّ الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان)) (1).

وعن الوشاء عن أبي الحسن (عليه السلام) قال : سمعته يقول : ((كان رجل من بني اسرائيل ولم يكن له ولد فولد له غلام وقيل له : إنّّه يموت ليلة عرسه فمكث الغلام فلما كان ليلة عرسه نظر إلي شيخ كبير ضعيف فرحمه الغلام فدعاه فأطعمه فقال له السائل : أحييتني أحياء اللّه قال : فأتاه آت في النوم فقال له : سل إبنك ما صنع ، فسأله فخبره بصنيعه ، قال : فأتاه الآتي مرّة أُخري في النوم فقال له : إنّ اللّه أحياء إبنك بما صنع بالشيخ)) (2).

علّموا أبناءكم الإنفاق

ولم تقتصر دعوة الشارع المقدّس إلي الإنفاق علي الكبار فقط ، بل هناك بعض الروايات تدعوا إلي حتّ الصغار علي الإنفاق وتعليمهم منذ نعومة أظفارهم علي مساعدة الآخرين والإنفاق لهم ولو كان ذلك بالشيء اليسير ، فعن عمر بن يزيد قال : أخبرت أبا الحسن الرضا (عليه السلام) أنّي أصبت بابنين وبقي لي بنّي صغير فقال :

ص: 89

1- الكافي : ج 4 ص 5 ح 3 .

2- الكافي : ج 4 ص 7 ح 10 .

((تصدّق عنه ، ثمّ قال حين حضر قيامي : مر الصبيّ فليصدّق بيده بالكسرة والقبضة والشّيء وإن قلّ فإنّ كل شيء يرد به الله وإن قلّ بعد أن تصدّق النية فيه عظيم إنّ الله عزّوجلّ يقول : «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (1)).

التشويق إلى الإنفاق

بل - وكما يستفاد من الروايات - إنّ الانفاق والسخاء هما صفتان محبذتان إسلامياً ، فالشخص السخي والكريم محترم بنظر الإسلام خاصّة إذا كان سخائه مقرون بالإيمان ، فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((أتي رسول الله صلي الله عليه وآله وفد من اليمن وفيهم رجل كان أعظمهم كلاماً وأشدّهم استقصاء في محاورة النبي صلي الله عليه وآله ، فغضب النبي صلي الله عليه وآله حتى التوي عرق الغضب بين عينيه وترتد وجهه وأطرق إلي الأرض فأتاه جبرئيل (عليه السلام) فقال : ربّك يقرئك السلام ويقول لك : هذا رجل سخي يطعم الطعام فسكن عن النبي صلي الله عليه وآله الغضب ورفع رأسه وقال له : لولا أنّ جبرئيل أخبرني عن الله عزّوجلّ أنّك سخي تطعم الطعام لشردت بك وجعلتك حديثاً لمن خلفك ، فقال له الرجل : وإنّ ربّك ليحبّ السخاء ؟ فقال : نعم فقال : إنّني أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وإنّك رسول الله والذي بعثك بالحقّ لا رددت من مالي أحداً)) (2).

ص: 90

1- سورة الزلزلة (99) : الآية 8 - 7) الكافي : ج 4 ص 4 ح 10 .

2- الكافي : ج 4 ص 40 - 39 ح 5 .

إشارة

(8) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (سورة البقرة : 264)

في رحاب المفردات

المنّ : المنة هي النعمة الثقيلة ويقال ذلك علي وجهين : أحدهما : أن يكون ذلك بالفعل فيقال منّ فلان علي فلان إذا أثقله بالنعمة وعلي ذلك قوله : «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(1)».

والثاني : أن يكون ذلك بالقول وذلك مستقبح فيما بين الناس إلا عند كفران النعمة ، ولقبح ذلك قيل المنة تهدم الصنعة(2).

ص : 91

1- سورة آل عمران (3) : الآية 164 .

2- مفردات الراغب : ص 494 .

الأذي : ما يصل إلي الحيوان من الضرر إما في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيوياً كان أو آخروياً ، قال تعالى : « وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ (1) ».

رئاء : الرئاء والمرءاة يقال فعل ذلك رئاء الناس أي مرءاة وتشبيهاً (2) ، فنحن نقرأ في القرآن الكريم : « وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ (3) » وفي آية أخرى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ (4) » وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((ثلاث علامات للمرائي : ينشط إذا رأى الناس ، ويكسل إذا كان وحده ، ويحب أن يحمد في جميع أموره)) (5).

صفوان : اسم للحجر الأملس ، وهو اسم واحد معناه جمع واحده صفوانه (6).

تراب : التراب هي الأرض نفسها ، فيقال ترب أي افتقر وكأنه التصق بالتراب (7) ومنه قوله تعالى « مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (8) ».

وابل : الوابل والوابل المطر الثقيل القطار وقد ذكرت كلمة الوابل والوبال في بعض الآيات حيث جاء : « كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ (9) ».

ص : 92

- 1- سورة التوبة (9) : الآية 61- مفردات الراغب : ص 11 .
- 2- مفردات الراغب : ص 188 .
- 3- سورة النساء (4) : الآية 38 .
- 4- سورة الأنفال (8) : الآية 47 .
- 5- الكافي : ج 4 ص 295 ح 8 .
- 6- مجمع البحرين : مادة صفو .
- 7- مفردات الراغب : ص 70 .
- 8- سورة البلد (90) : الآية 16 .
- 9- (01) سورة البقرة (2) : الآية 265 .

وجاء أيضاً : «أَوْ عَدَلْ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ(1)». وفي آية أخرى : «ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(2)».

عبر من الآية

تتضمّن هذه الآية المباركة توجيه إلهي جميل ونداء عظيم يستشعر منه الرحمة بالمؤمنين من قبل سيّدهم ومولاهم ربّ العالمين .. فإثّه - تعالي يريد منهم الثبات علي العمل من أجل تثبيت الأجر والثواب ولا يريد منهم إبطال الأعمال الصالحة بأمر تافهة من كلمة هنا أو موقف مخزٍ هناك ..

وهذا التوجيه الربّاني يستبطن التحذير كذلك لوجود لفظة (لا) الناهية والتي تفيد كما قال الأصوليون حرمة المنّ والأذي لمن يتصدّق عليهم إذ أنّ ذلك يحرق العمل الصالح ويذهب بكرامة الأخ المؤمن ويؤذي كرامته وسمعته ، ولذلك فإنّ الله تعالي ينهي عن المنّ والأذية .

فالإنفاق وكما هو معلوم سمة حسنة ، وخصلة مطلوبة ومرغوبة في الدين الإسلامي وذلك لأسباب كثيرة تطرّقنا إلي بعضها سابقاً وربما نذكر أسباباً أخرى لاحقاً .

من شرائط الإنفاق

فالإنفاق بحدّ ذاته ليس أمراً مهمّاً بقدر ما يلاحظ فيه مسألتان أساسيتان

ص: 93

1- سورة المائدة (5) : الآية 95 .

2- سورة الحشر (59) : الآية 15 .

1 - دوافع الإنفاق : الذي ينبغي أن يكون لوجه الله تعالى . 2 - كيفية الإنفاق : المفترض أن لا- يتبعه منّ ولا- أذي للمعطي له ، ففي الحديث عن النبي صلي الله عليه وآله قال : ((إذا كان يوم القيامة ، نادي منادٍ يسمع أهل الجمع : أين الذين كانوا يعبدون الناس ؟ قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له ، فإني لا أقبل عملاً خالطه شيء من الدنيا وأهلها)) (1). وروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((من أسدي إلي مؤمن معروفاً ، ثم آذاه بالكلام ، أو منّ عليه ، فقد أبطل الله صدقته)). ثم ضرب فيه مثلاً فقال : «كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ (2)» إلي قوله «الْكَافِرِينَ (3)». وقال أبو عبد الله (عليه السلام) : ((ما من شيء أحب إلي من رجل سلف منّي إليه يد أتبعته أختها ، وأحسن بها له ، لأني رأيت منع الأواخر يقطع لسان شكر الأوائل)) (4).

وبالطبع فإنّ إبطال ثواب الصدقات له معنيان كذلك :

1 - الاحباط الإلهي : وهو إبطال أجر العمل بالمنّ والأذي لآخذها .

2 - الاحباط الاجتماعي : حيث إنّ الممنّان يتعد الناس عنه ، ولا أحد يحبّ أن يأخذ منه لأنّه سوف يفضحه بمنّته عليه ، وقوله له : أنا أعطيتك كذا .. أو بالأمس أعطيتك كذا .. أو هل نسيت معروفنا عليك ياناصر المعروف والجميل ؟ وما أشبه ذلك ، فتتقلب الصدقة من خير إلي منّ ورياء وهما أسفل الشرّ أبداً .

لذلك فقد جاءت الآية لتذكّر المؤمنين وتحذّرهم من مغبة هذا العمل الشنيع ، أي يامن عقدتم الإيمان بالله لا تذهبوا أتعابكم أدرج الرياح بالمنّ والأذي . ولكي

ص : 94

1- مستدرک الوسائل : ج 1 ص 113 ح 125 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 264 .

3- مجمع البيان : ج 3 مج 2 ص 185 .

4- تفسير القمّي : ج 1 ص 91 .

يكون الخطاب أكثر وقعاً في النفوس فقد نظرت الآيات من يتبع صدقاته باليمن والأذى بالصفوان أي الأرض الصلبة التي لا ينبت فيها الزرع إذ أن حبات التراب المتراكمة فوق هذه الأرض الصلبة لا يمكن أن تحتضن البذرة وتحفظها حتي تنمو وتكبر وتصبح شجرة باسقة أصلها في الأرض وفرعها في السماء .

وما أعظمه من تنظير ، فالمئنان مهما تصدق أو تركي فإنه بمنه وأذاه للناس يتلف كل ما فعله من عمل الخير فيبقي خاسراً في الدنيا : لأنه غير قادر علي إرجاع ما أنفقه فضلاً عن سخط الناس عليه لمته وأذاه . وفي الآخرة : فهو محروم من الثواب لأنه أبطل عمله بمنه وأذاه .

وأما المؤمنون فإن مثلهم كما قال تعالي : « كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْبُورَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَيْعَةً [\(1\)](#) » فكم الفرق شاسع بين الاثنين لمن تفكر وتدبر .

أهل البيت عليهم السلام والنهي عن المنّة

وأحاديث أهل البيت عليهم السلام كثيرة وصارمة في هذا الباب .. وسيرتهم الذاتية وحياتهم الشخصية فيها الكثير من القصص المؤكدة علي مثاليتهم في الحياة وتمثلهم للرسالة بحذافيرها :

فمن هذه الأحاديث الداعية إلي التصدق والإخلاص فيه ما يلي : عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في بعض خطبه : ((إن العبد إذا مات قالت الملائكة : ما قدم ؟ وقال الناس : ما أحر ؟ فقدّموا فضلاً يكن لكم ، ولا تؤخّروا كلاً يكن عليكم ، فإن المحروم من حرم خير ماله ، والمغبوط من ثقل بالصدقات والخيرات موازينه ، وأحسن في

ص: 95

الجَنَّةَ بها مهاده ، وطَيِّبَ مهاده ، وطَيِّبَ علي الصراط بها مسلكه)) (1).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، والصدقة خفياً تطفى غضب الرب ، وصلة الرحم زيادة في العمر ، وكل معروف صدقة)) (2).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال : ((إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها الحلل ، ومن أسفلها خيل بلق مسرّجة ملجمة ذوات أجنحة ، لا- تروث ولا- تبول ، فيركبها أولياء الله فتطير بهم في الجنة حيث شاءوا ، فيقول الذين أسفل منهم : ياربنا ، ما بلغ بعبادك هذه الكرامة ؟ فيقول الله جلّ جلاله : إنهم كانوا يقومون الليل ولا- ينامون ، ويصومون النهار ولا يأكلون ، ويجاهدون العدو ولا يجبنون ويتصدقون ولا يبخلون)) (3).

وهناك طائفة أخرى تذمّ المئان وتوضّح مصير أعماله وأتباعه ، منها :

ما عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : ((إن الله كره لكم أيتها الأمة أربعاً وعشرين خصلة ونهاكم عنها ... إلي قوله صلى الله عليه وآله : وكره المنّ في الصدقة)) (4).

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال : ((ثلاثة لا يكلمهم الله : المئان الذي لا يعطي شيئاً إلا بمئة ، والمسبل أزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر)) (5).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((إن الله تعالي كره لي ست خصال وكرههنّ للأوصياء من ولدي وأتباعهم من بعدي : العبت في الصلاة ، والرفث في الصوم ، والمنّ بعد

ص: 96

1- أمالي الصدوق : المجلس 23 ح 10 .

2- أمالي الطوسي : المجلس 27 ح 6 .

3- أمالي الصدوق : المجلس 48 حديث 14 .

4- الخصال : ج 2 ص 520 ح 9 .

5- الخصال : ج 1 ص 184 ح 253 .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((من أسدي إلي مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل الله صدقته)) (2).

وسيرة أهل البيت الأطهار عليهم السلام ، في اخفاء الصدقة أكبر من أن يحاط بها أو أن تذكر بمثل هذا المقام .. إلا أنه لا بد من التبرك بذكر قصة من قصص الإمام الصادق (عليه السلام) .

فعن المعلّي بن خنيس قال : خرج أبو عبد الله (عليه السلام) في ليلة قد رشت وهو يريد ظلّة بني ساعدة ، فأتبعته فإذا هو قد سقط معه شيء ، فقال بسم الله اللهم ردّ علينا ، قال : فأتيته فسلمت عليه ، قال : فقال معلّي ؟ قلت : نعم جعلت فداك ، فقال لي : التمس بيدك فما وجدت من شيء فادفعه إليّ فإذا أنا بخبز منتشر كثير فجعلت أدفع إليه ما وجدت فإذا أنا بجراب أعجز عن حمله من خبز فقلت : جعلت فداك أحمله علي رأسي فقال : لا أنا أولي به منك ولكن امض معي قال : فأتينا ظلّة بني ساعدة فإذا نحن بقوم نيام فجعل يدسّ الرغيف والرغيفين حتي أتني علي آخرهم ثم انصرفنا ، فقلت : جعلت فداك يعرف هؤلاء الحقّ فقال : لو عرفوه لواسيناهم بالدقة - والدقة هي الملح - إنّ الله تبارك وتعالى لم يخلق شيئاً إلا وله خازن يخزونه إلا الصدقة فإنّ الربّ يليها بنفسه وكان أبي إذا تصدّق بشيء وضعه في يد السائل ثم ارتدّه منه فقلّبه وشمّه ثم ردّه في يد السائل ، إنّ صدقة الليل تطفي غضب الرب وتمحو الذنب العظيم وتهوّن الحساب وصدقة النهار تثمر المال وتزيد في العمر ، إنّ عيسى بن مريم (عليه السلام) لمّا أن مرّ علي شاطئ البحر رمي بقرص من قوته في الماء فقال له بعض الحواريين :

ص: 97

1- الخصال : ج 1 ص 327 ح 19 .

2- نور الثقلين : ج 1 ص 264 ح 1113 .

ياروح الله وكلمته ، لِمَ فعلت هذا وإنما هو من قوتك ؟ قال : فقال : فعلت هذا لدابة تأكله من دواب الماء وثوابه عند الله عظيم(1).

وعلي آية حال فإن الصدقات تكون مهبط من مهابط الخيرات والبركات علي المعطي والمعطي له ، وكلاهما يفرحان برزق الله وعطائه دون خوف أو عجل ..

فالمعطي : حين يعطي في السر لا يمكن له أن يمن علي من يعطيه خشية التكذيب ، وينتظر من الله البركة والعوض المضاعف .

والمعطي له : حين يأخذ من شخص لا يعرفه وفي غلس الليل مثلاً فلا يكون له أي شخص يخجل منه بل يفتخر برزق ساقه الله إليه علي يد عبد من عباده الصالحين .. فيدعو الله له بأن يعوض عليه مضاعفاً وأن يرزقه رزقاً حلالاً طيباً .

فالصدقة بالحقيقة بركة ، والله يضاعف لمن يشاء .

ص: 98

1- الكافي : ج4 ص9 - 8 ح3 .

إشارة

(9) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» (سورة البقرة: 267)

في رحاب المفردات

تَيَمَّمُوا: التيمم قوله تعالى: «تَيَمَّمُوا صِدْقًا طَيِّبًا» أي اقصدوا الصعيد الطيب، يقال يمتته إذا قصدته، ثم كثر استعمالهم هذه اللفظة، حتى صار التيمم مسح الجبهة واليدين بالتراب، فالتيمم في اللغة: القصد وفي الشرع: المسح المذكور لاستباحة ما هو مشروط به تقريباً إلى الله تعالى (1).

الخبث: هو نعت كل شيء فاسد، خبيث الطعم، وخبث اللون، وخبث الحديد وغيره: مما يذاب بالنار، وهو ما يبقى من رداءته إذا أخلص جيده (2).

ص: 99

-
- 1- مجمع البحرين: مادة يمم.
 - 2- كتاب العين: مادة خبث.

تغمضوا: أغمض في السلعة: استحطّ من ثمنها لرداءتها، وقد يكون التغميض غير نوم. ويقول الرجل لبيعه: أغمض لي في البيعة أي زدني لمكان رداءته أو حطّ لي من ثمنه(1).

شأن النزول

أخرج العلامة الكشفي المير محمد صالح الترمذي (الحنفي) في مناقبه عن حذيفة اليمان وابن عباس قالا: ((ما أنزل الله «يا أيها الذين آمنوا» إلا وعلي أميرها وشريفها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلي الله عليه وآله في غير مكان وما ذكر علياً إلا بخير)) (2).

عبر من الآية

إن كثرة الحديث حول الإنفاق في القرآن الكريم تدلّ بوضوح علي أهميته في المجتمع البشري عامّة فضلاً عن الأفراد ...

فالاقتصاد هو أساس بناء المجتمع إذ أنه عبر المال والثروة ينمو المجتمع ويزدهر ويتألق، وبفقد ههما يتأخر وينحسر ويتقهقر إلي الوراء.. فلا نماء ولا بناء ولا ازدهار إلا بظلّ اقتصاد قوي قادر علي الصمود أمام الهزّات الاقتصادية والهجمات الأجنبية، وحماية مصالح ومعاش المواطنين جميعاً.

ص: 100

1- لسان العرب: مادة غمض.

2- المناقب للكشفي: الباب الأول.

وحيث إنّ العالم اليوم أضحي كالبحر يأكل فيه القوي الضعيف بمختلف الوسائل كان حرياً بالمسلمين والمؤمنين خاصة أن يعودوا إلي كتاب الله الكريم ويستمدّوا منه المنهجية الصالحة لخلاصهم من هذه المعضلة الكبيرة . فمن أجل إنقاذ المجتمع الإسلامي من الضياع علي امتداد الزمان أخذت هذه الآية تدعو المؤمنين قائلة : «أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ (1)» فماذا يعني هذا الطيب ؟

الجواب عليه : ربما يفهم من الطيب هنا معنيان متكاملان هما :

(1) الطيب : الطاهر .. طهارة مادية محضة .. بأن يكون الشيء (مستساغاً ومرغوباً فيه .. ومحبباً إلي النفس الإنسانية بذاته . ويقابل هذا الخبيث : وهو الذي يتنفر ويشمئز منه الطبع الإنساني ..

وهذا مشمول بلا شك في الآية الشريفة إذ أنّها تدعو الإنسان لأن ينفق من الأشياء المرغوبة والمحبوبة لديه . لا المكروه التي يتقرّز منها هو أو عياله .

وهنا لا بأس بذكر القصّة التالية لندرك مدى التزام أئمّتنا عليهم السلام بإنفاق الطيب ممّا يحبّون ، فعن هشام بن سالم ، قال : كان علي بن الحسين (عليه السلام) يعجبه العنب ، فكان ذات يوم صائماً ، فلمّا أفطر كان أوّل ما جاء العنب ، أتته أمّ ولد له بعنقود فوضعت بين يديه ، فجاء السائل فدفع إليه فدسّت إليه - أعني إلي السائل - فاشترته منه ، ثمّ أتته فوضعت بين يديه فجاء سائل آخر فأعطاه ففعلت أمّ الولد مثل ذلك ، حتي فعل ثلاث مرّات ، فلمّا كان في الرابع أكله (2).

ص: 101

1- سورة البقرة (2) : الآية 267 .

2- الكافي : ج6 ص350 ح3 .

هذا هو شأن أئمتنا المعصومين ، فهم دائماً يؤثرون رضي الله علي أنفسهم ، ولكن ماذا عن المسلمين ؟ فهل إنهم يقتدون بالائمة الأطهار عليهم السلام أم إنهم يقدمون الردي للغير ويحتفظون بالجدد لأنفسهم ؟ كما يبدو أن أكثر الناس اختاروا الدرب الآخر ، فهم دائماً يقدمون الرخيص الزهيد للغير ويحتفظون بالجدد المرغوب لأنفسهم ، والواقع الخارجي خير دليل علي ذلك .

وليس هذا الشيء فقط في عصرنا الراهن وإنما هو في كل عصر وزمان حتي في عهد الرسول صلي الله عليه وآله كان بعض المسلمين الأوائل هكذا ، ففي الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ... (1) » قال : ((كان رسول الله صلي الله عليه وآله إذا أمر بالنخل أن يزكى يجي قوم بألوان من التمر وهو من أردأ التمر يؤدونه من زكاتهم تمر يقال له الجعرور والمعافرة ، قليلة اللحاء عظيمة النوي ، وكان بعضهم يجي بها عن التمر الجيد فقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((لا تخرصوا هاتين التمرتين ولا- تجبئوا منهما بشيء وفي ذلك نزل : «وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ» (2))) والاعراض أن يأخذ هاتين التمرتين)) (3).

(2) الطيب : هو بمعني الطهارة المعنوية .. والتي تعني سلامة المال من الحرام .. أي يكون حلالاً لا من حرام كأموال السحت والربا والزنا والسرقة والنهب وغير ذلك من الموارد المحرمة . ويقابل الطيب بهذا المعني الخبيث أي الحرام أو ما فيه حرام كالموارد السابقة .

فالإنفاق من المؤمن ينبغي أن يكون من الطيبات وبطبيعة النفس ورضاً تاماً

ص: 102

- 1- سورة البقرة (2) : الآية 267 .
- 2- سورة البقرة (2) : الآية 267 .
- 3- الكافي : ج4 ص48 ح9 .

وكامل وعن قناعة ويقين أنّ الله - سبحانه - هو الرازق ويضاعف لمن يشاء ، فالحسنة بعشر أمثالها أو عشرات حتى ...

أجل فالمال الذي ينفق منه ينمو ويزداد ، وكما يقولون زكاة المال إنفاقه ..

بركات الإنفاق

وحيث بلغ بنا المقام إلي قضية البركة التي يفيضها الله تعالى علي المال الذي ينفق منه ، فلا بأس بذكر الحادثة التالية :

فعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال : ((جاء رجل إلي رسول الله صلي الله عليه وآله وقد بلي ثوبه ، فحمل إليه إثني عشر درهماً ، فقال : يا علي ، خذ هذه الدراهم فاشتر لي ثوباً ألبيه)) .

قال علي (عليه السلام) : ((فجنّت إلي السوق فاشترت له قميصاً باثني عشر درهماً وجئت به إلي رسول الله ، فنظر إليه فقال : يا علي ، قميص دونه يكفيني ، أتري صاحبه يُقيلنا ؟ قلت : لا أدري . فقال : انظر . فجنّت إلي صاحبه فقلت : إنّ رسول الله صلي الله عليه وآله قد كره هذا ، يريد ثوباً دونه ، فأقلنا فيه ، فردّ عليّ الدراهم ، وجئت بها إلي رسول الله صلي الله عليه وآله ، فمشي معي إلي السوق لبيتاع قميصاً ، فنظر إلي جارية قاعدة علي الطريق تبكي ، فقال لها رسول الله صلي الله عليه وآله : ما شأنك ؟ قالت : يا رسول الله ، إنّ أهل بيتي أعطوني أربعة دراهم لأشتري لهم بها حاجة فضاعت ، فلا أجسر أن أرجع إليهم . فأعطاها رسول الله صلي الله عليه وآله أربعة دراهم وقال : ارجعي إلي أهلك ، ومضي رسول الله صلي الله عليه وآله إلي السوق ، فاشترى قميصاً بأربعة دراهم ، ولبسه وحمد الله ، وخرج فرأى رجلاً عرياناً يقول : من كساني كساه الله من ثياب الجنّة ، فخلع رسول الله صلي الله عليه وآله قميصه الذي اشتراه وكساه السائل ، ثم رجع إلي السوق فاشترى بالأربعة التي بقيت قميصاً

آخر ، فلبسه وحمد الله . ورجع إلي منزله فإذا الجارية قاعدة علي الطريق ، فقال لها رسول الله صلي الله عليه وآله ما لك لا تأتين أهلك ؟ قالت : يا رسول الله ، إني قد أبطأت عليهم وأخاف أن يضربوني . فقال لها رسول الله صلي الله عليه وآله مربي بين يدي ودليني علي أهلك . فجاء رسول الله صلي الله عليه وآله حتي وقف علي باب دارهم ، ثم قال : السلام عليكم يا أهل الدار . فلم يجيبوه ، فأعاد السلام فلم يجيبوه ، فأعاد السلام ، فقالوا : عليك السلام يا رسول الله ، ورحمة الله وبركاته فقال لهم : ما لكم تركتم إجابتي في أول السلام والثاني ؟ قالوا : يا رسول الله ، سمعنا سلامك فأحببنا أن نستكثر منه . فقال رسول الله صلي الله عليه وآله : إن هذه الجارية أبطأت عليكم فلا تؤاخذوها . فقالوا : يا رسول الله ، هي حرّة لممشاك . فقال رسول الله صلي الله عليه وآله : الحمد لله ، ما رأيت اثني عشر درهماً أعظم بركة من هذه ، كسا الله بها عريانيين ، وأعتق بها نسمة)) (1).

نعم ، فمن خلال الانفاق الطيب تحلّ مشاكل المجتمع وتيسر أمور العباد ويعمّ الخير في البلاد ، فطوبى للذين ينفقون من طيبات أموالهم ويصلون بها مستضعفي المسلمين ممّن لا عائل لهم ولا معين .

ص: 104

1- الخصال : ج2 ص491 ح69 .

(10) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» (سورة البقرة : 278)

في رحاب المفردات

ذروا : دعوا ، ففي الآية الشريفة : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ (1)» وقد وردت هذه المفردة في كلمات أمير المؤمنين وسيّد الموحّدين (عليه السلام) كثيراً ، فمنها قوله (عليه السلام) : ((ذر الطمع والشره وعليك بلزوم العقّة والورع)) (2).

وقال الإمام علي (عليه السلام) : ((ذر ما قلّ لما كثر وما ضاق لما اتّسع)) (3). وقال (عليه السلام) : ((ذر الاسراف مقتصدًا واذكر في اليوم غداً)) (4). وقال الإمام علي (عليه السلام) : ((ذر العجل فإنّ العجل في الأمور لا يدرك مطلبه ولا يحمّد أمره)) (5).

ص : 105

1- سورة الجمعة (62) : الآية 9 .

2- نهج البلاغة : ق 6691 في ذمّ الطمع .

3- نهج البلاغة : ق 2601 في الترغيب إلي الآخرة .

4- نهج البلاغة : ق 8124 في ذمّ الإسراف وآثاره .

5- نهج البلاغة : ق 5791 في العجول لا إصابة له .

روي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): أنّ الوليد بن المغيرة كان يربي في الجاهلية، وقد بقي له بقايا عليّ ثقيف، فأراد خالد بن الوليد المطالبة بها بعد أن أسلم، فنزلت الآية. وقال السدي وعكرمة: نزلت في بقية من الربا كانت للعبّاس وخالد بن الوليد، وكانا شريكين في الجاهلية، يسلفان في الربا إلي بني عمرو بن عمير، ناس من ثقيف. فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا. فأنزل الله هذه الآية، فقال النبي صلي الله عليه وآله: ((عليّ أنّ كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العبّاس ابن عبدالمطلب، وكل دم من دم الجاهلية موضوع، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب)) الذي كان مرضعاً في بني ليث فقتله هذيل، وقال مقاتل: نزلت في أربعة أخوة من ثقيف: مسعود وعبد ياليل وحبيب وربيعة، وهم بنو عمرو ابن عمير بن عوف الثقفي، وكانوا يداينون بني المغيرة، وكانوا يربون، فلما ظهر النبي صلي الله عليه وآله علي الطائف، وصالح ثقيفاً، أسلم هؤلاء الأخوة الأربعة، فطلبوا رباهم من بني المغيرة، واختصموا إلي عتاب بن أسيد، عامل رسول الله علي مكّة، فكتب عتاب إلي النبي بالقصة، فأنزل الله الآية (1).

عبر من الآية

أمر من الله تعالي إلي عباده المؤمنين بترك الربا وفوائده فضلاً عن التأكيد علي حقيقة الإيمان لدي الإنسان بداية ونهاية.

ص: 106

كما أنه تعالي استعمل الشرط في قوله ((إن كنتم مؤمنين)) في نهاية الآية المباركة مع أن النداء في بدايتها متوجه إلي المؤمنين فقط ، فلماذا ؟

الجواب عليه : إن هذا غرار الإنسان لما ينهي ويزجر غيره فيقول له : اتق الله ولا تؤذ جارك .. أو اتق الله وبرّ والديك .. أي اجعل التقوي هي الدافعة للعمل المطلوب المأمور به ، والآية لما تقول : «اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ⁽¹⁾» فمرادها أن التقوي هي التي يجب أن تزجركم وتجعلكم تتركون ما بقي من ربا الأموال السالفة ..

بين الربا والتجارة

الربا في الإسلام : هو بيع أحد المثليين بالآخر مع زيادة عينية أو حكمية ، أو اقتراض مشروط بالزيادة ، وله نوعان :

1 - ما يكون في البيع : ويثبت بشرطين ، الجنسية الواحدة والكيل .

2 - ما يكون في القرض : ويثبت مع اشتراط النفع .

ولا يخفي أن الربا هو عمل الكسالي والمتطفلين علي المجتمع ، إذ أن أرباب الربا ممن يتعاملون بهذا الضرب من البيع غالباً ما يحوزون علي الأموال الطائلة دون أن يجدوا في كسبها أو تحصيلها وإنما يتعاملون مع الآخرين ممن باعوا حظهم بالأدني ويستدرّون منهم الفوائد الكبيرة دون أي مقابل .

من جانب آخر فإن التجارة والمرابحة هي عمل المجدين والمثابرين في المجتمع ، لذلك فإن الإسلام العزيز أكد علي ترك الدعة والخمول والاتكال علي الآخرين ، ففي الحديث عن المعلّي بن خنيس ، عن أبيه قال : سألت أبو عبد الله (عليه السلام) عن رجل وأنا

ص: 107

1- سورة البقرة (2) : الآية 278 .

عنده فقيل له : أصابته الحاجة ، قال : ((فما يصنع اليوم؟)) قيل : في البيت يعبد ربّه قال : ((فمن أين قوته؟)) قيل : من عند بعض إخوانه فقال أبو عبد الله (عليه السلام) : ((والله للذي يقوته أشدّ عبادة منه)) (1). وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال)) (2). وقال أبو عبد الله (عليه السلام) لهشام الصيدلاني : ((يا هشام إن رأيت الصّفين قد التقيا فلا تدع طلب الرزق في ذلك اليوم)) (3).

ولم يقتصر الشارع المقدّس علي الحثّ نحو التكبّب وطلب الرزق الحلال فحسب ، وإنّما أخذ يرّبّي التجار والكسبة علي آداب الترزق وطلب الحلال في المعيشة ، فعن الإمام الصادق (عليه السلام) عن أبيه (عليه السلام) أنّه قال لبعض أصحابه : ((كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) عندكم بالكوفة يغتذي كل يوم من القصر ، فيطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً ومعه الدرّة علي عاتقه وكان لها طرفان وكانت تسمّي السبيبة . قال : فيقف علي أهل كل سوق فينادي فيهم : يامعشر التجار ، قدّموا الاستخارة وتبرّكوا بالسهولة ، واقربوا من المبتاعين ، وتزيّنوا بالحلم ، وتناهوا عن اليمين ، وجانبوا الكذب ، وتجاّفوا عن الظلم ، وأنصفوا المظلومين ، ولا تقربوا الربا ، وأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين . قال : فيطوف في جميع الأسواق - أسواق الكوفة - ثم يرجع فيقعد للناس . قال : وكان إذا نظروا إليه قد أقبل إليهم وقال : ((يامعشر الناس)) أمسكوا أيديهم ، وأصغوا إليه بأذانهم ، ورمقوه بأعينهم حتي يفرغ (عليه السلام) من كلامه ، وإذا فرغ قالوا : السمع والطاعة يا أمير المؤمنين)) (4).

ص: 108

- 1- الكافي : ج 5 ص 78 ح 4 .
- 2- الكافي : ج 5 ص 78 ح 6 .
- 3- الكافي : ج 5 ص 78 ح 7 .
- 4- الكافي : ج 5 ص 151 ح 3 .

وكما أنّ الإسلام العزيز حثّ ودعا بشدّة إلى الترزق والاكْتساب الحلال فإنّه بالمقابل حدّر بشدّة من الطرق غير الشرعية غرار الربا المحرّم وغيره .. ، فنحن نقرأ في القرآن الكريم : «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِي الصَّدَقَاتِ (1)» وفي آية أخرى : «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (2)». وفي آية أخرى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً (3)» وفي آية أيضاً : «وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤُوا عِنْدَ اللَّهِ (4)».

حرمة الربا في الأخبار

أمّا ما ورد من الروايات في ذمّ الربا والتحذير منه ، فعن أبي جعفر (عليه السلام) قال : قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((أكل الربا ومؤكّله وكتبه وشاهده فيه سواء)) (5). وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال : ((أخبث المكاسب الربا)) (6).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((درهم ربا أعظم عند الله من ثلاثين زنية كلّها بذات محرّم مثل خالة وعمّة)) (7). وقال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((أكل الربا يؤدّب بعد البيّنة ، فإن عاد أدّب ، وإن عاد قتل)) (8).

ص : 109

- 1- سورة البقرة (2) : الآية 276 .
- 2- سورة البقرة (2) : الآية 275 .
- 3- سورة آل عمران (3) : الآية 130 .
- 4- سورة الروم (30) : الآية 39 .
- 5- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص274 ح3993 .
- 6- الكافي : ج5 ص147 ح12 .
- 7- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص274 ح3991 .
- 8- تهذيب الأحكام : ج10 ص98 ح37 .

وعلي كل فإن جميع هذه المآثر تؤكد ما نصت عليه الآية التي نحن في رحابها خاصة أن الآية التي تلي ما نحن فيه مباشرة تنص وتقول : «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ(1)» أي أن الذي لا يترك الربا ويتعامل به فإنه سيحارب الله ورسوله وأهل بيته ويناصبهم العدا - والعياذ بالله - ولا شك أن محارب هؤلاء خاسر كافر في الدنيا وهو في الآخرة يخلد في العذاب مهاناً .

وقد ذهب بعضهم إلى أن الآية تعني : أيقنوا أنكم تستحقون القتل في الدنيا ، والنار والعذاب في الآخرة ، لمخالفة أمر الله ورسوله ..

إذ أن معني الحرب : هي العداوة لله ورسوله ..

فأكل الربا يعدّ من الكبائر العظام في التشريع الإسلامي ، وهو بؤرة فساد وإفساد في المجتمع الأكبر إذ إنه لا ينشر سوي الدمار والضياع للشعوب .

من حُكْم حرمة الربا

ليس هناك شك أن حكمة تحريم الربا هي أمور ترتبط بمصالح الأفراد ورعاية شؤون المجتمع الإسلامي الأكبر ، فعن هشام بن الحكم قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن علة تحريم الربا ، قال : ((إنه لو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه فحرم الله الربا لنفر الناس عن الحرام إلي التجارات وإلي البيع والشراء فيفضل ذلك بينهم في القرض)) (2).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((إنما حرم الله عز وجل الربا لئلا يمتنع الناس من

ص: 110

1- سورة البقرة (2) : الآية 279 .

2- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص 567 ح 4937 .

وقال أبو جعفر (عليه السلام) : ((إنّما حرّم الله الربا لئلا يذهب المعروف)) (2).

وعن محمّد بن سنان أنّ أبا الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله عن علّة تحريم الربا : ((إنّما نهى الله عزّ وجلّ عنه لما فيه فساد الأموال لأنّ الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمان الآخر باطلاً ، فبيع الربا وشرائه وكس علي كل حال ، علي المشتري وعلي البائع ، فحظر الله تبارك وتعالى علي العباد الربا لعلّة فساد الأموال كما حظر علي السفيه أن يدفع إليه ماله لما يتخوّف عليه من إفساده حتي يؤنس منه رشداً ، فلهمذه العلّة حرّم الله الربا وبيع الدرهم بدرهمين يدأ بيد ، وعلّة تحريم الربا بعد البيّنة لما فيه من الاستخفاف بالحرام المحرّم ، وهي كبيرة بعد البيان وتحريم الله تعالي لها ولم يكن ذلك منه إلا استخفافاً بالمحرّم للحرام والاستخفاف بذلك دخول في الكفر ، وعلّة تحريم الربا بالنسيئة لعلّة ذهاب المعروف وتلف الأموال ورغبة الناس في الربح وتركهم القرض وصنائع المعروف ولما في ذلك من الفساد والظلم وفناء الأموال)) (3).

فعلي الإنسان أن يترك التعامل الربوي كلّّه ، وإن كان جاهلاً وذلك بعد معرفة حرّمته فيردّ الأموال الربوية ويترك ماله فقط ، وأمّا عند الاختلاط فيأكل ما يرتاح له ويطمئن من حلّيته ، وهذا ما نستفيده من القصّة التالية :

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((أتي رجل أبي فقال : إني ورثت مالاً وقد علمت أنّ صاحبه الذي ورثته منه قد كان يربو وقد أعرف أنّ فيه رباً واستيقن ذلك وليس

ص: 111

1- تهذيب الأحكام : ج 7 ص 17 ح 72 .

2- من لا يحضره الفقيه : ج 3 ص 566 ح 4936 .

3- من لا يحضره الفقيه : ج 3 ص 566 ح 4933 .

يطيب حلالي لحال علمي فيه وقد سألت فقهاء أهل العراق وأهل الحجاز فقالوا: لا يحلّ أكله، فقال أبو جعفر (عليه السلام): إن كنت تعلم بأنّ فيه مالاً معروفاً رباً وتعرف أهله فخذ رأس مالك وردّ ما سوي ذلك، وإن كان مختلطاً فكله هنيئاً مريئاً فإنّ المال مالك واجتنب ما كان يصنع صاحبه))⁽¹⁾.

فالربا في الحقيقة والواقع من أخطر أمراض المجتمع وواجب العقلاء، وأصحاب الدين والفكر والسلطة والنفوذ التعاون لمحاربهه بشتي الوسائل والطرق.

ص: 112

1- الكافي: ج 5 ص 145 ح 5.

(11) - «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذي عليه الحق سديها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم اقتط

عَمَدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (سورة البقرة : 282)

في رحاب المفردات

تداينتم : الدين .. يقال دنت الرجل أخذت منه ديناً وأدنته جعلته دائناً وذلك بأن تعطيه ديناً(1). ونحن نقرأ في القرآن العزيز : «فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ(2)».

ليملل : الاملال إملاال الكتاب ليكتب(3) ، ومنه قوله تعالى : «فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلِّهِ لِأُمَّهِ بِالْعَدْلِ(4)».

يبخس : البخس هو الظلم ، تبخس أخاك حقه فتنقصه ، كما ينقص الكيال

ص: 114

1- مفردات الراغب : ص 177 .

2- سورة النساء (4) : الآية 11 .

3- كتاب العين : مادة ملل .

4- سورة البقرة (2) : الآية 282 .

مكياله فينقصه (1) ففي الآية الشريفة: «وَشَرُّهُ بِشَمَنِ بَخْسٍ (2)» أي: ناقص عن حقه. وفي آية أُخري: «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ (3)».

سفيهاً: السفه والسفاه والسفاهة: نقيض الحلم، وسفه الرجل: صار سفيهاً (4).

تساموا: السأم هو الملل. يقال سئم يسأم سأمًا: إذا ملّ من الشيء، وضجر منه (5)، ففي الآية الشريفة: «لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤَسِّ قَنُوطٌ (6)». وفي آية أُخري: «يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (7)».

أقسط: يقال أقسط يقسط، فهو مقسط إذا عدل، وقسط يقسط، فهو قاسط إذا جار، ويقال: أقسط وقسط إذا عدل (8). وقد وردت كلمة القسط في القرآن في موارد متعددة منها: «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ (9)»

ص: 115

1- كتاب العين: مادة بخرس.

2- سورة يوسف (12): الآية 20.

3- سورة الأعراف (7): الآية 85.

4- كتاب العين: مادة سفه.

5- لسان العرب: مادة سأم.

6- سورة فصلت (41): الآية 49.

7- سورة فصلت (41): الآية 38.

8- لسان العرب: مادة قسط.

9- سورة النساء (4): الآية 3.

وفي آية أخرى : «فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصِّمْ لِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا(1)». وفي آية أخرى : «لَا يَنْهَأُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ(2)».

شأن النزول

أخرج علامة الشافعية محمد بن أحمد بن عثمان (الذهبي) في ميزانه عن عكرمة عن ابن عباس قال سمعته يقول : ((ما نزلت آية فيها «يا أيها الذين آمنوا» إلا وعلي رأسها وأميرها وشريفها ، ولقد عاتب الله عز وجل أصحاب محمد صلي الله عليه وآله في غير آية من القرآن وما ذكر علياً إلا بخير)) (3).

عبر من الآية

آية عظيمة الشأن ، في البناء وفي المعنى علي حدّ سواء .. فبناؤها أكبر بناء كلامي بين آيات القرآن المجيد ، لأنها أكبر آية فيه ، وأما المعنى لأنها ناظمة لمسألة - أو لمسائل - هي في غاية الدقة بالنسبة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والمالية منها بالتحديد .

إذ أنّ الدين ليس مجرد عبادات ولا- طقوس وأذكار ومساجد ، ولا- مسبحة وذقن طويل وعمامة كبيرة ، ولا تصوّف وانزواء في الصوامع وجنات المساجد

ص: 116

1- (01) سورة الحجرات (49) : الآية 9 .

2- سورة الممتحنة (60) : الآية 8 .

3- ميزان الاعتدال : ج 3 ص 311 .

المهجورة وما إلي ذلك من المغالطات والبدع التي لم ينزل الله بها من سلطان .

والدين ليس مجرد علاقة روحية صرفة بين الخالق والمخلوق أو بين العبد وسيده ومولاه بل هو مجموعة من القوانين الناظمة للكون والمجتمع والحياة كلها ، سواء علي مستوي الأفراد ، أو المجتمعات والدول والأديان أو حتي السموات والأرض .

فالاقتصاد والسياسة والطب وما شاكلها من مستلزمات الحياة القديمة منها والحديثة ينظّمها ويقودها الدين الحنيف لا كارل ماركس أو لينين ومن حذا حذوهم ممّن ادّعوا العلم وحاربوا الدين وعتوه بالتخلّف تارةً والجمود والرجعية تارةً أُخري ، فالإنسان - وكما أثبتت التجارب - عاجز عن تشريع أو تقنين نظام أو فكر أو منهاج ينظّم الكون الواسع ويشخص وظائف المخلوقات ويحدّد للبشرية وظيفتها اللازمة ازاء كل الأشياء المحدقة بها .

وليس ذلك فحسب ، بل في كثير من الأحيان يعجز هذا الإنسان عن تشخيص مصلحته فيبقي فترة من الزمن حائراً يقلّب فكره ويراجع حساباته ومعادلاته دون أن يصل إلي شيء مذكوراً ، وإثما يتخبط في متاهات طويلة لا أول ولا آخر .

لذلك - ومن باب التسليم والقناعة - ينبغي للإنسان أن يلوذ في شتّى أمور حياته إلي كهفه الحصين وغيائه المتين ، صاحب الرأي الفريد وهو الشارع المقدّس : فالله سبحانه وتعالى أعلم بمصالحنا ممّا أنفسنا ، وهو أقرب إلينا من جبل الوريد ، وهو خير معين ومناصر لمن استنصره واستغاث به ، ولكن فقط ينبغي لهذا العبد أن يتوجّه ويستمدّ العون منه .

وهذه الآية من تلك الآيات العظيمة التي تنير للبشرية دربها في تعاملها اليومي

وتفتح لها آفاق وشرائط التعامل الاقتصادي المنشود المفترض إيجاد بين الأوساط الاجتماعية المسلمة .

ففي هذه الآية تطرح مسألة مهمّة في التعامل الاقتصادي ألا وهي مسألة الدين والتداين فما هو الدين ؟ وما هي إرشادات الآية الشريفة بالنسبة له ؟

بداية الدين يختلف عن القرض من حيث المعني والشمول ..

فالقرض : هو أن تعطي لشخص ما مالاً إلي أجل محدّد ثمّ تسترجعه منه .

أمّا الدين : فهو كلّ ما بذمتك للغير .. كأن تشتري داراً أو متاعاً ولا تدفع الثمن فأنت مدين بالثمن أو الباقي له في ذمتك .. والدين يشمل القرض وليس العكس .

وهذه الآية تخاطب المؤمنين قائلة لهم : «إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ ... فَآكُتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ بِالْعَدْلِ(1)» ولقانونية المعاملة وحفظها قال تعالي : «وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ(2)» والعدّة في هذه الدقّة في التعامل لأنّه تعليم كما قال تعالي : «وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» حتي لا يطغوا بعضكم علي بعض «وَاتَّقُوا اللَّهَ» حقّ تقاته وائتمروا بالأوامر الإلهية ولا يخشي أحدكم الآخر لأنّ «اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» .

دروس وعبر

ولا يخفي علي المطلع أنّ الآية الكريمة فيها مجال واسع للبحث والتدقيق ، ونحن هنا نمرّ علي بعض العبر - حسب المقام - ونترك التوسّع إلي بحث آخر ، فمن أهمّ ما يستفاد من الآية الشريفة :

ص: 118

1- سورة البقرة (2) : الآية 282 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 282 .

(1) وجوب كتابة الدين مهما كان قليلاً أو كثيراً ، ولفظة فاكتبوه واضحة وصريحة إذ أنها أمر تدلّ علي الوجوب ، وفي الحديث أنّ رسول الله صلي الله عليه وآله كان يعدّد الذين لا- يستجاب دعائهم فقال : ((من أذان رجلاً- ديناً إلي أجل فلم يكتب عليه كتاباً ولم يشهد عليه شهوداً))⁽¹⁾.

(2) علي الكاتب أن يكتب بالعدل والحق والقسط خاصّة إذا لم يكن أحدهما - الطرفين - يجيد القراءة والكتابة - كما كان المسلمون الأوائل في صدر الإسلام حيث كان الكثير منهم لا يجيد الكتابة ولا يحسن القراءة .

(3) إنّ صاحب الحق هو الذي يملي علي الكاتب وهو المقترض لأنه هو الآخذ للمال وهو المطالب به فيما بعد ، وعليه أن يعترف بلسانه أنّه استدان هذا المبلغ من المال من ذلك الشخص ، فلا يبقى له أي مجال في الاحتيال أو الانكار أو عدم الوفاء للدين الذي عليه .

(4) الاشهاد علي العقد والدين من أجل صحة المعاملة وإثبات الحدّ الشرعي إذا ما أنكر أحد الطرفين حقّ الطرف الآخر وأجحف به سواء أكان الاجحاف في المال أم الزمن المحدّد للدفع ، وبالطبع فإنّ الشهداء يجب أن يكونوا مرضيين من الطرفين المتعاقدين وعلي الشاهدين الاشهاد بالحقّ عند الضرورة أو لما يطلب منهم .

(5) يجب تقييد الشرط والدين بالزمن إلي أجله أي إلي وقت الدفع من قبل المدين إلي صاحب الدين .

(6) وفي نهاية المطاف تذكّر الآية المباركة المؤمنين بالتقوي وتأمرهم بذلك حيث قال تعالي : «وَاتَّقُوا اللَّهَ» وذلك لأنّ التقوي هي أساس الإيمان وهو أساس

ص: 119

عود علي بدء

بعد كل هذه الفوائد العظيمة التي أشرنا إليها باختصار ، نقول إن النداء الرباني في الآية الكريمة تعليمي وتوجيهي لحفظ الحقوق وبناء المجتمع المثالي .

أما إنه تعليمي لأنه يعلم الأمة أصول المعاملة المالية والقروض وكيفية الكتابة والشهود علي العقود وعدد الشهود وعلة جعل امرأتين محل الرجل الواحد .

وأما كونه توجيهياً ، فمن أجل صيانة المجتمع من الانحلال والاضمحلال بانتشار المعاملات غير الشرعية فيه واختلاط الحابل بالنابل ، وعدم التمييز بين صاحب الحق عن غيره فيقع المجتمع في متهات لا- أول لها ولا- آخر وتضيع الحقوق بين الناس ، وتسود الأنانيات والمحسوبيات وما أشبه ذلك .

لذلك فقد أكدت الروايات أيضاً علي قضية المكاتبه في الدين ، فعن أبي عبدالله(عليه السلام) قال : ((أربعة لا يستجاب لهم دعوة ، أحدهم رجل كان له مال فأدانه بغير بيّنة ، يقول الله عزوجلّ : ألم أمرك بالشهادة))⁽¹⁾.

وعنه(عليه السلام) كذلك : ((من ذهب حقه علي غير بيّنة لم يؤجر))⁽²⁾.

وعلي الرغم أن الشارع يؤكّد علي مسألة الكتابة في الدين حتي لا تضيع حقوق الناس ، فهو في نفس الوقت يدعو المستدين إلي الوفاء بالدين ، فعن أبي عبدالله(عليه السلام) قال : ((أيما مؤمن حبس مؤمناً عن ماله وهو محتاج إليه لم يذق واللّه من

1- الكافي : ج 5 ص 298 ح 2 .

2- الكافي : ج 5 ص 298 ح 3 .

طعام الجنة ولا يشرب من الرحيق المختوم)) (1).

وروي ((أن من كان عليه دين ينوي قضاءه ينصب من الله حافظان يعينانه علي الأداء ، فإن قصرت نيته نقصوا عنه من المعونة بمقدار ما يقصر من نيته)) (2).

من قصص التاريخ

إن التاريخ مليئٌ بقصص المؤمنين الذين آثروا الوفاء بأداء الدين علي اغتصاب حقوق الغير ، رغم أنهم لم يتكاتبوا أصلاً .

فقد نقل إن ابن عمير كان رجلاً بزازاً وكان له علي رجل عشرة آلاف درهم فذهب ماله وافتقر فجاء الرجل فباع داراً له بعشرة آلاف درهم وحملها إليه فدق عليه الباب فخرج إليه محمد بن أبي عمير .

فقال له الرجل : هذا مالك الذي لك عليّ فخذ .

فقال ابن أبي عمير : فمن أين لك هذا المال ورثته ؟

فقال : لا .

قال : وهب لك ؟

قال : لا .

ولكنني بعت داري الفلاني لأقضي ديني .

فقال ابن أبي عمير : حدّثني ذريح المحاربي ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال :

((لا يخرج الرجل عن مسقط رأسه بالدين)) ، ارفعها فلا حاجة لي فيها ، والله

ص: 121

1- وسائل الشيعة : ج16 ص289 ح21841 .

2- تهذيب الأحكام : ج6 ص185 ح9 .

إني محتاج في وقتي هذا إلي درهم ، وما يدخل ملكي منها درهم(1).

أجل ، كما ينبغي الالتزام بالآداب الإسلامية الواردة في الدين غرار الكتابة وغيرها كذلك ينبغي للدائن والمستدين أن يراعى حال بعضهما ويفيا بالدين ويجعلا الإيمان هو الرادع الوحيد عن أخذ مال الغير لا القوة والأدلة غرار الكتابة وغيرها .

ص: 122

1- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص190 ح3715 .

(12) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ» (سورة آل عمران : 100)

في رحاب المفردات

تطيعوا : الطوع هو الانقياد وبيضاؤه الكره ، والطاعة أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر والارتسام فيما رسم ، قال تعالى : «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» (1).

أهل : أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد ، فأهل الرجل في الأصل من يجمعه وإياهم مسكن واحد ثم تجوز به ف قيل أهل بيت الرجل لمن يجمعه وإياهم نسب (2).

وقد جاء ذكرهم في القرآن الكريم في آيات عديدة منها : «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ

ص: 123

1- سورة محمد (47) : الآية 21) مفردات الراغب : ص 318 .

2- مفردات الراغب : ص 25 .

جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ (1)» ومنها: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ (2)». ومنها: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ (3)».

شأن النزول

قيل إنها نزلت في الأوس والخزرج لما أغري قوم من اليهود بينهم بذكر حروبهم في الجاهلية، ليفتنوهم عن دينهم. وقيل نزل قوله: «وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ» في مشركي العرب (4).

عبر من الآية

توجيه من الله تعالى إلي عباده المؤمنين بأن يعبادي المؤمنين .. يامن استقر الإيمان في قلوبكم وبين جنات نفوسكم الطاهرة لا تغفلوا عن امتلاك الوعي الحقيقي لما يريده أعدائكم ومناوئكم .

فلا تتوقعوا من عدوكم الإخلاص لكم إلا ومن وراء ذلك مكيدة ومكر قد أعدّه لكم .

ص: 124

1- سورة المائدة (5) : الآية 15 .

2- سورة المائدة (5) : الآية 59 .

3- سورة المائدة (5) : الآية 77 .

4- مجمع البيان : ج 4 مج 2 ص 353 .

ولا تتوقعوا من عدوكم ابتسامة مخلصه إلا ومن ورائها أحقاد وثرارات دفينه قد دفنوها لكم . فلا تتوقعوا منهم أن يودّوكم أبداً . بل توقعوا منهم كل شيء ، فهم ينتظرون لحظة الصفر التي تدقّ فيها أجراس الحرب ضدّكم فيشتتوا عليكم حروباً عشوائية لا أول لها ولا آخر .

وهذه الآية الشريفة جاءت لتحذّر المؤمنين من الغفلة والركون إلي أهل الكتاب الذين بقوا طوال الدعوة الإسلامية يؤجّجون نيران الفتن بين المسلمين علّهم يصلون إلي غايتهم العظمي وهي ارتداد الناس عن الإسلام وتفريقهم عن شخصية الرسول صلي الله عليه وآله .

وهذا التحذير الرباني في الآية الشريفة جاء من باب أشبه ما يكون بسدّ الذرائع ، وذلك لتفويت آية فرصة للأعداء وغيرهم سواء أكانوا من أهل الكتاب أم غيرهم إلا أنّ مكائد أهل الكتاب آنذاك كانت الأخطر لأنّها كانت تأتي باسم الدين وباسم رسل الله العظام كموسي الكليم (عليه السلام) ، وعيسي المسيح (عليه السلام) وذلك عبر أحاديث كانوا يروونها كذباً وزوراً علي أنبيائهم ، أو باسم الكتب المنزلة من السماء .

من هذا المنطلق كان أهل الكتاب يستدرجون بعض البسطاء من المؤمنين فيسمعون كلامهم ويرتّبون عليه الأثر الأمر الذي يخلق في أوساط المسلمين مشاكل كثيرة .

وهذا الاستدراج الخطير قد يؤدّي بالمسلمين إلي الاقتتال أو إلي المهالك والتشتت والانشغال بالمنازعات والمخاصمات الجماعية والفردية فتضعف قواهم ويتضعف موقفهم العام فضلاً عن تزلزل إيمانهم وعقائدهم .

أجل ، فلمّا يغفل المؤمنون عن إيمانهم ويصغون إلي مناوئهم فإنّهم يصلون إلي عواقب لا تحمد وهذا ما أكّده الآية الشريفة ..

لذلك ومن باب التوعية جاءت هذه الآية لتوضّح معادلة مهمّة ألا وهي أنّ إطاعة فريق من أهل الكتاب يؤدّي بالنهاية إلي الارتداد ..

حقائق تقرأها الآية المباركة

ولكي تكون الصورة أكثر وضوحاً فلا بأس من الإشارة إلي أمور وهي :

(1) أنّ الآية الشريفة تقول فريقاً وهذا يدلّ علي أنّ المراد ليس كل أهل الكتاب ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى(1)».

(2) الآية ساكتة عن مقدار الاطاعة وهذا إنّما يدلّ أنّه ولو كان الاطاعة لهم بالشّيء القليل فهذا يؤدّي إلي الارتداد إذ أنّ هذه الطائفة مهما قدّم لهم المسلمون من تنازلات فإنّهم لا يرضون عنهم ، وهذا ما تشير إليه الآية الشريفة حيث قالت : «وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ(2)».

(3) أنّ الآية قرنت طاعة بعض أهل الكتاب بالارتداد إلي الكفر وهذا يؤكّد حقيقة مهمّة قد تكون غائبة عن أذهان الكثير وهي أنّ المسلم لا ينبغي له أن يجعل زمام أموره بيد أعدائه ، فإنّهم بالتالي وفي يوم ما سيسحبون البساط من تحت أقدامه ولو بالتدرّج ويجرونه إلي كفرهم وإحادهم .

والتاريخ الإسلامي حافل بالقصص والأحداث التي تدلّ علي تأمر أهل الكتاب علي المسلمين وعملهم المستمرّ واللّا منقطع من أجل صدّهم عن دينهم .

ص: 126

1- سورة المائدة (5) : الآية 82 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 120 .

ففي أكثر من مرة تعرّض اليهود لإيذاء النبي الأعظم صلي الله عليه وآله ، حتي بلغ بهم الأمر إلي نصب حيلة لاغتياله فأنجاه الله تعالى من ذلك ، ففي التاريخ أنّهم أشاروا علي امرأة يهودية أن تدسّ السمّ الفتّاك في كتف شاة وتقدّمه إلي رسول الله صلي الله عليه وآله وبالفعل فعلت اليهودية لكن أنطقت السماء ذلك الفخذ فقال للنبي لا تأكل منّي فأبني مسموم .

وقد قال أبو جعفر (عليه السلام) : ((إنّ رسول الله أتى باليهودية التي سمّت الشاة فقال لها : ما حملك علي ما صنعت ؟ فقالت : قلت : إن كان نبياً لم يضرّه وإن كان ملكاً أرحت الناس منه ، قال : فعفا رسول الله صلي الله عليه وآله عنها)) (1).

كما أنّ لليهود دوراً كبيراً في اذكاء نيران الحروب ازاء المسلمين ، فقد قال تعالى : «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ (2)» التي قال الطبرسي في تفسيرها : نزلت في إجلاء بني النضير من اليهود ، فمنهم من خرج إلي خيبر ، ومنهم من خرج إلي الشام . وذلك أنّ النبي صلي الله عليه وآله لما دخل المدينة صالحه بنو النضير علي أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه ، فقبل ذلك منهم ، فلما غزا رسول الله صلي الله عليه وآله بدرأً وظهر علي المشركين قالوا : والله إنّه للنبي الذي وجدنا نعتة في التوراة لا تردّ له راية ، فلما غزا صلي الله عليه وآله غزاة أحد وهزم المسلمون ارتابوا وتقضوا العهد ، فركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلي مكّة فأتوا قريشاً وحالفوهم وعاهدوهم علي أن تكون كلمتهم واحدة علي محمد صلي الله عليه وآله ، ثم دخل أبو سفيان في أربعين ، وكعب في أربعين من اليهود المسجد ، وأخذ بعضهم علي بعض الميثاق بين الأستار والكعبة ، ثم رجع كعب بن الأشرف وأصحابه إلي المدينة ونزل جبرئيل وأخبر النبي صلي الله عليه وآله بما تعاقد

ص: 127

1- الكافي : ج2 ص108 ح 9 .

2- سورة الحشر (59) : الآية 2 .

عليه كعب وأبو سفيان ، وأمره بقتل كعب بن الأشرف ، فقتله محمد بن مسلمة الأنصاري وكان أخاه من الرضاعة(1).

فتاريخ أهل الكتاب حافل بالمكائد والحقد ضدّ المسلمين ، فكيف يمكن لهم أن يطيعوهم أو يسمعوا منهم أو يتعاملون معهم ؟

ص: 128

1- مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب : ج 1 ص 196 .

(13) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»

(سورة آل عمران : 102)

في رحاب المفردات

اتَّقُوا : التقوي جعل النفس في وقاية ممَّا يخاف(1). وقد ورد ذكر مشتقات التقوي في آيات عديدة من القرآن منها : «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ(2)». ومنها : «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ(3)». ومنها : «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا(4)» ومنها : «تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ(5)».

ص: 129

1- مفردات الراغب : ص 568 .

2- سورة الأعراف (7) : الآية 96 .

3- سورة النحل (16) : الآية 128 .

4- سورة الزمر (39) : الآية 73 .

5- سورة الرعد (13) : الآية 35 .

شأن النزول

قال مقاتل: افتخر رجلاً من الأوس والخزرج: ثعلبة بن غنم من الأوس، وأسعد بن زرارة من الخزرج، فقال الأوسي: منّا خزيمة بن ثابت وذو الشهادتين، ومنّا حنظلة غسيل الملائكة، ومنّا عاصم بن ثابت بن أفلح حمي الدين، ومنّا سعد ابن معاذ الذي اهتزّ عرش الرحمن له، ورضي الله بحكمه في بني قريظة. وقال الخزرجي: منّا أربعة أحكموا القرآن: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ومنّا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم، فجري الحديث بينهما، فغضبا وتفاخرا وناديا، فجاء الأوس إلي الأوسي، والخزرج إلي الخزرجي، ومعهم السلاح، فبلغ ذلك النبي صلي الله عليه وآله فركب حماراً وأتاهم. فأنزل الله هذه الآيات فقرأها عليهم فاصطلحوا(1).

عبر من الآية

إنّ الأمر الموجود في الآية المباركة مركّب من أمرين أساسيين لمن يريد الجنّة ورضا الرحمن - جلّت قدرته - وهما:

1 - اتّقوا الله حقّ تقاته .

2 - لا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون ..

وكلاهما متكاملان ولا ينفصلان وعاقبتهما الجنّة في الدار الآخرة، فكيف نتقي الله؟ ولماذا حقّ تقاته؟ ولماذا هذا الحصّ والتأكيد علي عدم الموت إلاّ علي دين

ص: 130

1- مجمع البيان: ج4 مج2 ص355.

أسئلة تتبادر إلي الذهن اليقظ تجيب عليها هذه الآية الشريفة التي نحن بصدددها .

إنّ التقوي ، والتقوي ، والتوقي - كما في اللغة - ثلاث كلمات ذات أصل واحد تقريباً وتشدّد بعضها بعضاً من جوانب عدّة لا سيّما الجانب المعنوي والعبادي .

فالتقوي : هي الانضباط السلوكي الواعي أمام الله عزّوجلّ في هذه الحياة .

والتقوي : عبر الارتباط بالله وتعميق الإيمان وترسيخ العقيدة في القلب فتقوي الروح ، أمّا التوقي : فهو الخوف من الله لأنّه جبار السموات والأرض .. والخوف من عذابه الأليم في الدار الآخرة لأنّه عذاب ما لا تقوم له السموات والأرض ، فكيف نتحمّله نحن علي ما نحن عليه من الضعف والفاقة .

التقوي في أخبار أهل البيت عليهم السلام

وقد ورد ذكر التقوي في أخبار أهل البيت عليهم السلام كثيراً فمنها : ما عن جعفر بن محمد (عليه السلام) قال : ((مرّ أمير المؤمنين (عليه السلام) بالمقبرة فسلمّ ثم قال : السلام عليكم يا أهل المقبرة والتربة ، اعلموا أنّ المنازل قد سكنت ، وأنّ الأموال بعدكم قد قسّمت ، وأنّ الأزواج بعدكم قد نكحت ، فهذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ فأجابه هاتف من المقابر يسمع صوته ولا يري شخصه : عليك السلام يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أمّا خبر ما عندنا فقد وجدنا ما عملنا ، وربحنا ما قدّمنا ، وخسرنا ما خلفنا . فالتفت إلي أصحابه فقال : أما سمعتم ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين . قال : فترودوا فإنّ خير الزاد التقوي)) (1).

ص : 131

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله ، ومن أحب أن يكون أتقى الناس فليتوكل على الله)) (1).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : ((من أخرج الله تعالى من ذل المعصية إلى عز التقوي أغناه الله بلا مال ، وأعزه بلا عشيرة ، وآنسه بلا بشر ، ومن خاف الله عز وجل أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله عز وجل أخافه الله من كل شيء)) (2).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله في وصاياه لجابر : ((واعلم يا جابر أن أهل التقوي أيسر أهل الدنيا مؤونة وأكثرهم لك معونة ، تذكر فيعينونك وإن نسيت ذكرك ، قوالون بأمر الله قوامون على أمر الله ، قطعوا محبتهم بمحبة ربهم ووحشوا الدنيا لطاعة مليكهم ونظروا إلى الله عز وجل وإلى محبته بقلوبهم وعلموا أن ذلك هو المنظور إليه ، لعظيم شأنه ، فأنزل الدنيا كمنزل نزلته ثم ارتحلت عنه ، أو كمال وجدته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء)) (3).

وقد وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) المتقين فقال : ((فالمتمتون فيها هم أهل الفضائل : منطقتهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، ومشيمهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسمعهم على العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء ، ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين ، شوقاً إلى الثواب ، وخوفاً من العقاب)) (4).

إذن ، فالتقوي - حق التقوي - هي المسير الحثيث في خط العبودية الخالص

ص: 132

1- أمالي الصدوق : المجلس 50 ح 11 .

2- من لا يحضره الفقيه : ج 4 ص 410 ح 5890 .

3- الكافي : ج 2 ص 133 ح 16 .

4- نهج البلاغة : خ 193 يصف فيها المتقين .

لله ، بحيث يعيش الممتقي الحضور الدائم لله في الفكر والحركة والشعور فيصبح ينظر إلي الأمور بمنظار إلهي تام ، ففي كل شيء يرى الله قبله وفيه وبعده .. وهذه مرتبة الأولياء من الممتين الخالص الذين إصطفاهم الله لنفسه .

وحتي يتضح معني التقوي بالدقة فلنطرق باب سيدنا ومولانا الإمام الصادق(عليه السلام) ونسأله عن التقوي ما هي ؟ ففي الحديث عنه(عليه السلام) لما سئل عن التقوي أجاب : ((أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك))⁽¹⁾.

من آيات التقوي

ولا يخفي أن هذه الآية المباركة لها آية أخرى شبيهة لها وهي : «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ⁽²⁾» ، وقد قيل أن الثانية ناسخة للأولى ، فعن شيخ الإسلام الطبرسي قال : وذكر في قوله ((حَقَّ تَقَاتَهُ)) وجوه ثالثها إنه المجاهدة في الله وأن لا تأخذه لومة لائم ، وأن يقام له بالقسط في الخوف والأمن ، ثم اختلف فيه أيضاً علي قولين : أحدهما إنه منسوخ بقوله «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام⁽³⁾.

وبغض النظر عن مسألة النسخ بين الآيتين فإنه يمكن القول : إن مورد الآيتين يفرق ويختلف ، فأية البحث وارده في سياق الحديث عن رد كيد الأعداء من أهل الكتاب والكفار والمشركين ، وأن وجوب التقوي منهم إلزامي حتي لا يعود المؤمنون إلي كفرهم الأول فقال تعالى : «يُرِيدُوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ⁽⁴⁾» وهذا لا يسمح به

ص : 133

- 1- وسائل الشيعة : ج 15 ص 239 ح 20381 .
- 2- سورة التغابن (64) : الآية 16 .
- 3- مجمع البيان : ج 4 مج 2 ص 356 .
- 4- سورة آل عمران (3) : الآية 100 .

الشارع المقدّس أبداً لأنّ الكفر بعد الإيمان من أكبر الكبائر ، ولذلك جاء الأمر هنا بهذه الشدّة والقطيعة . والآية الأخرى واردة في سياق الحياة الاجتماعية والأولاد والأموال والفتن الاجتماعية وكل هذا يحتاج إلي تقوي تناسبها ولذا قيّدت بالاستطاعة إذ أنّ فيها مسائل لا يمكن السيطرة عليها لأنّها أمور قلبية وعاطفية خارجة عن مقدرة الإنسان وسيطرته ، فأمر الله سبحانه بالتقوي بقدر الاستطاعة(1).

ومما يؤكّد اختلاف المورد هو نهاية الآيتين المباركتين إذ أنّ إحداهما تنتهي ب «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(2)» أي لا تتركوا الإسلام وثابروا عليه ، حتي إذا ورد عليكم الموت فجأة صادفكم عليه .

عاقبة الكفر بعد الإيمان

لا يخفي أنّ النهي عن الترك بهذه الشدّة في الآية دليل واضح علي عظمة الجريمة وهي ((الكفر بعد الإيمان)) حيث إنّ ذلك يستوجب أشدّ العذاب في يوم الحساب ، وأشنع وأبشع صور الموت في الحياة الدنيا .

وهذا ما يتجلّي واضحاً في حياة الكثير من الطغاة الذين عادةً ما يصرّحون أمام الملأ عن كفر بعد تسترهم بالإيمان ظاهراً . فهذا يزيد بن معاوية الطاغية ماذا صنع بآل الرسول الكرام ؟

لقد قتل الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) سيّد شباب أهل الجنّة هو وأبنائه البررة وأصحابه الكرام وتجاسر علي حريم الرسول فأخذهنّ سبايا من بلد إلي بلد ومن

ص: 134

1- الآية الأخرى هي : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .

2- سورة آل عمران (3) : الآية 102 .

حي إلي آخر يطاف بهنّ حواسر لا معيل لهنّ سوي العليل وتجاسر علي ثنايا أبي عبدالله لَمّا وضع الرأس الشريف بين يديه فأخذ يضربه
بعودة له وهو يهزأ ويتغني بأشياخه الفسقة قائلاً :

ليت أشياخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً

ثم قالوا يا يزيد لا تشل

قد قتلنا القوم من ساداتهم

وعدلناه ببدر فاعتدل

لعبت هاشم بالملك فلا

خبر جاء ولا وحي نزل

لست من خندف إن لم أنتقم

من بني أحمد ما كان فعل

في تلك الحالة وبينما كان ذلك الطاغية يعربد ويهزأ بأهل البيت عليهم السلام انبرت له عقيلة بني هاشم وربيبه الوحي وפלذة فاطمة وبضعة
علي عليهم السلام وأهالت عليه من تلك الكلمات النارية التي دكّت عرشه دكّاً وأذلّته في عقر داره وجعلته يجرّ آهات الخزي والعار حيث
قالت له عليها السلام : ((ثمّ كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون ..

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض ، وأفاق السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأساري أن بنا علي الله هواناً ، وبك عليه كرامة ..
وإنّ ذلك لعظيم خطر كعنده فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك ، جذلان مسروراً ، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة ، وحين
صفا لك ملكنا وسلطاننا ، مهلاً مهلاً أنسيت قول الله تعالى : «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا
إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(1)» إلي أن تقول عليها السلام : ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك ، وإني لأستصغر قدرك وأستعظم تقريعتك ،
وأستكبر توبيخك ،

ص: 135

لكن العيون عبري، والصدور حرّي، ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء، فهذه الأيدي تنطف من دماننا والأفواه تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تتنابها العواسل وتعفوها أمّها الفراعل، ولئن اتّخذتنا مغنماً لتجدنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدّمت يداك وما ربك بظلام للعبيد، فإلي الله المشتكي، وعليه المعول، فكذ كيدك، واسع سعيك، وناصر جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميمت وحيننا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم يناد المنادي ألا لعنة الله على الظالمين(1).

فحقيلة الوحي زينب عليها السلام أوضحت أجمل إيضاح وأفصحت أكمل إفصاح عن سوء عاقبة مثل هذا الطاغية اللعين، فهو في الدنيا ملعون وفي الآخرة محروم كالشيطان تماماً. فعلي الإنسان المؤمن الثبات علي خطّ الدعوة الإسلامية المباركة قولاً وفعلاً، اعتقاداً وعبادة ولا يعطي الشيطان فرصة في قيادته إلي جهنّم وبئس المصير وكما قال تعالي: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا(2)» كما أنّ الكفّار والمشركون أعداء المؤمنين فينبغي الحذر منهم وعدم إطاعتهم حتّي يردّوا المؤمنين إلي الكفر والإلحاد بعد الإيمان والإقرار.

ص: 136

1- اللهوف: ص 161.

2- سورة فاطر (35): الآية 6.

إشارة

(14) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» (سورة آل عمران: 118)

في رحاب المفردات

البطانة : تستعار البطانة لمن تختصه بالإطلاع علي باطن أمرك وذلك استعارة من باطن الثوب(1)، ففي الآية الشريفة نقراً : «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ(2)». وفي آية أخرى : «وَدَّرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ(3)».

يألونكم : ألوت في الأمر قصرت فيه ... وألوت فلاناً أي أوليته تقصيراً نحو

ص: 137

1- مفردات الراغب : ص 49 .

2- سورة الحديد (57) : الآية 3 .

3- سورة الأنعام (6) : الآية 120 .

كسبته أي أوليته كسباً ، وما ألوته جهداً أي ما أوليته تقصيراً بحسب الجهد ... وقوله «لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» منه : أي لا يقصّرون في جلب الخبال(1).

الخبال : هو الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً كالجنون والمرض المؤثر في العقل والفكر . وقال الله عزّوجلّ : «مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا(2)».

عنتم : العنت إدخال المشقة علي إنسان . عنت فلان ، أي : لقي مشقة . وتعنته تعنتاً ، أي سألته عن شيء أردت به اللبس عليه والمشقة(3).

وقد ورد ذكر هذه المفردة في القرآن كثيراً ومنه : «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ(4)» وقوله : «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ(5)» . وقوله : «ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ(6)» .

شأن النزول

قال ابن عباس : نزلت في رجال من المسلمين ، كانوا يواصلون رجالاً من اليهود ، لما كان بينهم من الصداقة والقراية والجوار والحلف والرضاع .

ص: 138

1- مفردات الراغب : ص 18 .

2- سورة التوبة (9) : الآية (47) مفردات الراغب : ص 143 .

3- كتاب العين : مادة عنت .

4- «(- سورة البقرة (2) : الآية 220 .

5- سورة الحجرات (49) : الآية 7 .

6- سورة النساء (4) : الآية 25 .

وعن مجاهد : نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصادقون المنافقين(1).

عبر من الآية

تارةً أخري يحذّر القرآن الكريم المؤمنين في كل مكان وزمان . بأن لا تتخذوا الأعداء من الكفّار واليهود وغيرهما بظانّة وخواص بحيث تفضون إليهم بكل أسراركم فيعلمون منكم نقاط القوّة والضعف ، لا سيّما إذا كان العبد المؤمن في موقع من مواقع المسؤولية والقيادة في الدين أو الدنيا .

وهذا التحذير الإلهي جاء نتيجة العلم التام بمدى تأثير الخواص والمقربين علي الرجل ، فإنّهم يعرفون كلّ أعماله - السلبية والإيجابية - ويطلعون علي خفايا أمره كلّها ، فلذلك يشكّلون - بذاتهم نقطة ضعف كبيرة إذ أنّهم إن أعطوا شكروا وأرادوا المزيد وإن حرموا كفروا وجحدوا فضله واحسانه لهم .

أهل البيت عليهم السلام يحذرون من بظانّة السوء

فقد وصفهم أمير المؤمنين(عليه السلام) في كتابه لمالك الأشتر حين ولّاه علي ملك مصر وحذّره منهم فقال :

((ولتكن أحبّ الأمور إليك أوسطها في الحقّ ، وأعمّها في العدل ، وأجمعها لرضي الرعية ، فإنّ سخط العامة يجحف برضي الخاصّة ، وإنّ سخط الخاصّة يغتفر مع رضي العامة .

ص: 139

وليس أحد من الرعية أثقل علي الوالي مؤونة في الرخاء ، وأقلّ معونة له في البلاء ، وأكره للإنصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقلّ شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند مُلَمَّات الدهر من أهل الخاصّة . وإنّما عماد الدين ، وجماع المسلمين والعدّة للأعداء ، العامّة من الأُمّة ، فليكن صغوك لهم ، وميلك معهم [\(1\)](#) .

وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((واحذر صديقك ولا تأمن إلا من خشي الله)) [\(2\)](#) .

وعن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : سمعته يقول : كان أبي (عليه السلام) يقول :

((قم بالحق ولا تعرّض لما فاتك واعتزل ما لا يعنيك وتجنّب عدوك واحذر صديقك من الأقوام إلا الأمين والأمين من خشي الله)) [\(3\)](#) .

فالعَدُوّ يكون بيناً واضحاً معروفاً عنه أنّه عدوّ يكيد لنا ويدبّر المهالك لنقع في المشقّة والعناء ، وأمّا الصديق من بطانة السوء فالإنسان يكون في مأمن منه فتأتي الضربة منه أشد وأفتك ، وإلي هذا يشير الشاعر قائلاً :

احذر عدوك مرّة

واحذر صديقك ألف مرّة

فلربما انقلب الصديق

فكان أعرف بالمضرة [\(4\)](#)

وهذا التوجيه في الآية عام لكل بني البشر ، فهو لا يختصّ بإنسان دون آخر أو طائفة دون أخرى إلا أنّ فيه خصوصية للزعماء وقادة السلطات من السياسيين

ص: 140

1- نهج البلاغة : كتاب 52 كتبه لمالك الأشتر لما ولّاه علي مصر .

2- أعلام الدين : ص 282 .

3- وسائل الشيعة : ج 12 ص 32 ح 15564 .

4- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج 19 ص 39 .

وغيرهم لا سيّما الحكّام والملوك فيكون الخطر عليهم أكبر والحذر من بطانتهم ألزم .

فهذا معاوية بن أبي سفيان لما استتبّت له الأمور وأصبح الحاكم الأعلى للدولة الإسلامية اتّخذ الوضّاعين كبطانة وحاشية يخلقون له الأحاديث الموضوععة فيكذبون علي رسول الله صلي الله عليه وآله دون أيّ تورّع أو خوف من الله ، فما أن يتحرّك معاوية السوء حتي يسندوا في حقّه أحاديث مجعولة يؤيدونه بها .

حتي بلغ به الأمر أن أبا هريرة قال في المسجد وهو غاصّ بالحضور بعد أن ألقى عمّامته وجثي علي ركبتيه : يا أهل العراق - أتزعمون أنني أكذب علي رسول الله صلي الله عليه وآله فوالله إنّي سمعته يقول :

((لكل نبي حرماً وإنّ المدينة حرمي فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)) ، قال وأشهد بالله أنّ علياً أحدث فيها(1)!

نعم هكذا هي البطانة ، فهي في بعض الأحيان تسخط الخالق برضا المخلوق وتشتري غضب الله برضا العبد بل برضا الفسقة غرار معاوية بن أبي سفيان ونجمله يزيد شارب الخمر ، الذي اتّخذ لنفسه بطانة فاسدة منها رجل رومي فاسق أشار عليه بتولية عبيدالله بن زياد علي الكوفة وأمره بقتل الإمام الحسين(عليه السلام) وأبنائه الأخيار وأصحابه البررة .

فلما جاء به ليستشيره وكان قد طعن في السن فقال له :

أتريد رأي أباك معاوية لو كان حيّاً ..

فقال يزيد : نعم ..

فقال له : هل تنفّذه وتقيّد به ؟ فقال : نعم ، بكل تأكيد .

ص: 141

1- راجع كتاب أبو هريرة للعلامة شرف الدين : ص 43 .

فقال له : وُلِّي ابن سميّة الكوفة والبصرة واكتب له كتاباً بالإسراع إلي الكوفة قبل أن يسبق إليها الحسين ابن علي (عليه السلام) وليخرج إلي قتاله ويأتيك به أسيراً . وبالفعل فهذا الذي حدث وحصل بعد ذلك ما حصل من واقعة الطف المفجعة (1).

فالكفّار والمشركين وأهل الكتاب لا يمكن للإنسان أن يتّخذهم بطانة ..

وليس فحسب ، بل حتي اتّخاذ مواعظهم وتدوينها دون الرجوع إليهم نهى عنه الشارع المقدّس .

فعن عبد القاسم بن سلام رفعه إلي النبي صلي الله عليه وآله قال :

أتي ... رسول الله صلي الله عليه وآله فقال : إنّنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، فترى أن نكتب بعضها ؟

فقال : أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟! لقد جتتكم بها بيضاء نقيّة ، ولو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتّباعي (2).

وقد فسّر : متهوكون : أي متحيّرون ، وكان النبي صلي الله عليه وآله يقول : أمتهيرون أنتم في الإسلام لا تعرفون دينكم حتي تأخذوه من اليهود والنصارى ؟ ومعناه أنّه كره أخذ العلم من أهل الكتاب ، وأمّا قوله : لقد جتتكم بها بيضاء نقيّة .. فإنّه أراد الملة الحنيفية ، فلذلك جاء التائيث كقول الله عزّ وجلّ : «وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (3)» إنّما هي الملة الحنيفية .

وقد روي هذا الخبر ابن الأثير في النهاية ، ثم قال : التهوؤك : كالتهوؤ ، وهو

ص: 142

1- الإرشاد : ج 2 ص 40 .

2- راجع مسند أحمد بن حنبل : ج 3 ص 387 ط الرياض .

3- سورة البيّنة (98) : الآية 5 .

الوقوع في الأمر بغير رويّة، والمتهوّك: الذي يقع في كل أمر، وقيل هو المتحير(1).

وما الذي جري علي الدولة الإسلامية من تصدّع واهتزاز وتأخر إلا نتيجة استعانتهم واعتمادهم علي مثل هؤلاء الأشرار الذين لا يريدون للمسلمين سوي الوبال والتعب .

فالأعداء دائماً يستثيرون النعرات الطائفية، والمذهبية، والعشائرية، وغيرها من القضايا الحساسة في الأمة ويغذون طرفاً ضد الآخر إلي أن يتغلّب عليه فيغذون الطرف الضعيف حتي يعيد الكرة علي القوي فيضعفه وهكذا .

ففي تفسير قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبَغُونَهَا عَوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ(2)» قيل إنهم - اليهود - كانوا يغرون بين الأوس والخزرج بذكورهم الحروب التي كانت بينهم في الجاهلية حتي تدخلهم الحميّة والعصبية فينسلخوا عن الدين(3).

خلاصة أعمال بطائن السوء

وفي النتيجة إن هذه الآية تخبر عن هذه البطائن السيئة وتنبه من أعمالها وهي :

(1) أنهم يؤثرون سلباً علي نظرة الإنسان إلي الأمور، فيقرّبون له البعيد ويبعدون القريب ويجعلون الضائر نافعاً، والنافع ضاراً، وهذا هو الفساد بعينه .

(2) يريدون من المسلمين أن يقعوا في العنت الشديد إذ أنهم غالباً ما يفتعلون

ص: 143

1- النهاية : ج5 ص282 ، وقارن به لسان العرب : ج10 ص508 ، والصحاح : ج4 ص1617 ، وتاج العروس : ج7 ص197 ، ومجمع البحرين : ج5 ص299 ، وهذا الخبر أشاروا كلهم إليه .

2- سورة آل عمران (99) : 3 .

3- بحار الأنوار : ج9 ص72 .

المشاكل والأزمات عبر تخطيطاتهم الشيطانية .

(3) إنّ بعض آثار ذلك العداة القابع في قلوبهم ربما تظهر في كلامهم وهذا خير دليل علي شدة العداة الذي لا يستطيع صاحبه إخفائه .

إذن علي الأمة التعقّل عند التعامل مع هؤلاء الأعداء والحذر الشديد منهم ، وهم اليوم أخطر من العصور السابقة ودورهم أبشع إذ أنّهم يعملون كل ما بوسعهم لإفساد الشباب المسلم وجرّ المجتمعات قاطبة نحو المفاسد المختلفة لذا فينبغي الحذر منهم ومقاطعتهم تماماً كما أشارت الآية الكريمة .

ص: 144

(15) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»

(سورة آل عمران : الآية 130)

في رحاب المفردات

الربا : الربا زيادة علي رأس المال لكن حُصّ في الشرع بالزيادة علي وجه دون وجه ، وباعتبار الزيادة قال تعالي : «وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ(1)».

أضعافاً : الضعف من الألفاظ المتضايقة التي يقتضي وجود أحدهما وجود الآخر كالنصف والزوج ، وهو تركب قدرين متساويين ويختص بالعدد ، فإذا قيل أضعفت الشيء ء وضعفته وضاعفته ضمنت إليه مثله فصاعداً . قال بعضهم : ضاعفت أبلغ من ضعفت ، ولهذا قرأ أكثرهم : «يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ(2)».

ص : 145

1- سورة الروم (30) : الآية (39) مفردات الراغب : ص 192 .

2- سورة الأحزاب (33) : الآية (30) مفردات الراغب : ص 305 .

مرة أخرى يعود الحديث عن الربا ، والتحذير من أكله أضعافاً مضاعفة .

وقد سبق التحذير من التعامل بالربا بإسهاب في سورة البقرة المباركة حيث وصف الباري تعالى آكل الربا بأنه يفتح جبهة حرب مع الله ورسوله(1).

فالربا كله حرام بل يعدّ من الكبائر التي توجب فساد المجتمعات ، وإفساد الأفراد والعوائل فينتهي أصحاب رؤوس الأموال إلي الطغيان في الأرض من خلال نهب أقوات الفقراء ، بحيث تصبح أمورهم بشكل دائم من سيي ء إلي أسوأ إذ أنّ الأموال الربوية تتضاعف علي صاحبها إذا لم يستطع الإيفاء بالوقت المحدّد ، حتّي يبلغ به الحال إلي أنّه لا يستطيع إيفاء الفائدة فقط فضلاً عن رأس المال الحقيقي .

بطبيعة الحال فإنّ تخصيص قوله تعالى «أضعافاً مضاعفةً» بالتحريم لا يعني أنّ الربا غير المضاعف حلال ، بل إنّ الآية تدلّ علي :

أولاً : إنّ الربا حرام قطعاً كما مرّ في سورة البقرة المباركة .

ثانياً : إثبات تحريم الربا المضاعف لا ينفي حرمة الأقل إذ القاعدة الأصولية والمنطقية تقول : إنّ إثبات شيء لشيء لا ينفي ما عداه .

وعلي فرض أنّ الآية المباركة حرّمت ((الربا الفاحش)) فقط ، إلّا أنّها لم تنف حرمة الربا غير الفاحش أو الربا أصلاً غاية الأمر أنه مسكوت عنه فيها فلم تحرّمه ولم تحلّله .

وبذلك تجعلها ممكنة الدخول تحت عموم أو إطلاق الأدلّة الأخرى ، كأن نرجع إلي قوله تعالى : «وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا (2)» .

ص: 146

1- سورة البقرة : 279 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 278 .

الحكمة في تحريم الربا

ربما يستفاد من الآية المباركة أنها ليست في صدد بيان الحكم الشرعي بل إنها واردة في مجال الحديث عن طبيعة الربا ، وأنه يكون تصاعدياً ومضاعفاً بشكل مطرد .

ولتوضيح ذلك نستعين بالمثال الآتي :

فلو أنّ أحدهم اقترض مبلغاً قدره (1000) دينار بفائدة ربوية (10%) فيصبح المبلغ بعد مدّة (1100) دينار وإذا أعسر المستدين ولم يستطع الإيفاء في الوقت المحدّد ، فإنّ الدائن يؤخّره إلي فترة أخرى مع زيادة قدرها (10%) لا علي (1000) دينار بل علي (1100) .. وهكذا نجد أنّ الدين يتراكم يوماً بعد يوم .

وفي كثير من الأحيان تنتهي مثل هذه العملية إلي نفاذ أموال المديون تماماً فتصادر عقاراته أو أرضه أو حتّي منزله الذي يسكنه حيث يستولي عليه الربوي فيطرده منه دون رحمة أو إنسانية ، ممّا يسبّب المآسي والأزمات الاجتماعية الخطيرة ، كما هو معروف ومشاهد في المجتمعات الرأسمالية .

حرمة الربا في الأخبار الشريفة

كما أنّ الأحاديث الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تدلّ علي حرمة الربا - كيف كان ومهما كانت قيمته - وذلك لعاملين وهما :

1 - لئلاّ يمتنع الناس من اصطناع المعروف .

2 - لكي لا- يذهب الفضل بينهم بالإقراض والاستقراض والتعاون والشعور المتبادل فيما بينهم ، ولكي يحسّ الغني بألم الفقير فيساعده بأمواله ، ويحسّ الفقير بعطف وحبّ الغني فيزدادان لبعضهما قرباً وحبّاً .

ص: 147

وفي واقع الأمر إن الربا مهما بلغ فنهيته إلي المحق لأن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز : «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ (1)».

وقد سئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن هذه الآية ، كيف ذلك وقد نرى أن من يأكل الربا يربو ماله ؟

فقال (عليه السلام) : ((أي محق ، أمحق من درهم ربا .. يمحق الدين وإن تاب منه ذهب ماله وافتقر)) (2).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال : ((لعن رسول الله صلي الله عليه وآله في الربا خمسة آكله وموكله ومشاهده وكاتبه...)) (3).

وعن النبي صلي الله عليه وآله في وصيته للإمام علي (عليه السلام) أنه قال : ((ياعلي ، الربا سبعون جزء فأيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه في بيت الله الحرام ، ياعلي ، درهم ربا أعظم عند الله من سبعين زنية كلها بذات محرم في بيت الله الحرام)) (4).

فأي محق كهذا البعد والطرده من رحمة الله والعياذ بالله ؟

الفرق بين الصدقات والربا

من جانب آخر فإن هناك فرقاً عظيماً بين الصدقات والربا في ميزان التعامل في الدنيا وميزان الأعمال في الدار الآخرة .. فقد روي عن الرسول صلي الله عليه وآله أنه قال : ((إن الله تعالى يقبل الصدقات ، ولا يقبل منها إلا الطيب ، ويربيها لصاحبها كما يربي

ص: 148

1- سورة البقرة (2) : الآية 276 .

2- وسائل الشيعة : ج 18 ص 119 ح 23276 .

3- وسائل الشيعة : ج 18 ص 127 ح 23298 .

4- وسائل الشيعة : ج 18 ص 122 - 121 ح 23281 .

أحدكم مهرة أو فضيله ، حتّى إنّ اللقمة لتصير مثل أحد)) (1).

والنكتة اللطيفة في المسألة أنّ المرابي إنّما يطلب بالدين زيادة المال .. ومانع الصدقة إنّما يمنعها لطلب زيادة المال ، فبيّن الله سبحانه أنّ الربا سبب نقصان دون النماء ، وأنّ الصدقة سبب النماء دون النقصان ، ولذا فقد قال تعالى «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ (2)».

ومع الأسف الشديد فإنّ المسلمين اليوم أخذوا بالممحوق وتركوا المبارك .

وصدق رسول الله صلي الله عليه وآله حين قال : ((يأتي علي الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره)) (3).

والتاريخ مليء بالعبر والقصص التي تخبر عن أحوال المرابين وكيف أنّ الله سبحانه يمحق أموالهم في الدنيا ، ويمحقهم في الآخرة .

وقد قرأت قصة في إحدى الكتب المخطوطة للإمام الشيرازي قدس سره تحت عنوان الإصلاح ، وهي تاريخية إلا أنّها تحمل الكثير من العبر فهل من معتبر ؟

وهي أنّه ذهب جماعة إلي الحجّ وأنفق أن مات أحدهم قرب مكّة المكرّمة فغسّ لوه وكفّنه وصلّوا عليه وحفروا له قبراً بقدر نصف القامة وإذا به يمتلأ- حيّات بمقدار نصف القامة فتعجّبوا أشدّ العجب لأنّ الأرض ليست أرض حيّات ، ثمّ من أين جاءت هذه الحيّات فجأة وحائط القبر لم يكن مثقوباً فحفروا بعد أذرع قبراً آخر ولمّا وصل إلي نصابه امتلأ حيّات فازداد تعجّبهم واضطّروا إلي أن يحفروا قبراً ثالثاً في مكان بعيد عن القبرين وإذا بالقبر الثالث يمتلأ أيضاً حيّات .

ص: 149

1- مجمع البيان : ج 3 مج 2 ص 208 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 276 .

3- مجمع البيان : ج 3 مج 2 ص 209 .

فتركوا الجنازة بدون دفن وتركوا عليه من الهوام ونحوها وجاءوا إلى مكة المكرمة وتحصّصوا عن ابن عباس تلميذ الإمام علي (عليه السلام) حيث كان ذلك الوقت هناك فسألوه عن الأمر وأبدوا استغرابهم .

فسألهم ابن عباس عن عمله ، قالوا : تاجر .

قال : فهل كان يأكل الحرام . قالوا : نعم إنّه كان يراي ولا يلاحظ الحلال والحرام ، قال : اذهبوا وادفنوه في أحد تلك القبور ، فإنّ ما رأيتموه أمر برزخي قد .

فتحت له أعينكم للتنبية علي عاقبة المرابي فلو حفرتم له ألف قبر لكانت كلّها كذلك فجاءوا ودفنوه في إحدى تلك الحفر .

نستجير بالله من غضبه .

ص: 150

إشارة

(16) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَانْقَلِبُوا خَاسِرِينَ» (سورة آل عمران : 149)

في رحاب المفردات

يردّوكم : أي يصرفوكم ، فالردّ هو صرف الشيء ورجعه ، فيقال ردّه عن الأمر أي صرفه ، وفي الآية الشريفة أمر الله لا مردّ له ، وكذلك : يوم لا مردّ له ، قال ثعلب : يعني يوم القيامة لأنه شيء لا يرد (1).

فانقلبوا : انقلب الشيء : أي صرف عن وجهه إلى وجهه كقلب الثوب وقلب الإنسان أي صرفه عن طريقته (2) ، فيقال : قلبت الشيء فانقلب أي انكبّ ، وقلبت يدي تقليباً ، فنحن نقرأ في القرآن : «وإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبْ عَلَيَّ وَجْهَهُ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ» (3). وفي آية أخرى : «أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَيَّ

ص : 151

1- لسان العرب : مادة ردّ .

2- مفردات الراغب : ص 426 .

3- سورة الحج (22) : الآية 11 .

أَعْقَابِكُمْ (1)». وفي آية ثالثة: «لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ (2)».

خاسرين : الخسر والخسران انتقاص رأس المال وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال خسر فلان ، وإلى الفعل فيقال خسرت تجارته .

ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر .

وفي المقتنيات النفيسة كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين (3).

ففي القرآن العزيز : «وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (4)».

وفي آية أخرى : «خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (5)».

شأن النزول

قيل : نزلت في المنافقين ، إذ قالوا للمؤمنين يوم أحد عند الهزيمة : ارجعوا إلي إخوانكم ، وارجعوا إلي دينهم ، وقيل : هم اليهود والنصارى (6).

ص : 152

1- سورة الحجّ (22) : الآية 144 .

2- سورة يوسف (12) : الآية 62 .

3- مفردات الراغب : ص 148 .

4- سورة العصر (103) : الآية 2 - 1 .

5- سورة الحجّ (22) : الآية 11 .

6- مجمع البيان : ج 4 مج 2 ص 413 .

بين الفترة والأخري تذكر آيات الذكر الحكيم المؤمنين بمسألة في غاية الأهمية ألا وهي الاطاعة للكافرين التي لا يجني منها في الدنيا سوى الآهات والحسرات وفي الآخرة الويل والشبور .

هذا وقد جاء في كثير من آيات الذكر الحكيم النهي عن اتباع الكافرين وغيرهم من الضالين ، فمنها علي سبيل المثال قوله تعالى :

«لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(1)».

وقال تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(2)».

وقال عزّ من قائل : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ(3)».

فهذه الآيات المباركة تحرم علي المؤمنين تولي الكافرين ، إذ أنّ بعضهم أولياء بعض ، كما أنّ المؤمنين كذلك بعضهم أولياء بعض .

ص: 153

1- سورة آل عمران (3) : الآية 28 .

2- سورة المائدة (5) : الآية 51 .

3- سورة الممتحنة (60) : الآية 1 .

التضاد بين أهل الإيمان والكفر

إنّ التناقض والتنافر بين المؤمنين المعتقدين بالله تعالى والمشرّكين والكفّار هو تناقض أساسي وليس هامشياً أو سطحياً ، بل هو جوهري وأصيل إذ يستحيل اجتماع النقيض أو التقيض ، ففي الحديث عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه قال :

((من جالس لنا عائباً . أو مدح لنا قالياً أو واصل لنا قاطعاً ، أو قطع لنا واصلاً ، أو والي لنا عدوّاً ، أو عادي لنا ولياً ، فقد كفر بالذي أنزل السبع المثاني والقرآن العظيم))⁽¹⁾.

وعن الأصبع بن نباتة قال : قال أمير المؤمنين(عليه السلام) لرجل :

((إن لا تطع خالك فلا تأكل رزقه ، وإن كنت واليت عدوّه فاخرج من ملكه ، وإن كنت غير قانع برضاه وقدره فاطلب ربّاً سواه))⁽²⁾.

من قصص التاريخ

هناك واقعة مهمّة نقلها المفسّرون وهي أنّ شأن نزول الآية المباركة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا عَـدُوِّي وَعَـدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ» نزلت في حاطب بن أبي بلتعة .

وكان سبب ذلك أنّ حاطب بن أبي بلتعة قد أسلم وهاجر إلي المدينة وكان عياله بمكّة وكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله صلي الله عليه وآله فصاروا إلي عيال حاطب ، وسألوهم أن يكتبوا إلي حاطب يسألونه عن خبر محمد هل يريد أن يغزو

ص: 154

1- وسائل الشيعة : ج16 ص264 ح21523 .

2- توحيد الصدوق : ص372 ح13 .

مكة؟ فكتبوا إلي حاطب يسألونه عن ذلك .

فكتب إليهم حاطب أن رسول الله صلى الله عليه وآله يريد ذلك ودفع الكتاب إلي امرأة تسمى صفية ، فوضعتة في قرونها(1) ومرّت .

فنزل جبرئيل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وأخبره بذلك ، فبعث رسول الله أمير المؤمنين(عليه السلام) والزبير بن العوام في طلبها ، فلحقوها .

فقال لها أمير المؤمنين(عليه السلام) : أين الكتاب ؟

فقالت : ما معي شيء .

ففتشوها فلم يجدوا معها شيئاً ، فقال الزبير : ما نري معها شيئاً ، فقال أمير المؤمنين(عليه السلام) :

والله ما كذبنا رسول الله ولا كذب رسول الله علي جبرائيل ، ولا كذب جبرئيل علي الله جل ثناؤه ، والله لتظهرن الكتاب أو لأردن رأسك إلي رسول الله .

فقالت : تنحيا عني حتي أخرجه ، فأخرجت الكتاب من قرونها .

فأخذه أمير المؤمنين(عليه السلام) وجاء به إلي رسول الله صلى الله عليه وآله وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا حاطب ما هذا ؟

فقال حاطب : والله يارسول الله ما ناققت ولا غيرت ولا بدلت ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله حقاً . ولكن أهلي وعيالي كتبوا إلي بحسن صنيع قريش إليهم فأحببت أن أجازي قريشاً بحسن معاشهم فأنزل الله عز وجل علي رسول الله :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ

ص: 155

1- القرن : الخصلة من الشعر : الذؤابة .

بِالْمَوَدَّةِ» إلى قوله «لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(1)».

إذن فالآية الشريفة تدعو المؤمنين إلى عدم الميل واللجوء إلى أعداء الله لأن ذلك في آخر المطاف يجرّ إلي الاعتقاد بهم وتقديم التنازلات الآنية لهم ، وإذا وقع الإنسان في خطّ التنازلات والمساومات فهو أمام خيارين اثنين :

1 - إما أن يقف عند هذا الحدّ (الحلول الجزئية) المهداة مع التنازلات وعندئذ لن يرضي الطرف الآخر وهم أعداء الله ، وبذلك لن يتحقّق الهدف الذي استهدفه وسعي لأجله من كل أعماقه ، والباري تعالي خاطب رسوله الأمين فقال له : «لَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ(2)».

فالمسألة هي أخطر من حدّ ما أو منطقة ما ، بل التحوّل الكامل والتأمّ إلي العقيدة المقابلة ، والملة الثانية ، وأنت تعلم تمام العلم ببطانها وكفر من هم عليها .

2 - وإما أن يستمر في تقديم التنازلات تلو التنازلات وهذا سيؤدّي إلي الانقلاب علي الأعقاب ، أي العودة إلي نقطة الصفر ، أو الردّة بعد الإيمان ، أو الجاهلية بعد الإسلام ، أو التعرّب بعد الهجرة .. وكل هذه القضايا تعود بالإنسان القهقري إلي أن يسقط في الهاوية .

والله سبحانه وتعالى لا يريد لنا ذلك ، بل يريد لنا العود إلي المكان الذي خلقنا له من ساحة القدس وجنة القرب منه تعالي .

فالنهاية الحتمية لطاعة الأعداء والكفّار ، هو التقهقر والعود إلي الوراء ، وهذا

ص: 156

1- تفسير القمّي : ج2 ص361 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 120 .

كله نتيجته الخزي والعار في الدنيا، والويل والعذاب في الآخرة .

فواجب الإنسان - أي إنسان - أن يتجنب السقوط في الهاوية، وواجب المؤمنين تجنب سماع ومرافقة وطاعة الكفار لأنهم لن يزيدونه غير تخسير .

هذا وقد أوضح الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد كل ذلك في سورة من سور القرآن حيث قال :

«قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(1)».

أعداؤنا الذين نواجههم

وعلي آية حال فينبغي أن نواجه الكفار في جميع المواقع الفكرية والثقافية والحياتية والعملية، لأن أعدائنا لا يودوننا، والأعداء أعداء وإن تزيّنوا بأي زي أو تلبسوا بأي لباس كان، والأعداء صنفان أحدهما جلي ظاهر، والآخر خفي باطن، والسماع إلي كليهما يدمر الإنسان ويجعل نهاية أمره قسراً، أما الأول : فهم الكفار والمشركون واليهود والملحدون ومن لفّ لفهم، وهم نوعان كذلك محارب وغير محارب، إلا أنهم جميعاً متفقون علي ضرورة القضاء علي الدولة الإسلامية وقتل الروح الإيمانية في المجتمع المسلم .

من جانب آخر فإن هناك عدواً أشدّ خطورة من الكافرين ينبغي للمؤمنين أن يتخذوه عدواً ألا وهي النفس وكما قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((أعددي عدوك نفسك التي

ص: 157

بين جنبيك))⁽¹⁾. ونحن نقرأ في مناجاة الشاكين : ((إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمارة وإلي الخطيئة مبادرة ، وبمعاصيك مولعة ، ولسخطك متعرّضة ، تسلك بي مسالك المهالك ، وتجعلني عندك أهون هالك ، كثيرة العلل طويلة الأمل ، إن مسّها الشرّ تجزع وإن مسّها الخير تمنع ، ميّالة إلي اللعب واللهو ، مملوءة بالغفلة والسهو ، تسرع بي إلي الحوبة وتسوّفني بالتوبة))⁽²⁾.

رزقنا الله جميعاً التوفيق للعمل علي تزكية أنفسنا وتهذيبها علي الوجه الأكمل كما دعا الإسلام الحنيف إلي ذلك .

ص: 158

1- عدّة الداعي : ص 314 .

2- راجع مناجاة الشاكين في الصحيفة السجّادية .

إشارة

(17) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لَإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِدَدًا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»

(سورة آل عمران : 156)

في رحاب المفردات

ضربوا : الضرب إيقاع شيء على شيء ، ولتصوّر اختلاف الضرب خُولِفَ بين تفاسيرها كضرب الشيء باليد والعصا والسيف ونحوها قال : «وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ(1)».

غُزًى : هو جمع غازٍ ، نحو ضارب وضُرْبٍ ، وطالب وطلّب ، فالغزو هو السير

ص: 159

عبر من الآية

هناك سؤالان مهمّان ينبغي الالتفات إليهما وهما : ما الفرق بين الإيمان والكفر ؟ وما الفرق بين المؤمن والكافر ؟

الجواب عليه : أنّ الإيمان هو التصديق بالجنان والعمل بالأركان .. والكفر : هو الجحود والإنكار للحقّ والحقيقة .

والمؤمن : هو العامل المصدّق بما وراء الطبيعة وقد قال تعالى : «يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ(2)» أمّا الكافر فإتّه لا يقرّ إلاّ بالذي أمام عينيه ((دائرة الشهود)) فلا يعتقد بما وراء المادّة من غيب ، فهو ناكر لوجود الله أو غير مؤمن به ولا بالمعادلات الغيبية وغير ذلك .

والأحاديث الشريفة لما تتطرق إلي صفات المؤمنين توضّح أنّ من صفاتهم الأساسية هو الاعتقاد بالغيب والماورائيات ، فعن أبي بصير ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((استقبل رسول الله صلي الله عليه وآله حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري فقال له : كيف أنت يا حارثة بن مالك ؟ فقال : يارسول الله عزبت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت هواجري وكأني أنظر إلي عرش ربّي [و] قد وضع للحساب وكأني أنظر إلي أهل الجنة يتزاورون في الجنة وكأني أسمع عواء أهل النار في النار ، فقال له رسول الله صلي الله عليه وآله : عبد نور الله قلبه ، أبصرت فاثبت ، فقال : يارسول الله أدع الله لي أن يرزقني الشهادة معك ، فقال : اللهم ارزق حارثة الشهادة ، فلم يلبث إلاّ أياماً حتي

ص: 160

1- راجع لسان العرب : مادّة غزا .

2- سورة البقرة (2) : الآية 3 .

بعث رسول الله صلى الله عليه وآله سرية فبعثه فيها ، فقاتل فقتل تسعة أو ثمانية ثم قتل . وفي رواية القاسم بن بريد ، عن أبي بصير قال :
استشهد مع جعفر بن أبي طالب بعد تسعة نفر وكان هو العاشر)) (1).

وعن محمد بن مسلم ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : سألته عن الإيمان فقال : ((شهادة أن لا إله إلا الله [وأنَّ محمداً رسول الله]
والاقرار بما جاء من عند الله وما استقرَّ في القلوب من التصديق بذلك ، قال : قلت : الشهادة أليست عملاً ؟ قال : بلي ، قلت : العمل من
الإيمان ؟ قال : نعم الإيمان لا يكون إلا بعمل والعمل منه ولا يثبت الإيمان إلا بالعمل)) (2).

أجل ، فالمؤمن هو من يعتقد بالغيب ويوطد نفسه عليه ، بخلاف الكافر ..

وسياق هذه الآية الشريفة جاء في سياق الآيات التي تتحدّث عن الجهاد الإسلامي المقدّس ، وقضية الهزيمة العظيمة في غزوة أحد التي
لها من الدروس ما لها بالنسبة للقادة والالتزام بأوامرهم وما إلي ذلك ..

الهزيمة وبداية التراجع

ومناسبة الحديث هنا - والنهي عن أن يكون المؤمن كالكافر الذي لا يعتقد إلا بمعادلات الأسباب والمسببات أو العلل والمعلولات
والماديات - هو أنّهم ((الكفّار)) قالوا إذا سافر أحدهم أو هاجر أو غرق أو تاجر وأصابه مكروه قالوا : لو لم يسافر لم يمت ، أو لم يصبه ذلك
المكروه الذي أصابه .

وهذه النظرة جداً ساذجة وسطحية ، إذ أنّ الأعمار بيد الله وهو الذي يقدرها بتقديره ويدبرها بتدبيره الحكيم ، ويده فالحياة والموت بيده
تعالى ليس غيره .

ص : 161

1- الكافي : ج 2 ص 53 ح 2 .

2- الكافي : ج 2 ح 3 .

وقد ظهرت هذه الرؤية السلبية في أعقاب غزوة أحد بين الطرفين ، ففي هذه الغزوة قتل من المؤمنين ، ومن الكافرين كذلك ، ولا سيما الخسارة الفادحة التي لحقت بالمؤمنين والرسول الأعظم صلي الله عليه وآله الذي قتل عمه البطل الصنديد ((حمزة بن عبدالمطلب)) أسد الله وأسد رسوله صلي الله عليه وآله وسيد الشهداء الذي بكاه رسول الله صلي الله عليه وآله والمؤمنون بحرقه إذ أنه كان سيفاً بتاراً علي الأعداء ومحامياً أصيلاً عن حمي الإسلام . ومن جزاء هذه الحالة راح المؤمنون والمنافقون معاً ليكون علي القتلي ويقولون كقول الكافرين الذين لا يؤمنون بالقدر الإلهي ، والجنة التي عرضها السماوات والأرض ، المعدّة من الباري تعالي للشهداء الأبرار .

وكأنهم نسوا حالاتهم الإيمانية واعتقادهم بالقضاء والقدر وأنّ الإنسان لا يبقى ولا يخلد في هذه الحياة الفانية التي لا يبقى فيها إلا وجهه تعالي .

أجل ، فلكل إنسان أجل حتمي ، وهو محدّد ومقدّر من القادر ، وإذا جاء فسوف يصيبه ولو كان في بروج مشيئة كما قال : «يُدْرِكُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ (1)» .

الملفت للانتباه أنه قبل آية البحث بآيتين فقط جاء قوله : «هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَيَّ مَصْنَجِعِهِمْ (2)» فالجهاد في سبيل الله ، والحرب تحت راية الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله ليس هو سبب الموت كلّه إذ أنّ الموت لا بدّ منه وهو حاصل لكل أحد دون استثناء ، إلا أنّ الموت في ساحات القتال هو أشرف وأعظم وأنبل من أي موت آخر لأنه سيكون ((شهادة)) وليست قتلاً أو موتاً عادياً ، فعن أبي عبدالله(عليه السلام) قال : قال

ص: 162

1- سورة النساء (4) : الآية 78 .

2- سورة آل عمران (3) : الآية 154 .

رسول الله صلى الله عليه وآله : ((فوق كل ذي برٍّ حتى يقتل في سبيل الله فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه برّ))⁽¹⁾. وعن أبي حمزة قال : سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول : إن علي بن الحسين عليهما السلام كان يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((ما من قطرة أحب إلي الله عز وجل من قطرة دم في سبيل الله))⁽²⁾. وعن سعد بن سعد ، عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال : سألته عن قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه : ((والله لألف ضربة بالسيف أهون من موت علي فراش)) قال : ((في سبيل الله))⁽³⁾.

وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : إني راغب نشيط في الجهاد قال : ((فجاهد في سبيل الله فإذا قتل كنت حياً عند الله ترزق ، وإن مت فقد وقع أجرك علي الله ، وإن رجعت خرجت من الذنوب إلي الله ، هذا تفسير «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً»⁽⁴⁾))⁽⁵⁾.

الشهادة ثمن الجنان

نعم ، إن للجنة ثمناً ، وهو ليس درهماً ولا ديناراً ، بل هو نفوس طاهرة وقلوب سليمة وعقول جبارة تعبد الله ما استطاعت لذلك سبيلاً .. وفي واقع الأمر هكذا جنة تستحق بذل الغالي والثمين من أجلها إذ أنها نعيم مؤبد وموقع مقرب من ساحة قدس الله تعالى ، فحريّ بالمؤمنين أن يبذلوا مهجهم من أجلها ويرخصون أنفاسهم الطاهرة في سبيل تحصيلها .

ص: 163

1- الكافي : ج 5 ص 53 ح 2 .

2- الكافي : ج 5 ص 53 ح 3 .

3- الكافي : ج 5 ص 53 ح 1 .

4- سورة آل عمران (3) : الآية 5

5- تفسير العياشي : ج 1 ص 206 .

فالقتال في سبيل الله لا يقصّر الأعمال ولا يقصم الآجال .. بل يورد المؤمن علي حياة أُخري هي خير له إذ أنّ المؤمن يشتري نفسه برضا الخالق فتربح تجارته ويحظي بالجنة .

أمّا المنافق أو الكافر وغيرهما فهم يبيعون أنفسهم للدينار والدرهم ، فيخسرونها لأنّهما باعا الجنة بثمن بخس دراهم إذ أنّ الدرهم والدينار يبقون وحطام الدنيا يتركه الإنسان خلفه ويأخذه الورثة ولا يلحق صاحبهم إلاّ تبعات تلك الأموال ونقمتها ، وهو في الآخرة من حطب جهنّم والعياذ بالله .

وهناك نكتة لطيفة في هذه الآية المباركة نشير إليها إشارة فقط لأنّ النبيه تكفيه الإشارة ألا وهي : قوله تعالى : «لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ» . تلك الحسرة والندامة هي نار تشتعل في قلوب الكفار في الحياة الدنيا وهم أحياء فتأكلها كما تأكل النار الحطب وربما أشدّ من ذلك . فيعيشون بحسرة دائمة علي القتلي أو علي الدنيا وزبرجها ، وأسف شديد عليهما هذا لا انقضاء له إلاّ بموت صاحبه .

والتاريخ يحدثنا عن الكثير من الناس الذين ماتوا حسرةً وأسفاً سواء أكان علي العزيز من الأولاد والأنفس ، أم علي الغالي من المال والمتاع فيموتون كمدأً وحنقاً من جرّاء ذلك . أمّا المؤمن فلا يتحسّر إلاّ علي شيء واحد وهو علي ما قرّط في جنب الله في هذه الحياة الدنيا وإلي ذلك يشير قوله تعالى : «عَلِي مَا قَرَّرْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ(1)» .

ص: 164

(18) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»

(سورة آل عمران : 200)

في رحاب المفردات

رابطوا : ربط الفرس أي شدّه بالمكان للحفاظ ومنه رباط الجيش ، وسمّي المكان الذي يخصّ بإقامة حفظته رباطاً(1).

تفليحون : الفلاح هو الظفر وإدراك البغية(2) ، وقد وردت هذه المفردة في القرآن كثيراً ، ففي سورة المؤمنون نحن نقرأ : «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(3)» وفي آية أخرى : «فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَصَفَاءً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى(4)» . وفي آية ثالثة : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(5)» وجاء أيضاً : «قَدْ

ص: 165

1- مفردات الراغب : ص 190 .

2- مفردات الراغب : ص 399 .

3- سورة المؤمنون (23) : الآية 2 - 1 .

4- سورة طه (20) : الآية 64 .

5- سورة الشمس (91) : الآية 6 .

أَفَلَحَ مَنْ تَزَكَّى (1)».

شأن النزول

ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) في قوله لأبي يعقوب السراج: ((اصبروا)) علي الأذي فينا، قلت: ((وصابروا))؟ قال: علي عدوكم مع وليكم، قلت: ((ورابطوا)) قال: ((المقام مع إمامكم))، و ((اتقوا الله لعلكم تفلحون)) قلت تنزيل؟ قال: نعم (2).

عبر من الآية

هذه الآية الشريفة هي خاتمة سورة آل عمران المباركة المليئة بالحديث عن الكفار والمشركين وأحوالهم وأعمالهم وصفاتهم ومكانتهم ضد المؤمنين خاصة والمسلمين عامة، فتأتي وكأنها مسك الختام - بل مسك الحقيقة - إلا أنها أعظم لأنها تضم بين طياتها أعظم المسائل ومنها: مسألة الصبر التي أكدت عليها آيات القرآن الكريم في موارد عديدة منها:

قوله تعالى: «وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (3)».

وقال تعالى: «وَلَمَّا صَبَرْتُمْ لَهْوٌ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (4)».

وقال تعالى مخاطباً عباده المؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ

ص: 166

1- سورة الأعلي (87): الآية 14 .

2- تفسير العياشي: ج 1 ص 162 ح 182 .

3- سورة النحل (16): الآية 96 .

4- سورة النحل (16): الآية 126 .

وقال تعالى: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا (2)».

ولا يخفي أن للصبر مقامات ودرجات وهو علي أنواع وأشكال متعدّدة إذ أن كل شي ء في هذه الحياة يحتاج إلي صبر وعمل ومواظبة ..

أهل البيت عليهم السلام والتأكيد علي الصبر

وقد ورد ذكر الصبر ومدح الصابرين في روايات أهل البيت الأطهار عليهم السلام كثيراً في مواطن متعدّدة منها: ما عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: قال رسول الله صلي الله عليه وآله: ((من يعرف البلاء يصبر عليه ومن لا يعرفه ينكره)) (3). وعن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: ((إذا كان يوم القيامة جمع الله الخلائق في صعيد واحد وينادي منادٍ من عند الله، يُسمع آخرهم كما يسمع أولهم: يقول: أين أهل الصبر؟ فيقوم عُتق من الناس، فتستقبلهم زمرة من الملائكة فيقولون لهم: ما كان صبركم هذا الذي صبرتم؟ فيقولون: صبرنا أنفسنا علي طاعة الله، وصبرناها علي معصية الله قال: فينادي منادٍ من عند الله: صدق عبادي، خلّو سبيلهم ليدخلوا الجنة بغير حساب)) (4).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ((دخل أمير المؤمنين صلوات الله عليه المسجد، فإذا هو برجل علي باب المسجد، كئيب حزين، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): ما لك؟ قال: يا أمير المؤمنين أصبت بأبي [وأمي [وأخي وأخشي أن أكون قد وجلت، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): عليك بتقوي الله والصبر تقدم عليه غداً، والصبر في الأمور

ص: 167

1- سورة البقرة (2): الآية 153 .

2- سورة طه (20): الآية 132 .

3- أمالي الصدوق: المجلس 74 ح 1 .

4- وسائل الشيعة: ج 15 ص 236 ح 20368 .

بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور(1).

نعم ، فإنّ الصبر في الحياة هو أساس لكل نجاح وفلاح سواء أكان ذلك عليّ المستوي الفردي أم الاجتماعي أم غيرهما .. فإذا صبر الإنسان حيناً من الزمن عليّ بعض المفاجآت المزعجة ، ونوائب الدهر المؤذية ، وعليّ مشاق العبادات والمناسك ، وحبس نفسه عن الملذّات النفسية المحرّمة إمتثالاً لأوامره تعاليّ فإنّه بلا شك وريب سيحظي بالسعادة في الدارين ، وكذلك الحال عليّ الصعيد الاجتماعي ، فأيّ أمة في الوجود لا يمكنها أن تحقّق النجاح في أيّ مجال من مجالات الحياة - السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية - إلاّ بالصبر المرير والنفس الطويل لدي معالجة الأزمات الناشئة .

لكي نعيد مجدنا الزاهر

والأمة الإسلامية اليوم حتيّ تعيد عزّتها المسلوبة لا بدّ من الصبر وذلك لأمر شتّي منها :

1 - تردّد كيد الأعداء الموجه إليها من كل حدب وصوب .

2 - ردّ أذي المنافقين والمعاندين .

3 - تحرير أرضنا السليبية وطرده اليهود من أرضنا .

4 - من أجل بناء حضارتنا الحديثة واللحاق بالركب الحضاري . ومن أجل .. ومن أجل .. ألف قضية إذ أنّ كلّها تحتاج إليّ الصبر والمصابرة .

ص: 168

1- الكافي : ج2 ص90 ح9 .

من جانب آخر فإن للصبر مقامات ومنازل ذكرها أرباب العلم والمعرفة منها :

(1) الصبر في الله : وهو الصبر علي مجاهدة النفس ، وترك المألوف لدي الناس .. بل هو ترك النفس ولبعض ما تشتهي في سبيل الله ، فعن الأصبغ بن نباتة قال : قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : ((الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن جميل وأحسن من ذلك الصبر عندما حرّم الله عزّ وجلّ عليك))⁽¹⁾.

وعن أمير المؤمنين(عليه السلام) قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((الصبر ثلاثة : صبر عند المصيبة وصبر علي الطاعة وصبر عن المعصية ، فمن صبر علي المصيبة حتي يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلي الدرجة كما بين السماء إلي الأرض ومن صبر علي الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلي الدرجة كما بين تخوم⁽²⁾ الأرض إلي العرش ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلي الدرجة كما بين تخوم الأرض إلي منتهي العرش))⁽³⁾.

(2) الصبر مع الله : وهو حفظ النفس من التلونات بالتجرّد من ملابس الأفعال والصفات ، وتجليّ القلب بتجليات الأسماء والصفات القدسيّة .

(3) الصبر عن الله : وهو من درجات المحبّين والمشتاقين من أهل الشهود ، وهذا من أصعب المقامات كلّها ولا يصل إليه إلا ذوي الهمم العالية والنفوس الصافية والقلوب السليمة تماماً من أي كدر ..

وهذه المراتب أشار إليها الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في دعائه المعروف بدعاء كميل بن زياد حيث قال(عليه السلام) : ((فهبني ياإلهي وسيدي ومولاي صبرت علي

ص : 169

1- الكافي : ج2 ص90 ح 11 .

2- في الصحاح ، التخيم : منتهي كل قرية أو أرض والجمع تخوم كفلس وفلوس .

3- الكافي : ج2 ص91 ح 15 .

عذابك فكيف أصبر علي فراقك ، وهبني صبرت علي حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلي كرامتك))[\(1\)](#).

(4) الصبر باللّهُ : وهو مقام الأنبياء والأوصياء والمعصومين إذ أنّه لأهل الاستقامة والتمكين ، ولا أظنّ أنّ هناك علي هذه المرتبة خير ولا أحسن من صبر الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء ، إذ أنّ من صبره عبّت ملائكة السماء قاطبة .

فلما عزم (عليه السلام) الرحيل إلي الميدان شدّ علي قلوب أهل بيته بالصبر والرضي بقضاء اللّهُ وقدره وقال لهم : ((استعدّوا للبلاء ، واعلموا أنّ اللّهُ تعالي حاميك وحافظكم وسينجّيك من شرّ الأعداء ، ويجعل عاقبة أمركم إلي خير))[\(2\)](#).

ونحن نقرأ في زيارته (عليه السلام) : ((أشهد أنّك قد أقيمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وتلوت الكتاب حقّ تلاوته وجاهدت في اللّهُ حقّ جهاده وصبرت علي الأذي في جنبه حتي أتاك اليقين))[\(3\)](#).

الدعوة إلي المصابرة

من جانب آخر فإنّ الآية الكريمة نادت إلي المصابرة : وهي الدعوة إلي الصبر والتصبر فيما بين المؤمنين خاصّة في ساحات الجهاد لأنّها بحاجة إلي المصابرة للمحافظة علي الروح المعنوية والنضالية لدي المجاهدين ، ففي الآية الكريمة نحن نقرأ في صفات المؤمنين : ((وتواصوا بالصبر))[\(4\)](#).

وقد ورد في الأحاديث الشريفة بأنّ المصابرة تكون في المحافظة علي الفرائض

ص: 170

1- دعاء كميل - مفاتيح الجنان وغيره .

2- الدمعة الساكبة : ج4 ص346 .

3- كتاب المزار : ص106 باب القول عند معاينة الجسد .

4- سورة العنبر (103) : الآية 3 .

واجتناب المحارم ، فعن الحسن بن خالد عن الإمام الرضا(عليه السلام) قال : ((إذا كان يوم القيامة نادي مناد ، أين الصابرون ؟ فيقوم فنام من الناس ، ثم ينادي أين المتصبرون ؟ فيقوم فنام من الناس ، قلت : جعلت فداك وما الصابرون ؟ فقال : علي أداء الفرائض . والمتصبرون علي اجتناب المحارم)) (1). وعن أبي عبد الله(عليه السلام) في قول الله عز وجل : «اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا(2)» قال : ((اصبروا علي الفرائض)) (3) وعن الإمام الصادق(عليه السلام) قال : ((اصبروا)) علي المصائب .. ((وصابروا)) علي الفرائض وربطوا علي الأئمة عليهم السلام)) (4).

المرابطة علي خط أهل البيت عليهم السلام

المرابطة : هي الجلوس في الثغور وحفظها وسمي رباطاً لربط الخيل فيها ، وسمي المحل بذلك لعلاقة الحال بالمحل .. والشجر هو الموضوع الذي فيه العدو في أطراف البلاد ، لتعرف حركاته ، ويكون الجيش مستعداً لضربه إذا أراد الهجوم ، وأحياناً يتقدم المرابطون إلي بلاد العدو لفتح أو الغاء الرعب أو سلب الغنيمة أو ما شابه ذلك ... وقد وردت الكثير من الروايات عن فضل الرباط والمرابطين وأن المراد الحقيقي من الآية وهو المرابطة علي خط المعصومين عليهم السلام ، فعن أبي عبد الله(عليه السلام) في قول الله تبارك وتعالى : ((اصبروا)) يقول : عن المعاصي ((وصابروا)) علي الفرائض ((واتقوا الله)) يقول : أومروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، ثم قال : وأي منكر أنكر من ظلم الأمة لنا ، وقتلهم إيانا ((ورابطوا)) يقول في سبيل الله ونحن السبيل فيما بين الله وخلقه ،

ص : 171

- 1- تفسير القمي : ج 1 ص 22 .
- 2- سورة آل عمران (3) : الآية 200 .
- 3- الكافي : ج 2 ص 81 ح 2 .
- 4- وسائل الشيعة : ج 15 ص 269 ح 20446 .

ونحن الرباط الأدنى ، فمن جاهد عتًا فقد جاهد عن النبي صلي الله عليه وآله وما جاء به من عند الله .. ((لعلكم تفلحون)) يقول : لعل الجنة توجب لكم إن فعلتم ذلك)) (1).

وعنه (عليه السلام) في رواية أخرى : ((اصبروا)) علي الأذي فينا ، قلت : ((وصابروا)) قال : عدوكم مع وليكم ((ورابطوا)) قال : المقام مع إمامكم)) (2).

وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال في قوله : ((اصبروا)) يعني بذلك عن المعاصي وصابروا يعني التقية ((ورابطوا)) يعني الأئمة)) (3).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل : «اصبروا وصابروا ورابطوا» (4) قال : ((اصبروا علي الفرائض ((وصابروا)) علي المصائب و ((رابطوا)) علي الأئمة عليهم السلام)) (5).

التقوي والمرابطة الحقيقية

ولا يخفي أن المراد بالتقوي التي في آخر الآية المباركة هو العمل الشامل لكل ما سبق ، لأن الله سبحانه كما قال في كتابه : «يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ» (6) «فإذا كان الإنسان خائفًا متقياً لله تعالى - فإنه بلا شك - يستطيع الصبر في الطاعة والمعصية والمحنة والمصيبة بالتالي يستطيع الجهاد والمرابطة في سبيل الله ، وإلا فسوف ينهزم أمام نفسه أولاً وأمام الأئمة ثانياً ، وأمام الضغوط ثالثاً .

ص: 172

- 1- تفسير العياشي : ج 1 ص 212 ح 179 .
- 2- تفسير العياشي : ج 1 ص 213 ح 182 .
- 3- تفسير العياشي : ج 1 ص 162 ح 184 .
- 4- ((- سورة آل عمران (3) : الآية 200 .
- 5- الكافي : ج 2 ص 81 ح 3 .
- 6- سورة المائدة (5) : الآية 27 .

إشارة

(19) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُوا لَوْهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا» (سورة النساء : 19)

في رحاب المفردات

تعضلوهنّ : يقال عضلته أي شددته بالعضل المتناول من الحيوان نحو عصبته وتجوّز به في كل منع شديد(1).

بفاحشة : ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال(2).

ص: 173

1- مفردات الراغب : ص 350 .

2- مفردات الراغب : ص 387 .

عاشروهنّ : عاشرته صرت له كعشرة في المصاهرة : وعاشروهنّ بالمعروف ، والعشر المعاشر قريباً كان أو معارف(1).

شأن النزول

قيل إنّ أبا قيس بن الأسلت ، لما مات عن زوجته كبيشة بنت معن ، ألقى ابنه محصن بن أبي قيس ثوبه عليها ، فورث نكاحها ، ثم تركها ولم يقربها ، ولم ينفق عليها ، فجاءت إلي النبي صلي الله عليه وآله فقالت : يا نبي الله لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ! فنزلت الآية وهذا عن مقاتل ، وهو المروي عن أبي جعفر (عليه السلام) . وقيل : كان أهل الجاهلية إذا مات الرجل ، جاء ابنه من غيرها ، أو وليه ، فورث امرأته ، كما يرث ماله ، وألقى عليها ثوباً ، فإن شاء تزوّجها بالصدّاق الأول ، وإن شاء زوّجها غيره ، وأخذ صدّاقها ، فنهوا عن ذلك ، وهذا مروي عن حسن ، ومجاهد ، وروي ذلك أبو الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) .

وقيل نزلت في الرجل تكون تحته امرأة ، يكره صحبتها ، ولها عليه مهر ، فيطول عليها ، ويضارّها لتفتدي بالمهر ، فنهوا عن ذلك . وقيل : نزلت في الرجل يحبس المرأة عنده ، لا حاجة له إليها ، وينتظر موتها حتى يرثها(2).

ص: 174

1- مفردات الراغب : ص 347 .

2- مجمع البيان : ج 4 مج 3 ص 47 - 46 .

إنّ سورة النساء المباركة هي سورة اجتماعية لما فيها من الآيات والأحكام التي تنظّم شؤون المجتمع لا سيّما الأسرة والإرث وغيرهما .

وهذا النداء الرحماني الذي يخصّ به الباري تعالي عباده المؤمنين ، هو بالحقيقة حكم وقانون إسلامي رائع في المعنى وهذا واضح في قوله تعالي : ((لا يحلّ لكم)) أي إنّّه حرام .

فالآية الشريفة جاءت لتخبر عن واقعية الاجحاف بحقّ المرأة بشكل عام عند عرب الجاهلية ، ومدى اهتمام الإسلام الحنيف بمثل هذه القضية المهمّة .

فمسألة هضم حقّ المرأة وظلمها هي مسألة سائدة في معظم دول العالم القديم والحديث حتى أنّه في القارة الأوربية التي تدّعي التحضّر في وقتنا الراهن ، توجد مواقف مخزية تدلّ علي هضمهم لحقوق المرأة وتضييعهم لكرامتها .

والسؤال هنا كيف يكون ذلك ؟

الجواب إنّهم جعلوا المرأة كوسيلة إعلامية لترويج المفاسد المختلفة ، فالذي يريد ترويج بضاعة ما فهو لا يستخدم أو ليس له غني عن المرأة ، وأنوثتها ونعومتها لترويج تلك البضائع .

وهكذا ، فقد هضموا حقوق المرأة وسلبوها أغلي ما تملك وهو عفتها وحرموها من أجمل ما تحلم به ((بيتها)) وبخلوا عليها بأقدس شيء لها وهي أمومتها فجعلوها تتيه في دوّامات من الفساد التي لا أول لها ولا آخر ..

ماذا عن امتهان حقوق المرأة؟

وعلي كل ، فالآية الشريفة تنهي المؤمنين عن بعض مصاديق الاجحاف بالمرأة وظلمها ومن هذه المسائل :

(1) إرث النساء كرهاً : حيث إن بعض الرجال يتزوجون النساء الغنّيات لا حاجة فيهنّ كزوجات بل لأجل ثروتهنّ وأموالهنّ ، فيحبسونهنّ عندهم حتّى يمتن فيرثون أموالهنّ ويتنعمون بها .

وعلي هذا فإن المرأة تبقى محرومة بشكل كامل من أبسط حقوقها الزوجية ، فلا هي مطلقة حتي تكون حرة تتزوج من تريد ولا هي ذات بعل تتمتع ببعض حقوقها معه .

ولذلك فإن الإسلام يؤكّد بشدّة في مسألة الزواج علي أن لا يبحث الإنسان عن المال بل عليه أن يفتش عن ذات الدين فهي الملاك .

وإلي ذلك يشير الإمام الصادق(عليه السلام) في حديثه فقال : ((إذا تزوّج الرجل المرأة لجمالها أو مالها وكّل إلي ذلك وإذا تزوّجها لدينها رزقه الله الجمال والمال))⁽¹⁾.

وعنه(عليه السلام) كذلك قال : ((من تزوّج امرأة يريد مالها ألجأه الله إلي ذلك المال))⁽²⁾.

وعن أبي عبد الله(عليه السلام) قال : ((إذا تزوّج الرجل المرأة لجمالها وجمالها لم يرزق ذلك ، فإن تزوّجها لدينها رزقه الله عزّ وجلّ جمالها ومالها))⁽³⁾.

ص: 176

1- تهذيب الأحكام : ج7 ص403 ح18 .

2- الكافي : ج5 ص324 ح4 .

3- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص392 ح4380 .

(2) الضغظ علي المرأة لتهب مهرها : وهذا هو الاعضال المنهي عنه في الآية حيث قال تعالي : «وَلَا تَعْصُوهُنَّ لَمَوهُنَّ لِيَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ»(1) وهذا غالباً ما يقع من الأزواج الذين يتزوجون بنساء مهورهنّ عالٍ وغالٍ ، فإذا أراد أن يطلقها فهو غير قادر علي دفع المهر المتفق عليه في العقد ، فيضغظ عليها بالضرب أو الهجران أو التعذيب النفسي أو الجسدي حتي تطلب هي الطلاق وبالتالي تنازل عن كل شيء في سبيل الخلاص من هذا العذاب .

الملفت للانتباه أنّ الإسلام العزيز يرشد الناس قبل الوقوع في مثل هذه المشاكل التي لا أول لها ولا آخر أن يتخذوا المهور القليلة في الزواج ، وهذا له آثار اجتماعية ووضعية عظيمة ، فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((أفضل نساء أمتي أصبحهنّ وجهاً وأقلهنّ مهراً)) (2).

وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال : ((جاءت امرأة إلي النبي صلي الله عليه وآله فقالت : زوجني ، فقال رسول الله صلي الله عليه وآله : من لهذه ؟ فقال رجل فقال : أنا لها يارسول الله زوجنيها ، فقال : ما تعطيها ؟ فقال : ما لي شيء ، فقال : لا قال : فأعادت ، فأعاد رسول الله صلي الله عليه وآله الكلام فلم يتم أحد غير الرجل ثم أعاد ، فقال رسول الله صلي الله عليه وآله في المرة الثالثة : أتحسن من القرآن شيئاً ؟ قال : نعم ، فقال : قد زوجتكها علي ما تحسن من القرآن فعلمها إياه)) (3).

وعن الإمام علي (عليه السلام) قال : ((لا تغالوا في مهور النساء فتكون عداوة)) (4).

ص: 177

1- سورة النساء (4) : الآية 19 .

2- الكافي : ج 5 ص 324 ح 4 .

3- تهذيب الأحكام : ج 7 ص 354 ح 8 .

4- مستدرک الوسائل : ج 15 ص 66 ح 17553 .

وعن الإمام علي (عليه السلام) قال : ((إنه أتى رجل إلي رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله ، أردت أن أتزوج هذه المرأة ، قال :
وكم تصدقها ؟ قال : ما عندي شيء فنظر إلي خاتم في يده ، فقال : هذا الخاتم لك ؟ قال : نعم . قال : فتزوجها عليه)) (1).

وبطبيعة الحال فإن الأعضاء المنهي عنه في الآية لا يجوز إلا في حالة واحدة وهي : «أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ (2)» ولعل الفاحشة في هذا
المورد هي الزني وليس غيره ، فالتى تزني وهي في بيت زوجها لا شيء لها ولا حقوق بل يلحقها الحد الشرعي للمحصنة وهو الرجم
بالحجارة ، فيكون الإعضال والطلاق وغيرهما أشبه بالعقوبة التأديبية لها ولغيرها من بني جنسها .

(3) المعاشرة بالمعروف : وهذا توجيه إلهي عظيم الشأن بالنسبة للحياة الزوجية كلها إذ أن المعاشرة بالمعروف تؤدي إلي ((المودة
والرحمة)) والعشرة السيئة تؤدي إلي النفور والكراهية بين الاثنين وعند ذلك لا يمكن استمرار الحياة الزوجية أبداً .

ولعل المراد بذلك هو الاتيان بما يلائم شأن الزوجة ويرضيها عبر قضاء حوائجها النفسية والجسدية ، وبذلك يكون ذلك مفتاح بركة وفاتحة
خير عظيم ، عن بركة في الأموال ورزق في الأولاد إذ أنهم - الأولاد - من أقوى الروابط ودواعي الألفة والاطمئنان بين الزوجين ، خاصة إذا
كبروا وكانوا صالحين ، فيكونوا نعم السلف للوالدين .

ص: 178

1- مستدرك الوسائل : ج 15 ص 60 ح 17535 .

2- سورة النساء (4) : الآية 19 .

الاختلاف في الحياة الزوجية

يبقى القول إنّ الاختلاف بين الزوجين في بداية الحياة الزوجية هو بالحقيقة أمر طبيعي بين بني البشر إذ أنّ كل منهما له أخلاقه ومزاجه وتربيته الخاصّة، فهم يحتاجون لبعض الوقت - قد يطول أو يقصر - من أجل الملائمة والتوافق التامّ بينهم .

وهذا يحتاج أن يتنازل كل منهما عن بعض حقوقه من أجل الطرف الآخر، ويراعيه في البقية الباقية، بحيث لا ينفر منه ولا يجرح شعوره جرّاء ذلك، وفي مثل هذا المجال تأتي قصة خليل الرحمن (عليه السلام) اثر زواجه من كلا زوجته (سارة وهاجر) وكيف أنّه كان لا يرغب من الزواج بهاجر عليها السلام في بداية الأمر .

فقد نقل أصحاب التاريخ أنّ نبي الله إبراهيم الخليل (عليه السلام) كان متزوجاً من ابنة عمّه (سارة) وهي فائقة الجمال والبهاء والنعمة، وكان يحبّها كثيراً ويعطف عليها ويكره إزعاجها، وتشاء إرادة السماء أن لا يرزق منها بولد خصوصاً أنّ الزمن قد طال ونبي الله إبراهيم (عليه السلام) بلغ من الكبر عتياً .

آنذاك أهدته سارة جارية كانت عندها تدعي ((هاجر)) وأمرته بالزواج منها، فرفض في بداية الأمر إلا أنّه تزوّجها بعد إلحاحها فكانت الزوجة الثانية له، وأنجبت ((هاجر)) نبي الله إسماعيل (عليه السلام) فكان الخير كل الخير في هذا الزواج المبارك إذ أنّ أعظم عظماء الإنسانية، وسيد ولد آدم (عليه السلام) ورسول الإسلام المبارك محمّد بن عبد الله صلي الله عليه وآله فضلاً عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام كانوا نتيجة ذلك الزواج الميمون .

فليست المسألة إذن بالكراهية والنفور، بل كما قال تعالي: «فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا⁽¹⁾» وفي هذا حتّ للأزواج علي

ص: 179

1- سورة النساء (4) : الآية 19 .

حسن الصبر فيما يكرهون من الزوجات ، وترغيبهم في امساكهنّ مع كراهية صحبتهنّ .

وعلي كل حال فإنّ الحياة الزوجية تحتاج إلي الكثير من الصبر والحلم والأخلاق الحسنة والمدارة المتبادلة بين الاثنين ، واللّه الموفّق المستعان .

ص: 180

(20) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» (سورة النساء: 29)

في رحاب المفردات

تجارة: التجارة التصرف في رأس المال طلباً للربح يقال تجر يتجر وتاجر وتجر كصاحب وصحب(1).

تراض: يقال رضي يرضي رضاً فهو مرضيٌّ ومرضو . ورضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه ، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمراً لأمره ومنتهياً عن نهيه ، قال تعالى : «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ»(2).

ص: 181

1- مفردات الراغب : ص 69 .

2- سورة المائدة (5) : الآية (119) مفردات الراغب : ص 202 .

شأن النزول

عن زياد بن عيسى قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قوله : «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ (1)» قال : كانت قريش تقامر الرجل في أهله وماله فنهاهم الله عن ذلك (2).

وروي الحافظ الحسكاني (الحنفي) قال : أخبرونا عن القاضي أبي الحسن محمد بن عثمان النصيبي عن كامل ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس في قوله تعالى : «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» قال : لا تقتلوا أهل بيت نبيكم ، إن الله يقول : «تَعَالَوْا زِدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُم وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ» وكان ((أبناءنا)) الحسن والحسين .

وكان ((نساءنا)) فاطمة .

((وأنفسنا)) النبي وعلي عليهما السلام (3).

عبر من الآية

ويعود الحديث في هذه الآية تارةً أخرى عن الأموال إلا أنها في السياق الاجتماعي ، أي ضمن الآيات والأحكام والتوصيات الاجتماعية العامة . لذلك جاءت بهذا التعميم حيث قال تعالى : «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ (4)» فهو نهى عن أكل الأموال التي تأتي بطرق غير شرعية ، كالمعاملات غير المشروعة وما أشبه

ص: 182

1- سورة النساء (4) : الآية 29 .

2- تفسير العياشي : ج 1 ص 84 ح 204 .

3- شواهد التنزيل : ج 1 ص 143 .

4- سورة النساء (4) : الآية 29 .

ذلك .

كما أنّ الآية شوّقت إلى التجارة بيعاً وشراءً بقراض فيما بينكم ، وفي الأخير نهت عن قتل النفس ، فالله هو رحيم بكم ينقذكم ممّا أنتم فيه من ضنك وما أشبه ذلك .

فالآية المباركة تحدّثت عن الأموال بشكل عام وهي علي ثلاثة أقسام أساسية ، حلال ، وحرام ، وحلال مختلط بحرام . والآية لما تدعوا إلى عدم أكل المال بالباطل هذا يعني أحد أمرين كما يذهب المفسّرون ، وهما :

(1) أنّ المال الذي يأتي من القمار والربا والظلم وما إلى ذلك من الطرق غير الشرعية .

(2) أكل المال دون استحقاق من الآكل للمال المأكول ، كأكل مال اليتيم وغيره ، فعن سلمة قال : قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) : الرجل ممّا يكون عنده الشيء يتبّلغ به وعليه دين يطعمه عياله حتى يأتي الله عزّوجلّ بيسره فيقضي دينه ، أو يستقرض علي ظهره في خبث الزمان وشدة المكاسب أو يقبل الصدقة ؟ قال : ((يقضي بما عنده دينه ولا يأكل أموال الناس إلّا وعنده ما يؤدّي إليهم حقوقهم ، إنّ الله عزّوجلّ يقول : «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ(1)» ولا يستقرض علي ظهره إلّا وعنده وفاء ، ولو طاف علي أبواب الناس فردّوه باللقمة واللقتين والتمرة والتمرتين إلّا أن يكون له ولي يقضي دينه من بعده ، ليس ممّا من ميّت إلّا جعل الله له وليّاً يقوم في عدته(2) ودينه فيقضي عدته

ص : 183

1- سورة النساء (4) : الآية 29 .

2- العدة : الوعد .

ويقابل أكل الأموال بغير الحقّ أكلها بالحقّ وهي أكثر بكثير ، فالحلال عام والحرام خاصّ ، والحلال كثير والحرام قليل جداً ، وهذا ما أوضحته القواعد الفقهية المعروفة ومنها قاعدة الحلّية الناصّة عليّ حلّية كل شيء حتّى نعلم حرمة .. فالتشريع الإسلامي والقوانين الإسلامية إلهية يشتم منها الرأفة والرحمة لأنّها من الرحمن الرحيم ، وقد أشار الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله إليّ سماحة الشريعة فقال صلي الله عليه وآله لعثمان بن مظعون الذي كان يصوم النهار ويقوم الليل : ((ياعثمان ، لم يرسلني الله تعالي بالرهبانية ، ولكن بعثني بالحنيفية السهلة السمحة)) (2) ، وقال صلي الله عليه وآله : ((يسرّوا ولا تعسّروا ، ألقوا ولا تنفروا ..)) (3) ، وقد قال تعالي في كتابه : «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(4)» ..

فالأكل للأموال بالحقّ يعني أكل المال الحلال بالطريقة الشرعية المقبولة كالتجارة والرهن والمضاربة وما أشبهه ، وأكلها بالباطل يعني الأموال التي تأتي من الحرام أو الطرق غير الشرعية كالسرقة والنهب والغصب ، والمقامرة والربا والغش والاحتيال .. وما أشبهه .

التجّار والتفّّه في الدين

وفي الحقيقة إنّ الكثير من المعاملات الرائجة في مجتمعاتنا اليوم تحتاج إليّ إعادة نظر وتأمل إذ أنّ الكثير منها يتمّ فيه أكل الأموال بالباطل ، والأحاديث الشريفة

ص: 184

- 1- تهذيب الأحكام : ج6 ص185 ح8 .
- 2- الكافي : ج5 ص494 ح1 .
- 3- عوالي اللآلي : ج1 ص381 ح5 .
- 4- سورة الشرح (94) : الآية 5 .

كثيراً ما تخصص أداب الاكتساب والتجارة غرار التفقه في الدين وغيره من أجل اجتناب أكل الأموال بالباطل بحيث يكون المتعامل عارفاً بوجوه الحق من الباطل ، فمن هذه الروايات :

ما عن الأصبغ بن نباتة أنه قال : سمعت أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول علي المنبر : ((يامعشر التجار الفقه ثم المتجر ، الفقه ثم المتجر ، والله للربا في هذه الأمة أخفي من ديبب النمل علي الصفا ، شوبوا أيمانكم بالصدق ، التاجر والفاجر في النار إلا من أخذ الحق وأعطى الحق)) (1).

وعن رسول الله صلي الله عليه وآله إنه قال : ((من باع واشتري فليحفظ خمس خصال وإلا فلا يشتري ولا يبيع : الربا ، والحلف وكتمان العيب والحمد إذا باع والذم إذا اشتري)) (2).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((جاءت زينب العطاراة الحولاء إلي نساء النبي صلي الله عليه وآله فجاء النبي صلي الله عليه وآله فإذا هي عندهم فقال النبي صلي الله عليه وآله : إذا أتيتنا طابت بيوتنا ، فقالت : بيوتك بريحك أطيب يا رسول الله فقال لها رسول الله صلي الله عليه وآله : ((إذا بعت فأحسني ولا تغشي فإنه أتقي لله وأبقي للمال)) (3).

وعن أبي أمامة إنه قال : سمعت رسول الله صلي الله عليه وآله يقول : ((أربع من كنّ فيه فقد طاب مكسبه إذا اشتري لم يعب وإذا باع لم يحمد ولا يدلس وفيما بين ذلك لا يحلف)) (4).

فالواجب علي الإنسان التفقه في الدين وتعلّم الآداب في الاكتساب والتجارة

ص: 185

1- الكافي : ج 5 ص 150 ح 1 .

2- من لا يحضره الفقيه : ج 3 ص 194 ح 3727 .

3- الكافي : ج 5 ص 151 ح 5 .

4- الكافي : ج 5 ص 153 ح 18 .

حتى لا يقع في أكل الأموال بالحرام ، فالذي يلاحظ الروايات الداعية إلي التكبّب والتجارة يجد أنّها كثيرة جداً فمنها : ما عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال : ((ترك التجارة ينقص العقل)) (1). وقال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((التجارة تزيد في العقل)) (2). وقال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((من طلب التجارة استغني عن الناس ، قلت : وإن كان معيلاً ؟ قال : وإن كان معيلاً إنّ تسعة أعشار الرزق في التجارة)) (3). وعن فضيل الأعور قال : شهدت معاذ بن كثير وقال لأبي عبد الله (عليه السلام) إني قد أيسرت فأدع التجارة ، فقال : ((إنك إن فعلت قلّ عقلك - أو نحوه -)) (4). وعن الفضيل بن يسار قال : قال أبو عبد الله (عليه السلام) : ((أي شيء تعالج ؟ قلت : ما أعالج اليوم شيئاً ، فقال : كذلك تذهب أموالكم واشتدّ عليه)) (5).

فالتجارة تنمي العقل وتزيده ، وتحفظ المعاش وتحسنه ، وتكفّ بها النفس والعائلة عن الناس ، وفيها رضا الله سبحانه إذا كانت طبق الضوابط الشرعية .

عواقب أكل المال بالباطل

أمّا التوجيه الربّاني الآخر وهو قوله تعالى : «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» (6) «أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، فإنّ القتل مهما وقع علي العدو فإنّه بالتالي واقع علي الجنس البشري ، والمناسبة بين القتل وأكل المال ربما كانت : أنّ الله سبحانه حرّم انتهاك

ص: 186

1- تهذيب الأحكام : ج 7 ص 2 ح 1 .

2- من لا يحضره الفقيه : ج 3 ص 192 ح 3717 .

3- تهذيب الأحكام : ج 7 ص 3 ح 5 .

4- تهذيب الأحكام : ج 7 ص 2 ح 2 .

5- الكافي : ج 5 ص 148 ح 5 .

6- سورة النساء (4) : الآية 29 .

الأعراض وأكل الأموال وإراقة الدماء ، وحيث إنّ الآية أشارت إليّ الأولين ، فجاءت وأشارت إليّ الثالث .

وقد يكون لقوله ((لا تقتلوا أنفسكم)) معني آخر وهو لا تخاطروا بأنفسكم بالقائها في التهلكة .

ففي الرواية عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال في معني قوله : «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ(1)» قال : ((عني بذلك الرجل من المسلمين يشدّ عليّ المشركين في منازلهم فيقتل ، فنهاهم الله عن ذلك)).

وفي تفسير علي بن إبراهيم : قوله : «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ(2)» قال : كان الرجل إذا خرج مع رسول الله صلي الله عليه وآله في الغزو يحمل علي العدو وحده من غير أن يأمره رسول الله صلي الله عليه وآله فنهى الله أن يقتل نفسه من غير أمر رسول الله صلي الله عليه وآله(3).

وفي تفسير العياشي : عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال : ((سألت رسول الله صلي الله عليه وآله عن الجبائر تكون علي الكسير كيف يتوضأ صاحبها ، وكيف يغتسل إذا أجنب ؟ قال : يجزئه المسح بالماء عليها في الجنابة والوضوء ، قلت : فإن كان في برد يخاف علي نفسه إذا أفرغ الماء علي جسده فقرأ رسول الله صلي الله عليه وآله : «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(4)»)).

وقيل لا تقتلوا أنفسكم بأن تهلكوها بارتكاب الآثام ، والعدوان في أكل المال بالباطل ، وغيره من المعاصي التي تستحقون بها العذاب(5).

ص: 187

1- سورة النساء (4) : الآية 29 .

2- سورة النساء (4) : الآية 29 .

3- تفسير القمّي : ج 1 ص 133 .

4- تفسير العياشي : ج 1 ص 236 ح 102 .

5- مجمع البيان : ج 5 مج 3 ص 69 .

وجميع هذه المعاني تحملها الآية الكريمة ، ولعلها تشير إلي أثر من آثار عدم مراعاة الضوابط الشرعية في الحقوق المتبادلة ولا سيما الاقتصادية منها ، حيث إنها تؤدي إلي انفجار المجتمع وتهالك الناس من أجل تحصيل لقمة العيش فيزداد الوضع الاقتصادي سوءاً ، والوضع الاجتماعي تدهوراً ، وتتفكك الروابط الاجتماعية الأخرى وتهبط المجتمعات إلي مستوي الحضيض ..

عوامل الانحراف الاجتماعي

ولا يخفي أنّ هذه الأمور تعود إلي :

(1) الفقر المدقع ، والعوز الشديد حيث إنّ الإنسان لا يجد ما يسدّ جوعه وعطشه فضلاً عن الاحتياجات الأخرى الضرورية له .

ولذا ، فإنّ الروايات كثيراً ما تؤكد علي إعانة الفقراء وسدّ حوائجهم ، فعن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال : ((إنّ الله عزّ وجلّ يلتفت يوم القيامة إلي فقراء المؤمنين ، شبيهاً بالمتعذّر إليهم ، فيقول : وعزّتي وجلالي ما أفقرتكم في الدنيا من هوان بكم عليّ ولترونّ ما أصنع بكم اليوم فمن زوّد أحداً منكم في دار الدنيا معروفاً فخذوا بيده فأدخلوه الجنّة ، قال : فيقول رجل منهم : ياربّ إنّ أهل الدنيا تنافسوا في دنياهم فنكحوا النساء ولبسوا الثياب اللينة وأكلوا الطعام وسكنوا الدور وركبوا المشهور من الدواب فأعطني مثل ما أعطيتهم ، فيقول تبارك وتعالى : لك ولكل عبد منكم مثل ما أعطيت أهل الدنيا منذ كانت إلي انقضت الدنيا سبعون ضعفاً)) (1).

وعن مبارك غلام شعيب قال : سمعت أبا الحسن موسى (عليه السلام) يقول : إنّ الله عزّ وجلّ يقول : ((إني لم أغني الغني لكرامة به عليّ ولم أفقر الفقير لهوان به عليّ وهو

ص : 188

مما ابتليت به الأغنياء بالفقراء ولولا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنة)) (1).

(2) كثرة المال .. وتوفّر كل شيء والفراغ الروحي القاتل كما هو معروف ومشهور في البلاد الغنية بحيث أصبحت ظاهرة اجتماعية مخيفة فعلاً إذ أنّ نجوم الملاهي وغيرهم أخذوا يتهافنون علي الانتحار بشي الطرق كل ذلك لأنّهم لم يعرفوا الهدف الحقيقي من الحياة .

وعلي خلافهم تماماً أصحاب الديانات والروحانيات من الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر فتجدهم متفائلين دائماً ، فهم لا ييأسون من رحمة الله ولا يقنطون منها أبداً ، فما بعد الضيق إلا الفرج وما بعد العسر إلا اليسر بإذن الله .

فعن الحسين بن علوان قال : كنّا في مجلس نطلب فيه العلم وقد نفذت نفقتي في بعض الأسفار ، فقال لي بعض أصحابنا : من تؤمّل لما قد نزل بك ؟ فقلت : فلاناً ، فقال : إذا والله لا تسعف حاجتك ولا يبلغك أملك ولا تنجح طلبتك ، قلت : وما علمك رحمك الله ؟ قال : إنّ أبا عبد الله (عليه السلام) حدّثني أنّه قرأ في بعض الكتب أنّ الله تبارك وتعالى يقول : ((وعزّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي علي عرشي لأقطعنّ أمل كلّ مؤمّل [من الناس] غيري باليأس ولأكسوته ثوب المذلّة عند الناس ولأنحيته من قربي ولأبعدته من فضلي ، أيؤمّل غيري في الشدائد؟! والشدائد بيدي ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري؟! وييدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني فمن ذا الذي أمّلني لنوابه فقطعته دونها؟! ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه منّي؟! جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي وملأت سماواتي ممّن لا- يملّ من تسبيحي وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي ، فلم يثقوا بقولي ألم يعلم [أنّ] من طرقته نائبة من نوابي إنّه لا يملك كشفها أحد غيري إلا من

ص: 189

1- الكافي : ج2 ص 265 ح 2 .

بعد إذني ، فما لي أراه لا هياً عني أعطيته بجودي ما لم يسألني ثم انتزعتة عنه فلم يسألني رده وسأل غيري؛ أفيراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة ثم أسأل فلا أجيب سألني؟! أبخيل أنا يبخلني عبدي أو ليس الجود والكرم لي؟! أو ليس العفو والرحمة بيدي؟! أو ليس أنا محل الآمال؟! فمن يقطعها دوني؟ أفلا يخشي المؤمنون أن يؤمّلوا غيري ، فلو أنّ أهل سمواتي وأهل أرضي أمّلوا غيري جميعاً ثم أعطيت كلّ واحد منهم مثل ما أمّل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة وكيف ينقص ملك أنا قيمه ، فيا بؤساً للقانطين من رحمتي ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني)) (1).

ص: 190

1- الكافي : ج 2 ص 67 - 66 ح 7 .

إشارة

(21) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمْ يَأْتِ الْمَاءَ فَمَسَحُوا بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا» (سورة النساء : 43)

في رحاب المفردات

سكاري: السكر حالة تعرض بين المرء وعقله ، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشراب ، ومنه سكرة الموت قال تعالى : «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ (1)».

جنباً: المراد من الجنب الجنابة ، وذلك بإنزال الماء أو بالتقاء الختانين ... وسميت جنبابة بذلك لكونها سبباً لتجنب الصلاة في حكم الشرع (2).

ص: 191

1- مفردات الراغب : ص 242 .

2- مفردات الراغب : ص 98 .

صعيداً: الصعيد يقال لوجه الأرض ، وقال بعضهم يقال للغبار الذي يصعد من الصعود ، ولهذا لا بدّ للمتميم أن يعلّق بيده غبار(1).

عبر من الآية

القرآن هو أعظم دستور في الوجود .

وهو أكمل قانون في الدنيا ، فهو ينظّم ويرشد الإنسان إلي ما فيه صلاح نفسه وأهله وأُمَّته ، ويعلّمه الآداب والأخلاق ، ويدلّه علي الطهارات والمطهّرات وكيفية استعمالها .

وفي هذا النداء في الآية الشريفة نجد أنّ هناك نهياً وتحذيراً من اقتراب الصلاة علي حالة السكر ، وعلل ذلك المنع بقوله تعالى : «حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...»(2).

كما أنّ الآية المباركة تحتوي علي أكثر من حكم شرعي هام وضروري في الحياة الاجتماعية عامّة ومجتمع المؤمنين خاصّة منها :

1 - لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى .

2 - ولا جنباً إلّا عابري سبيل .

3 - حتي تغتسلوا .

4 - فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيباً ..

ولا يخفي أنّ المسألة الثانية تتفرّع إلي مسائل كثيرة تتعلّق بالمساجد

ص: 192

1- مفردات الراغب : ص 288 .

2- سورة النساء (4) : الآية 43 .

وكذلك المسألة الثالثة فهي تتشعب إلى الكثير من المسائل الشرعية كالأغسال الواجبة أو الوضوء وغير ذلك .. فيرجع فيها إلي الكتب الفقهية المختصة بذلك .

أما مدار البحث فهو حول القسم الأول من الآية المباركة الذي جاء في قوله تعالى : «لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى (1)» .

فهل معني الآية أن لا مانع من السكر في غير أوقات الصلاة ؟

الجواب : لا .. إذ أن الشارع المقدس حرّم السكر والمسكّرات كاملة حتّي أنّ الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله قال : ((ما أسكر كثيره فقليله حرام)) (2) ، إلا أنّ الإسلام الحنيف له فلسفة خاصّة بالنسبة للأحكام ، فحينما تكون القضية مرتبطة ب (البعد العقائدي البحث) أو ما يسمونه بأصول الدين فإنّه يكون حاسماً فيها منذ البدء ، ولا مجال لغير الحزم أبداً .

فمثلاً في قضية التوحيد .. فالذي ينكر الوحدانية يصنّف إمّا مع الملحدين أو الكفار أو المشركين ، ولا مجال لتسميته بالإسلام مطلقاً علماً أنّ للإسلام رأياً حاسماً لكلّ هذه الفئات .

وكقضية النبوة .. سواء أكانت العامّة كالإيمان بنبوة الأنبياء كافة أو الخاصّة كالإيمان بنبوة النبي صلي الله عليه وآله فمن لم يؤمن بنبوة أحدهم فكأنما أنكر الجميع دون استثناء . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة حيث قال تعالى : «أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْ كُتُبَهُ وَرُسُلَهُ لَا تَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ

ص: 193

1- سورة النساء (4) : الآية 43 .

2- الكافي : ج 6 ص 408 ح 4 .

وكقضية الولاية .. التي تعدّ من لوازم النبوة والرسالة ، فهي مسألة في غاية الأهمية عقلاً وشرعاً بالنسبة لحياة الأمم والشعوب .

وكذلك الأمر بالنسبة للإيمان باليوم الآخر وعدل الله في الحساب والعقاب يوم يقوم الناس لرب العالمين .. ففي مثل هذه القضايا العقائدية الأمر محتوم تماماً .

أمّا عندما يتعلّق الأمر ببعض الأحكام الشرعية ، فربما نلاحظ التدرّج فيها ، وذلك إذا كان في الحسم والتحريم مباشرة مضرّة اجتماعية أو تنفير أو ما أشبه ذلك من الاحراجات .

التدرّج في النهي عن شرب الخمر

ومن جملة هذه القضايا التي راعي فيها الشارع المقدّس مسألة التدرّج عند تشريع الحكم الحاسم فيها هي مسألة شرب الخمر وموقف الإسلام من السكر بشكل عام ، فقد تدرّج الأمر من الأضعف إلي الأشد ثلاث أو أربع مرّات حتي حسمت القضية عبر التحريم القطعي .

وذلك لأنّ شرب الخمر في الجاهلية كان متداولاً بشكل كبير جدّاً ، فهو أشبه شيء بالماء وربما كان أكثر خاصة في الشتاء ، إذ أنّهم قد يستغنوا عن الماء لبعض الوقت ولكن لا يمكن أن يستغنوا عن الخمر والنيبذ أبداً والتحريم المفاجئ والقطعي لمثل هؤلاء يجعلهم في حرج شديد وضيق كبير أثناء التقيّد وتنفيذ الأوامر الإلهية بذلك .

ص: 194

فليس من المصلحة العامة مثل هذا الحسم في مثل هذه القضية وهذه الحالة ، بل يراعي التدرّج والتحرّيم شيئاً فشيئاً إلى أن يعتادوا علي المسألة فيسهل عليهم تحريمها .

نعم ، فقد تدرّجت مسألة تحريم الخمر علي الشكل التالي :

1 - ففي بداية الدعوة الإسلامية المباركة سأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وآله عن الخمر فنزل بها آية توضّح رأي الإسلام فيه حيث قال تعالى :

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا(1)».

2 - بعد مدّة من الزمن ضيق سبحانه الخناق علي المسلمين في مسألة الخمر حيث أنزل هذه الآية المباركة - آية البحث - الذي يقول فيها سبحانه : «لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى(2)».

ومع الالتفات أنّ الصلاة الواجبة خمس صلوات والوقت فيما بينها متقارب فضلاً عن الأدعية والنوافل الكثيرة المندوب إليها بين الصلوات خاصّة بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فقد كان الوقت يتضيق عليهم بحيث لا يتاح لهم المجال لشرب الخمر والسكر فكانوا يتحرّجون من ذلك .

3 - وبعد أن أصبحت الأمة الإسلامية مستعدّة لاستقبال أمر التحريم القطعي أنزل ربّنا سبحانه وتعالى آيات التحريم فقال عزّوجلّ : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ

ص: 195

1- سورة البقرة (2) : الآية 219 .

2- سورة النساء (4) : الآية 43 .

تُقْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ (1)».

ولا يخفي أن التحريم واضحاً في هذا المورد المبارك من كتاب الله تعالى ، فمن آمن بالله ورسوله واليوم الآخر انتهى ومن لم يؤمن بقي يشرب في الخلوات ، فالمنافقون مثلاً لم يتركوا الشراب حتى آخر لحظة من حياتهم حتى أن أحدهم عندما سئل وهو علي فراش الموت ما هو أحبّ الشراب إليك قال : النبيذ .

الإشارة إلي مراحل التحريم

وقد تطرّق المفسّرون إلي هذه الآية المباركة وبيّنوا مراحل التحريم هذه ، فقد ذكر الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار) كيفية التحريم علي النحو التالي حيث قال :

أنزل الله تبارك وتعالى في الخمر ثلاثة آيات «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ» فكان المسلمون بين شارب وتارك ، إلي أن شربها رجل ودخل في صلاته فهجر فنزل قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى» فشرّبها من شربها من المسلمين حتي شربها ... فأخذ لحي بعير (عظم) فشجّ به رأس عبدالرحمن ابن عوف ، ثم قعد ينوح علي قتلي بدر بشعر الأسود بن يعفر :

وكأين بالكليب كليب بدر

من الفتيان والعرب الكرام

أبو عدنان ابن كبشة أن سنحيا

وكيف حياة أشلاء وهام

أيعجز أن يردّ الموت عني

وينشرني إذ بليت عظامي

ألا من مبلغ الرحمن عني

بأني تارك شهر الصيام

ص: 196

فقل لله يمنعي شرابي

وقل لله يمنعي طعامي

فبلغ ذلك رسول الله صلي الله عليه وآله فخرج مغضباً يجرّ رداءه فرفع شيئاً كان في يده ليضربه .

فقال : أعوذ بالله من غضب الله ، وغضب رسوله .

فأنزل الله سبحانه وتعالى : «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ» إلي قوله «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(1)».

فقال ... : انتهينا .. انتهينا(2).

ومنهم من ذهب بالتحريم إلي أبعد من ذلك حيث نزلت آية رابعة تحرم الخمر تماماً وهي قوله سبحانه وتعالى : «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَيَّ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(3)».

ف قيل إن ((الإثم)) هو الخمر بعينه فحرّمه الله سبحانه قطعياً ، والمعروف عند العرب أنّ الإثم اسم من أسماء الخمر وإلي ذلك يشير الأخفش في أبياته قائلاً :

شربت الإثم حتّي ضلّ عقلي

كذاك الإثم يذهب بالعقول

وقال آخر كذلك :

نهانا رسول الله أن تقرب الخنا

وأن نشرب الإثم الذي يوجب الوزر(4)

فالإثم هو الخمر ، وشرب الخمر محرّم يوجب الوزر والعقاب لمن يشربه بلا

ص: 197

1- سورة المائدة (5) : الآية 91 .

2- المستطرف : ص 229 ، مسند أحمد بن حنبل : ج 1 ص 53 ، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة: ج 3 ص 863 .

3- سورة الأعراف (7) : الآية 33 .

4- مجمع البيان : ج 8 مج 4 ص 248 - 247 .

ما المراد بالسكر ؟

نقل أن المراد بالسكر في الآية هو ليس سكر الشراب والخمر بل هو سكر النوم .

وإلي ذلك تشير الرواية الواردة عن الإمام أبي جعفر (عليه السلام) حيث قال : ((لا تقم إلي الصلاة متكاسلاً ، ولا متناعساً ولا متثاقلاً فإنها عن خلل النفاق ، فإن الله نهى المؤمنين أن يقوموا إلي الصلاة وهم سكارى يعني من النوم))(1).

وعن الحلبي عنه (عليه السلام) حين سأله عن قول الله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى (2) » ((يعني سكر النوم ، يقول : وبكم نعاس يمنعكم أن تعلموا ما تقولون في ركوعكم وسجودكم وتكبيركم ، وليس كما يصف كثير من الناس يزعمون أن المؤمن يسكر من الشراب ، والمؤمن لا يشرب سكرًا ولا يسكر)) (3) ، وفيما علم أمير المؤمنين (عليه السلام) أصحابه فقال : ((السكر أربع سكرات : سكر الشراب ، وسكر المال ، وسكر النوم ، وسكر الملك)) (4).

وفي مجمع البيان : وقوله : ((وأنتم سكارى)) اختلف فيه علي قولين ، فعن ابن عباس ومجاهد وقتادة : أن المراد به سكر الشراب ثم نسخها بتحريم الخمر . وروي ذلك عن موسى بن جعفر (عليه السلام) ، والثاني أن المراد بقوله و ((أنتم سكارى)) سكر

ص: 198

1- الكافي : ج 3 ص 299 ح 1 .

2- سورة النساء (4) : الآية 43 .

3- تفسير العياشي : ج 1 ص 215 ح 137 .

4- الخصال : ج 2 ص 636 .

النوم خاصّة عن الضحّاك وروي ذلك عن أبي جعفر(1)(عليه السلام).

النهي عن شرب الخمر

وقد ورد عن الشارع المقدّس الكثير من الروايات الناهية عن شرب الخمر والذامّة لمتناوليه ، فعن رسول الله صلي الله عليه وآله قال : ((جاءني جبرئيل ساعة لم يكن يأتيني فيها ، وفي يوم لم يكن يأتيني فيه ، فقلت له : يا جبرئيل ، لقد جئتني في ساعة ويوم لم تكن تأتيني فيهما؟! لقد أُرعبتني . قال : وما يروعك يا محمد ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟! قال : [ماذا بعثك ربك ؟ قال : ينهاك ربك عن عبادة الأوثان ، وشرب الخمر ، وملاحاة الرجال))(2).

وعن عبدالرحمن بن غنم - في حديث يذكر فيه قصة المعراج - قال : فجاء رسول الله صلي الله عليه وآله فدخل البيت المقدّس ، فجاء جبرئيل (عليه السلام) إلي الصخرة فرفعها ، فأخرج من تحتها ثلاثة أقداح : قدحاً من لبن ، وقدحاً من عسل ، وقدحاً من خمر ، فناوله قدح اللبن ، فشرب ، ثم ناوله قدح العسل فشرب ، ثم ناوله قدح الخمر ، فقال : قد رويت يا جبرئيل . قال : أما إنك لو شربته ضلّت أمتك وتفرّقت عنك(3).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) عن رسول الله صلي الله عليه وآله (في مناهيه) قال : ((ونهي عن الجلوس علي مائدة يشرب عليها الخمر وفيه : ونهي عن بيع الخمر ، وأن تُشترى الخمر ، وأن تسقى الخمر ، وقال (عليه السلام) : لعن الله الخمر ، وعاصرها ، وغارسها ،

ص: 199

1- مجمع البيان : ج 5 مج 3 ص 29 .

2- أمالي المفيد : المجلس 23 ح 21 .

3- أمالي الصدوق : مجلس 69 ح 2 .

وشاربها ، وساقفها ، وبائعها ، ومشترها ، وأكل ثمنها ، وحاملها ، والمحمولة إليه .

وقال : من شربها لم تقبل له صلاة أربعين يوماً ، وإن مات وفي بطنه شيء من ذلك كان حقاً علي الله أن يسقيه من طينة خبال ، وهو صديد أهل النار وما يخرج من فروج الزناة فيجتمع ذلك في قدور جهنم فيشربها أهل النار فيصهر به ما في بطونهم والجلود(1).

ومهما يكن من أمر ، فالآية تلحظ النوعين من السكر لذلك فإن وظيفة المؤمن أن يجتنب عنهما تماماً لأن الصلاة عمود - أوعمد - الدين وعلي الإنسان مراعاة شرائطها حتي يتقبلها الله سبحانه بقبول حسن .

ص: 200

1- أمالي الصدوق : المجلس 66 ح 1 .

إشارة

(22) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (سورة النساء: 59)

في رحاب المفردات

أطيعوا: الطوع الانقياد ويضاده الكره قال: «إِثْبَاتًا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا(1)».

تنازعتم: نزع الشيء جذبته من مقره كنزع القوس عن كبده... والتنازع والمنازعة المجاذبة ويعبر بهما عن المخاصمة والمجادلة(2).

ص: 201

1- سورة فصلت (41): الآية 11) مفردات الراغب: ص 318.

2- مفردات الراغب: ص 509 - 508.

روي الحسكاني باسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((شركائي الذين قرنهم الله بنفسه وبي وأنزل فيهم : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ(1)» الآية ، فإن خفتن تنازعاً في أمر فارجعوه إلي الله والرسول وأولي الأمر ، قلت : يا نبي الله من هم قال : أنت أولهم)) (2).

وروي باسناده عن مجاهد في قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» يعني الذين صدقوا بالتوحيد ((أطيعوا الله)) يعني في فرائضه ((وأطيعوا الرسول)) يعني في سننه ((وأولي الأمر منكم)) قال : ((نزلت في أمير المؤمنين حين خلفه رسول الله بالمدينة فقال : أتخلفني علي النساء والصبيان ؟ فقال : أما ترضي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى حين قال له : أخلفني في قومي وأصلح ؟ فقال الله : ((وأولي الأمر منكم)) قال : علي بن أبي طالب ولآله الله الأمر بعد محمد في حياته حين خلفه رسول الله بالمدينة ، فأمر الله العباد بطاعته وترك خلافه)) (3).

وعن أبي بصير ، عن أبي جعفر (عليه السلام) ، أنه سأله عن قول الله : «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ(4)» قال : ((نزلت في علي بن أبي طالب . قلت : إن الناس يقولون : فما منعه أن يسمي علياً وأهل بيته في كتابه ؟ فقال أبو جعفر : قولوا لهم : إن الله أنزل علي رسوله الصلاة ولم يسم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله هو الذي يفسر [فسر] ذلك ، وأنزل الحج فلم ينزل طريق استرعاء حتي

ص: 202

1- سورة النساء (4) : الآية 59 .

2- شواهد التنزيل : ج 1 ص 148 رقم 202 و 203 .

3- شواهد التنزيل : ج 1 ص 149 .

4- سورة النساء (4) : الآية 59 .

فسر ذلك لهم رسول الله وأنزل: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ(1)» فنزلت في علي والحسن والحسين ، وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي إني سألت الله أن لا يفرق بينهما حتي يوردهما علي الحوض فأعطاني ذلك((2)).

عبر من الآية

القرآن الكريم كتاب هداية ونور ..

وهو كتاب أحكام وتشريع وقوانين سماوية من لدن حكيم وعليم ..

وبالإضافة إلي ذلك فهو كتاب تنظيم وإرشاد لمسيرة الأمة الإسلامية وما يخلصها في دنياها وآخرتها .

ومثل هذا الكتاب العظيم لا يمكن أن يهمل مسألة في غاية الأهمية للأمة جمعاء ، ألا وهي مسألة القيادة والسيادة فيها ، فلمن تكون القيادة إذن ؟

من خلال هذه الآية المباركة تمّ تعيين وتحديد أصحاب الولاية في هذا الكون وفي هذا الخلق ألا وهم :

1 - الله - جلّ جلاله وتقّدت أسماءه - وهو صاحب الولاية والهداية المطلقة .

2 - الرسول محمّد صلي الله عليه وآله وهو صاحب الولاية بتولي الله سبحانه له بها .

3 - أولي الأمر منكم .. وهم أصحاب القيادة والسيادة علي الأمة بعد الرسول صلي الله عليه وآله بجعل من الله وتخصيص من لدنه وتبليغ الرسول صلي الله عليه وآله وذلك من أجل

ص: 203

1- سورة النساء (4) : الآية 59 .

2- شواهد التنزيل : ج 1 ص 150 - 149 .

حفظ توازن الأمة خلال مسيرتها في مختلف المراحل الحياتية والمعاشية .

فإنَّه - سبحانه - والرسول صلي الله عليه وآله طاعتهم علي المؤمنين لا حاجة فيها للنقاش والكلام إذ أنَّها من المسلّمات ، فالذي يرفض الطاعة لله ورسوله فقد خرج من دائرة الإيمان والإسلام حتماً .

ولكن الحديث ومدار البحث هو في طاعة الطبقة الثالثة وهم ((أولوا الأمر)) فهم القادة الحقيقيين للأمة بعد رسول الله صلي الله عليه وآله ، فياتري من هم ؟

وما هي منزلتهم هذه حتي تكون طاعتهم هي كطاعة الله - كما أشارت الآية الكريمة : ((أطيعوا الله .. والرسول .. وأولي الأمر منكم ..))؟ فهذا الترتيب وهذا التعقيب وهذا العطف المباشر يفيد أنَّ طاعة الجميع واحدة ومن سنخ واحد ، فطاعة أولي الأمر كما نصَّ القرآن هي طاعة لله سبحانه ومقارنة لطاعة الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله الذي قال عنه سبحانه : «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (1)» .

ولو أردنا جمع الاثنين علي سبيل التفسير الموضوعي للقرآن لجاز لنا أن نقول : من أطاع ((أولي الأمر)) فقد أطاع الله ..

مَنْ هُمْ أَوْلُوا الْأَمْرِ ؟

إنَّ السؤال المهم الذي يطرح في هذه الآية المباركة هو : من هم هؤلاء القادة الكرام الذين جعلت الآية لهم هذه المنزلة العظيمة عند الله ؟

الجواب عليه : ذهب أهل التفسير وأرباب الكلام وأصحاب الفلسفة الإسلامية أن المراد بهم احتمالات ثلاث أساسية وهي :

الأول : أن يراد بهم ((أولي الأمر)) كل حاكم عادلاً كان أو جائراً .. وبدون

ص : 204

أي قيد أو شرط .

وهذا أمر مناقض للدين ذاته .. ومخالف للعقل كذلك ..

فهو مناقض للدين لأنه يأمر بالطاعات ويفرض الواجبات علي الإنسان فهل يعني الناس من هذه الواجبات بمجرد أمر الحاكم بذلك ؟ وهل يسقط عنهم التكليف بذلك ؟

ففي أمر الإسلام بالحجّ .. إذا أمر الحاكم الظالم الناس ألا يحجّوا ، فهل يسقط عنهم هذا الواجب المقدّس ؟ علماً أنّ معظم الحكومات علي مرّ التاريخ تعمل ذلك ، فلمن الطاعة ؟

وإذا أمر الإسلام بالصلاة وقال : إنّها عمود الدين ، وهي صلة بين العبد وربّه .. وغير ذلك ، فإذا منع الحكّام الناس عن أدائها بحجج واهية ، وادّعاءات كاذبة ، فماذا يعملون ؟

وكذا الحال بالنسبة إلي الصوم في شهر رمضان المبارك ، والجهاد المقدّس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من القضايا العبادية في الدين الإسلامي الحنيف ، فماذا نعمل ؟

فهل نحجّ امثالاً لقوله تعالى «وَلِلّٰهِ عَلَي النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ (1)».

ونصلّي استجابة لقوله تعالى «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَي الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (2)».

ونصوم شهر رمضان المبارك لقوله تعالى «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَي

ص: 205

1- سورة آل عمران (3) : الآية 97 .

2- سورة النساء (4) : الآية 103 .

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (1)».

أولا نحجّ ، ولا نصليّ ، ولا نصوم امتثالاً لأوامر «أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ (2)» من الحكّام؟!!

فليت شعري هل يوجد تناقض كهذا التناقض ، أم أنّ هذا لا يقع في الدين أبداً؟

إذ أنّه مخالف للعقل السليم ، والفترة النقيّة كذلك ، فلا يعقل أصلاً أن نأمر بإطاعة حكّام وملوك جبابرة ، وأمراء ظالمين كحكّام بني أميّة وبني العباس وغيرهم ممّن تسلّطوا عليّ مقدّرات هذه الأمّة قديماً وحديثاً .

فهل يمكن أن يأمرنا الله الحكيم في كتابه الكريم أن نطيع معاوية ويزيد و مروان ابن الحكم الطلقاء أو أمرائهم كالحجاج ومسرف بن عقبة وعبيدالله بن زياد وغيرهم من الحكّام والأمراء؟

فهذا خلاف للحكمة ، ولا- يقوّه عقل ولا يقبله أبداً ، إذ أنّ الحكيم لا يأمر إلاّ بالإصلاح والصلاح وينهي عن الفساد والافساد في البلاد والعباد ، وولاية الظالمين تؤدّي إليّ الدمار والخراب في الدنيا والدين .

فكيف يأمر الله سبحانه بإطاعة أوامر مثل معاوية بن أبي سفيان الطاغية الذي سنّ سنّة لعن أهل البيت عليهم السلام لمُدّة تزيد عن ستّين عاماً؟

وكيف لنا أن نطيع أوامر مثل يزيد الفاسق الفاجر شارب الخمر وقاتل النفس المحترمة والمعلن بفسقه وكفره بقتل سيّد شباب أهل الجنّة وأبنائه وأصحابه الكرام البررة الذين قضوا نحبهم بسيف بني أميّة البغاة فصاروا إليّ ربّهم شهداء سعداء؟

ص: 206

1- سورة البقرة (2) : الآية 183 .

2- سورة النساء (4) : الآية 59 .

أو كيف يمكن أن نسمح بإطاعة شخص كمسرف بن عقبة الذي حرق الكعبة المشرفة وأباح المدينة المنورة لمدة ثلاثة أيام في وقعة الحرّة الشهيرة، أو كالحجاج الذي فعل أفعالاً جعلت رأس الطفل شيباً وسوّدت صفحات التاريخ المشرفة .

وكيف .. وكيف .. وألف كيف وكيف ؟ فهذا حقيقة يناقض العقل والدين وتعاليم ربّ العالمين ، وحاشا لله أن يأمر عباده المؤمنين بطاعة أمثال أولئك الطغاة الجبارين .

الثاني : ربما يقال أنها واردة بمعني ((كل حاكم)) ولكن بشرط كونه في إطار ((الدين)) والشريعة الإسلامية ، أي أن يكون عادلاً وأميناً وصادقاً ومؤمناً .. وإلي غير ذلك من الأوصاف المطلوبة .

فالطاعة مشروطة بشروط لا مطلقة .

وهذا - بحدّ ذاته - خلاف ظاهر الآية الكريمة نفسها .. إذ أنّها قرنت طاعة أولي الأمر بطاعة الله والرسول صلي الله عليه وآله ، وليست طاعة الله مشروطة ، ولا طاعة الرسول صلي الله عليه وآله مشروطة ، وليس هناك في الآية أي تقييد أو شرط ..

فالآية مطلقة ، ولا يمكن لنا تقييدها أبداً لكي لا نقع في إشكال نحن في غني عنه .

ولاية أهل البيت عليهم السلام

الاحتمال الثالث : هو أن يكون هناك أفراد مخصّصون ، وأناس معيّنون يكون أتباعهم واجب ، والمسير بنهجهم لازم ، لأنّهم مع الحقّ والحقّ معهم حيثما كانوا .. عصمهم الله عن الخطأ والسهو والنسيان ، وليس هناك أحد تنطبق عليه هذه الصفات النورانية والقدسية إلا أهل البيت الأطهار عليهم السلام .

فهم بالذات المعينون من الله في الكثير من آيات الذكر الحكيم التي يتلوها المسلمون آناء الليل وأطراف النهار ، فمنها ما جاء في سورة الأحزاب حيث قال تعالى : «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(1)» فقد روي الطبري باسناده عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت هذه الآية في خمسة : ((فيي ، وفي علي رضي الله عنه وحسن رضي الله عنه وحسين رضي الله عنه وفاطمة - رضي الله عنها -)) (2).

وروي الحسكاني باسناده عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة : خرج النبي صلى الله عليه وآله غداة وعليه مرط مرط من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله معه ، ثم جاء الحسين فأدخله معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ، ثم جاء علي فأدخله معه ، ثم قال : «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(3).

وفي سورة النور حيث قال تعالى : «(فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ(4)» روي الحاكم الحسكاني باسناده عن أبي برزة قال : ((قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله : «(فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ» وقال : هي بيوت النبي صلى الله عليه وآله قيل : يارسول الله أبيت علي وفاطمة منها ؟ قال : من أفضلها)) (5).

ص: 208

-
- 1- سورة الأحزاب (33) : الآية 33 .
 - 2- جامع البيان « الطبري » : ج 22 ص 6 .
 - 3- سورة الأحزاب (33) : الآية 33) شواهد التنزيل : ج 2 ص 36 رقم 680 ، لمزيد من الإطلاع علي هذا المطلب راجع كل من: مفتاح النجاة : ص 22 ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج 3 ص 485 ، فرائد السمطين : ج 1 ص 367 رقم 296 ، الصواعق المحرقة : ص 86 - 85 ، أنساب الأشراف : ج 2 ص 104 رقم 38 ، الدر المنثور : ج 5 ص 198 ، تاريخ دمشق ترجمة الإمام علي (عليه السلام) : ج 1 ص 250 رقم 320 .
 - 4- سورة النور (24) : الآية 36 .
 - 5- شواهد التنزيل : ج 1 ص 410 .

وفي سورة الدهر حيث قال تعالى : «وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَيَّ حُبًّا» روي ابن المغازلي عن طاووس : أنّها نزلت في علي بن أبي طالب وذلك أنّهم صاموا وفاطمة وخادمتهم ، فلمّا كان عند الإفطار ، وكانت عندهم ثلاثة أرغفة قال : فجلسوا ليأكلوا فأتاهم سائل فقال : أطعموني فأبى مسكين فقام علي (عليه السلام) فأعطاه رغيفه ، ثمّ جاء سائل فقال : أطعموا اليتيم فأعطته فاطمة الرغيف ، ثمّ جاء سائل فقال : أطعموا الأسير فقامت الخادمة فأعطته الرغيف وباتوا ليلتهم طاوين فشكر الله لهم فأنزل فيهم هذه الآيات(1).

وفي سورة الفاتحة حيث قال تعالى : «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(2)» روي الحسكاني باسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب : أنت الطريق الواضح ، وأنت الصراط المستقيم ، وأنت يعسوب المؤمنين(3).

وروي باسناده عن ابن عباس في قول الله تعالى : «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(4)» قال : يقول : قولوا معاشر العباد : اهدنا إلهي حبّ النبي وأهل بيته(5).

وهم .. وهم .. في كتاب الله ، حتى أنّه روي أنّ فيهم ولهم ثلث القرآن الحكيم أو أكثر .

فهم عليهم السلام عدل القرآن بحديث الثقلين المشهور عن جدّهم الرسول صلي الله عليه وآله الذي قال : ((إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي .. وقد أنبأني اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا بعدي أبداً حتى يردا

ص: 209

1- مناقب علي بن أبي طالب : ص 272 رقم 302 .

2- سورة الحمد (1) : الآية 6 .

3- شواهد التنزيل : ج 1 ص 58 .

4- سورة الحمد (1) : الآية 6 .

5- شواهد التنزيل : ج 1 ص 58 .

عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما))[\(1\)](#).

وقال صلي الله عليه وآله : ((علي مع الحقّ ، والحقّ مع علي))[\(2\)](#).

وقال صلي الله عليه وآله : ((علي مع القرآن ، والقرآن مع علي))[\(3\)](#).

وقال صلي الله عليه وآله : ((عنوان صحيفة المؤمن حبّ علي بن أبي طالب))[\(4\)](#).

وقال صلي الله عليه وآله : ((علي منّي وأنا منه ، وهو ولي كل مؤمن بعدي))[\(5\)](#).

وقال أمير المؤمنين(عليه السلام) : ((نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد))[\(6\)](#).

وقال(عليه السلام) : ((أنا كتاب الله الناطق ، وأفسره - للقرآن - ولا يفسرني)).

وغير ذلك من الروايات التي تدلّ علي أنّهم عليهم السلام أولياء الأمر وهم باب الله الذي منه يؤتي ويرتجي .

ص: 210

1- راجع صحيح مسلم : ج2 ص237 .

2- تاريخ بغداد : ج14 ص321 ، تاريخ ابن عساكر : ج3 ص120 .

3- المستدرک : ج3 ص124 ، تاريخ الخلفاء للسيوطي : ص173 .

4- المناقب : ص243 ، ينابيع المودّة : ص180 .

5- مناقب المغازلي : ص230 ، ينابيع القندوزي : ص180 .

6- عيون أخبار الرضا : ج2 ص66 ح297 .

(23) - «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً» (سورة النساء : 71)

فى رحاب المفردات

حذرکم : الحذر احتراز عن مخيف ، يقال حذر حذراً وحذرته ، قال تعالى : «وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ(1)».

ثبات : الثبات ضدّ الزوال يقال ثبت يثبت ثباتاً قال الله تعالى : «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا(2)».

ص: 211

1- سورة آل عمران (3) : الآية 38) مفردات الراغب : ص 109 .

2- سورة الأنفال (8) : الآية 45) مفردات الراغب : ص 74 .

روي الحافظ أخطب خطباء خوارزم موفّق بن أحمد فقيه الحنفية قال : أخبرنا الشيخ الزاهد الحافظ زين الأئمّة أبو الحسن علي بن أحمد العاصمي الخوارزمي عن علي بن نديمة عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((ما أنزل الله عزّ وجلّ في القرآن آية يقول فيها «يا أيّها الذين آمنوا» إلّا كان علي بن أبي طالب شريفها وأميرها))⁽¹⁾.

عبر من الآية

نداء توجيهي خاصّ بالمؤمنين .

ولكن يمكن أن يستفيد منه كل الناس ، فكل من أراد العمل الجهادي في هذه الحياة عليه بالتزام جانب الحذر الشديد علي نفسه من العدو ومن نفسه علي دينه .

لأنّ الجهاد كما بيّنه الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله جهادان أكبر وأصغر ، ففي الحديث عن علي بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن النوفلي ، عن السكوني ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّ النبي صلي الله عليه وآله بعث بسرّية فلما رجعوا قال : ((مرحّباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر ، قيل : يارسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس))⁽²⁾.

وعن الفضيل بن عيّاض قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الجهاد سنّة أم فريضة ؟ فقال : ((الجهاد علي أربعة أوجه فجهادان فرض و جهاد سنّة لا يقام إلّا مع

ص : 212

1- المناقب للخوارزمي : ص 198 .

2- الكافي : ج 5 ص 12 ح 3 .

الفرض ، فأما أحد الفرضين فمجاهدة الرجل نفسه عن معاصي الله عزّوجلّ وهو أعظم الجهاد))⁽¹⁾.

ولا يخفي أنّ هذه الآية المباركة مختصة بالجهاد الأصغر المتمثلة في محاربة العدو ، والكفاح في الحياة فيتوجّه البارئ سبحانه بهذا النداء الرحماني لتعليم وتطمين المؤمنين بحروبهم مع أعدائهم .

فإذا كان الحذر واجباً عند التعامل مع العدو ، فهو أوجب في حال الحرب ، ففي الحديث الشريف عن الإمام الصادق(عليه السلام) : ((تعلموا من الغراب ثلاث خصال : استتاره بالسّفاد ، وبكوره في طلب الرزق وحذره))⁽²⁾.

وقد كان الحذر الشديد في ساحات القتال من أهم الصفات المهمّة التي اتّصف بها أمير المؤمنين(عليه السلام) وهذا ما جعل وحشي في غزوة أحد يعتذر عن قتله لمّا طلبت منه هند ، فعندما ذهبت قوّات قريش إلي أرض المعركة في أحد ، جمعت هند زوجة أبي سفيان خدمها وبعض الموالي من السودان وراحت تختبر قدرتهم علي التصويب ، فرأت البراعة في وحشي فعرضت عليه أن يقتل أحد ثلاثة ومثته بأمنيات عزيزة كالحرّية والمال وغير ذلك ، وهؤلاء الثلاثة هم :

- الرسول الأعظم محمّد بن عبد الله صلي الله عليه وآله .

- الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) .

- حمزة بن عبدالمطلب(عليه السلام) .

فقال لها وحشي عند ذلك - وكان ماهراً في تسديد الرماح - أمّا الرسول محمّد صلي الله عليه وآله فلا أستطيع قتله لأنّ أصحابه يحدقون به من كل حدب وصوب ، وأمّا علي

ص: 213

1- تهذيب الأحكام : ج6 ص124 ح1 .

2- من لا يحضره الفقيه : ج1 ص482 ح1394 .

ابن أبي طالب (عليه السلام) فهو شديد الحذر في الحرب ، وأما حمزة فهذا سهل .

إذن فالذي منع وحشياً من الاقتراب من الإمام علي (عليه السلام) هو شدة حذره في الحرب .

فينبغي للمؤمن الحذر من أن يخدع - فإن المغبون لا محمود ولا ماجور - أي أنه لا محمود في الدنيا عند نفسه وعند الناس ، ولا ماجور في الآخرة من الله تعالى .

الحذر مفهوم عام

بالطبع فإن الحذر مفهوم عام يشمل كل أنواع التحفظ والحذر والمراقبة ، فهو لا يقتصر علي الوسائل المادية فقط ، بل يتعداها ليشمل المعنوية كذلك ، وإلي ذلك تشير الآية الكريمة : «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ (1)» فالإعداد عام وشامل لمثل هذه الحالة .

ولا يخفي أن الحذر يتطلب التطوير الدائم للقدرات والامكانيات المادية والمعنوية ، وهذا هام جداً في وقتنا الراهن إذ أن الكل يسعى إلي تطوير نفسه واعداد شعبه بحيث يتفوقون علي الآخرين .

وبالفعل ، فقد تطور الآخرون وحققوا الانجازات العلمية العجيبة وهم في استمرار علي هذا الخط ، فأين نحن من كل ذلك ؟ وأين المفكرين والعلماء والحكام وحذرهم واحتياطاتهم لأنفسهم وبلادهم ؟

فأين الإعداد والقوة والعلم والتكنولوجيا والردع وردّ الاعتداء وغيرها ؟

فالفرة والفرع إلي العدو واجب علينا جميعاً - كأمة ودول وحكومات وأحزاب وهيئات وحتى الأفراد - فهذا ما أمرت به الآية الكريمة «فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ

ص: 214

أي انفروا إلي الغزو أو الجهاد إمّا جماعات وهيئات وأحزاب ، أو انفروا جميعاً كدولة واحدة وأمة واحدة بحيث تكونوا كالجسد الواحد الذي إذا داهمه أي خطر فهو يهب بكل قواه من أجل الدفاع عن كيانه وأفراده ومقدّارته .

فالجهد الفردية جيّدة ، ولكن الجماعية أفضل وأحسن إذ أنّ تجميع الطاقات يؤدّي إلي قوّة الانتاج وجودته ، ويجعله قادراً علي الصمود أمام ضربات الأعداء ، وأمّا جهود الدول فهي أفضل الجميع لأنه عندما تتحدّث دولة بقوّة وجيش وسلاح وعتاد ويتعاطف معها رأي الأمة الإسلامية فلا شك أنها ستمتلك قوّة دفع ، وقوّة موقف خالد عبر التاريخ .

حاجة الأمة إلي جمع الشتات

وفي عصرنا الراهن ما أحوج المسلمين إلي الحذر علي كل المستويات ، خاصّة في مواجهتهم لأعتي أعدائهم وهم اليهود ومن لفّ لفّهم الصهاينة الذين وحدوا أنفسهم من بعد الشتات ، وجمعوا أموالهم وطاقاتهم بعد التفرقة ، فاحتلّوا أرض فلسطين المقدّسة ، ودنّسوا ترابها وقدها المبارك وما حوله .

كل هذا لأنهم غزونا حتي في مضاجعنا ، وأسرة نومنا بأفكارهم ومبادئهم فملؤا بيوتنا بأدابهم وأخلاقهم وسلوكياتهم غير المتّزنة وغير المسؤولة .

فعلي الأمة الإسلامية جمعاء الانتباه والحذر إلي هذا الغزو المنظّم والقوي للأمة كلّها ، من قبل هؤلاء الأعداء الأقوياء ، ليس بقوتهم الذاتية ، بل بضعفنا وتشتتنا وتفرّقنا طرائف قديماً ، ونحن نمتلك كل أسباب القوّة والمنعة .

ص: 215

إذ أنّ القوّة أحياناً تكون ذاتية ، فإذا كان الطرف قوياً فإنّ الأعداء يهابونه ويحسبون له ألف حساب .. وأحياناً تكون القوّة ناتجة من ضعف الطرف المقابل وهذا واقعنا نحن .

المسلمون بين اليوم والبارحة

ولعمري ، فإنّ واقعنا اليوم أصبح كواقع أهل الكوفة لما كان أمير المؤمنين(عليه السلام) يدعوهم إليّ الجهاد فيتوانون فخطب فيهم قائلاً : ((والجهاد هو لباس التقوي ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء وفارق الرضا وديث بالصغار والقماء ، وضرب علي قلبه بالإسهاب وأدب الحقّ منه بتضييع الجهاد وسيمّ الخسف ومنع النصف ، ألا وإنيّ قد دعوتكم إليّ قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزي قوم قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم حتي سنّت عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان))⁽¹⁾.

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؛ فقيل له : ويكون ذلك يارسول الله ؟ فقال نعم وشرّ من ذلك كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ، فقيل له : يارسول الله ويكون ذلك ؟ قال : نعم ، وشرّ من ذلك ؟ كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً))⁽²⁾.

ص: 216

1- نهج البلاغة : خ 27 في فضل الجهاد .

2- الكافي : ج 5 ص 59 ح 14 .

إشارة

(24) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» (سورة النساء : 94)

في رحاب المفردات

عَرَضٌ : العرض ما لا يكون له ثبات ومنه استعار المتكلمون العرض لما لا ثبات له إلا بالجواهر كاللون والطعم ، وقيل الدنيا عرض حاضر تنبهاً أن لا ثبات لها ، قال تعالى : «تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ(1)» وقال : «يَأْخُذُونَ عَرَصَ هَذَا الْأُذُنِي(2)». وإن يأتيهم عرض مثله(3).

ص: 217

1- سورة الأنفال (8) : الآية 67 .

2- سورة الأعراف (7) : الآية 169 .

3- مفردات الراغب : ص 343 - 342 .

مغانم : العَنَمَ معروف قال : «وَمِنَ الْبَقْرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا(1)». وَالْغَنَمُ إصابته والظفر به ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدي وغيرهم ، قال : «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ(2)».

شأن النزول

قيل : نزلت في أسامة بن زيد وأصحابه ، بعثهم النبي في سرية ، فلقوا رجلاً قد انحاز بغنم إلي جبل ، وكان قد أسلم ، فقال لهم : السلام عليكم ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فبدر إليه أسامة فقتله ، واستاقوا غنمه نقله السدي . وروي عن ابن عباس ، وقتادة أنه لما نزلت الآية ، حلف أسامة أن لا يقتل رجلاً ، قال لا إله إلا الله . وبهذا اعتذر إلي علي لما تخلف عنه ، وإن كان عذره غير مقبول ، لأنه قد دلّ الدليل علي وجوب طاعة الإمام في محاربة من حاربه من البغاة ، لا سيما وقد سمع النبي يقول : حربك يا علي حربي ، وسلمك سلمتي . وقيل نزلت في ملحمة بن جثامة اللثبي ، وكان بعثه النبي صلي الله عليه وآله في سرية ، فلقه عامر بن الأضبط الأشجعي ، فحيّاه بتحية الإسلام ، وكان بينهما إحنة ، فرماه بسهم فقتله ، فلما جاء إلي النبي ، جلس بين يديه ، وسأله أن يستغفر له ، فقال صلي الله عليه وآله : لا غفر الله لك ! فانصرف باكياً ، فما مضت عليه سبعة أيام ، حتي هلك ، فدفن فلفظته الأرض ، فقال صلي الله عليه وآله لما أخبر به : إن الأرض تقبل من هو شرّ من ملحمة صاحبكم ، ولكن الله أراد أن يعظم من حرمتكم . ثم

ص: 218

1- سورة الأنعام (6) : الآية 146 .

2- سورة الأنفال (8) : الآية 41 مفردات الراغب : ص 378 .

طرحوه بين صدفى جبل ، وألقوا عليه الحجارة . فنزلت الآية(1).

عبر من الآية

لا شك أن الله - سبحانه وتعالى - هو خالق الخلق وباسط الرزق ، وأن متاع الحياة الدنيا هو متاع الغرور ، وأن كل شيء زائل وهالك إلا وجهه الكريم .

أما النعيم الكبير ، والمغانم الكثيرة فهي عند الله - سبحانه - في جنانه الخالدة والمخلدة أبداً في جوار قدسه .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة لتحذّر المؤمنين - لأنهم هم الملتزمون بالأوامر الإلهية والنواهي والزواج كذلك - كي يحذروا عند خروجهم إلى الجهاد في سبيل الله ويضربون في الأرض ليلبغوا الدعوة إلى كل أحد يلاقونه ((بالحكمة والموعظة الحسنة)) بلا سيف وإراقة الدماء البريئة .

وعليهم أن يتبينوا ويتأنوا بالقتل خاصة ، فرموا قتلوا إنساناً مسلماً لا يحق لهم قتله ، وفي هذه الآية المباركة دعوتين كريمتين هما :

1 - مراعاة الدماء والتحفّظ علي إراقتها إلا باستحقاقها .

2 - التفقّه في الدين : حيث تدعو الآية إلى التبين ومعرفة الشروط والدواعي التي يستحق عليها مستحق القتل وهذا تفقّه في الدين .

فانطلاقة المسلمين من الجزيرة العربية بداية وفي الدنيا كلّها فيما بعد هي انطلاقة أشبه ما تكون برحلة تدعو إلى الله وعبادته وتحرير الإنسان من العبودية والرق وتدفع الظلم والاستغلال وإلي هذا المعنى تشير الآية قائله : «وَيَضَعُ عَنْهُمْ

ص: 219

1- مجمع البيان : ج 5 مج 3 ص 94 .

فهم ليسوا ((غاصبين)) ولا- ((طامعين)) ولا ((طامحين)) لاستغلال الشعوب ونهب خيراتهم ، وهم ليسوا ذوي أهداف مادية بالمعنى المتداول والمعروف لهذه الكلمات ..

وإنما هم ((دعاة)) إلى الخير والنور والهداية ، ومهمتهم الأصلية تنحصر في ((الدعوة إلى الله)) لا السيطرة ، والغلبة والفتح من أجل الفتح والحصول علي الغنائم والمغانم المادية ، كما كان يفعل الأمويون ، والعباسيون الجبابرة ..

فهذا هارون العباسي الطاغية كان يخاطب سحابة كانت تمرّ من فوقه قائلاً: إذهبي واهطلي أينما شئت فسوف يأتيني خراجك ..

فالمهم عنده الخراج ، والمال ليتنعم بها وتتنعم جواريه اللواتي بلغ عددهنّ الآلاف المؤلفة .

فالدعوة إلى الله هي الأصل في كل الأعمال الإسلامية أينما وكيفما كانت .

ولذلك كان عليهم أن يستقبلوا كل من يظهر الإسلام أو يبدأ بالسلام (تحية الإسلام) ويدعوه إلى الله بالكلمة الحكيمة اللينة ، وأن يعطوه بالحسني ويوضحون له محاسن الإسلام الحنيف ، ويروه أخلاقه الحميدة .

نعم ، عليهم أن يفعلوا ذلك ويقبلوه حتي لو كان هناك احتمال أن يكون إسلامه ظاهرياً ولقلقة لسان فقط ، وذلك من أجل الحفاظ علي نفسه أو عرضه أو ماله أو مصالحه الشخصية لأنّ رسول الله صلي الله عليه وآله قال : ((أمرت أن أقاتل الناس حتّي يقولوا لا إله إلاّ الله ، فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلي يوم يلقون ربّهم فيحاسبهم)) (2). وعن المفضّل قال : سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : ((الإسلام يحقن به

ص: 220

1- سورة الأعراف (7) : الآية 157 .

2- مستدرک الوسائل : ج 18 ص 206 ح 22503 .

الدم ، وتؤدّي به الأمانة وتستحلّ به الفروج ؛ والثواب علي الإيمان(1).

وعن أبي جعفر(عليه السلام) قال : سمعته يقول : ((قَالَتْ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا(2)) «فمن زعم أنهم آمنوا فقد كذب ومن زعم أنهم لم يسلموا فقد كذب(3).

فلم يؤمر رسول الله صلي الله عليه وآله بأن يعامل الناس علي باطنهم - وهو عالماً بها بعلم الله له كالمنافقين - بل هو مأمور أن يعمل علي الظواهر لأنّ حساب الباطن علي من يعلم السرّ وأخفي .

الملفت للانتباه أنّ ذلك كان يسبّب للمؤمنين الحرمان من بعض الغنائم والفوائد المادية ، إلا أنّها مهما كانت ((عرض الحياة الدنيا)) أي الغنيمة والمال ، ومتاع الحياة الدنيا الذي لا بقاء له ، بل هو إلي الزوال أقرب .

بل وكما يقول الله تعالى في كتابه : «فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَازِمٌ كَثِيرَةٌ(4)» وبقوله تعالى : «إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا(5)» والآيات كثيرة جداً في هذا المجال .

الاستفادة من الآية الكريمة

إنّ السؤال الذي يطرح هنا هو : ماذا نستفيد من هذه الآية المباركة ؟

الجواب عليه عدّة أمور منها :

1 - قد يكون إسلام مدّعي الإسلام إسلاماً واقعياً وحقيقياً .. وباعتبارنا لا نعلم الغيب أو الباطن للإنسان فعلينا القبول منهم ، وكما قال رسول الله صلي الله عليه وآله ((هَلَّا

ص: 221

1- الكافي : ج2 ص24 ح3 .

2- سورة الحجرات (49) : الآية 14 .

3- وسائل الشيعة : ج20 ص556 ح26337 .

4- سورة النساء (4) : الآية 94 .

5- سورة إبراهيم (14) : الآية 34 .

شقت قلبه)) وعلي فرض أنك شقت قلبه فلن تري شيئاً بل المعني هلاً عرفت وأطلعت علي خفايا نفسه فعلمت بها .

فكما كنتم أنتم في بداية الدعوة الإسلامية ((كذلك كنتم من قبل)) فهل المسلمون جميعاً في بداية الدعوة أسلموا رغبة بالدين الجديد ، ومعرفة بالإسلام الأصيل ؟ بل كان الكثير منهم التحقوا بالإسلام إما خوفاً أو رهباً أو طمعاً ورغباً ، فلم يكن الإيمان قد تمكّن من قلوبهم بل كان إسلامهم لقلقة لسان ، كما كان المنافقون الذين فضحتهم سورة التوبة المباركة ووصفتهم سورة المنافقين .

إذن علينا بالظواهر ، وعلم الباطن عند علام الغيوب .

2 - إن مسألة نقل الكافر من مرحلة (العداء الظاهر) إلي مرحلة (العداء الباطن) تخفيف من ضررهم علي الإسلام فكما يقولون واحد معك بالظاهر أفضل من أن يكون ضدك بالظاهر والباطن معاً ..

هذا مع فرض أن إسلامه كان نفاقاً ، فهذا مطلوب بحد ذاته ، لأنه يعدّ بمثابة تسجيل نقطة لصالح المسلمين .

3 - بعد أن يصبح هذا الإنسان في صفوف المسلمين ربما يقتنع ويؤمن حقيقة - علي أثر مخالطة إياهم ومعاشرته لهم وسماعه لآيات القرآن الكريم - فيسلم ويحسن إسلامه كحال الكثير من المسلمين في بداية انطلاقته المباركة .

4 - هذا الذي أسلم بظاهره قد يكون أولاده وأحفاده في غاية الالتزام والإيمان بحيث إنهم يولدون في بيئة مسلمة ويتربون تربية إسلامية نقيّة إلي حدّ ما . فالكسب يكون للأجيال والأعقاب من الآباء .

وهذا بحد ذاته سبباً من أسباب قبول رسول الله صلي الله عليه وآله للمنافقين في بداية الدعوة وبعد اشتدادها ورسوخها في أرض المدينة المنورة .

إشارة

(25) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَرَوْعًا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أُوَّالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا»

(سورة النساء : 135)

في رحاب المفردات

القسط : هو النصيب بالعدل كالنصف والنصفة والاقساط هو أن يعطي قسط غيره ... قال تعالى : «وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (1)».

تلوا : يقال لويت الحبل ألوته ... ولويت الدين لياً ولياناً ، أي : مطلته (2).

ص: 223

1- سورة الحجرات (49) : الآية (9) مفردات الراغب : ص 418 .

2- كتاب العين : مادة لوي .

قَوَامِين : القيام علي أضرب : قيام بالشخص إمّا بتسخير أو اختيار ، وقيام للشّيء وهو المراعاة للشّيء والحفظ له ... ومن المراعاة للشّيء قولهُ : «كُونُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ (1)» .

شأن النزول

أخرج الحافظ جمال الدين محمّد بن يوسف (الحنفي) (الزرندي في كتابه) نظم درر السمطين (عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((ما أنزل الله آية فيها «يا أيّها الذين آمنوا» إلّا وعلي رأسها وأميرها)) (2) .

عبر من الآية

علي الرغم أنّ ظاهر النداء في الآية الكريمة مختصّ بالمؤمنين إلّا أنّه يتعدّي إلي جميع البشر ولكن وكما هي العادة فإنّ المؤمنين هم الذين يطبّقونه ويلتزمون به كاملاً .

ففي هذه الآية المباركة توجيه إلهي وأمر ربّاني لعباده بأن يكونوا ((قوامين بالقسط)) وكذلك هم ((شهداء لله)) وليس لأحد آخر أبداً .

لأنه من طبائع الإنسان ((المحابة)) و ((التحيّز)) إلي الأقرب منه ، وإنّ أكبر من يتحيّز إليه هي نفسه و ((ذاته)) حيث إنّها هي الأهمّ عنده دائماً .

ص: 224

1- سورة النساء (4) : الآية (135) مفردات الراغب : ص 432 - 431 .

2- نظم درر السمطين : ص 89 .

فهو يحاول دائماً جذب كل خير إليها ، ودفع كل شر عنها ، ثم يحابي كل من يمتُّ إلي نفسه ((الذات)) بصلة من الصلات الوثيقة منها خاصة ، فهو يحابي والديه وأبنائه ومن ثم إخوته والأقربين والأصدقاء وما إلي ذلك .

وكل ذلك منطلق من ((محمورية الذات)) أي ((الأنا الذاتي أو الشخصي)) وهذه ((الأنا)) هي التي أخرجت إبليس من جنة القرب ورضا الربِّ إلي جحيم اللعنة والعذاب ، إذ أنه هو الذي أوّل من قال : «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(1)».

الأناية تحرم إبليس رحمة الله

فلما خلق الباري تعالي آدم(عليه السلام) وفضّله علي الخلق ، وأسجد له الملائكة ومن معهم من الجنّ ، قاس - إبليس - عنصره الناري بعنصر آدم الترابي وظنّ بنفسه خيراً فرفض أمر ربّه الذي كرمه وخلقته بيديه ، ففي الحديث عن أبي زهير شبيب ابن أنس عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال : قال أبو عبد الله(عليه السلام) لأبي حنيفة : ((ياأبا حنيفة إذا ورد عليك شيء في كتاب الله ولم تأت به الآثار والسنة كيف تصنع ؟ قال : أصلحك الله أقيس وأعمل فيه برأبي ، قال : ياأبا حنيفة إنَّ أوّل من قاس إبليس الملعون قاس علي ربّنا تبارك وتعالى فقال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)) فسكت أبو حنيفة((2)).

فالأنا والأناية هي حالة مزرية بالنسبة للإنسان ، وربما أطلق عليها علم

ص : 225

1- سورة الأعراف (12) : (7) .

2- وسائل الشيعة : ج 27 ص 47 ح 33177 .

النفس الحديث ووصفها - بحالة مرضية - توجب العلاج لصاحبها ، لأنه بحاجة للرأفة والرحمة والعطف ممّا هو فيه .

وقد يظن الإنسان أنّه شيء عظيم فيصاب بجنون العظمة - كالكثير من الطغاة والجبارين من بني البشر أمثال فرعون ونمرود وقارون وغيرهم - ممّن حجبوا عن أنفسهم أيّة رؤية سوي النظر إلي أنفسهم التي كانوا يرونها فوق الجميع حتي قال بعضهم : «أنا ربُّكم الأعلى» .

والجدير بالذكر أنّ كل إنسان يبطن ما أظهره فرعون ، كما في الرواية ، أي الأنا الذاتية كامنة في أعماق كل إنسان ، فهي موجودة في حنايا وجوانح الجميع إلا أنّ الظروف الاجتماعية والموضوعية التي يعيش فيها إمّا أن تكبتها وتجعلها تضمحل شيئاً فشيئاً إلي أن تتلاشي ، أو أنّها تنمو وتكبر إلي أن تتعملق في داخل الإنسان ، فيظن بنفسه الظنون .

وهو بالحقيقة لا يعدو أن يكون إنساناً بسيطاً ، ذليلاً حقيراً ، مسكيناً مستكيناً ، لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، وكما قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : ((مسكين ابن آدم))⁽¹⁾.

رسالات السماء تحارب الأناية

والديانات السماوية كلّها ، جاءت لتحارب مثل هذا التوجّه الخاطيء ، وهذا الفهم الشيطاني للنفس والذات البشرية .

فالإسلام لم يجعل(الذات) هي المحور ، بل جعل الحقّ هو المحور في كل شيء ،

ص: 226

1- نهج البلاغة ق : 419 .

فعلي الإنسان أن يجعل الحقّ هو المحور في حياته ، ولو أدّى ذلك إليّ ضرب مصالحه الشخصية في هذه الدنيا ، إذ أنّ مدار الحقّ والباطل يتعلّق ليس في الدنيا فحسب بل إنّ حساب الآخرة - ثواباً وعقاباً - يتعلّق بهذا الأمر .

وحيث إنّ المؤمن همّه وهّمته مركّزة باتجاه الآخرة لا الدنيا ، وعينه ترنو إليّ الجنان الخالدة لا النعيم واللذائذ الزائلة ، وإليّ الحور والقصور في الجنان ، لا إليّ لذّة عابرة أو شهوة مقضية أو ما أشبه ذلك من أمور الدنيا الفانية أخذت الآية الشريفة تأمره بأن يكون ليس فقط ((قائماً)) بل ((قوّاماً)) بالقسط والعدل ، أي أن يكون دائم القيام بالعدل .. وبعبارة أخرى لتكن عادتكم القيام بالعدل في القول والفعل وفي كل شيء .

فعلي الإنسان أن يقول ويعمل بالعدل ، في كل زمان ومكان ، وفي كل قضية أو مسألة ولو كان ذلك ضدّ نفسه وشهواته أو أقربائه وأصدقائه .

الشهادة والقيام بالقسط

من هذا المنطلق أخذت الآية المباركة تؤكّد عليّ مسألة ((الشهادة)) التي هي لون من ألوان القيام بالقسط وتؤدّي إليّ الحكم بالعدل كذلك ، فإذا استقامت الشهادة استقام الحكم وهذا هو ((العدل)) بعينه .

فعلي الإنسان أن يشهد بالحقّ لوجه الحقّ تعاليّ ((شهداء لله)) ، أي كما أنّك شاهد ولكن في نفس الوقت أنت مشهود عليك من ربّك حيث تكون تحت أنظاره ورحمته ، فأنت حين تشهد بالحقّ - أي المطابق للواقع والحقيقة - تكون شهادتك لله تعاليّ ، وهو يشهد لك بقولك الحقّ فيشيك عليه وتسجله الملائكة الكرام في سجل

من عوامل الانحراف البشري

وهكذا فإن الآية المباركة أخذت تنتقل شيئاً فشيئاً موضحة بعض أسباب الانحراف عن الحق سواءً كان في القول أو العمل ، وهي ثلاثة أسباب في هذا المورد منها :

1 - التحيز لصالح الأغنياء ، طمعاً في ثروتهم ((أي المصالح المادية)) فالمال يعمي ، ويغري اللبيب ويدفعه إلي عدم القيام بالقسط عن طريق الرشوة ، أو الهدايا وما أشبه ذلك ، وهذه من آفات العصور كلها فأصحاب الأموال يشترون الضمان ، ويربحون القضايا بالرشوة والأموال دون وجه حق يذكر ، بل وفي معظم الحالات يكونون علي الباطل تماماً . ولذا فإن الإسلام حارب الرشوة بشدة ، فعن أبي عبدالله(عليه السلام) قال : ((الرشا في الحكم هو الكفر بالله))⁽¹⁾.

وعن أبي جعفر(عليه السلام) قال : ((لعن رسول الله صلي الله عليه وآله من نظر إلي فرج امرأة لا- تحلّ له ، ورجلاً خان أخاه في امرأته ، ورجلاً احتاج الناس إليه لتفقّهه ، فسألهم الرشوة))⁽²⁾.

وعن أبي عبدالله(عليه السلام) قال : ((وأما الرشا في الحكم ، فهو كفر بالله))⁽³⁾.

2 - العطف علي الفقراء ، ومراعاة للفقر والبؤس ، وهذه حالة من حالات

ص: 228

1- الكافي : ج 7 ص 409 ح 2 .

2- وسائل الشيعة : ج 27 ص 223 ح 33644 .

3- وسائل الشيعة : ج 17 ص 92 ح 22058 .

العطف والعواطف الجياشة في الإنسان ، وربما تدفعه لأن يخون الشهادة أو لا يقول الحق لأنه يري في المشهود عليه الفقر والعوز ، فعطفاً عليه - يشهد بخلاف الحق والواقع ، وهذا من الحالات النادرة في أيامنا الحاضرة - إلا أنها قد تحدث مع الحكام والقضاة حيث يجيئون بالحكم - في مثل هذه الحالات - لصالح الفقراء عن الأغنياء بحجة العطف عليهم .

بالطبع إن مثل هؤلاء تشملهم العقوبة المعدة لكل من يشهد الزور ، فعن الإمام علي (عليه السلام) قال : ((قال رسول الله صلي الله عليه وآله في حديث : يا علي : إن ملك الموت إذا نزل لقبض روح الفاجر ، نزل معه بسفود(1) من نار ، فينزع روحه فتصيح جهنم ، فاستوي علي (عليه السلام) جالساً فقال : يا رسول الله ، فهل يصيب ذلك أحداً من أمتك ؟ فقال صلي الله عليه وآله : نعم ، حاكم جائر ، وأكل مال اليتيم ، وشاهد الزور)) (2).

3 - اتباع الهوي النفسي ، وهي حالة عامة عند معظم البشر فتصبح القضية قضية مزاج ليس إلا ، فإن راقه أن يشهد بالحق شهد وإلا فلا .. وإن راقه فلان يشهد له وإن كان معه الباطل ضد الحق الحقيقي المأخوذ من الطرف المقابل وهكذا .

فعلي الإنسان أن يتبع الحق في كل قضاياها ، لا الهوي والعواطف والمصالح الشخصية أو القرابة والصدقة وما شابه ذلك .

فالأهواء والمصالح ربما تجعل الإنسان يعدل ويجور عن الحق ، أو تجعله يلوي : أي يدفع أو يميل أو يماطل في أداء الشهادة ، التفافاً علي الحق ونصرة للباطل .. وربما

ص: 229

1- السُّفُود والسُّفُود ، بالتشديد : حديدة ذات شُعب معقَّفة معروف يشوي به اللحم ، وجمعه سفافيد . لسان العرب مادة سفد .

2- مستدرک الوسائل: ج17 ص414 ح21705 .

تجعله - الأهواء - يعرض تماماً عن الشهادة ، بأن يكتمها ولا يبدي بها بحجة من الحجج كالنسيان أو عدم التواجد أو ما إلي ذلك من الأمور المعروفة ، والتبريرات والتزويرات المشهورة .

فتبديل الشهادة ، أو الإعراض عنها ، أو قلبها رأساً علي عقب هي نتيجة حتمية لتحكّم الهوي الشخصي في حركة الإنسان ومسيرته الحياتية في المجتمع .

وربّنا سبحانه رفض كل هذه التبريرات ، وحرّمها وأمر الناس - والمؤمنين بالذات - بأن يقوموا بالقسط ويجعلوا الشهادة لله ، وأن يلتزموا بالحق وليس بأي شيء آخر .

الدعوة إلي شهادة الحقّ

وقد أكّدت الروايات بشدّة علي الشهادة وعدم كتمانها ، ولو كانت لأقرب المقرّبين ، فعن علي بن سويد السائبي عن أبي الحسن (عليه السلام) قال : كتب في رسالته إليّ وسألته عن الشهادة لهم ، ((فأقم ولو علي نفسك أو الوالدين والأقربين فيما بينك وبينهم ، فإن خفت علي أخيك ضيماً فلا)) (1).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) : ((إنّ للمؤمن علي المؤمن سبع حقوق فأوجبها أن يقول الرجل حقّاً وإن كان علي نفسه أو علي والديه فلا يميل لهم عن الحقّ)) (2).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((ثلاثة هم أقرب الخلق إلي الله تعالى يوم القيامة حتي يفرغ من الحساب : رجل لم تدعه قدرته في حال غضبه إلي أن يحيف علي من

ص : 230

1- تهذيب الأحكام : ج 6 ص 276 ح 162 .

2- تفسير القمّي : ج 1 ص 156 .

تحت يديه ، ورجل مشي بين اثنين فلم يمل مع أحدهما علي الآخر بشعرة ، ورجل قال الحق فيما له وعليه)) (1).

شهادة ذو الشهادتين

وفي مثل هذا الصدد تتجلى عظمة ذو الشهادتين الذي أعطي البشرية جمعاء درساً بالغاً في الأهمية حيث لقّن المسلمين علي مرّ العصور كيف يحترمون النبي صلي الله عليه وآله ويصدّقونه في شتّى أمور حياتهم ولو لم يطلعوا عليها بحواسهم التي غالباً ما تخطأ ، فعن معاوية بن وهب قال : كان البلاط حيث يصلّي علي الجنائز سوقاً علي عهد رسول الله صلي الله عليه وآله يسمّي البطحاء يباع فيها الحليب والسمن والأقط وإنّ أعرابياً أتى بفرس له فأوثقه فاشتراه منه رسول الله صلي الله عليه وآله ثم دخل ليأتيه بالثمن فقام ناس من المنافقين فقالوا : بكم بعت فرسك ؟ قال : بكذا وكذا قالوا : بس ما بعت ، فرسك خير من ذلك وإنّ رسول الله صلي الله عليه وآله خرج إليه بالثمن وافياً طيباً ، فقال الأعرابي : ما بعتك والله ، فقال رسول الله صلي الله عليه وآله : سبحان الله بلي والله لقد بعنتي وارتفعت فقال الناس : رسول الله يقول الأعرابي فاجتمع ناس كثير فقال أبو عبد الله (عليه السلام) : ومع النبي أصحابه إذ أقبل خزيمة بن ثابت الأنصاري ففرّج الناس بيده حتي انتهى إلي النبي صلي الله عليه وآله فقال : أشهد يارسول الله لقد اشتريته منه فقال الأعرابي ، أشهد ولم تحضرنا ؟ وقال له النبي صلي الله عليه وآله أشهدتنا ؟ فقال له : لا يارسول الله ولكنّي علمت أنّك قد اشتريت أفصدّك بما جئت به من عند الله ولا أفصدّك علي هذا الأعرابي الخبيث

ص: 231

1- الكافي : ج2 ص145 ح 5 .

قال : فعجب له رسول الله صلي الله عليه وآله وقال : يا خزيمة شهادتك شهادة رجلين(1).

ولذلك نجد أنّ مسك الختام في الآية المباركة هي من هذا القبيل حيث يقول سبحانه : «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(2)».

فإنّ الخبير والعالم بالقضايا والخفايا لا تخفي عليه مثل هذه الأعمال الباطلة من العباد فتسجّلها الملائكة الكرام ، ويحاسبهم عليها الملك العلام في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، بل النفع والفائدة في أن تأتي الله بقلب سليم من الضغائن والأحقاد وأعمال صالحة حقّة خالية من الباطل نهائياً .

ص: 232

1- الكافي : ج 7 ص 401 - 400 ح 1 .

2- سورة النساء (4) : الآية 135 .

إشارة

(26) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» (سورة النساء : 136)

في رحاب المفردات

يكفر : الكفر هو تقيض الإيمان ، ففي الآية الكريمة جاء : «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى (1)» ويقال لأهل دار الحرب : قد كفروا أي عصوا وامتنعوا . وكفر النعمة هو تقيض الشكر .

والكفر : هو جحود النعمة ، وهو ضد الشكر ، وقوله تعالى : «إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ وَن (2)» أي جاحدون (3).

الضلال العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية .. ويقال الضلال لكل

ص: 233

1- سورة البقرة (2) : الآية 256 .

2- سورة القصص (28) : الآية 48 .

3- لسان العرب : مادة كفر .

عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً، فإنَّ الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعبٌ جداً(1).

وقد ذكرت لفظة الضلال في القرآن كثيراً، ففي فاتحة الكتاب نحن نقرأ «وَلَا الضَّالِّينَ(2)» وكذلك جاء في القرآن: «إِنْ تَحَرَّصَ عَلَيَّ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ(3)» وفي آية أخرى: «مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ(4)» وفي آية: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ(5)».

عبر من الآية

إنَّه أمر عظيم وتوجيه كريم من ربِّ حكيم .

يخاطب به المؤمنين : بأن آمنوا .. فكيف ذلك ؟

ذكر المفسرون ثلاثة وجوه لهذا الأمر المبارك ، فهي تدور بين ثلاث فئات من الناس كما ذكر وهم :

1 - يأيُّها الذين آمنوا في الظاهر بالإقرار باللَّه ورسوله ، آمنوا بالباطن ، ليوافق باطنكم ظاهركم ، فيكون الخطاب للمنافقين الذين كانوا يظهرون خلاف ما يبيطنون(6).

فالخطاب موجّه إلي كل من أظهر لا إله إلا الله محمّد رسول الله صلي الله عليه وآله ومن

ص: 234

1- مفردات الراغب : ص 306 .

2- سورة الحمد (1) : الآية 7 .

3- سورة النحل (16) : الآية 37 .

4- سورة الأعراف (7) : الآية 186 .

5- سورة الرعد (13) : الآية 27 .

6- مجمع البيان : ج 5 مج 3 ص 214 .

المعلوم أنّ كثيراً منهم كانوا مؤمنين لفظاً فقط ((آمنوا)) ظاهرياً لا يتجاوز اللسان .

2 - أن يكون الخطاب للمؤمنين علي الحقيقة ، ظاهراً وباطناً ، فيكون المعني ، أثبتوا علي هذا الإيمان في المستقبل ، وداوموا عليه ، ولا تنتقلوا عنه .

3 - إنّ الخطاب خاصّ لأهل الكتاب ، أمروا أن يؤمنوا بالنبوي والكتاب الذي أنزل عليه ، كما آمنوا معهم في الكتب .

وهذا ما روي عن عبدالله بن عباس أنه قال : إنّ الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب : عبدالله بن سلام ، وأسد وأسيد ابني كعب ، وثعلبة بن قيس ، وابن أخت عبدالله بن سلام ، ويامين بن يامين ، وهؤلاء من كبار أهل الكتاب ، قالوا : نؤمن بك وبكتابك ، وبموسى وبالتوراة وعزير ، ونكفر بما سواه من الكتاب ، وبمن سواهم من الرسل .

ف قيل لهم : بل آمنوا بالله ورسوله .. الآية(1).

والجمع بين التفاسير الثلاثة عندي له وجه وجيه ومقبول ، إذ ما هو المانع في أن تكون الآية موجّهة إلي هؤلاء الفئات جميعاً - المؤمنين والمنافقين وبعض علماء أهل الكتاب - بل وغيرهم ، فالآية تخاطب كل إنسان يتمسك بدين ويعتقد بعقيدة سماوية لكي يصحح عقيدته ، ويرسخ إيمانه ويكمله ولا يتركه ناقصاً .

لأنّ الإسلام الحنيف لا يرضي بالتبعيض بالنسبة إلي الإيمان كأن نؤمن ببعض العقائد ونكفر بالبعض الآخر ، أو أن نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر بالبعض الآخر ، أو نتخذ رسالة ونكر بقية الرسالات ونكفر بقية الرسل العظام .

فالإيمان هو أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولا نفرق بين أحد منهم أبداً . وإلي ذلك تشير الآية الكريمة قائلة : «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا

ص: 235

1- مجمع البيان : ج 5 مج 3 ص 260 .

الإيمان ضرورة حياتية

إذن فالإيمان بجميع الأنبياء والرسل والرسالات هو ضرورة حضارية، لفهم حقيقة الدين والرسالة في الحياة عامة، وذلك لأسباب منها:

1 - الإيمان بجميع الرسالات يكشف عن واقعية الإنسان وعقلانيته .. فهو ليس إنساناً متعصباً لفئة أو طائفة .. ولا متحيزاً إلي جماعة ضدّ أخرى .. بل هو تابع للحقّ معترفاً به، وحيث إنّ كل الأنبياء كانوا حقاً، وأثبتوا نبوتهم بالمعجز، فلا بدّ من الإيمان بهم جميعاً، والتصديق بما جاءوا به من عند ربّهم .

وأما خلاف ذلك .. فمثله كمثّل الطالب الذي يدرس في المدارس من الابتدائية إلي المتوسطة وإلي الثانوية .. وعندما يصل إلي الجامعة يلعن وينكر المراحل السابقة من - ابتدائية ومتوسطة وإعدادية وثانوية - فمثل هذا غير منطقي وغير معقول مطلقاً .

وكذا الحال بالنسبة لجميع الرسالات الإلهية التي كان لها دور عظيم في تكامل الإنسان ووصوله إلي الرسالة الخاتمة ((الإسلام الحنيف)) فيجب الإيمان بها والتسليم لتعاليمها السمحة .

ومنهم من شبّه تكامل الرسالات، بتنامي الأطفال منذ الولادة وحتى البلوغ والرشد، فالإنسان يولد وينمو شيئاً فشيئاً إلي أن يزحف ويحبو، ومن ثم يقف ويجلس، وبعد ذلك يمشي ببطئ، ثم يركض، ثم يتكلّم ويأكل ويشرب ويتعرّف علي الناس من حوله وهكذا إلي أن يدخل إلي المدرسة حيث يتعلّم الرياضيات والكتابة والقراءة والإملاء .. وما أشبه إلي أن يميّز بين الخير والشرّ، وبين الحقّ والباطل

ص: 236

فالمسائل مثل هذا الطفل حيث تنامت وتكاملت ، وكل مرحلة هي أرفع من التي تسبقها بدرجات من الوعي والنضوج بالنسبة للإنسان ، إلي أن مثلت رسالة الإسلام الحنيفة قمة النضوج الإنساني بالنسبة لبني البشر ، فجاء بها خير خلق الله ، وخاتم رسل الله محمد بن عبد الله صلي الله عليه وآله من عند الله ، ونزل عليه معجزة الدهر الخالدة كتاب الله الصامت القرآن الكريم .

وكتاب الله الناطق وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام الإثني عشر لا سيما خاتمهم الحجة ابن الحسن مهدي هذه الأمة (عجل الله تعالى فرجه) ومخرج الإنسانية من الظلمات إلي النور ، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً - بإذن الله تعالى - . وقد أشارت الرواية إلي هذا الامتداد الإلهي حيث قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((أنا سيد النبيين ، ووصي سيّد الوصيين ، وأوصيائي سادة الأوصياء ، إن آدم سأل الله عزّوجلّ أن يجعل له وصياً صالحاً ، فأوحى الله عزّوجلّ إليه : إني أكرمت الأنبياء بالنبوة ثم اخترت خلقي وجعلت خيارهم الأوصياء ثم أوحى الله عزّوجلّ إليه : يا آدم أوص إلي شيث ، فأوصي آدم إلي شيث ، وهو هبة الله ابن آدم ، وأوصي شيث إلي ابنه شيبان ، وهو ابن نزلة الحوراء التي أنزلها الله علي آدم من الجنة فزوجها ابنه شيثاً ، وأوصي شيبان إلي محلث ... إلي أن يقول صلي الله عليه وآله : وأوصي منذر إلي سليمة ، وأوصي سليمة إلي بردة ، ثم قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ودفعها إلي بردة ، وأنا أدفعها إليك يا علي ، وأنت تدفعها إلي وصيكي ، ويدفعها وصيكي إلي أوصيائك من ولدك واحد بعد واحد حتي يدفع إلي خير أهل الأرض بعدك ولتكفرنّ بك الأمة ، ولتختلفنّ عليك اختلافاً شديداً ، الثابت عليك كالمقيم معي والشاذّ عنك في النار ، والنار مثوي للكافرين)) (1).

2 - الإيمان بالأنبياء السابقين ، وجميع الرسالات السماوية ، تقرب أصحاب الديانات وتلطف الجو فيما بينهم ، وتنسف الحواجز والسدود النفسية المعيقة في أن يتقبل كل منهم الآخر فيكون عامل جذب إلي بعضهم البعض وإلي الإيمان الراسخ كذلك .

ولعل خير شاهد علي ذلك هي الآية الشريفة من آخر سورة البقرة حيث قال تعالى : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ(1)» .

فالمسلمون يقدسون جميع الأنبياء ولا يفرقون بينهم ، وإنما يعتمدون بهم ويقداستهم المطلقة ..

الاعتقاد بنبوة الرسول صلي الله عليه وآله

نعم ، إن المسلمين يعتقدون أن الرسول صلي الله عليه وآله هو خاتم الأنبياء ورسالته هي ناسخة للرسالات السابقة فلا يحق لأحد من أهل الديانات الأخرى بعد بزوغ فجر الإسلام أن يبقي علي عقيدته ، ففي الآية الشريفة «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ(2)» بل نفس الكتب السماوية السابقة نصت علي الرسول صلي الله عليه وآله ، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((أنا أشبه الناس بآدم ، وإبراهيم أشبه الناس بي خلقة وخلقه ، وسماني الله عز وجل من فوق عرشه عشرة أسماء ، وبين الله وصفي وبشر بي علي لسان كل رسول بعثه إلي قومه ، وسماني ونشر في التوراة اسمي ، وبث ذكرني في أهل التوراة والانجيل ، وعلمني كتابه ورفعني في سمائه ، وشق لي اسماً من أسمائه فسماني محمداً وهو محمود ، وأخرجني في خير قرن من أمتي ،

ص: 238

1- سورة البقرة (2) : الآية 285 .

2- سورة آل عمران (3) : الآية 85 .

وجعل اسمي في التوراة أحيـد [وهو من التوحيد] فبالتوحيد حرّم أجساد أمتي علي النار ، وسمّاني في الانجيل أحمد فأنا محمود في أهل السماء وجعل أمتي الحامدين ، وجعل اسمي في الزبور ماح محي الله عزّ وجلّ بي من الأرض عبادة الأوثان ... وسمّاني العاقب أنا عقب النبيين ليس بعدي رسول ، وجعلني رسول الرحمة ورسول التوبة ورسول الملاحم والمقّبي قفّيت النبيين جماعة ، وأنا القيم الكامل الجامع ومنّ عليّ ربّي وقال : يا محمد صلّي الله عليك قد أرسلت كلّ رسول إلي أمته بلسانها وأرسلتك إلي كل أحمر وأسود من خلقي)) (1).

3 - وقد يراد من الآية مسألة استصحاب الشرائع السابقة ، والاستفادة منها ، وتصحيح مساراتها وتحليل بعض المحرّمات عليهم وتحريم بعض المحلّلات لهم ، وذلك لمصلحة للإنسانية في ذلك كلّ - علي القول بذلك الاستصحاب - .

ومع ذلك إلّا أنّ الدين الإسلامي هو أكمل شريعة عرفت ، أو عرفها التاريخ الإنساني علي امتداده الطويل ، والقانون الإسلامي مستوعب لكل قضايا ومشاكل البشر بمختلف ألوانهم وأشكالهم ولغاتهم علي هذه الكرة الترابية .

وهو قادر علي أن يعطي لكل مسألة حكماً شرعياً متطابقاً مع الكتاب أو السنّة ، ومستنبطاً منهما من قبل المراجع الكرام والعلماء الأعلام - رحم الله الماضين منهم وحفظ الباقيين إله الحقّ أمين - .

مسك الختام

في هذه الآية المباركة هو بيان وتوضيح أنّ من لم يؤمن - بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر - فلم يؤمن بشيء أبداً ، لأنّ الجميع مرتبطون بالإيمان بالله ، ومن لم يؤمن بأحد من هذه - المداليل والحقائق الغيبية - فهو ضالّ .

ص: 239

والضلال : هو الإبعاد عن الحق .

وليس ذلك فقط .. بل ضلّ ضلالاً بعيداً : أي بُعد قصد السبيل ذهاباً بعيداً .

والضلال البعيد : هو ما لا ائتلاف له .

إذن ، فمن كفر بمحمد صلي الله عليه وآله ووجد نبوته ، فكأنه جحد جميع ذلك ، لأنه لا يصح إيمان أحد من الخلق بشيء مما أمر الله به إلا بالإيمان بمحمد صلي الله عليه وآله وبما أنزل الله عليه - القرآن - .

وفي هذا تهديد لأهل الكتاب - إن كانوا المخاطبين بها - وإعلام لهم أنّ إقرارهم بالله ، ووحدانيته ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، لا ينفعهم مع جحد نبوة محمد صلي الله عليه وآله ويكون وجوده والإيمان ، وعدمه سواء عندهم .

فالإيمان يجب أن يكون متكاملًا ، وإلا فلا .

ولا يخفي أنّ أهمّ حلقات الإيمان المفترض علي البشرية قاطبة الإيمان بها والتسليم إليها هي مسألة الإمامة التي لا يكفي فيها التبويض والاعتقاد بجزء منها دون البقية ، فالمؤمن الواقعي - كما نصّت الروايات - هو من يؤمن بإمامة الأئمة الإثنا عشر معاً وإلا فهو ليس مؤمناً واقعاً وإلي ذلك يشير الحديث الوارد عن رسول الله لأمير المؤمنين (عليه السلام) حيث قال : ((ياعلي أنت والأئمة من ولدك بعدي حجج الله علي خلقه ، وأعلامه في بريته ، فمن أنكر واحداً منهم فقد أنكرني ، ومن عصي واحداً منهم فقد عصاني ، ومن جفي واحداً منهم فقد جفاني ، ومن وصلكم فقد وصلني ومن أطاعكم فقد أطاعني ، ومن والاكم فقد والاني ، ومن عاداكم فقد عاداني لأنكم منّي ، خلقتكم من طينتي ، وأنا منكم)) (1).

ص: 240

1- بحار الأنوار : ج 23 ص 97 ح 4 .

(27) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا»

(سورة النساء : 144)

في رحاب المفردات

سلطاناً: السلاطة التمكن من القهر ، يقال سلَّطته فتسلَّط ... ومنه سُمِّي السلطان ... وسمِّي الحجة سلطاناً وذلك لما يلحق من الهجوم علي القلوب لكن أكثر تسلَّطه علي أهل العلم والحكمة من المؤمنين(1).

وجاءت هذه المفردة في القرآن كثيراً . ففي الآية الشريفة : «إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَنْتَقُولُونَ عَلَيَّ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(2)» وفي آية أُخري : «تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(3)» وفي آية أُخري : «وَمَا كَانَ

ص: 241

1- مفردات الراغب : ص 244 .

2- سورة يونس (10) : الآية 68 .

3- سورة ابراهيم (14) : الآية 10 .

لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (1)» «لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ (2)» «لَأَعَذَّبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْنَاهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (3)».

عبر من الآية

إنّ مثل هذا الخطاب الرحماني جاء ليدعو المؤمنين بأن لا يتخذوا الكافرين أولياء ، لأنّهم سيصبحون في عداد المنافقين ، الذين هم في الدرك الأسفل من النار ، والعياذ باللّه .

وفي هذا الدرس الأخير في أخريات هذه السورة المباركة ((النساء)) يأتي هذا التحذير الشديد للمؤمنين من هذه الأفعال ، فضلاً عن الآيات والتحذيرات التي مرّت في السورة السابقة (آل عمران) الخاصة بالتعامل مع أهل الكتاب والكافرين ، والتي أوضحت عقاب من يتولّاهم أو يتّخذهم وليجة من دون المؤمنين .

وهذه المشكلة هي إحدى المشكلات الخطيرة التي ابتليت بها الأمة الإسلامية منذ بداية نشأتها وانطلاقتها المظفّرة ، في مكّة المكرمة أولاً وتبلورها في المدينة المنوّرة ثانياً علي شكل حكم أو نظام حكم قائم بحدّ ذاته سواء أكان علي نطاق القادة أم القوانين أم حتّي الأمة .

وهذه المشكلة المستعصية ليست مشكلة الأمة الإسلامية فقط بل هي مشكلة كل أمة بل كل حاكم وحكم جديدين عبر التاريخ ، إذ أنّ النفعيين وأصحاب المصالح

ص: 242

1- ((- سورة إبراهيم (14) : الآية 11 .

2- سورة الكهف (18) : الآية 15 .

3- سورة النمل (27) : الآية 21 .

يميلون مع كل ريح ويتزلّفون إلي كل قادم ويصفّقون له .

فمشكلة النفاق والمنافقين ، والاعتماد علي الكفّار ، والركون إليهم ، والتعاون معهم ، واتّخاذهم أولياء وأحباب وأصدقاء من دون المؤمنين له تأثير سلبي علي مسيرة الأمة دائماً وأبداً .

فإن كانت الأمة قويّة ، والقائد حكيم .. اختبأ المنافقون ، ودفنوا رؤوسهم انتظاراً للفرصة السانحة لهم للإيذاء - كالحية الرقطاء تماماً - فإذا ضعفت الأمة ، أو انتقل القائد أو توفّي تراهم من كل حذب ينسلون وكأئهم رؤوس الشياطين ، يضجّون ويعجّون وعلي الله يفترون .

الأئمة عليهم السلام يحذرون من المنافقين

من هنا فإنّ الأئمة الأطهار عليهم السلام علي طوال التاريخ كانوا يحذرون المؤمنين من عدوّهم الخفي وهم المنافقين .

فمن خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) يصف فيها المنافقين قال : ((أوصيكم عباد الله بتقوي الله وأحذركم أهل النفاق فإنّهم الضالّون المضلّون والزالّون المزلّون يتلونون ألواناً ويفتنون افتتاناً ويعمدونكم بكل عماد ويرصدونكم بكلّ مرصاد ، قلوبهم دوية وصفاحهم نقيّة .. إلي قوله (عليه السلام) : قد أعدّوا لكل حقّ باطلاً ولكل قائم مانلاً ولكل حي قاتلاً ولكل باب مفتاحاً ولكل ليل مصباحاً .. إلي قوله (عليه السلام) : فهم لئمة الشيطان وحمة النيران أولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون)) (1).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث طويل قال فيه : ((واعلموا أنّ المنكرين هم

ص: 243

1- نهج البلاغة : خ194 يصف فيها المنافقين .

المكذَّبون ، وأنَّ المكذَّبين هم المنافقون ، وأنَّ الله قال للمنافقين وقوله الحق : «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا(1)»(2).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((من لقي المؤمنين بوجهه ، وغابهم بوجهه أتى يوم القيامة وله لسانان من نار)) (3). وعن الإمام علي (عليه السلام) قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((يجي ء يوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في قفاه وآخر من قدامه يلتهبان ناراً حتى يلهبا جسده ، ثم يقال له : هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين وذا لسانين يُعرف بذلك يوم القيامة)) (4).

وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال : ((بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين ، يطري أخاه في الله شاهداً ، ويأكله غائباً ، إن أعطي حسده ، وإن ابتلي خذله)) (5).

وجاء في كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلي محمد بن أبي بكر : ((ولقد قال لي رسول الله صلي الله عليه وآله : إنني لا أخاف علي أمتي مؤمناً ولا مشركاً ؛ أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه . ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان ، عالم اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون)) (6).

ص : 244

1- سورة النساء (4) : الآية 145

2- الكافي : ج 8 ص 11 ح 1 .

3- الخصال : ج 1 ص 38 ح 19 .

4- الخصال : ج 1 ص 38 ح 16 .

5- الكافي : ج 2 ص 343 ح 2 .

6- نهج البلاغة : كتاب 27 إلي محمد بن أبي بكر حين ولّاه مصر .

إذن إن هذه الآية المباركة جاءت لتحذّر من اتّخاذ الكافرين أولياء وتنهى عن ذلك بشدّة إذ قال سبحانه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ(1)».

فلماذا يتّخذ البعض الكافر وليّاً له وصديقاً حميماً؟

هناك احتمالات عدّة:

- 1- إمّا الخوف منهم ، فيتزلف إليهم ويتقرّب منهم ويخدمهم ليأمن شرّهم .
 - 2- أو العاطفة تشدّه ، كحال المؤمنين في بداية الدعوة حيث كان لهم آباء وأخوة وأقارب وعشيرة ، ولكل هؤلاء تأثير علي عواطفه وإحساساته الاجتماعية فيتقرّب إليهم .
 - 3- أو الطمع والجشع والرغبة في الحصول علي بعض الفئات من موائد أولئك الكفّار ، أو الحصول علي بعض الأموال ، إذ أنّ الكثيرين يسقطون أمام بريق الدنيا فيبيعون أنفسهم وأهليهم وأمتهم بثمان بخس ، وشواهد هذا كثيرة .
- فالكفّار كانوا - ولا زالوا - من أصحاب الثروات إذ أنّ منهم من يمتلكون المال (و) القدرة (و) النفوذ (و) الخبرة (و) العلم (و) السلاح .. وما إلي ذلك من العناصر البرّاقة في العيون ، والمخيفة للقلوب الضعيفة .
- وبما أنّ الإنسان بطبعه يميل إلي (القوّة) فتراه يصادق ويجانب (مراكز القوي) .
- فيركن إليها ، ويطمئن لها حيث تمدّه ببعض عناصر القوّة أو هكذا يشعر علي الأقل ..

ص: 245

وقد سجّل التاريخ الكثير من الشواهد الدالّة علي أنّ المتزلّقين عادةً ما يخدمون أصحاب الضلال في تسلّطهم علي العباد ، ففي أحوال معاوية بن أبي سفيان ينقل أنّه كان يعتمد في كثير من شؤونه علي الروم وخاصة عندما كان يحارب مولانا أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) حيث كان له مستشار خاص منهم اسمه (سرجون) وكان يستشيره في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الأُمّة ، ويأخذ بمشورته طبعاً .

وكانت زوجته (ميسون) من النصاري ولم يعلم أنّها أسلمت أصلاً ، ولا داعي لأن تسلّم ، فلربما الأمير تنصّر من أجلها .

كما أنّ ولده يزيد قال عنه الإمام الحسين (عليه السلام) : ((يزيد رجل فاسق ، شارب الخمر ، قاتل النفس المحرّمة ، معلن بالفسق ومثلي لا يبايع بمثله ولكن نصبح وتصبحون)) (1).

كما أنّ ((سرجون)) وزير أبيه هو الذي أشار عليه بقتل سيد شباب أهل الجنّة وأبنائه واخوته وأصحابه الكرام في أرض كربلاء وعلي بطاح العراق الجريح (2).

وقد أشار عليه بحرق الكعبة وتدميرها وقتل عبدالله بن الزبير .

وأشار عليه بتدمير المدينة المنورة واستباحتها ثلاثة أيام ، وقتل البدرين كلهم ، وبالتالي أخذ البيعة من أهلها علي أنّهم عبيد له - والعياذ بالله - .

وصدقت تلك المرأة الجريئة حيث إنّها لمّا دخلت علي معاوية راحت تقرأ

ص: 246

1- اللهوف : ص 22 .

2- راجع الإرشاد : ج 2 ص 43 - 42 .

سورة النصر المباركة قائلة : بسم الله الرحمن الرحيم «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَخْرُجُونَ (فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا)» .

فاستوقفها معاوية قائلاً : ويملك لم تنزل هكذا ..

فقال له : كيف نزلت إذن ؟

فقال : يدخلون في دين الله أفواجاً .

فقال له : هذا في زمن الرسول صلي الله عليه وآله ، أما الآن وفي زمانك فإنهم يخرجون من دين الله .. اتق الله يامعاوية في عباده وبلاده .

ومن أمثال هؤلاء الذين يخرجون الناس من دين الله أفواجاً كان الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان يبحث عن رجل صالح يتقرب إلي الله بدمه ، فقتل الذي قتل إلي أن باء بإثم العبد الصالح سعيد بن جبير - رحمة الله عليه - .

وأمثال هؤلاء كثير في تاريخ الحكام السابقين للأمة الإسلامية .

وصدق الشاعر حيث قال :

قضاة زماننا أضحوا لصوصاً

عموماً في البرية لا قصوصاً

تصوّر أنّهم لو صافحونا

لاسلّوا من خواتمنا الفصوصاً

فكيف إذن نصادقهم ، أو نهادنهم ، أو نتولاهم ونحبهم ؟

هؤلاء لا يمكن أبداً ، ولا يصح عند العقلاء ، وأصحاب الغيرة والحمية من المؤمنين الذين يلتزمون بأوامر الله - عزّ وجلّ - أن يتخذونهم أولياء من دون الله والمؤمنين .

ومهما يكن فلا يجب علينا أن نجعل لله علينا حجة واضحة ليعذبنا من أجلها .

فالحجة البالغة لله - تعالي - يوم الحساب وليس لأحد حجة عليه أبداً ، ولكن

من يتولَّى الكافرين ، ويفضِّلهم علي المؤمنين في تعاملهم ، فسوف يعطي المبرر الواضح لكي يعذِّبه الله .
وعذابه يكون من جنس ونوع عذاب المنافقين - والعياذ بالله - الذين هم في الدرك الأسفل من النار .
نستجير بالله من غضبه ، ونلوذ برضاه ورضا رسوله صلي الله عليه وآله ورضا إختوتنا المؤمنين .

ص: 248

(28) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ» (سورة المائدة : 1)

في رحاب المفردات

أوفوا : وفي بعهده يفي وفاءً وأوفي إذا تمّ العهد ولم ينقض حفظه ، قال تعالى : «وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ (1)».

بالعقود : العقد هو الجَمْعُ بين أطراف الشيء ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء ثم يستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما فيقال عاقده وعقدته وتعاقدا وعقدت يمينه ، قال تعالى : «عَقَدْتُ أَيْمَانَكُمْ (2)».

بهيمة : البهيمة اسم لكل ذي أربع من دواب البر والبحر . وقال الزجاج : كل

ص: 249

1- سورة البقرة (2) : الآية 40) مفردات الراغب : ص 565 .

2- سورة النساء (4) : الآية 33) مفردات الراغب : ص 353 .

حي لا يميز فهو بهيمة ، وإنما سمّيت بهيمة ، لأنها أبهمت عن أن تميّز (1).

حُرْم : الحُرْم الحرام الممنوع منه إمّا بتسخير إلهي وإمّا بمنع قهري وإمّا بمنع من جهة العقل أو من جهة الشرع أو من جهة من يرتسم أمره ... ومنه قوله رجل حرام وحلال ومحلّ ومحرم (2).

شأن النزول

أخرج العلامة الهندي عبيدالله بسمل امرتسري في كتابه الكبير (أرجح المطالب في عدّ مناقب أسد الله الغالب علي بن أبي طالب) عن ابن عباس قال : ((ما أنزل الله «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا وعلي أميرها وشريفها ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلي الله عليه وآله وما ذكر علياً إلا بخير)) (3).

عبر من الآية

علي الرغم أنّ مثل هذا النداء ربما يكون شاملاً لجميع الناس إلا أنّ المؤمنين هم المستفيدون منه في الدنيا والآخرة ، لذلك كان هذا التخصيص لهم بالنداء الربّاني بأن ((أوفوا بالعقود)) فياتري ما هي العقود التي أمرنا الله - سبحانه - بأن نفي بها ؟

الجواب عليه : العقود هي كل التزام وميثاق بين جانبيين .. والجمع الوارد محلي

ص: 250

1- لسان العرب : مادّة بهم .

2- مفردات الراغب : ص 114 - 113 .

3- أرجح المطالب : ص 51 .

ب ((ال)) فيفيد العموم) لأنه غير مخصص أو مقيد بشيء - كما يقول الأصوليون - وبإطلاق هذا الجمع نجد أنه يشمل :

1 - العقد بين الخالق والمخلوق .. أي بين العبد وربّه ، فقد قال تعالي في الآية الكريمة : «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ(1)» وقال عزّ من قائل : «أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ(2)» وقال : «إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ(3)» و «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي(4)» ففي هذه الآيات الكريمة الواضحة وضوح الشمس تطرح مسألة العقد المبرم بين الخالق والمخلوق ..

حيث تكفل الخالق بإيجاد الرزق والقدرة والموت والحياة ، وتكفل المخلوق بالعبادة فقط وهذا عقد من العقود وعهد من أكرم العهود .

2 - المعاهدات الدولية) هي عقود بين الدول تتفق عليها الدول ضمن شرائط خاصة .

3 - عقود الناس بعضهم مع بعض . كعقد الزواج الذي لا- يحلّ إلا بالطلاق والتفريق ، وعقد البيع ، وعقد الإيجار وما إلي ذلك من المعاملات المتداولة .

علماء أنّ المراجع الكرام وأهل العلم والافتاء ، والفقهاء والأحكام استفادوا من إطلاق هذه الآية المباركة وعمومها قاعدة فقهية كلية وهي : أنّ جميع العقود الجديدة ممضاة شرعاً) إلا ما حرّمه الشارع(كعقد التأمين وما شابه ذلك في أيامنا هذه .

ص: 251

1- سورة يس (36) : الآية 60 .

2- سورة الأنبياء (21) : الآية 92 .

3- سورة الأعراف (7) : الآية 172 .

4- سورة الذاريات (51) : الآية 56 .

وفي الحقيقة إنّ هذه الآية المباركة وأمثالها في القرآن الكريم هي من الآيات الحضارية جدّاً، إذ أنّها تشمل وتستوعب الآلاف من المعاملات المتشابكة مالياً، وتعطي الحكم الشرعي الصحيح لها، فتراها متجدّدة مع الزمن .

وهذه السمة الأساسية لكتاب الله - القرآن الكريم - حيث إنّّه لا تخلقه الأزمان ، بل تجده يتجدّد مع كل شمس وكل قوم ، فيعطيهم ما يحتاجون إليه في مشاكلهم العالقة حلولاً جذرية صحيحة مئة في المئة ، وإلي هذا المعني يشير أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة له في نهج البلاغة قائلاً : ((ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحها ، وسراجاً لا يخبو توقّده ، وبحراً لا يدرك فقره ، ومنهاجاً لا يضلّ نهجه ، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه ، وفرقناً لا يخمد برهانه ، وتبياناً لا تهدم أركانه ، وشفاءً لا تخشي أسقامه ، وعزّاً لا تهزم أنصاره .. إلي أن يقول جعله الله ريتاً لعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاجّ لطرق الصلحاء ، ودواءً ليس بعده داء)) (1).

كما أنّ الآية تشير إلي جانب حاضري مهم جدّاً في الحياة الاجتماعية وهو ((الابقاء بالعقود ، والعهود)) ، لأنه إذا لم يكن هناك وفاء بالعقود ، فلا شك أنّ كل شيء يختل في المعاملات - سواء أكان علي مستوي الدول أم المجتمعات أم الأفراد - إذ أنّه لا يعود أحد يطمئن إلي الآخر .

فتقف المبادلات التجارية ، وينهار الاقتصاد ، وتتعطّل المعامل والمصانع والأسواق ، وغيرها .. إذا انعدمت الثقة .

فلا حضارة لمجتمع الحرامية والسراق ، ولا تقدّم لمجتمع يسوده النهب

ص: 252

والاستيلاء علي الأموال والأرزاق بالقوّة، ولا بناء إذا لم يطمئن العامل والبناء أنّهما سوف يتقاضيان أجراً مقابل جهودهما وعرقهما وتعبهما .. وكذا الحال علي الصعيد الاجتماعي، فالأسرة لا تستقيم، إذا لم يف كل من الرجل والمرأة بعقد النكاح، وضروراته ومبرراته والتزاماته المعروفة .

فضلاً عن بقية النواحي الحياتية الأخرى، فالوفاء فيها أُلزم؟

ماذا عن العقود العبادية؟

أمّا عن العقود العبادية بين العبد وربّه فهي تسمّى ((عقيدة)) لأنّها تعقد في القلب ولا تنفك إلا بالموت، فتأخذ بصاحبها إمّا إلي الجنان ورضا الرحمن إذا كان موفياً بعقوده، وعهوده مع ربّه ورسوله، أو تلقي به في حفرة من حفر النيران إذا خان العهود ونقض العقد مع الله ورسوله وأهل البيت عليهم السلام .

فالعقد مع الله أن يوحد الإنسان ولا يشرك به أحداً، وأن يعبد حَقَّ العبادة .

والعقد مع الرسول صلي الله عليه وآله هو إطاعته فيما أمر وسنّ من سنن، من الأحكام الشرعية المشتملة علي الحلال والحرام لأنّ ((حلال محمّد صلي الله عليه وآله حلال أبداً إلي يوم القيامة، وحرامه حرام إلي يوم القيامة))⁽¹⁾. ولا يخفي أنّ أهمّ شيء ينبغي الوفاء به مع الله ورسوله صلي الله عليه وآله هو الالتزام بما نصّ عليه القرآن الكريم وأكّد عليه رسوله العظيم وهي مسألة الإمامة والسير علي نهج أهل البيت عليهم السلام .

ففي الحديث عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالي: «وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا عَلَي الطَّرِيقَةِ لَأَسَدِّ قَتِينَاهُمْ مَاءً غَدَقًا»⁽²⁾ قال: ((يعني لو استقاموا علي ولاية علي بن أبي طالب أمير

ص: 253

1- الكافي: ج 1 ص 58 ح 19 .

2- سورة الجنّ (72): الآية 16 .

المؤمنين والأوصياء من ولده عليهم السلام وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم لأسقيناهم ماءً غدقاً، يقول: لاشربنا قلوبهم الإيمان، والطريقة هي الإيمان بولاية علي والأوصياء(1).

وعن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: «الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» فقال أبو عبد الله (عليه السلام): ((استقاموا علي الأئمة واحد بعد واحد «تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ»(2)).

والعقود بين الخلق هي ما تحدثنا عليه آنفاً بشيء من الإجمال .

التعبّد بأحكام الله تعالى

وبعد ذلك تنتقل الآية المباركة إلي الحديث عن بعض القضايا التعبّدية مثل :

1 - حلّية بهائم الأنعام المستفاد من قوله: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ(3)» أي أنّ الله - سبحانه - أحلّ لكم ذبح وأكل لحوم بعض البهائم المعروفة ((كالغنم، والبقرة، والإبل)) وهي نعم إلهية تفضّل عليكم بها من أجل استخدامها في الأعمال المجهددة والتقوّت بها عند الجوع وألمه .

فهذه الرخصة هي من أعظم النعم الإلهية علي الخلق فعلاً، ولولا ذلك لكانت المعيشة البشرية في ضنك شديد، إذ أنّ القيمة الغذائية للحوم عالية جداً، وربما لا

ص: 254

1- الكافي : ج 1 ص 220 ح 1 .

2- سورة فصّلت (41) : الآية (30) الكافي : ج 1 ص 220 ح 2 .

3- سورة المائدة (5) : الآية 1 .

يستغني الجسم عن بعضها .

2 - بعد إحلال بهيمة الأنعام جاء استثناء لبعض الحيوانات حيث قال تعالى : «إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ (1)» أي نصّ القرآن الكريم علي تحريمه كالقردة والخنزير والسبع والكلاب والجوارح .. وغيرها ، فهذه كلّها محرّمة قطعاً .

وكذلك هناك بعض المحرّمات في الذبيحة نفسها أشار إليها القرآن في قوله سبحانه : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ» وكذلك المنخقة والنطيحة والمرتدية ، وسائر المحرّمات السبعة في الذبائح الموضّحة في كتب الفقه ، فعن عذافر قال : قلت لأبي جعفر (عليه السلام) لِمَ حَرَّمَ اللَّهُ الميّتة والدم ولحم الخنزير والخمر ؟

فقال : ((إنّ الله تبارك وتعالى لم يحرم ذلك علي عباده ، وأحلّ لهم ما سوي ذلك ، من رغبة فيما أحلّ لهم ، ولا زهد فيما حرّم عليهم ، ولكنّه عزّوجلّ خلق الخلق فعلم ما تقوم به أبدانهم وما يصلحهم فأحلّه لهم وأباحه ، وعلم ما يضرّهم فنهاهم عنه ، ثمّ أحلّه للمضطر في الوقت الذي لا يقوم بدنه إلّا به ، فأحلّه له بقدر البلغة لا غير ذلك . ثم قال (عليه السلام) : أمّا الميّتة ، فإنه لم ينل أحد منها إلّا ضعف بدنه ، وأوهنت قوّته ، وانقطع نسله ، ولا يموت آكل الميّتة إلّا فجأة .

وأما الدم ، فإنّه يورث أكله الماء الأصفر ، ويورث الكلب (2) وقساوة القلب ، وقلة الرأفة والرحمة ، ثم لا يؤمن علي حميمه ، ولا يؤمن علي من صحبه . وأما لحم الخنزير ، فإنّ الله تبارك وتعالى مسح قوماً في صور شتي مثل الخنزير والقرد والذبّ ، ثم نهى عن أكل مثله ، لكيلا ينتفع بها ولا يستخفّ بعقوبتها . وأما الخمر ، فإنّه حرّمها

ص: 255

1- سورة المائدة (5) : الآية 1 .

2- الكلب : مرض شبيه بالجنون .

ومن جانب آخر فإنّ هناك بعض الموارد التي تحرم فيها الصيد والذبح أشار إليها قوله تعالى : «غَيْرَ مُجَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ (2)» أي عندما تكونوا في الإحرام فلا يجوز لكم الصيد أو الذبح أو أي شيء آخر من هذا القبيل .

وهناك موارد كثيرة جداً ومشعّبة جداً في هذا المجال والقصة المشهورة عن الإمام محمد الجواد(عليه السلام) في مجلس المأمون خير شاهد علي ذلك وهي :

لَمَّا أَرَادَ الْمَأْمُونُ أَنْ يَزُوجَ الْإِمَامَ الْجَوَادَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ابْنَتَهُ أُمَّ الْفَضْلِ ، اسْتَنْكَرَ الْعَبَّاسِيُّونَ مِنْهُ ذَلِكَ أَشَدَّ اسْتِنْكَارٍ ، وَاعْتَرَضُوا عَلَيْهِ اعْتِرَاضاً شَدِيداً ، خَوْفاً مِنْ انْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَى بَنِي فَاطِمَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

فاجتمعوا إليه وناشدوه في أن يصرف النظر عن هذا الأمر ، فأصرّ المأمون علي ذلك فقالوا له : إنّ هذا الفتي (حيث كان الإمام في ريعان الفتوة والشباب) وإن راقك منه هدية ، فإنّه صبي لا معرفة له ولا فقه ، فأمهله ليتأدّب ثم اصنع ما تراه بعد ذلك .

فقال لهم : ويحكم إنّي أعرف بهذا الفتي منكم ، إنّ أهل هذا البيت علمهم من اللّٰه تعالى لم يزل أبأوه أغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة ، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يشبّ لكم به ذلك .

فقالوا : رضينا بذلك ، فخلّ بيننا وبينه لننصب من يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة ، فإن أصاب لم يكن لنا اعتراض ، وظهر للنخاسة والعمامة سديد رأي أمير المؤمنين فيه ، أما إنّ عجز عن ذلك فقد كفينا الخطب منه .. فرضي المأمون

ص: 256

1- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص346 - 345 ح4215 .

2- سورة المائدة (5) : الآية 1 .

بذلك .

فاجتمع رأيهم علي يحيي بن أكثم قاضي قضاة الديار الإسلامية في ذلك العهد ، علي أن يسأل الإمام الجواد(عليه السلام) عن المسائل الغامضة في الفقه الإسلامي ، وبالفعل لما حان الموعد واجتمع الناس ، وجاء الإمام الجواد(عليه السلام) وحضر ابن أكثم ، وجلس يحيي بين يديه والمأمون بجانب الإمام(عليه السلام) يهيمن علي المجلس ، التفت ابن أكثم إلي المأمون وقال :

يأذن لي أمير المؤمنين أن أسأل أبا جعفر عن مسألة؟ فقال المأمون : استأذنه في ذلك .. فأقبل عليه يحيي قائلاً : جعلت فداك ، تأذن لي في المسألة؟

فقال أبو جعفر(عليه السلام) : سئل ما شئت .

قال يحيي : ما تقول - جعلت فداك - في محرم قتل صيداً؟

فقال الإمام أبو جعفر(عليه السلام) : قتله في حل أو حرم؟

عالمًا كان المحرم أو جاهلاً؟ - قتله عمدًا أو خطأ - حرًا كان المحرم أم عبدًا؟

صغيراً كان أو كبيراً؟

مبتدأً بالقتل أو معيداً؟

من ذوات الطير كان الصيد أو من غيرها؟

من صغار الصيد أم من كبارها؟

مصرراً علي ما فعل أو نادماً؟

في الليل كان قتل الصيد أو في النهار؟

محرمًا كان بالعمرة إذ قتله ، أم بالحجّ كان محرمًا؟

فتحير يحيي بن أكثم وبان في وجهه العجز والانتقطاع ، ولجّ حتي عرف الحاضرون أمره .

ص: 257

فقال المأمون : الحمد لله علي هذه النعمة والتوفيق لي في الرأي . ثم توجه إلي أهل بيته فقال لهم : أعرفتم الآن ما كنتم تنكرونه ؟

ثم أقبل علي أبي جعفر (عليه السلام) وقال له : أتخطب يا أبا جعفر ؟ فقال : نعم ، فقال له المأمون : اخطب لنفسك قد رضيت لنفسي وأنا مزوجك ((أم الفضل)) ابنتي .

فقام الإمام الجواد (عليه السلام) وخطب من المأمون ابنته فزوجه إيها بقصة مشهورة في كتب التاريخ (1).

ص: 258

1- الإرشاد : ج 2 ص 284 - 283 .

إشارة

(29) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَيْدِيَّ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ»

(سورة المائدة : 2)

في رحاب المفردات

شعائر : مشاعر الحجّ معالمه الظاهرة للحواس والواحد مشعر ويقال شعائر

ص: 259

الحجّ والواحد شعيرة ، قال تعالى : «ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ (1)».

آمين : الأم القصد المستقيم وهو التوجه نحو مقصود وعلي ذلك «آمين البيت الحرام (2)».

يجرمتمكم : أجرم صار ذا جرم نحو أثمر وأتمر وألبن ، واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه ولا يكاد يقال في عامة كلامهم للكيس المحمود ومصدره جرم (3).

الشنآن : هو شنتته تقدّرتة بغضاً له . ومنه اشتقّ أزد شنوءة وقوله : ((شناً قوم)) أي بغضهم وقرئ شنآن فمن خفف أراد بغيض قوم ومن ثقل جعله مصدراً ومنه «إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (4)».

شأن النزول

قال الإمام الباقر (عليه السلام) : نزلت هذه الآية في رجل من بني ربيعة يقال له : الحطم . وقال السدي : أقبل الحطم بن هندي البكري ، حتى أتى النبي صلي الله عليه وآله وحده ، وخلف خيله خارج المدينة .

فقال : إلي ما تدعو ؟

ص : 260

- 1- سورة الحجّ (22) : الآية (269) مفردات الراغب : ص 269 .
- 2- سورة المائدة (5) : الآية (2) مفردات الراغب : ص 20 .
- 3- مفردات الراغب : ص 89 .
- 4- سورة الكوثر (108) : الآية (3) مفردات الراغب : ص 274 .

وقد كان النبي صلي الله عليه وآله قال لأصحابه : يدخل عليكم اليوم رجل من بني ربيعة يتكلم بلسان شيطان .

فأجابه النبي صلي الله عليه وآله فقال : انظرني لعلي أسلم ، ولي من أشاوره .

فخرج من عنده فقال رسول الله صلي الله عليه وآله : لقد دخل بوجه كافر ، وخرج بعقب غادر .

فمرّ بسرح من سروح المدينة ، فساقه وانطلق به ، وهو يرتجز ويقول :

قد لَقَّها الليل بسوَّاق حُطم

ليس براعي إبلٍ ولا غنم

ثمّ أقبل من عام قابل حاجّاً ، قد قدّم هدياً ، فأراد رسول الله صلي الله عليه وآله أن يبعث إليه ، فنزلت هذه الآية «وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامِ(1)».

عبر من الآية

الله .. الله .. ما أجمل هذا النداء ، وأعظم هذا الكتاب المبين .

ففي كل آية من آياته المباركة تفتح للإنسان أبواب واسعة من المحال أن يجدها في أي كتاب آخر ...

نعم ، فليس القرآن كتاب قصص وحكايات كما يذهب البعض ، ولا هو كتاب ألغاز وطلاسم كما يتخيّل الكثير ممّن لا علم لهم ...

وليس هو كتاب فقه وأحكام وحسب ، بل هو كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ ، والهادي الذي لا يضلّ ،

ص: 261

والمحدّث الذي لا يكذب . وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان : زيادة في هدي ، أو نقصان من عمي . واعلموا أنّه ليس علي أحد بعد القرآن فاقه ، ولا لأحد قبل القرآن من غني ، فاستشفوه من أدوائكم ، واستعينوا به علي لأوائكم فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء : وهو الكفر والنفاق ، والغبي والضلال ، فسألوا الله به ، وتوجّهوا إليه بحبه ، ولا- تسألوا به خلقه ، إنّ ما توجّه العباد إلي الله تعالى بمثله . واعلموا أنّه شافع مشفّع ، وقائل (مأحل) مصدّق ، وأنّه من شفّع له القرآن يوم القيامة شُفّع فيه ، ومن مَحَلّ به القرآن يوم القيامة صُدّق عليه ، فإنّه ينادي منادٍ يوم القيامة : ((ألا إنّ كل حارث مبتلي في حرثه وعاقبة عمله ، غير حرّثة القرآن)) فكونوا من حرثته وأتباعه ، واستدلّوه علي ربّكم ، واستصحوه علي أنفسكم ، واتّهموا عليه آراءكم ، واستغشوا فيه أهواءكم)) (1).

أحيوا شعائر الله تعالى

ومن الشواهد التي تدلّ علي عظمة القرآن هي هذه الآية المليئة بالدروس والعبر ... فمن الدروس المفيدة التي يمكن استفادتها من هذه الآية الكريمة هو : أنّ الأمور المرتبطة به تعالى أو كل ما يدلّ ويشير إلي الله سبحانه ينبغي احيائه والاهتمام به بشكل بالغ خاصّة الإعلام التي تكون ظاهرة وصريحة في دلالتها علي عظمة دين الإسلام الحنيف .

فقد ذكر الشيخ الطبرسي ثمانية معانٍ للشعائر إلّا أنّ المستفاد من جميعها هو أنّ الشعائر : هي الأمر المرتبط بشيء كأنّه من علانته ومزاياه .. فشعائر الحجّ هي الأمور

ص: 262

المربوطة به .. وشعائر الله هي الأمور المرتبطة بالله ولعل اشتقاقها من الشعر ، بمعنى الشعور كأنه يشعر بالشيء ، أو من الشعر بمعنى ما ينبت من الإنسان .

كأن الشعيرة تلازم الشيء ، تلازم الشعر أو تلازم الشعار - الذي هو الثوب الذي علي الجسد مقابل الدثار الذي هو الثوب الفوقاني - لبدن الإنسان .

وحيث إن الشعائر في الآية مطلقة ، فهي تشمل كل شيء كان أو أصبح من الأمور المرتبطة بالله ، مما لم ينع عنه .. فمعالم الحج من الشعائر ، كما أن تشييد القباب علي أضرحة الأئمة الطاهرين عليهم السلام يعد من الشعائر .

والمراد من عدم إحلال الشعائر ، هو خرق حرمة الله .

حفظ الشعائر الحسينية

ولا يخفي أن الشعائر الحسينية هي من أعظم الشعائر المرشدة إلي الله والحفاظة لدينه القويم ، فبناء الحسينيات ، وإقامة مجالس العزاء ، واللطم والضرب علي الرؤوس والصدور .. وما شابه من الأمور والقضايا التي تذكر الخلق بيوم استشهاد سيد شباب أهل الجنة مع ثلثة من أقربائه وأصحابه البررة الكرام هي من أقدس وأعظم أنواع تعظيم شعائر الله ، فلولا صمود الحسين وشهادته المأساوية لم يبق من الإسلام إلا اسمه .

لذلك - ومن هذا الباب - فإن أهل البيت عليهم السلام كثيراً ما كانوا يؤكدون علي إحياء ذكر الحسين (عليه السلام) وذلك بشتي الطرق والوسائل ، فهذا الإمام الرضا (عليه السلام) يدعو ابن شبيب إلي ذكر الإمام الحسين وإحياء شعائره قائلاً : ((يا ابن شبيب إن بكيت علي الحسين (عليه السلام) حتي تصير دموعك علي خديك غفر الله لك كل ذنب أذنبته ، صغيراً

كان أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً . يابن شبيب ، إن سرّك أن تسكن العُرف المبنية في الجنة مع النبي وآله صلوات الله عليهم ، فالعن قتلة الحسين (عليه السلام) . يابن شبيب ، إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين (عليه السلام) فقل متي ما ذكرته : ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً . يابن شبيب ، إن سرّك أن تكون معنا في الدرجات العُلى من الجنان فاحزن لحزننا ، وافرح لفرحنا ، وعليك بولايتنا ، فلو أن رجلاً تولّى حجراً لحشره الله معه يوم القيامة)) (1).

وعن أبي عمارة المنشد ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قال لي : ((ياأبا عمارة أنشدني في الحسين بن علي (عليه السلام) . قال : فأشدته ، فبكي ثم أنشدته فبكي ، قال : فوالله ما زلت أنشده ويبكي حتي سمعت البكاء من الدار . قال : فقال لي : ياأبا عمار ، من أنشد في الحسين بن علي (عليه السلام) فأبكي خمسين فله الجنة ، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكي ثلاثين فله الجنة ، ومن أنشد في الحسين فأبكي عشرين فله الجنة ، ومن أنشد في الحسين فأبكي عشرة فله الجنة ، ومن أنشد في الحسين فأبكي واحداً فله الجنة ، ومن أنشد في الحسين فبكي فله الجنة ، ومن أنشد في الحسين فتباكي فله الجنة)) (2).

لذا فمن المفترض علي المسلمين قاطبة أن يحيوا شعائر الحسين (عليه السلام) بشتي الطرق ولا يتوانوا عنها لحظة إذ أنّ في ذلك ضياع عقيدتهم الإسلامية .

ص: 264

1- أمالي الصدوق : المجلس 27 ح 5 .

2- عيون أخبار الرضا : ج 1 ص 300 - 299 ح 58 .

إنّ الشعائر موضوع ، وحيث إنّ الشارع المقدّس لم يحدّده تحديداً معيّناً ، أو يقيّده بإطار محدّد ، فيقتضي ذلك أن نرجع فيه إليّ العرف ، أي أنّه كلّما صدق عليه (شعائر الله) عرفاً فهو داخل في هذا الموضوع حتماً .

وهذا يعني أنّ كل موضوع لم يتدخّل فيه الشارع بالزيادة والنقصان ، ولم يحدّده أو يقيّده ، فهو متروك إليّ العرف مثل ((الماء مطهّر)) فما معني الماء ؟ وهل المياه الكبرى ماء مطهّر ؟ ففي أشباه ذلك يرجع فيها إليّ العرف العام .

وعليه فإنّ مناسك الحجّ تعتبر من شعائر الله تعالى .. وكذلك الحسينيات والمساجد والقباب والأضرحة المبنية عليّ قبور الأئمّة المعصومين عليهم السلام بلا فرق بين قديمها وحديثها ، كما أنّ تعظيم أضرحة أولياء الله وأئمّة المسلمين واجبة كذلك فإنّ إعادة بناء ما هدم منها خلال الأعوام السابقة لا سيّما في البقيع الفرقد الذي يعدّ روضة من رياض الجنّة ، حيث إنّ فيها قبوراً لرجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة .

الملفت للانتباه أنّ الآية المباركة - في الأخير تدعو المؤمنين إليّ مسألة في غاية الأهمية وهو - قوله تعالى : «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ (1)» .

أي لا يحملنكم بغض القوم الكافرين أو المشركين أو الأعداء كافّة ، وكراهيتهم وحقدهم ، عليّ أن يجعلوكم تنتهكوا شعائر الله ، وتعتدوا عليّ حدوده التي حدّدها لكم فتنقلبوا خاسرين .

ومع الأسف الشديد فإنّنا اليوم جعلنا شنان الأقسام كلّها والأعداء من أكبر

ص: 265

الأسباب لضرب الشعائر الإلهية فراح البعض يحطمونها شعيرة تلو شعيرة حسب الطلب والعياذ بالله .

ومن جانب آخر أخذت الآية المباركة في نهايتها تؤكد علي التعاون علي الخيرات (البر والتقوي) وعدم التعاون علي الإثم والعدوان لأنّ بالأولي حياة المجتمع وسعادة الإنسان وفي الثانية فسادهما معاً .

ص: 266

إشارة

(30) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَدًا طَيِّبًا فَأَمَسَ جُوهًا بِيَدَيْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُنِيبَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (سورة المائدة: 6)

في رحاب المفردات

جنباً: الجنب قال الراغب في مفرداته «وإن كنتم جنباً فاطهروا(1)» أي إن

ص: 267

أصابتكم الجنابة وذلك بإنزال الماء أو بالتقاء الختانين . وقد جُنِبَ وأجنب واجتنب وتجنّب وسمّيت الجنابة بذلك لكونها سبباً لتجنّب الصلاة في حكم الشرعي(1).

شأن النزول

أخرج العلامة الحنفي الشيخ محمّد الصبّان في إسعاف الراغبين عن الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ما أنزل الله «يا أيّها الذّين آمنوا» إلّا وعلي أميرها وشريفها ولقد عاتب الله أصحاب محمّد صلي الله عليه وآله في غير مكان وما ذكر علياً إلّا بخير(2).

عبر من الآية

تتضمّن هذه الآية أمراً عبادياً بحتاً ، وهو مقدّمة الصلاة . علماً أنّ توجّه النداء إلي المؤمنين بالخصوص إنّما هو لفائدة خاصّة بهم حيث إنّ الفائدة لهم ، فإنّ الوضوء هو من الأمور المهمّة التي كثر الجدل حولها ، واختلفت طوائف الأمة بها بين غاسل وماسح .

لذلك كان علي المؤمنين أن يتّخذوا ما جاء في كتاب الله ، ولا يؤلّونه أو يجتهدون عليه ، أو يفضلون عليه سنّة أحد ، لأنّ المشرّع هو الله وليس فلاناً ولا فلاناً من الناس ، فالعبادة لله وكما يريد - تعالي - لا كما يريد الشخص ذاته أو الخليفة

ص: 268

1- مفردات الراغب : ص 98 .

2- إسعاف الراغبين (بهامش نور الأبصار) : ص 161 .

لا أبدأ فالمؤمنون ، يؤمنون بالله ، ويخصّونه بالطاعة ولا يشركون بعبادة ربّهم أحداً .

أمّا غيرهم من الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كلّ ناعق فتأخذهم الأسماء وتبهرهم الألقاب ، ويخدعهم أصحاب العمائم واللحي الطويلة ، فيديرونهم كيفما يشاؤون دون أي تعقّل وتفكير ، فهم ليسوا بحاجة لذلك ما دام لديهم من يفكّر عنهم ، ويعطيهم الآراء - فاسدة أم صالحة - فأعطوا إلي عقولهم وقلوبهم وضمائرهم إجازة طويلة ربما استغرقت عمر الإنسان كلّه حتي حين تأتيه سكرة الموت .

آنذاك وبعد فوات الأوان تجده يتصرّع قائلاً : ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت .

ولكن هيهات فقد بعدت الشقة ،

الملفت للانتباه أنّه مع وضوح الآية المباركة وصراحتها ولكن للأسف الشديد فإنّ الكثيرين من هذه الأمة تغافلوا عنها وأخذوا يهاجمون سائر المذاهب الأخرى دون أن يتأمّلوا في مواردها المهمّة .

فموارد الآية أربعة أعضاء هي :

1 - اثنين مغسولين - الوجه واليدين إلي المرافق - .

2 - واثنين ممسوحين - الرأس والرجلين إلي الكعبين - .

فياتري من أين جاءت بقية الاجتهادات ؟ فإن كانت من المندوبات والمستحبات ، نقول نعم ولكن بشرط أن نفعل الواجب أولاً ونتقيّد به ، وفيما بعد نجتهد ما نشاء ، لا أن نجتهد علي كتاب الله الكريم .

وإن كانت من الواجبات - كما يتوهم الكثير من الطوائف الإسلامية - فالعمل

باطل بلا أدني شك في ذلك لأنه : لا اجتهاد في مورد النص . وهنا النص قرآني فلا مجال للتأويل أبداً .

ومما يضحك الثكلي فعلاً في هذا المجال ، هو أنك لا تقرأ هذه الآية المباركة علي أحد من العوام إلا ويقول لك : إنَّ عبارة ((وأرجلكم)) معطوفة علي ((أيديكم إلي المرافق)) والمعطوف علي المغسول مغسول مثله .

يقول لك ذلك : وهو لا يعلم من اللغة العربية شيئاً ، ولا يميّز الفاعل من المفعول ، ولا الاسم من الفعل ، ولا كليهما من الحرف ، وما معني العطف وما هي حروف العطف ، ومتي يعطف البعيد علي القريب ؟

فهو لا يعرف شيئاً ، وربما لا يعرف حتي القراءة والكتابة ، فمن أين حفظ هذا العطف لست أدري ؟

ومع هذا العطف الواضح إلا أن البعض عندما تناقشه في ذلك تجده يأوّل ذلك ويجادل ويناقش في أوضح الواضحات .

حوار حول الحقيقة

ففي أحد الأيام كنت أتحدّث عن هذه الآية المباركة ، فقال لي أحدهم ، يا أخي إنَّ الآية فيها حرف عطف .

فقلت له : أي عطف ؟ وأي نوع من العطف ؟

فقال : الواو حرف عطف تعطف الأرجل علي اليدين ؟

فقلت : لماذا لا تعطفها علي الرأس ، فالعطف علي الأقرب أوجب ، والواو تفيد الترتيب إلي حدّ ما .. أليس كذلك ؟

فقال : أنا لا أعرف .

فقلت : هل تجيد القراءة ؟ فقال : لا كثيراً .

فقلت : هل تعرف شيئاً من قواعد اللغة العربية ؟ فقال : ولا شيء أبداً .

فقلت له : يارجل .. لا تعرف شيئاً في اللغة العربية ، وتميّز بين عطف وعطف ، وتأتي لتتحدث عن اللغة العربية وتفسّر القرآن علي هوك .

فقال : ياأخي أنا لا أعرف شيئاً ولكن هكذا علّمنا الشيخ .

فقلت له : لم يستطع الشيخ أن يعلمكم الصحيح فأفسد عليكم دينكم . ولكن ياأخي إنّ الله سبحانه لم ينزل كتابه ويجعل فيه أُلغازاً ونكات إعرابية - وفي مثل هذا الموضوع بالذات حيث يضيع الأمة في أهم مسألة وهي الوضوء المقدّسة للصلاة الواجبة - لا تضيع الأمة .

فهل إنّّه تعالي بحاجة إلي أن يفعل ذلك والحال أنّ الدين دين يسر ، والقرآن كتاب سهل يفهمه كل أحد إذا أخذه بسهولة وعذوبة كما يأخذ ماء الغدير ، أو يشتمّ عبق النسيم ؟

فاللّه سبحانه لو أراد الغسل للرجلين لقدمه وقال «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَازِلْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» فهل هذا السياق خاطئ أو ينقصه شيء من الدقّة والبلاغة ؟

أم إنّّه سهل التناول ولا يحتاج إلي شرح من أحد ؟

وتابعت قائلاً : ياأخي إنّ الله كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، فأوضح تمام الوضوح أنّ أعضاء الوضوء أربعة - إثنين مغسولين ، وإثنين ممسوحين - وبيّن في سياق الآية الكريمة عند الحديث علي التيمّم أنّ المغسولين مسحهما والممسوحين عفاهما .

لأنّ الأُخف بدرجة استعملها هنا ، فالأخف من الغسل هو المسح ، والأخف

من المسح الترك والإعفاء وانتهت القضية ، فلست بحاجة إلي أن توقع نفسك في مطبات ومتاهات لا تستطيع الخروج منها واللّه سبحانه يقول في الآية المباركة نفسها : « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ (1) » .

وأنت بكلامك هذا تقع في حرج عظيم ، أليس كذلك ؟

فقال : واللّه صحيح يا أخي .. ولكن لماذا قال لنا الشيخ هكذا ؟

فقلت : يا أخي لأنّ الشيخ يأبي أن يقول الحقيقة - إذا كان يعرفها - لأنّها تمسّ أحد رؤوس الصحابة الأجلاء عنده ، ويعتقد إذا مسّ هذا الصحابي فلربما خرج من الدين الإسلامي نهائياً .

أمّا إذا غيّر واجباً إلهياً ، أو مقدّمة لواجب عظيم كالصلاة ، ويجعل الناس في متاهات طويلة لا أوّل لها ولا آخر فهذا غير مهمّ .

فقال : ومن هذا الصحابي الذي ذكرت وما علاقته ؟

فقلت : هو عثمان بن عفان لأنّه هو أوّل من غيّر الوضوء من المسح إليّ الغسل ، وذلك بعد ستّة أعوام من خلافته .

تحريف وضوء النبي صلي الله عليه وآله

أمّا كيف حصل ذلك التحريف فقد كان كالتالي :

1 - لا شك أنّ وضوء النبي صلي الله عليه وآله يوافق كتاب اللّه - سبحانه - بالحرف دون زيادة أو نقصان وكذلك بالنسبة لوضوء أهل البيت عليهم السلام وهو الذي جاء علي لسان سيدنا علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

فقد نقل الشيخ نجم الدين العسكري حديثاً أخرجه أحمد في مسنده عن أبي

ص: 272

مطر قال :

بينما نحن جلوس مع أمير المؤمنين علي في المسجد ، علي باب الرحمة ، جاء رجل فقال : أرني وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان الوقت عند الزوال - فدعا قنبراً فقال : اتنني بكوز من الماء ...

فغسل كفيه ووجهه ، وغسل ذراعيه ، ومسح رأسه واحدة ، ورجليه إلي الكعبين .. ثم قال : أين السائل عن وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله كذا كان وضوء نبي الله (1).

وعن حماد بن عثمان قال : كنت قاعداً عند أبي عبد الله (عليه السلام) فدعا بماء .. فملاً به كفه فعم به وجهه .. ثم ملاً كفه فعم به يده اليمنى .. ثم ملاً كفه فعم به يده اليسرى .. ثم مسح علي رأسه ورجليه ، وقال : هذا وضوء من لم يحدث حدثاً يعني به التعدي في الوضوء (2).

نعم ، فقد كان الوضوء علي عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بهذه الكيفية بل وحتى في عهد الخليفة الأول والثاني وخلال ست سنوات من خلافة عثمان بن عفان الذي غير الكثير من سياسات وسنن الشيخين في النصف الثاني من إمارته وحتى ثار الناس ضده وهذا ما يمكن الإطلاع عليه من خلال كتاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله : إلي بعضهم البعض ، حيث قالوا :

((أن أقدموا ، فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد ، كثر الناس علي عثمان ، ونالوا منه أقبح ما ينال من أحد ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرون ويسمعون وليس فيهم أحد ينهي ولا يذب)) (3).

ص: 273

1- مسند أحمد : ج 1 ص 158 - 108 .

2- الكافي : ج 3 ص 27 ح 8 .

3- تاريخ الطبري : ج 4 ص 336 .

وعلي آية حال فإن أخبار المسح صدرت حتّي من الخليفة عثمان الذي ابتدع ستّة الغسل خلال السنوات الست الأوائل من خلافته . أمّا أخبار الغسل فإنّها صدرت في الأعوام الست الأخيرة التي رماه الأصحاب فيها بالإحداث والإبداع(1).

فعن ابن دارة قال : دخلت عليه - يعني عثمان - منزله فسمعني وأنا أتمضمض ، فقال : يا محمد .. قلت : لبيك .

قال : ألا أحدثك عن رسول الله صلي الله عليه وآله . قلت : بلي .

قال : رأيت رسول الله صلي الله عليه وآله أتى بماء وهو عند المقاعد ، فمضمض ثلاثاً ، ونثر ثلاثاً ، وغسل وجهه ثلاثاً ، وذراعيه ثلاث ثلاثاً ، ومسح رأسه ثلاثاً ، وغسل قدميه ثلاثاً ثلاثاً .. ثم قال : هكذا وضوء رسول الله صلي الله عليه وآله أحببت أن أرىكموه(2).

وعن حمران قال : دعا عثمان بماء فتوضّأ . ثم ضحك .

فقال : ألا تسألوني ممّن أضحك ؟

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، ما أضحكك ؟

قال : رأيت رسول الله صلي الله عليه وآله توضّأ كما توضّأت ، فمضمض ، واستنشق ، وغسل وجهه ثلاثاً ، ويديه ثلاثاً ، ومسح برأسه ، وطهّر قدميه(3).

وهناك أكثر من حديث عن عثمان بهذا الخصوص وكلّها تؤكّد علي غسل القدمين ثلاثاً - خلافاً لكتاب الله وستّة الرسول صلي الله عليه وآله وسيرة الشيخين .

الملفت للانتباه أنّ البعض أخذ يوجّه هذا الغسل قائلاً : لكي تطهر الأعضاء المغسولة وقد غاب عنه أنّ من شرائط الوضوء طهارتها قبل الشروع .

ص: 274

1- وضوء النبي : ص 69 .

2- سنن الدارقطني : ج 1 ص 91 ح 300 .

3- كنز العمال : ج 9 ص 436 .

أما الإحتجاج بأن الصحابة لهم منزلتهم الخاصّة فيرد عليه بأنّ حديث المسح أشار إليه القرآن الكريم ، وصرّح به كل من رسوله ، وأمير المؤمنين(عليه السلام) ، وكبار الصحابة والتابعين وحديث الغسل إنفرد به كل من عثمان بن عفان ، وعبدالله بن عمر ابن العاص ، وعبدالله بن زيد بن عاصم ، والرّبيع بنت معوذ .

وبالنتيجة فإنّ كل الدلائل والمؤشّرات في نزاع الوضوء تقودنا إلي أنّ المخالفين لاجتهاد عثمان هم من أعظم الصحابة وفقهاء الإسلام ، وليس فيهم من هو أقل من الخليفة الثالث من حيث الفقه والعلم ، والحرص علي تقويم المجتمع والمحافظة علي معالم الدين الإسلامي من أيدي التحريف والتخليط واللبس .. كما أنّهم ليسوا من عمّة الناس المكثرين من الأغلط ، وغير المتفكّحين في الدين ، وهم ليسوا من متأخري الإسلام من الصحابة الذين لم يعيشوا طويلاً مع النبي صلي الله عليه وآله بل العكس هو الصحيح .

إذ أنّهم علي قدر من الجلالة والعظمة ، يجلّون معها عن أن يحتاجوا إلي من يقومهم ويشرف علي ما رأوه ورووه عن النبي صلي الله عليه وآله(1).

بحث في مفردات الآية

وهناك نقطة أخرى توهمها المخالفون لسنة أهل البيت عليهم السلام وسيرة شيعتهم المباركة ، حيث إنّهم يرون الغسل(إلي) المرافق ، ونحن الشيعة نغسل ((من)) المرافق إلي الأصابع ، فظنّوا أنّنا نخالف القرآن الحكيم .

وللجواب عليه نقول : إنّ حرف الجرّ ((إلي)) يأتي علي وجهين :

1 - أن تكون لبيان حدّ الغسل : أي بين أسلوب الغسل وشرّعه ونهايته ..

ص: 275

1- لمزيد من الإطلاع راجع كتاب وضوء النبي - صلي الله عليه وآله - للشهرستاني : ص 47 .

كأن يقول : سر إلي البصرة .

أي أنّ مدينة البصرة يجب أن تكون منتهي مسيرك .

2- وقد تكون لبيان (حدّ المغسول).

أي تبين المنطقة التي يجب أن تغسل (والآية أتت بهذا المورد).

فعندما نقول : اغسل يديك ، قد يتوهم الإنسان أنّ المراد بذلك (إلي الزند) أو اليد كلّها حتي .

فتقول الآية : لا .. بل حدّ المغسول هو المرفق فقط .

ولبيان القضية نمثّل بمثال من أرض الواقع ، فلو قلت للدهان أو الصبّاغ : ادهن الغرفة إلي متر .. فهل معني ذلك أن يبدأ من الأسفل إلي الأعلى ؟

أو أنّ مرادك إنّ هذه المنطقة يجب أن تدهن أمّا ما فوقها فلا يدهن .. أليس كذلك ؟

أمّا كيفية الشروع بالدهان والصبغ فلم نتطرق إليها في أثناء الكلام أبداً .

وكذلك إذا قالت السيّدة للخادمة : اغسلي رجل الطفلة إلي ركبتها .. فهل يستفاد من هذا الكلام أن تضع الطفلة تحت الماء وتغسل قدميها وتصعد إلي الركبة ؟

فهذا لا يمكن وغير منطقي أبداً .

والآية المباركة كذلك ، فهي لا تذهب إلي حيث أرادوا في اجتهاداتهم - المخالفة لها - بل هي كما بيّنها رسول الله صلي الله عليه وآله وآله الأطهار عليهم السلام .

فلا يعلم تأويل وتفسير القرآن إلّا عدله فأين تذهبون ؟

ص: 276

(31) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَيَّ أَلَّا تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (سورة المائدة : 8)

في رحاب المفردات

قَوَّامِينَ : القيام علي أضرب : قيام بالشخص إما بتسخير أو اختيار ، وقيام للشيء والحفظ له ، وقيام هو علي العزم علي الشيء .. ومن المراعاة للشيء قوله : «كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ (1)».

شهداء : الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة وقد يقال للحضور مفرداً ... والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر (2).

اتَّقُوا : الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ، يقال وقيت الشيء أقيه وقاية

ص: 277

1- سورة المائدة (5) : الآية (8) مفردات الراغب : ص 432 - 431 .

2- مفردات الراغب : ص 275 - 274 .

ووقاء... والتقوي جعل النفس في وقاية ممّا يخاف ، هذا تحقيقه ، ثمّ يسمّي الخوف تارة تقوي ، والتقوي خوفاً حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه والمقتضى بمقتضاه ، وصار التقوي في تعارف الشرع حفظ النفس عمّا يؤثم(1).

شأن النزول

روي الحافظ الأصفهاني أبو نعيم في حليته عن ابن عباس عن رسول الله صلي الله عليه وآله أنه قال : ((ما أنزل الله آية فيها «يا أيها الذين آمنوا» إلا وعلي رأسها وأميرها))(2).

عبر من الآية

عندما يتأمل الإنسان في عظمة هذه الآية الكريمة ويتمعن في دقائقها يجد أنها مليئة بالدروس والعبر المفيدة التي تفيد الإنسان لآخرته ودنياه . فمن أهم هذه الدروس المهمة التي يمكن استفادتها من هذه الآية المباركة هو :

أ) - أن كل أوقات الإنسان يجب أن تكون مستثمرة بشكل جيد ، فالقيام والنعوذ ، والعمل والراحة ، والحركة والنشاط يجب أن يكون لأجل الله وفي سبيله تعالي لا لأي شيء آخر أبداً ، لا الهوي والمزاج والشهوة ..

فكل عمل يقوم به العبد المؤمن ، ينبغي أن يكون هدفه فيه هو الامتثال لأمر

ص: 278

1- مفردات الراغب : ص 568 .

2- حلية الأولياء : ج 1 ص 64 .

اللّه تعالي ونهيه ، بحيث يتقرب بالطاعات ويبتعد عن المحرّمات ويحتاط في الشبهات ، ويتلذذ بالخيرات ، ويكون دأبه الحثيث باتجاه رضا الخالق تعالي .

ولذا فإنّ أمير المؤمنين(عليه السلام) وصف حالات مثل هؤلاء الناس فقال : ((فهم والجنّة كمن رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة ، وشروهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة . صبروا أياماً قليلة أعقبتهم راحة طويلة تجارة مريحة يسرها لهم ربّهم ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها))⁽¹⁾.

فعلي الإنسان المؤمن أن يستشعر الوجود الإلهي ، والمراقبة الإلهية له في كل سكناته وحركاته وحتى همساته وخلجات صدره ، وليكن همّه في أن يرضي ربّه ولا يآبه فيمن سواه من الخلق .. وإلي ذلك يشير الإمام الصادق(عليه السلام) في وصيته لإسحاق ابن عمّار فقال : ((ياإسحاق خف اللّه كأذكّك تراه وإن كنت لا- تراه فإنّه يراك ، فإن كنت ترى أنّه لا- يراك فقد كفرت ، وإن كنت تعلم أنّه يراك ثمّ برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك))⁽²⁾.

وقد أشار الإمام الحسين(عليه السلام) إلي هذا المطلب في دعائه العظيم الذي قرأه يوم عرفة فقال : ((متي غبت حتّي تحتاج إلي دليل يدلّ عليك ومتي بعدت حتّي تكون الآثار هي التي توصل إليك عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً))⁽³⁾.

ص: 279

- 1- نهج البلاغة : خ193 يصف فيها المتّقين .
- 2- الكافي : ج2 ص67 ح2 .
- 3- الإقبال : ص349 .

والعدل : هو إعطاء كل ذي حق حقه ، وهو من صفات الله سبحانه وتعالى ومن أسمائه النورانية الشريفة إذ أنه لا يظلم أحداً حتى أن هناك أحاديث كثيرة جداً في هذا الباب وبعضها يؤكد علي أن العدل هو من العلل الغائية للوجود الإنساني .

فضمن أسئلة توجه إلي المعصوم (عليه السلام) لماذا خلق الله الخلق ؟ فقال (عليه السلام) : ليعرف قدره .

ولماذا أماتهم ؟ فقال (عليه السلام) : لتعرف قدرته .

ولما ينشرهم ؟ فقال (عليه السلام) : ليعرف عدله .

إذ أنه لا يعرف العدل إلا بالتساوي بين العمل والجزاء ، فالذي يعطي أجراً بمقدار العمل المعطي فهذا عادلاً والذي يحيف يكون ظالماً والذي يتفضل زيادة يكون محسناً .

والأمر كالميزان تماماً .. فالذي يعطيك عند الشراء حتى يتساوي كفي الميزان يكون قد أعطاك حقك تماماً .. والذي ينقصه يكون قد سرقك ، وأما الذي يزيد عليه يكون قد تفضل وأحسن إليك .

وقد عبر الله سبحانه وتعالى عن يوم القيامة بأنه : «نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقَسِطَ (1)» .

والعدل في مدرسة أهل البيت عليهم السلام يعدّ أصلاً من أصول الدين الإسلامي الحنيف ، وهذا يعني أن من لم يعتقد به يخرج من دائرة الإسلام .

وفي هذه الآية الكريمة خصّ سبحانه ذكر العدل لدي الشهادة فقط - مع أن العدالة مطلوبة في كل شيء ء - لأن مراعاة العدالة بالشهادة علي الخصوص مشكلة

اجتماعية ودينية ، وذلك لأنّ هناك العديد من العوامل الضاغطة علي الإنسان في هذا المجال الحساس .

فإنّ مثل المصالح الشخصية والميل إلي الأقارب والأصدقاء ، والنفرة الشديدة من الأعداء فضلاً عن الشهوات والمصالح المادّية كلّها تحدد الإنسان إلي شهادة الزور .

ج) - إنّ الآية المباركة تعطينا درساً رائعاً في أسلوب التعامل الاجتماعي ، والمعالجة الصالحة لمثل هذه القضية فتقول «لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓي أَلَّا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰی(1)».

أي عليك أن لا تأخذك العداوات والحقد والبغضاء علي أن لا تعدل بالشهادة فتشهد مع الظالم ضدّ المظلوم ، ويكون دافعك في ذلك توجيه ضربة - حسب ظنّك - إلي عدوك عن طريق غيرك من خلال شهادتك .

فالتشفيّ ذاك الدافع القوي ، الذي يدفع بالإنسان الضعيف إلي أن يستغلّ مسألة وقوع العدو في مشكلة .. وهذا هو المنهي عنه في الشريعة الإسلامية .

المتّقون وشهادة الحقّ

وفي الختام راحت تؤكّد الآية المباركة علي التقوي وأنّ العدل في الشهادة للتقوي حيث إنّ الإنسان المتّقني عادةً ما لا تخدعه الشهوات والميولات ولا تحركه الضغائن والأحقاد إلي الإجحاف والجور علي العدو وذلك من خلال شهادة الزور وما شابه ، بل إنّ المتّقني يقرّ بالحقّ ولو كان علي نفسه ، ففي الحديث الشريف عن علي ابن سويد قال : قلت لأبي الحسن الماضي (عليه السلام) : يشهدني هؤلاء علي اخواني ؟ قال :

ص: 281

((نعم أقم الشهادة لهم ، وإن خفت علي أخيك ضرراً))[\(1\)](#).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله تعالى : «وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا»[\(2\)](#) قال : لا ينبغي لأحد إذا دعي إلي الشهادة ليشهد عليها أن يقول : لا أشهد لكم عليها))[\(3\)](#).

وعن محمد بن الفضيل ، عن أبي الحسن (عليه السلام) في قوله الله عز وجل : «وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا»[\(4\)](#) فقال : ((إذا دعاك الرجل لتشهد له علي دين أو حق لم ينبغ لك أن تقاعس عنه))[\(5\)](#).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله تعالى : «وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا»[\(6\)](#) قال : من كان في عنقه شهادة فلا يأب إذا دعي لإقامتها ، وليقمها ، ولينصح فيها ، ولا تأخذه فيها لومة لائم ، وليأمر بالمعروف ، ولينه عن المنكر)[\(7\)](#).

ص: 282

- 1- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص71 ح3359 .
- 2- ((- سورة البقرة (2) : الآية 282 .
- 3- تهذيب الأحكام : ج6 ص275 ح751 .
- 4- سورة البقرة (2) : الآية 282 .
- 5- تهذيب الأحكام : ج6 ص276 ح754 .
- 6- ((- سورة البقرة (2) : الآية 282 .
- 7- وسائل الشيعة : ج27 ص314 ح33821 .

إشارة

(32) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» (سورة المائدة: 11)

في رحاب المفردات

هَمَّ: الهَمُّ ما هممت به في نفسك ... قال تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا (1) وَأَهْمَنِي كَذَا أَي حَمَلَنِي عَلَيَّ أَنْ أَهَمَّ بِهِ (2)».

يبسطوا: بسط الشيء نشره وتوسعه، فتارةً يتصوّر منه الأمران وتارةً يتصوّر منه أحدهما ويقال بسط الثوب نشره، ومنه البساط وذلك اسم لكل مبسوط (3).

فكفّ: كفته أصبته بالكفّ ودفعته بها. وتُعرف الكفّ بالدفع علي أي وجه كان بالكفّ كان أو غيرها حتّى قيل رجل مكفوف لمن قبض بصره (4).

ص: 283

1- ((- سورة يوسف (12): الآية 24 .

2- مفردات الراغب: ص 543 .

3- مفردات الراغب: ص 43 .

4- مفردات الراغب: ص 450 .

شأن النزول

أخرج العلامة الهندي عبيدالله بسمل امرتسري في كتابه الكبير) أرجح المطالب في عدّ مناقب أسد الله الغالب علي بن أبي طالب (عن ابن عباس قال : ((ما أنزل الله «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إِلَّا وعلي أميرها وشريفها ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلي الله عليه وآله وما ذكر علياً إِلَّا بخير)) (1).

عبر من الآية

نداء خاصّ بالمؤمنين حين كانوا في بداية دعوتهم إلي الله تعالى في المدينة المنورة بأنّ نعم الله سبحانه لا تعدّ ولا تحصى ، ولا يعلم حجمها إِلَّا خالقها ، وهو سبحانه يقول : «إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا (2)».

ومن أعظم تلك النعم هما نعمة الأمن والاطمئنان بالنسبة للأفراد ، والهدوء والاستقرار بالنسبة إلي المجتمعات ، فالذين لا ينعمون بالأمن والاستقرار تراهم في ضيق من العيش فلا يقرّ لهم قرار ، ولا يهنؤون برغد أو نوم أبداً .

وكل النعم هي فضل وتفضّل من الله - سبحانه - ولكن لا بدّ من أسباب ومسبّبات لبعضها البعض وقد تتدخّل المعجزة الإلهية كإنزال ((المائدة)) إلي سيدنا عيسى المسيح (عليه السلام) ، أو الموائد إلي أمّه الصديقة الطاهرة ((مريم العذراء عليها السلام)) حيث كانت تتعبّد في المحراب .. وهكذا .

ص: 284

1- أرجح المطالب : ص 51 .

2- سورة النحل (16) : الآية 18 .

ومن أهمّ النعم عليّ المؤمنين هو حفظ السماء لرسول الإنسانية من جميع المخططات الشيطانية الرامية إليّ القضاء عليّ حياته المباركة .

نعم ، فإنّ محاولات الاغتيال التي تعرّض لها رسول الله صلي الله عليه وآله أكثر من أن تحصى ، سواء في مكّة المكرّمة ، أو المدينة المنورة ، من قبل اليهود ، أو المشركين أو الأعراب أو أجلاف مكّة وغيرهم .

فكم حاول المشركون اغتيال الرسول صلي الله عليه وآله ولكن الله - سبحانه - جعل كيدهم في نحرهم في كل مرّة ، حيث كان ينقلب السحر عليّ الساحر ، ويفوز رسول الله صلي الله عليه وآله بفضيلة جديدة ومعجزة مبيّنة ليزداد نجمه تألّقاً ، وينتشر عنه عبق النبوة بالمعجزات .

وقد تتساءل عزيزي القارئ قائلاً : لماذا إذن يمنّ الله - سبحانه - عليّ المؤمنين بأن أنقذ رسوله الكريم صلي الله عليه وآله ؟ ولماذا جعلها نعمة ؟

الجواب : لأنّ القائد ضرورة تاريخية وحتمية ملحة .

والأمة بدون قائد لا قيمة لها مهما بلغت من علوّ الشان ، وسموّ الرفعة ، وتراكم الثروة ، وكثرة العدد .. فكلّ هذا دون القائد يكون كغناء السيل الذي لا يمكث حتّي يذهب جفاء .

فحفظ حياة القائد ، هو حفظ لحياة الأمة الإسلامية كلّها .

وحيث إنّ رسول الله صلي الله عليه وآله كان المحور الذي يدور حوله المسلمون ، وهو صلي الله عليه وآله قطب الرحي في حياتهم العامّة والخاصّة - وهو بالحقيقة قطب دائرة الوجود كلّها - كان ضرورياً لهم حفظه لأنّه بالنسبة لهم كالهواء الذي يتنفسونه أو كالماء الذي يشربونه ، إذ أنّه ليس لهم خلاص إلاّ به .

ونحن لو لاحظنا الظروف والأوضاع التي كانت سائدة في بداية الدعوة الإسلامية ، لوجدنا أنّ استمرار هذا الدين ، وبقائه هو من أكبر المعجزات الإلهية

للإبشرية جمعاء ، إذ أنّ ذلك ما كان يتم إلا بلطف وعناية ربّانية محضنة .

فالمسلمون آنذاك كانوا أقلّية صغيرة جداً لا يتجاوز عددهم عن عدد الأصابع ، والمنطقة التي يعيشون فيها كانت فاقدة لأبسط مقوّمات الحضارة - المادية والمعنوية - فضلاً عن ذلك فإنّهم كانوا محاطين بسيل من الأعداء الألداء والأشدّاء في آنٍ معاً .

فالفرس ومن تابعهم من الشرق .. والروم ومن ناصرهم من الشمال .. والمشركون يحدقون بهم ويعيشون بينهم .. كذلك اليهود ومكرهم وخبثهم ودهائهم وأموالهم الطائلة ومكائدهم المتتالية .. هذا بالإضافة إلى جيش المنافقين الذين كانوا يعيشون معهم ويدعون أنّهم منهم وما إلى ذلك .

من جانب آخر فإنّ هؤلاء الأعداء كانوا مجهزين بالكثير من مقوّمات الحضارة والقوّة المادية والبشرية ، فضلاً عن الخبرات العسكرية والسياسية والاقتصادية ، والأسلحة المتطورة ، والامبراطوريات القائمة والحكومات القوية .

فالفرس في ذلك العصر كانوا أصحاب حضارة عظيمة وقوية .

والروم كذلك كانوا يمتلكون امبراطورية قوية وشديدة وكانت تقف موقف النّد من الفرس .

بل حتى مشركي العرب ، وقبائل الجزيرة كانت لهم ارتباطاتهم وأحلافهم التي تجعل منهم قوّة لا يستهان بها أبداً ، ولولا ذلك لغزيت بلادهم واحتلّت من قبل الأقوياء - الفرس أو الروم - .

أمّا المسلمون - في ذلك المحيط - فهم لا يملكون أي شيء من حطام الدنيا .

وهنا تتجلّى إرادة يد الله وقدرته ، حيث كفّ هذه الأيدي القوية ، وهدم تلك الامبراطوريات الجبّارة ، وصدّهم جميعاً عن المسلمين وعن نبي الإسلام صلي الله عليه وآله وجعل

هذا الدين يستمرّ وسط كل هذه التحديات ورغم كل هذه العقبات الكأداء .

بل قويت دولة المسلمين عليهم وحطمتهم وجعلتهم يرضخون إلى الحقّ ، ويلتحق السعيد من أبنائهم بالدين الإسلامي الجديد .. وما القصة المروية في كتب السيرة العطرة لرسول الله محمد صلي الله عليه وآله لمّا كانوا يحفرون الخندق حول المدينة المنورة قبل غزوة الخندق إلا كشاهد صدق علي ذلك .

وذلك بأن كشفوا عن صخرة عظيمة وقوية ولم يستطيعوا تحطيمها ، فأخذ رسول الله صلي الله عليه وآله المعول وراح يضرب الصخرة .

فضرب أوّل ضربة فقدحت الصخرة ناراً فقال صلي الله عليه وآله : الله اكبر . لقد رأيت قصور الحيرة ومدائن كسري .

وفي الثانية قال : الله اكبر . لقد رأيت قصور الحمر من أرض الروم .

وفي الثالثة قال : الله اكبر لقد أضاءت لي قصور صنعاء(1).

وهذا الذي كان بالفعل - وكانت معجزة لرسول الله صلي الله عليه وآله - إذ أنّ الجيوش الإسلامية فتحت تلك البقاع المذكورة وأكثر منها بكثير بفضل الله ومنته .

الملفت للانتباه أنّ القرآن الكريم يعبر عن ذلك ب ((النعمة)) ، وهي من أكبر النعم قاطبة .. إذ أنّه آية نعمة هي أعظم من نعمة الإيمان والهداية ؟

وإذا كانت النعم المادية نعماً - مع محدوديتها - فكيف بهذه النعم المعنوية التي تضمن للإنسان سعادة الدنيا والآخرة .

إذ أنّ نعمة الإيمان ، إذا عاضدتها الأعمال الصالحة ، والتوفيقات الإلهية ، وعززها التوكّل علي الله في كل الاتجاهات ، فتكون النعمة الإلهية من أعظم الأعمال

ص: 287

1- بحار الأنوار : ج 17 ص 170 ، مع اختلاف في بعض العبارات .

الحافطة للإنسان من المعاصي والمحرمات .

وكل ذلك يتم بالتوكل على الله - لأنه تعالى ينجي من اتقاه - والتوكل هي صفة ملازمة للمؤمنين دائماً وأبداً .

ولذا فإن الله تعالى يقول : «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(1)» .

ص: 288

1- سورة المائدة (5) : الآية 11 .

(33) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (سورة المائدة : 35)

في رحاب المفردات

اتَّقوا : الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ، يقال وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاءً ، قال : «وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (1)».

الوسيلة : الوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة وهي أخص من الوسيلة لتضمنها لمعنى الرغبة (2).

ص: 289

1- سورة الدخان (44) : الآية 56) مفردات الراغب : ص 568 .

2- مفردات الراغب : ص 561 - 560 .

شأن النزول

روي الحافظ الحاكم الحسكاني (الحنفي) قال : أخبرنا أبو بكر الحارثي عن العوام ، عن مجاهد قال : ((كل شيء في القرآن «يا أيها الذين آمنوا» فإن لعلي سبقه وفضله)) (1).

عبر من الآية

إحدي الأسئلة المهمة التي كانت وما زالت محط أنظار الكثير من المسلمين هو : ما هو المراد من الوسيلة في قوله تعالى : «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» .

والجواب عليه إن الوسيلة هي الوصلة والقربي ، وجمعها الوسائل ، قال الله تعالى : «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» (2).

وقال الجوهري : الوسيلة ما يتقرب به إلي الغير (3).

وربما كانت الوسيلة بمعنى الطريقة المقرّبة للمؤمنين إلي غايتهم العظمي وهي الاتّصال بذات الله تعالى ، فياتري ما هي الطريقة إليه عزّوجلّ ؟

ومن هم - بلغة أدق - الطريق إلي الله ؟ وما علاقتهم بالتقوي .. والجهاد في سبيله .. والفلاح ؟

مقدّمة نقول إنّ التوسّل : هو غير الوسيلة .. بل هو مصداق من مصاديقها

ص : 290

1- شواهد التنزيل : ج 1 ص 54 .

2- سورة الإسراء (17) : الآية 57 .

3- لسان العرب : مادة وسل .

ومشتقاتها .

لأنّ التوسّل : هو ضرب من الدعاء الملحّ علي الله في أن يقرب الداعي إليه ، وقد يقدّم بين يدي دعائه وسيلة من الوسائل المرضية لديه سبحانه .

وفي التوسّل : وقع خلاف عظيم بين فصائل ومذاهب الدين الإسلامي الحنيف لا سيّما في الفترة الأخيرة من هذا القرن ، وذلك بعد بزوغ بعض الفرق المكفّرة للمسلمين التي جعلت التوسّل ضرباً من الشرك - بل هو الشرك بعينه - بدل أن يجعلوه ضرباً من الدعاء .

وقد اختلقوا أحاديث ما سبقهم إليها أحد وتأولوا آيات ما أنزل الله بها من سلطان ولم يسمع بها النبي صلي الله عليه وآله ، ولم تخطر علي بال حتي كعب الأخبار ومن لفّ لفّه ، من اليهود والمنافقين الأولين في زمن الدعوة المباركة .

فأروا أن التوسّل بالصالحين هو نوع من أنواع الشرك .. وحتى الأنبياء والأولياء فليس لهم أي حرمة عندهم .

معني الشرك الحقيقي

في واقع الأمر إنّ الشرك بالله هو أن نجعل معه غيره .. أي أن يكون في (عرض الله تعالى) .

ولتقريب الفكرة نمثّل بمثال - ولا نقاش في الأمثال طبعاً - وهو إذا كان لبلدة ما أميرين مستقلّين منفصلين ، كل منهما مستقل في أمره ونهيه (فهذه مشاركة حقيقية بالحكم).

أمّا لو اتّخذت البلدة .. (أميراً) واتّخذوا له (وليّاً للعهد) وكان ولي العهد خاضعاً

تمام الخضوع للأمير وليس له أي استقلالية بإصدار الأوامر في البلد دون إذنه .. بل هو يعين وينصب ، ويصبح مع الأمير كظله في كل شيء
ء ، فهل هذا يعدّ إشراكاً لولي العهد مع الأمير ؟

قطعاً لا .. لأنّ الأمير أمير ، وذلك صار بأمر من الأمير ولي عهد ومتي يريد عزله كان له ذلك وبجرّة قلم - كما يقولون - وكما هو معروف ،
فولي العهد - في هذه الحالة - يعتبر امتداداً (للامير ومعاوناً ويداً .. لا نداءً معادياً له .

أمّا الشرك والشريك : فهو اتّخاذ (الند).. لا اعتبار (الامتداد) للشئ ء .

وفي هذه الآية المباركة نجد قوله تعالى «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ (1)».

فهذه الوسيلة المبتغاة ليست مستقلة في الفاعلية والتأثير ، بل هي وسيلة وطريقة إلى الله تعالى يسلكها ويستقيم عليها من يريد الوصول إلى
ساحة قربه عزّ وجلّ فلا شرك في القضية إطلاقاً .

وهذا أشبه ما يكون بأن يسألك أحد أين الطريق إلى مكة .. فتقول له : اتبع هذا الطريق في الخريطة مستخدماً السيارة حتي توصلك إلى مكة
المكّمة .

وما نحن فيه كذلك .. فالمؤمنون يريدون الوصول إلى الله .. فعليهم استعمال خريطة التقوي وما تحويه من الطاعات التزاماً والمعاصي
اجتناباً .. وبالطبع هذا كله لا يفيد إلا إذا عرف الإنسان (الوسيلة الموصلة) أي (الطرق الموصلة إلى الله).

فعندما تعرف الطريق ، وتجاهد ، وتنتهي ، فلا شك أنك ستصل إلى الجنة وهذا هو الفلاح الذي ليس بعده فلاح .. لأنه كما قال تعالى :
«مَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ

ص: 292

1- سورة المائدة (5) : الآية 35 .

والسؤال المهم الذي يطرح هنا هو: مَنْ هم الوسيلة إلى الله؟

الجواب: إنَّ القرآن الكريم يحدِّثنا أنَّ الأنبياء عليهم السلام هم من أهم الوسائل إلى الله تعالى، وما الحديث عن قصَّة يوسف (عليه السلام) وإخوته وأبيه إلا من أوضح الواضحات في الباب، إذ أنَّ إخوة يوسف (عليه السلام) بعد أن عرفوا أخوهم يوسف عادوا إلى أبيهم تائبين طالبين المغفرة فقالوا له:

«يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا (2)» ولم يستنكر ذلك منهم نبي الله يعقوب ويقول لهم: اصمتوا هذا شرك، بل قال لهم: «سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي (3)».

ونبي الله موسى الكليم (عليه السلام) كان يستعين بالعصا هو وقومه كذلك.

وأما نبي الله عيسى (عليه السلام) فقد كانوا يستشفون بالتمسُّح بمهده الشريف.

كما أنَّ رسولنا الأعظم محمَّد بن عبد الله صلي الله عليه وآله هو من أعظم الوسائل والطرق إلى الله سبحانه وتعالى إذ قال سبحانه: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (4)».

وقال سبحانه: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (5)».

فرسول الله صلي الله عليه وآله هو رحمة مهداة إلى الكون كلِّه، وإلى الخلق كلِّهم، وإلى بني

1- سورة آل عمران (3): الآية 185.

2- (2) (عليه السلام) - سورة يوسف (12): الآية 97.

3- سورة يوسف (12): الآية 98.

4- سورة النساء (4): الآية 64.

5- سورة الأنفال (8): الآية 33.

البشر من العقلاء خاصّة ، فهو السبيل الأقوم والطريق الأسلم للوصول إلى الله تعالى .

حديث الوسيلة

وقد روي السيّد البحراني في البرهان في هذا المضممار حديث أسماه حديث الوسيلة وهو مروى عن أبي سعيد الخدري حيث قال :

قال رسول الله صلي الله عليه وآله إذا سألتم الله فأسألوا لي الوسيلة .

فسالنا النبي صلي الله عليه وآله عن الوسيلة .

فقال : هي درجتي في الجنة .

وهي ألف مرقة ، ما بين المرقاة إلى المرقاة حضر الفرس الجواد شهراً وهي ما بين المرقاة جوهر إلى مرقة زبرجد إلى مرقة ياقوت إلى مرقة ذهب إلى مرقة فضة فيؤتي بها يوم القيامة حتى تنصب مع درجة النبيين فهي في درجة النبيين كالقمر بين الكواكب فلا يبقى يومئذ نبي ولا صدّيق ولا شهيد إلا قال : طوبى لهذين العبدین ما أكرمهما علي الله .

فيأتي النداء من قبل الله - جلّ جلاله - يسمع النبيون والصدّيقون والشهداء والمؤمنون ، هذا حبيبي محمد صلي الله عليه وآله ووليي علي (عليه السلام) طوبى لمن أحبّه وويل لمن أبغضه وكذب عليه .

فلا يبقى يومئذ أحد أحبّك يا علي إلا استروح إلي هذا الكلام وأبيض وجهه وفرح قلبه .. ولا يبقى أحد ممّن عاداك أو نصب لك حرباً أو جحد لك حقاً إلا اسودّ وجهه واضطربت قدماه .

فبينما أنا كذلك إذا ملكان قد أقبلا إليّ أحدهما رضوان خازن الجنة ، وأما الآخر فمالك خازن النار فيدنو رضوان فيقول : السلام عليك يا أحمد .

فأقول : السلام عليك يا أيها الملك ، من أنت فما أحسن وجهك وطيب ريحك ؟ فيقول : أنا رضوان خازن الجنة وهذه مفاتيح الجنة بعث بها إليك رب العزة ، فخذها يا أحمد .

فأقول : قد قبلت ذلك من ربّي فله الحمد علي ما فضّلني به ، ادفعها إلي أخي علي بن أبي طالب (عليه السلام) ثم يرجع رضوان ، فيدنو مالك فيقول : السلام عليك يا أحمد فأقول : السلام عليك أيها الملك فما أقبح وجهك وأنكر رؤيتك فمن أنت ؟ فيقول : أنا مالك خازن النار وهذه مقاليد النار بعث بها إليك رب العزة فخذها يا أحمد .

فأقول : قد قبلت ذلك من ربّي فله الحمد علي ما فضّلني به ادفعها إلي أخي علي بن أبي طالب (عليه السلام) ثم يرجع مالك ويقبل علي ومعه مفاتيح الجنة ومقاليد النار حتي يقف علي عجز جهنّم وقد تطاير شررها ، وعلا زفيرها واشتدّ حرّها وعلي (عليه السلام) أخذ بزمامها فتقول له جهنّم : جزني يا علي فقد أطفأ نورك لهبي .

فيقول لها علي (عليه السلام) : قرّي يا جهنّم خذي هذا واتركي هذا ، خذي هذا عدوّي واتركي هذا وليي .. فلجهنّم يومئذ أشدّ مطاوعة لعلي فيما يأمرها به من جميع الخلائق)) (1).

فهذه هي الوسيلة الحقّة لا كما يظن الجاهلون ، أو الذين هم برّبهم يعدلون ، حيث يقولون : أنّ التوسّل بالوسيلة ، والتقرب برسول الله صلي الله عليه وآله وبأهل البيت

ص: 295

1- البرهان : ج 1 ص 470 - 469 .

الأطهار عليهم السلام وبالأولياء والصالحين هو ضرب من الشرك والعياذ بالله .

فلا بدّ من أجل الوصول إلى الله من وسيلة وطريقة وأمير المؤمنين الإمام علي ابن أبي طالب(عليه السلام) الذي قال في قوله تعالى : «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» ((أنا وسيلته))[\(1\)](#).

ص: 296

1- راجع مناقب آل أبي طالب : ج4 ص431 ، تفسير البرهان : ج1 ص469 .

إشارة

(34) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (سورة المائدة : 51)

في رحاب المفردات

تتخذوا: الأخذ حوز الشيء وتحصيله .. والاتخاذ افتعال منه ويُعدّي إلي مفعولين ، ويجري مجري الجعل نحو قوله : «لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ(1)».

أولياء: الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ، والولي والمولي يستعملان في ذلك كل واحد منهما يقال في معني الفاعل أي الموالي(2).

ص: 297

1- سورة المائدة (5) : الآية 51) مفردات الراغب : ص 9 - 8 .

2- مفردات الراغب : ص 570 .

يروى الزهري : أنه لما إنهزم أهل بدر ، قال المسلمون لأولياتهم من اليهود : آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر .

فقال مالك بن ضيف : أغرّكم أن أصبتم رهطاً من قريش ، لا علم لهم بالقتال ، أمّا لو أمرتنا العزيمة أن نستجمع عليكم ، لم يكن لكم يدان بقتالنا !

فجاء عبادة بن الصامت الخزرجي إلي رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله! إن لي أولياء من اليهود كثيراً عددهم ، قوية أنفسهم ، شديدة شوكتهم ، وإني أبرأ إلي الله ورسوله من ولايتهم ، ولا مولي لي إلا الله ورسوله صلى الله عليه وآله .

فقال عبدالله بن أبي : لكنني لا أبرأ من ولاية اليهود ، لأنني أخاف الدوائر ، ولا بد لي منهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا أبا الحباب! ما نفست به من ولاية اليهود علي عبادة ابن الصامت ، فهو لك دونه .

قال : إذن أقبل .. فأنزل الله الآية .

وهناك قول آخر وهو : لما كانت وقعت أحد ، اشتدت علي طائفة من الناس ، فقال رجل من المسلمين : أنا ألحق بفلان اليهودي ، وأخذ منه أماناً .

وقال آخر : أنا ألحق بفلان النصراني ببعض أرض الشام ، فأخذ منه أماناً .

فنزلت الآية المباركة (1).

ص: 298

بين الحين والآخر كانت آيات الذكر الحكيم تذكّر المؤمنين وتحذّرهم من مسائل منها: مسألة تولّي المشركين والكفّار أو أهل الكتاب وبالخصوص اليهود والنصارى، فقد تكرّر مثل هذا التحذير في العديد من المواضع الهامة، وقد تناولنا الموضوع أكثر من بحث إلا أنّ الحديث يطول، ومكائد الأعداء لها قصص طويلة تستغرق عمر الرسالة كلّها، وربما تسبقها كذلك.

فالمؤمنون بنصّ القرآن بعضهم أولياء بعض، كما أنّ الكافرين بعضهم أولياء بعض، ولا يمكن أن تختلط الأمور بين الطائفتين إلاّ بخسارة أحدهما أمام الآخر.. ولكي لا يخسر المؤمنون دينهم بدنيا أولئك فقد نهاهم الشارع المقدّس عن تولّي ومصادقة اليهود والنصارى.

وذلك لأنّ طريق الفساد والضلال سهل وسلسل والشيطان ينتظر ويتربّص الفرص لاستغلال أيّة زلّة أو سقطة للمؤمن حتى يستجرّه إليه ويجتّده ضمن جنوده الذين يعملون ليل نهار من أجل تحقيق مخطّطاته العدوانية ضدّ الإنسانية، ولا يخفي أنّ من أهمّ حبائله هو الإغراء بالنساء أو الأموال وغيرهما من سائر أمور الدنيا المتوقّرة وبشكل سهل عند أولئك الأعداء.

ومن المعروف عن اليهود بالذات أنّهم كانوا - وما زالوا - يستخدمون نساؤهم وأموالهم كأحد أهمّ وسائل الإغراء لإيقاع المؤمنين في الفساد والفاحشة، أو السحت والحرام وكلاهما مخرجة له عن الإيمان.

لذلك فقد جاء النهي الإلهي للمسلمين عامّة - وللمؤمنين خاصّة - من أن يتولّوهم من دون المؤمنين، حتّى أنزل الله هذه الآية تنهي عن ذلك بهذه الشدّة بأن

جعلت ((من يتولّى منكم ، فإنه منهم)) أي يقال له : يهودياً أو نصرانياً أو غير ذلك .

ولا يخفي أنّ من يفعل ذلك فهو ظالم لربّه ولدينه ولرسوله ولنفسه وقد قال تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(1)».

فالذي يلجأ من المسلمين إلي اليهود تارةً وإلي النصاري تارةً أخرى عند مواجهة الأزمات أو لدي بعض المنغصات في سبيل الدعوة إلي الله ، فهو ليس من الله في شيء ، لأنه لو آمن قلبه وأيقن بأنّ النصر عند الله وأنّه تعالى ولي الذين آمنوا ، لالتجأ إليه لا إلي عدوّه فيلتمس منه الأمان وما أشبه ذلك .

شواهد من التاريخ الإسلامي

هناك العديد من الشواهد التاريخية التي يستفاد منها ضعف إيمان الذين يوالون أهل الكتاب ، ففي التاريخ أنّ الذين خالفوا رسول الله في معركة أحد ، وبعد أن وقعت الهزيمة النكراء بدل أن يستميتوا دون رسول الله صلي الله عليه وآله هربوا كلُّ باتجاه ، وراحوا يتأسّفون وكل يبحث عن صديق من أجل أن يأخذ له الأمان من علوج قريش كأبي سفيان ومن لفّ لفّه .

ومنهم من ذهب بها عريضاً ، ومنهم من بقي يركض مدّة ثلاثة أيّام متواصلة إلي أن وصل إلي مشارف الشام .. ومنهم من كان ركضه شديداً بحيث إنّ أكعابه كانت تضرب بظهره ..

فأين الشجاعة يا مؤمنون ؟

فمهما كانت قوّة الأعداء ، فأنتم أقوي بإيمانكم و يقينكم ، والله هو القوي وذو

ص: 300

القوة المتين ، فلا تغتروا ببعض المظاهر الخارجية البراقة ، وتأخذكم كثرة الكلام وجعجة السياسيين والمهرجين ومسوقي الإعلان ، ولا حتي أقوال المسؤولين ، فكلها غناء كغناء السيل . ومع الأسف الشديد أن هؤلاء المساكين يغفلون أن اليهود وغيرهم عندما يفتحون لنا ذراعيهم عند الأزمات فإنهم في نفس الوقت يحملون بها خناجراً ليطنوهم بها عندما يقعون في أحضانهم .

الحذر من أعداء الله عز وجل

إذن علينا الانتباه إلي أي دعوة ليئة من عدونا ، أو أية بادرة يظهر فيها حسن نيته فيها فإن وراء ذلك أهداف عظيمة ، فمن الممكن جداً أن يتخذ العدو موقفاً دبلوماسياً لصالحنا - ظاهراً - ولكن يجب أن نيقن أن محرّكهم لذلك هو مصالحهم الخاصة .. مضافاً إلي أن أحقادهم التاريخية سوف تجعلهم يغدرون بنا - وهذا ديدنهم - في الوقت الحاسم فيكون (ولات حيث مناص). .

فقد روي المؤرخون أن رسول الله صلي الله عليه وآله رفض نصره (300) نفر من يهود المدينة في معركة أحد وأرجعهم من وسط الطريق ، لأنه يارجاعهم تأكد من خذلانهم أثناء المعركة حيث يكون جيش الإسلام بأحوج ما يكون لهم ، فتراهم يتركون أرض المعركة ويولّوا هارين ، فيؤثر ذلك علي مجريات المعركة ، وعلي الروح المعنوية للمقاتلين .

فأرجعهم رسول الله صلي الله عليه وآله كسباً للوقت ، وللمعركة معاً .

كما أن مكائد اليهود في المدينة المنورة مشهورة في كتب التاريخ ، فمن بني النضير ، إلي بني القينقاع ، ومن خيبر إلي فدك وما حولها من الحصون اليهودية ، التي كانت تغلق علي كفر وحقد ونفاق ، ولا تفتح إلا مكيدة أو بليّة أو فساد .

والدروس من التاريخ الماضي منه والحاضر كثيرة جداً فهم يريدون ممّا أن نكون لهم كما يريدون لا كما نريد ولا كما يريد الله سبحانه .
ولذلك فعلينا الحذر الشديد من التعامل مع العدو لا سيّما - اليهود والنصارى - وأن نتّقي الله في كل ذلك لئلا تصيبنا اللعنة من الله
ورسوله والمؤمنين .. نعوذ بالله وبه نستجير .

ص: 302

اشارة

(35) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (سورة المائدة: 54)

في رحاب المفردات

أذلة: الذلّ ما كان عن قهر، يقال ذلّ يذلّ ذللاً، والذلّ ما كان بعد تصعب، وشماس من غير قهر، يقال ذلّ يذلّ ذلاً. وقوله تعالى: «وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ (1)» أي كُنْ كالمقهور لهما. وقري ((جناح الذلّ)) أي لن وانقد لهما (2).

أعزة: العزة حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب من قولهم أرض عزاز أي

ص: 303

1- سورة الإسراء (17): الآية 24.

2- مفردات الراغب: ص 183.

صلبة، قال: «أَيَّتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً(1)».

شأن النزول

عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: في قوله: «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» قال: ((علي وشيعته)) (2).

وقال الثعلبي في تفسير قوله: «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» (3) الآية. قال: نزلت في علي (4) (عليه السلام).

عبر من الآية

إن الذي يتمعن في القرآن الكريم ويتدبر في آياته المباركة يجده يوضح الحقائق الكونية ويستجلي الكثير من خصائصها العامة لكي لا تكون مبهمة علي بنى البشر، فيحتجون ببعض الحجج أو يتذرعون ببعض الذرائع التي لا طائل منها.

ص: 304

1- سورة النساء (4): الآية (139) مفردات الراغب: ص 344.

2- تفسير فرات الكوفي: ص 123 ح 123.

3- ((- سورة المائدة (5): الآية 54.

4- العمدة، ابن البطريق: ص 158، وراجع كل من: مناقب الخوارزمي: ص 16 ح 23، ذخائر العقبي: في مناقب ذوي القربى: ص 67، نظم درر السمطين: ص 97، مجمع الزوائد: ج 9 ص 105، أسني المطالب في مناقب علي بن أبي طالب: ص 5، الخصائص: ص 4، كفاية الطالب للشنقيطي: ص 28، الصواعق المحرقة: ص 73، تذكرة الخواص: ص 30، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد: ج 5 ص 32، أسد الغابة: ج 1 ص 803.

وسورة المائدة المباركة - التي نسبح في أنوارها ، ونحيا في أفيائها الوارفة الظلال ، ونهمل من معينها الرقراق العذب أحلي وأطيب شرب - هي من أواخر السور التي نزلت في كتاب الله علي رسوله الكريم محمد صلي الله عليه وآله في المدينة المنورة . وهي غنيّة بالحديث ، بل إنّها سورة الولاية - بالحقيقة - حيث نزلت فيها مسألة الولاية لأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) فبلّغ رسول الله صلي الله عليه وآله ذلك للأمة جمعاء في الحادثة المشهورة بين المسلمين قاطبة ، ومما قال صلي الله عليه وآله يوم ذاك بعد أن أخذ بيد الإمام علي (عليه السلام) ورفعها حتّي بان بياض إبطينهما فقال : ((من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحقّ معه حيثما دار)).

والتفت إلي المسلمين قائلاً.. أقررتم) أو أشهدتهم (قالوا : بلي .. فقال صلي الله عليه وآله : ((اللهم فاشهد ، وليدّغ الحاضر منكم الغائب)).

وقد نصب خيمة وأمر كل من حضر آنذاك أن يسلم علي الإمام علي (عليه السلام) بإمرة المؤمنين(1).

ص: 305

1- نقل العلامة الأميني رحمه الله في كتابه القيم الغدير حديث الغدير وقال أنّه ورد في كل من : تاريخ بغداد : ج 8 ص 290 ، تهذيب التهذيب : ج 7 ص 327 ، مناقب الخوارزمي : ص 130 ، أسني المطالب : ص 3 ، الدرّ المنتور للسيوطي : ج 2 ص 259 ، تاريخ الخلفاء : ص 114 ، كنز العمال : ج 6 ص 154 ، الاستيعاب : ج 2 ص 473 ، البداية والنهاية : ج 5 ص 214 ، نزل الأبرار : ص 20 ، أسد الغابة : ج 3 ص 307 ، الإصابة : ج 3 ص 408 ، ينابيع المودة : ص 40 ، سنن ابن ماجه : ج 1 ص 29 - 28 ، خصائص النسائي : ص 16 ، تفسير الطبري : ج 3 ص 428 ، الرياض النضرة : ج 2 ص 169 ، الفصول المهمة : ص 25 ، تفسير الفخر : ج 3 ص 636 ، تفسير النيسابوري : ج 6 ص 194 ، الجامع الصغير : ج 2 ص 555 ، مشكاة المصابيح : ص 557 ، تفسير روح المعاني : ج 2 ص 350 ، مستدرک الحاكم : ج 3 ص 110 ، العمدة لابن بطريق : ص 53 ، مجمع الزوائد : ج 9 ص 106 وغير هؤلاء ممّن ذكرهم العلامة أنّهم نقلوا حديث الغدير .

الإشارة إلى ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)

وفي هذا النداء المحبب القوي في منطقته ولهجته هناك شبه تنبيه إلى مسألة في غاية الأهمية ألا وهي مسألة الولاية واختصاصها بالإمام علي بالذات حيث تطرقت الآية التي تليها مباشرة إلى ذلك فقال عز من قائل :

«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِبُونَ(1)».

فقد اتفقت الأمة كلها أن سبب نزول هذه الآية المباركة هو تصدق أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) بخاتمته وهو راعع إلى الله في المسجد النبوي الشريف .. وليس أحد غيره أبداً(2).

فآية البحث كانت أشبه بجرس قوي لتنبيه الأمة إلى ولاية الإمام علي (عليه السلام) ولذلك نجد أنها ابتدأت بلهجة شديدة حيث قال تعالى :
«مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ(3)».

وبالرغم أن النداء للمؤمنين .. إلا أن الخطاب يناديهم بأن يرتد عن دينه الحنيف .

فكيف يمكن أن يرتد المؤمن المخلص عن دينه ؟

الجواب عليه : لعل القضية هنا شبيهة بمسألة الأمر الرباني للملائكة بالسجود

ص: 306

1- سورة المائدة (5) : الآية 56 - 55 .

2- وللإطلاع على ذلك راجع كل من : تفسير الطبري ، جامع البيان : ج6 ص289 ، المناقب: ص311 رقم 354 ، شواهد التنزيل : ج1 ص164 و168 رقم 221 و227 ، فرائد السمطين : ب39 ص194 ح153 ، الدر المنثور للسيوطي : ج2 ص293 ، نظم درر السمطين للزرندي : ص86 ، التفسير الكبير : ج12 ص26 .

3- سورة المائدة (5) : الآية 54 .

لأدم(عليه السلام) حيث كان الملائكة يتصوّرون أنّ إبليس منهم فانكشف لهم بمخالفته أنّه من الجنّ .

وكذلك ما نحن فيه ، فالآية تنادي المؤمنين حسب الظاهر .. لأنّ الضمائر والقلوب لا يعلم ما بها إلا خالقها جلّت قدرته ، فكان المسلمون يتعاملون مع بعضهم البعض علي أنّهم مؤمنين ، ولذلك جاء حرف الجرّ (من) الذي يفيد التبويض .. أي إذا ارتدّ بعضاً منكم .. أو البعض .. فإنّ ذلك لن يضرّ الله شيئاً .

لأنه تعالي سوف يستبدلهم بأناس أصحاب مواصفات خاصّة (يحبّهم ويحبّونه) أولاً وقبل كلّ شيء ء لأنّ مسألة الحب هي من أعظم المسائل في الحياة .

نعم ، فإنّ الذي يترك دينه وملّته ، لن يضرّ الملة والدين أبداً ، لأنّ الله لا يخلي دينه من أعوان وأنصار يعتنقونه ويخضعون لله تعالي به .

فمسيرة الحقّ ليست مسيرة (شخصية ذاتية) أي أنّها لا تتوقف علي شخص أو أشخاص بعينهم ، بحيث إنّ هذا الشخص - أو الأشخاص - إذا ارتدّوا عن الدين ، فسوف ينتهي الدين وكلّ شيء ء يتعلّق به .

بل إنّ المسيرة مسيرة (نوعيّة) فهي متقوية بالنوع - نوع الأشخاص أو الشخصيات المؤمنة والملتزمة بها - وإذا تبدّلت الأفراد أو تغيّرت الأشخاص .

صفات أنصار الدين

وعلي كلّ .. فإذا ارتدّ شخص أو بعض الأشخاص ممّن كانوا يعيشون مع المؤمنين أو يدعون الإيمان .. فإنّ ذلك لن يضرّ بمسيرة الحقّ الإلهي إذ أنّ الدين منصور ومظفر دائماً وأبداً ، والأشخاص الذين سيأتي بهم الله سبحانه لنصرة دينه لهم مميزات وخواص في القمّة ، فمنها هو :

1 - ((يحبّهم ويحبّونه)) :

أي أنّه ذو صلة بهم فيرحمهم .. وهم علي صلة به فيطيعوه ويعبدوه .. ولا

ص: 307

يشركون بعبادته أحداً ، وفي الشعر المنسوب إلى الإمام الصادق (عليه السلام) إشارة إلى ذلك حيث قال (عليه السلام) :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه

هذا لعمرك في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته

إنَّ المحبَّ لمن أحب مطيع (1)

وبالطبع ينبغي أن يكون الحبّ نابعاً عن معرفة .. بل لا يمكن أن يوجد حب حقيقي بلا معرفة حقّة ، فكلمّا كانت المعرفة أكثر كان الحبّ أشدّ ، فإذا توجّه الإنسان إلى عظمة الله تعالى وتأمّل في عظيم أطافه ونعمه الوافرة عليه ، فلا شك ولا ريب فإنّ حبه له سيكون أشدّ وكما قال تعالى : «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ (2)» .

لأنّهم أكثر معرفة ، فيكونوا أشدّ حبّاً له جلّت قدرته .

من جانب آخر إذا عرف الإنسان عظمة أحد الأنبياء العظام عليهم السلام أو أحد الأولياء الكرام عليهم السلام أو أحد العباد الصالحين فإنّه بلا شك سوف يحبه ويعظم مسيرته ويجعل منه ومن حياته وكلماته منهاجاً لحياته كلّها .

فما من أحد قرأ عن رسول الإنسانية محمد صلي الله عليه وآله إلا وانبهر بشخصيته الفدّة وقد عبّر الكثير منهم عن إعجابه ذاك كما يكل هارث في كتابه المائة الأوائل من العظماء حيث وضع رسول الله صلي الله عليه وآله أول شخصية في العالم .

إذن فالحبّ لا يكون جزافاً أو عبثاً بل له منشأ .

فحبّ الله - سبحانه - لعباده المؤمنين لعلمه بهم أكثر من علمهم بأنفسهم .. فهو عالم بحبّهم وإخلاصهم وتقواهم وعملهم لما يرضيه .

فيحبّهم لما يعلمه من صدقهم ، ويغفر لهم خطاياهم ، ويتفضّل عليهم بما لم يخطر على بال أحدهم .

ص: 308

1- وسائل الشيعة : ج 15 ص 308 ح 20596 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 165 .

2 - ((أذلة علي المؤمنين أعزة علي الكافرين)) :

وفي آية أخرى «أشداء علي الكفار رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ(1)» أي أنهم سهلين لئتين ، خاضعين متواضعين فيما بينهم ، وفي علاقاتهم الاجتماعية جداً متسامحين .

أمّا مع الكفار فهم غلاظ أشداء عليهم ، لا يرحمهم أبداً .

وقد قال ابن عباس : ((تراحم للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيدته .. وهم في الغلظة علي الكافرين كالسبع علي فريسته)) (2).

وقد أوصي الأئمة الأطهار عليهم السلام المؤمنين بالتراحم والتواد ، فعن شعيب العرقوفي قال : سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول لأصحابه : ((اتقوا الله وكونوا إخوة بررة ، متحابين في الله ، متواصلين ، متراحمين)) (3).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((تواصلوا وتبادروا وتراحموا وكونوا إخوة بررة كما أمركم الله عز وجل)) (4).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((يحق علي المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون علي التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم علي بعض حتي تكونوا كما أمركم الله عز وجل «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» متراحمين)) (5).

3 - ((يجاهدون في سبيل الله)) :

فقد قال أمير المؤمنين في خطبة له حول الجهاد :

((فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس

ص : 309

1- سورة الفتح (48) : الآية 29 .

2- مجمع البيان : ج 6 مج 3 ص 357 .

3- الكافي : ج 2 ص 175 ح 1 .

4- الكافي : ج 2 ص 175 ح 2 .

5- الكافي : ج 2 ص 175 ح 4 .

التقوي ودرع اللّٰه الحصينة وجنّته الوثيقة)) (1). وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبته الشهيرة في نهج البلاغة : ((والجهاد عزّ الإسلام السامي ، ودرعه الواقى)) (2).

وكما في الحديث الشريف أنّ الجهاد في سبيل اللّٰه علي نوعين حدّدهما رسول اللّٰه صلي الله عليه وآله فقال صلي الله عليه وآله : ((أهلاً بكم في الجهاد الأصغر ، وبقي عليهم الجهاد الأكبر)).

فقالوا : يارسول اللّٰه صلي الله عليه وآله وما الجهاد الأكبر ؟

فقال صلي الله عليه وآله : ((جهاد النفس)) (3).

فمن غلب نفسه ، فقد انتصر علي أعدائه في الحياة وإلا فإنّ الشهوات تجرفه إلي الهلاك المحتوم .

4 - لا يخافون لومة لائم .

فإنّ الكثير من الناس ليس عندهم الشجاعة النفسية لتحطيم السنن والعادات والتقاليد الخاطئة في المجتمع ..

بل إنّ الكثير منهم يسقطون في هذه النقطة حيث يخافون الناس ويهابونهم ، ولذا تجدهم يخوضون معهم بالذي هم فيه وإلي ذلك يشير تعالي في قوله : «وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (4)» وفي آية أخرى قال تعالي : «وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّٰهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (5)».

فكلّ هذه المقولات فيها مغالطة يجب أن تصحّح باتجاه الحقّ والعدل إذ أنّ كلام الناس لا ينفذ .. ورضاهم غاية لا تدرك .

ص: 310

1- نهج البلاغة : خ 27 يستنهض فيها الناس حين ورد خبر غزو الأنبار .

2- نهج البلاغة : خ 27 يستنهض فيها الناس .

3- الكافي : ج 5 ص 12 ح 3 .

4- سورة المدثر (74) : الآية 45 .

5- سورة التوبة (9) : الآية 65 .

إشارة

(36) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنُتُمْ مُؤْمِنِينَ» (سورة المائدة: 57)

في رحاب المفردات

هزواً: الهُزءُ مزح في خفية وقد يقال لما هو كالمزح ، فمما قصد به المزح قوله : «اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا(1)».

لعباً : لَعِبَ فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً يلعب لعباً قال : «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ(2)».

ص: 311

1- سورة المائدة (5) : الآية 58) كتاب العين .

2- سورة العنكبوت (29) : الآية 64) مفردات الراغب : الآية 471 .

شأن النزول

ذكر أصحاب التفاسير في أسباب نزول هذه الآية المباركة : أن رفاعة بن زيد ابن تابوت وسويد بن الحرث قد أظهر الإسلام ، ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما(1).

عبر من الآية

تارةً أخري يعود القرآن بنا إلي مسألة تولي الكافرين والولاية للمشركين وأهل الكتاب من يهود ونصاري وغيرهم . ولا يخفي أن النهي عن تولي هؤلاء يعني الاستقلالية في الحياة أولاً ، والإحترام من كيدهم من جهة ثانية .

ففي هذه الآية الشريفة يحذّرنا القرآن الكريم من صنف آخر وبنهانا من أن نتخذهم أولياء ألا وهم «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا(2)» سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من المنافقين أم حثي من غيرهم ، فإن كل من يتخذ الإسلام ويقابله بالسخرية والاستهزاء - والعياذ باللّٰه - فعلي المؤمنين أن يجتنبوه بل ويحاربوه إن استطاعوا ذلك .

ولعلّ البعض يتساءل قائلاً : إذن من يبقي لنا كي نتولاه ؟ فقد نهتنا الآيات عن تولي الكثير من الناس ؟ وإذا لاحظنا الحالة الاجتماعية التي فطر عليها الإنسان فإنّ الاجتناب عن كل هؤلاء يصبح صعب جداً ، فماذا نصنع ؟ وما هو الحلّ ؟

ص : 312

1- مجمع البيان : ج 6 مج 3 ص 365 .

2- سورة المائدة (5) : الآية 57 .

للجواب عليه نقول إنَّ هناك ضوابط مهمّة بني الإسلام الحنيف مسألة التولّي عليها ألا وهي مسألة الانتماء الديني والارتباط العقائدي المفترض أن يكون هو المحور الذي يدور حوله المؤمنون وينجذب من خلاله بعضهم إلي الآخر ، وإلي ذلك يشير قوله تعالى : «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ(1)» فأية رابطة أقوى من هذه ؟

ففي الدين يوجد الترابط القوي ، وفيه حياة الإنسان - كنوع - وسعادته في الدنيا والآخرة علي حدّ سواء ، فكيف يمكن للمؤمنين أن يتّخذوا هؤلاء (اليهود والنصارى والكفار والأعداء) أولياء والحال أنّهم «اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا(2)». حيث أظهروا الإسلام باللسان - نفاقاً وخوفاً ورياءً - وأبطنوا الكفر والإلحاد ؟

أو أنّهم اتّخذوكم بالسخرية والهزو واللعب ، فتراهم حيث يقوم المؤمنون إلي الصلاة يتغامزون ويتضحكون ، وإذا حلّ شهر رمضان المبارك تراهم يتفخرون بالمعصية ويضحكون علي من هم صائمون ، وإذا جاء ذكر الحجّ تراهم يسخرون من أولئك العباد الذين يتعتّون ويذهبون ليلتّبوا دعوة إبراهيم الخليل (عليه السلام) وأمر الله وفرضه .

فيضحكون منهم قائلين : ما أقلّ عقولكم لو صرفتم هذه المصاريف في تحسين أوضاعكم وأوضاع عيالكم ألم يكن أجدر من أن تذهبوا لتعطوها من أجل أعمال لا تغني ولا تشبع من جوع ؟

ص: 313

1- سورة الحجرات (49) : الآية 10 .

2- سورة المائدة (5) : الآية 57 .

الملفت للانتباه أنّ أمثال هؤلاء كثيرون ، فمنذ عهد الإمام الصادق(عليه السلام) كان ابن أبي العوجاء يضحك ويسخر من الحجاج ، ففي الحديث أنّ أبا العوجاء أتى الإمام الصادق(عليه السلام) فجلس إليه في جماعة من نظرائه ثم قال له : يا أبا عبد الله إنّ المجالس أمانات ولا بدّ لكل من كان به سعال أن يسعل فتأذن لي في الكلام ؟ فقال الإمام الصادق(عليه السلام) : تكلم بما شئت ، فقال ابن أبي العوجاء : إلي كم تدوسون هذا البيدر وتلوذون بهذا الحجر وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر وتهزلون حوله هرولة البعير إذا نفر من فكر في هذا أو قدّر علم أنّ هذا فعل أسسه غير حكيم ولا ذي نظر ، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه وأبوك أسه ونظامه .

فقال الصادق(عليه السلام) : ((إنّ من أضلّه الله وأعمى قلبه استوخم الحقّ فلم يستعدّ به وصار الشيطان وليّه يورده مناهل الهلكة ثم لا يصدره وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في اتّباعه فحثّهم علي تعظيمه وزيارته وقد جعله محلّ الأنبياء وقبلة للمصلّين له ، فهو شعبة من رضوانه وطريق تؤدّي إلي غفرانه منصوب علي استواء الكمال ومجتمع العظمة والجلال خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام وأحقّ من أطيع فيما أمر وانتهى عمّا نهى عنه وزجر الله المنشيء للأرواح والصور)) (1).

فعلي المؤمنين أن يحترسوا ويحرصوا دائماً علي عدم الاختلاط حتّي بالكفّار والمشركين من أجل قطع دابر الذين كفروا .. والذين هم برّبهم يعدلون .. إذ أنّه لا يمكن أن تركز إلي إنسان يسخر من مقدّساتك ويضحك منك إذا ما قمت إلي أداء واجباتك الدينية ، لأنّ ذلك يكون توجيه ضربة قويّة للأسس الاعتقادية الراسخة في

قلب الإنسان المؤمن .. وهذا ما لا يسمح به لأحد أبداً حتّى لو أدّى ذلك إلى الجهاد حتّى القتل في سبيل الله .

مراعاة ضوابط الإيمان في الصداقة

ومن المسلّمات عند الجميع أنّه لا شيء يعمّر القلوب بالسعادة والهناء ، ويضاعف من أفراحها - إن كانت مسرورة - ويبدّد من أحزانها ، إن كانت بانسة يائسة .. مثل الصداقة والأصدقاء .

ولا شيء أجمل وأثمن من الصداقة ، لأنّها أعظم نعم الحياة عند من يفهم الحياة .

ولا شيء أقوى وأثمن من الصداقة ، لأنّها أرواح متألّفة متكاتفّة بالذات .

ولا شيء يغني عن الأصدقاء أبداً حتّى الجاه والمال ، وحتّى النساء والعيال ، بل وحتّى الصحّة والأمان .

ولا شيء يوازي الصداقة ، لأنّها حبّ وولاء ، وتضامن واصطفاء ، وصدق وصفاء ، وتفاعل الروح مع الروح ، وانجذاب القلب للقلب ، واستجابة العقل للعقل .

ومن عاش بدون أصدقاء فقد عاش في مغارة موحشة مظلمة ، وإن كان في جنة تجري من تحتها الأنهار ، ومن عاش بهم فهو في نعيم الله والإنسانية ، وإن كان في قفر مخيف ، لا سبيل فيه ولا دليل .

فالإنسان بمعناه الإنساني ، وإن كثر ماله ، وامتدّ جاهه يظلّ يحسّ ويشعر أنّ في حياته فراغاً ونقصاً إذا فقد الأصدقاء والأوفياء . لأنّهم يمنحون الحياة البهجة والمسرة .

ولكن كل ذلك يجب أن يكون بين المؤمنين بالله - عزوجل - ولا يتحقق كل ذلك إلا بالإخلاص والوفاء بين الإخوة والأصدقاء لأنّ الوفاء من رؤوس الفضائل الإنسانية .

أمّا أن نحبّ ونوالي ونخلص لأعدائنا من الكفّار والمشركين وأهل الكتاب فهذا لا يمكن أبداً ، لأنّه لا وفاء لهم ولا عدد ولا ذمّة . فالنهي الإلهي عن مثل هذه العلاقات غير السويّة ، يؤكّد عليّ تلك العلاقات السويّة والصالحة بين المؤمنين .

وكما قال سبحانه وتعالى : «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (1)» .

ص: 316

1- سورة الحجرات (49) : الآية 10 .

(37) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» (سورة المائدة: 87)

في رحاب المفردات

طَيِّبَاتٍ : يقال : طاب الشيء يطيب طيباً فهو طيب ، وأصل الطيب ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس ، والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز بقدر ما يجوز ، ومن المكان الذي يجوز فإنه متي كان كذلك كان طيباً(1).

تعتدوا : العدو هو التجاوز ومنافاة اللتنام . فتارةً يعتبر بالقلب فيقال له العداوة والمعاداة ، وتارةً بالمشي فيقال له العدو ، وتارةً في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له العُدوان والعدو ومن المعاداة يقال رجل عدو وقوم عدو ، وقد قال الله تعالى : «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ(2)».

ص: 317

1- مفردات الراغب : ص 321 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 36) مفردات الراغب : ص 338 .

قد ذكر أصحاب التفاسير بعض القصص في سبب نزول هذه الآية منها :

أن رسول الله جلس صلي الله عليه وآله يوماً فذكر الناس ، ووصف القيامة ، فرق الناس وبكوا ، واجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي .. واتفقوا علي أن يصوموا النهار ، ويقوموا الليل ، ولا يناموا علي الفرش ، ولا يأكلوا اللحم ، ولا الودك ، ولا يقربوا النساء والطيب ، ويلبسوا المسوح ، ويرفضوا الدنيا ويسبحوا في الأرض ، وهم بعضهم أن يجب نفسه .

فبلغ ذلك رسول الله صلي الله عليه وآله فأتى دار عثمان ، فلم يصادفه ، فقال لامرأته أم حكيم بنت أبي أمية واسمها حواء وكانت عطارة : أحق ما بلغني عن زوجك وأصحابه ؟

فكرهت أن تكذب علي رسول الله صلي الله عليه وآله ، وكرهت أن تبدي علي زوجها فقالت : يا رسول الله إن كان أخبرك عثمان ، فقد صدقك .. فانصرف رسول الله صلي الله عليه وآله فما دخل عثمان ، أخبرته بذلك ، فأتى رسول الله صلي الله عليه وآله هو وأصحابه فقال لهم رسول الله صلي الله عليه وآله : ((ألم أنبئكم أنكم اتفقتم علي كذا وكذا)) ؟

فقالوا : بلا يا رسول الله ، وما أردنا إلا الخير .

فقال رسول الله صلي الله عليه وآله : إني لم أؤمر بذلك . ثم قال صلي الله عليه وآله : ((إن لأنفسكم عليكم حقاً ، فصوموا وافطروا ، وقوموا وناموا ، فإني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأكل اللحم والدم ، وآتي النساء ، ومن يرغب عن سنتي فليس مني)).

ثم جمع الناس وخطبهم قائلاً : ((ما بال أقوام حرّموا النساء ، والطعام ، والطيب ، والنوم ، وشهوات الدنيا ؟ أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً ، فإنه ليس في ديني ترك اللحم ، ولا النساء ، ولا اتخاذ الصوامع ، وإن سياحة أمّتي الصوم ، ورهبانيتهم الجهاد .

اعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وحجّوا واعتمرّوا ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا شهر رمضان ، واستقيموا يستقيم لكم ، فإنّما هلك من كان قبلكم بالتشديد : شدّدا علي أنفسهم ، فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع(1)).

عبر من الآية

من أهمّ الأمور المهمّة التي أكّد عليها الإسلام الحنيف وأوصي بها المسلمين قاطبة فضلاً عن عباده المؤمنين هو أن لا يحتملوا أنفسهم فوق طاقتها ، وأن لا يتركوا حلال الدنيا من أجل الآخرة .

فهذه مشقّة ما بعدها مشقّة ، ومحاربة للنفس ما بعدها محاربة . وهذا بحدّ ذاته ليس مطلوباً في هذه الدنيا علي الأقل ، فالطيّبات واللذائذ مخلوقة خصيصاً للمؤمنين من العباد ، وبقية المخلوقات يأكلون منها بالتبع لهم - كما قال بعض العلماء - .

الملفت للانتباه أنّ الآية المباركة تشير أنّ مثل هذه الأعمال (اعتداء) حيث قال تعالي : «لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(2)» لأنّ نفس ليست ملكه ، وجسمه ليس له ، بل هما لله وهبهما إليه ليفعل الطاعات ويجتنب المعاصي ويأكل الطيّبات ويجتنب الخبائث والمحرمات .

فكما أنّ الله يحب أن يؤخذ بعزائمه كذلك فهو يحبّ أن يؤخذ برخصه ، ولا يحبّ الشرّ والاعتداء في رخصه ، بحيث يؤدي إلي الانتقال إلي ما هو حرام ومحظور

ص: 319

1- مجمع البيان : ج 7 مج 3 ص 405 - 404 .

2- سورة المائدة (5) : الآية 87 .

بأصل الشريعة أو بحيث يؤدي إلى صيرورة المباح حراماً بغرض التجاوز عن حدّ الترخيص بالإكثار فيه ، كما لا يحبّ الامتناع التامّ عن رخصه .

فمعني الآية - بالإجمال - يأتيا الذين آمنوا لا تمتنعوا من الرخص ولا تحرموا (بقسم أو شبهة ، ولا بكسل ونحوه) علي أنفسكم ما تستلذّه المدارك والحواس لأنّ الله يحبّ أن يري عبده مستلذّاً بما أباحه له مثلما يحبّ أن يراه مستلذّاً بعبادته ، ومناجاته فلا تمتنعوا بالإكتفاء بمستلذّات المرتبة الدانية عن مستلذّات المرتبة العالية .

فمشكلة (الرهينة والرهبان) هي مشكلة قديمة ولا زالت إلي اليوم مستعصية عن الحل عند الأديان الأخرى . وهي تقابل إلي حدّ كبير (التصوّف) في الدين الإسلامي الحنيف ، الذي هو ليس من الدين في شيء بل هو بدعة ابتدعتها بعض المرضي النفسانيين - كما يتصوّر بعض علماء الغرب - والتصوّف طريقة عبادية لا أكثر ولا أقل .

وكلاهما (الرهينة والتصوّف) يعنيان - فيما يبدو - الإنعزال التامّ في الدنيا والناس ، وترك لذائذها وطيباتها ، والتفرّغ لشؤون الآخرة وتركية النفس التي حملوها .

المسيحية والرهبانية

إنّ الرهبان اليوم والقساوسة هم رجال وعلماء الدين المسيحي (النصاري) وقد أصبحت الرهينة شعاراً لرجال الدين عندهم ، مدّعين أنّهم أخذوا ذلك من السيّد المسيح (عليه السلام) الذي كان من أقرب عباد الله وأعبد خلقه في عصره وزمانه .

وبكلمة : إنّ السيّد المسيح (عليه السلام) لم يترهب ، ولكن الرهبان الترقوا به ، وترهبناوا باسمه الشريف . ورسالة السيّد المسيح (عليه السلام) كلّها كانت تصحيحية ولم تكن

تأسيسية ، بل صحّحت رسالة كلّيم الله موسى (عليه السلام) وعندما جاء الدين الخاتم ، وبعث الرسول الأكرم صلي الله عليه وآله بدين الإسلام ، أراد الله سبحانه للحياة أن تتعادل وأن يوجد فيها التوازن بين الروح والجسد ، فنهى عن الرهينة وكلّ ما يشاكلها من طقوس وأعمال ، ودعا إلي عبادة الله - سبحانه - والاستفادة من كلّ طيّبات الحياة الدنيا ، ولذائدها ، في سبيل تزكية النفس الإنسانية ، فقد قال تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(1)».

إذن إنّ الشرط الوحيد لكل ذلك - بنظر الإسلام الحنيف - هو مراعاة مسألة (التقوي) في الحياة كلّها - في المأكل والمشرب والملبس والمنكح - فإن كانت كلّها من الحلال فهي مباحة ومطلوبة ولا يلام الإنسان في الاستفادة منها بل قد يكون مثاب عليها إذا جعل الاستفادة في سبيل التقوي علي طاعة الله تعالى .

وأما الحرام منها فهو المحظور عنه الذي يعاقب فاعلها علي ارتكابها .

الاستفادة من الطيّبات

كما أنّ في هاتين الآيتين - آية البحث والتي تليها - دلالة واضحة علي كراهة الانعزال ، والتفرد ، والتوحش ، والخروج عمّا عليه جمهور الناس في التناسل ، وطلب الولد ، وعمارة الأرض .

ففي الحديث أنّ النبي صلي الله عليه وآله كان يأكل الدجاج ، والفالودج ، وكان يعجبه الحلواء مع العسل(2). وقال صلي الله عليه وآله : ((إنّ المؤمن حلو يحبّ الحلوة)) (3).

ص: 321

1- سورة الشمس (91) : الآية 10 - 9 .

2- وسائل الشيعة : ج 25 ص 47 ح 31132 .

3- وسائل الشيعة : ج 25 ص 275 ح 31898 .

وقال صلي الله عليه وآله : ((إنّ في بطن المؤمن زاوية لا يملؤها إلاّ الحلوة))⁽¹⁾.

وروي أنّ الحسن كان يأكل الفالودج (نوع من الحلوي) فدخل عليه فرقد السبخي فقال : يا فرقد ! ما تقول في هذا ؟

فقال فرقد : لا آكله ، ولا أحبّ أكله .

فأقبل الحسن علي غيره كالمتعجب ، وقال : لعاب النحل (العسل) ولباب البرّ (الطحين) ، مع سمين البقر ، هل يعيبه مسلم ؟⁽²⁾.

والأحاديث كثيرة في هذا الباب تطلب في موسوعات الفقه .

ص: 322

1- بحار الأنوار : ج 62 ص 113 .

2- مجمع البيان : ج 7 مج 3 ص 406 - 405 .

إشارة

(38) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»

(سورة المائدة : 90)

في رحاب المفردات

الخمر : أصل الخمر ستر الشيء ء ويقال لما يُسْتَر به خمار لكن الخِمار صار في التعارف إسماً لما تَغْطِي به المرأة رأسها ، وجمعه خُمُرٌ ...
والخمر سميت لكونها خامرةً لمقرِّ العقل ، وهو عند بعض الناس اسم لكل مسكر . وعند بعضهم اسم للمتخذ من العنب والتمر(1).

الأنصاب : النصيب الحجارة تنصب علي الشيء ء ، وجمعه نصائب ونُصْب ، وكان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها ، قال : «كَانَهُمْ إِلِي نُصْبٍ يُوفَضُونَ(2)».

ص: 323

1- مفردات الراغب : ص 160 .

2- سورة المعارج (70) : الآية (43) مفردات الراغب : ص 515 .

رجس : الرجس الشيء القدر ، يقال رجلٌ رجس ورجالٌ أرجاس . قال تعالى : «رَجَسَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ(1)».

شأن النزول

عن أبي جعفر(عليه السلام) قال : إن ... شرب قبل تحريم الخمر فسكر فجعل يقول الشعر ويبيكي علي قتلي المشركين من أهل بدر .

فسمع النبي صلي الله عليه وآله فقال : ((اللهم أمسك علي لسانه)) فأمسك علي لسانه فلم يتكلم حتي ذهب عنه السكر ، فأنزل الله تحريمها بعد ذلك .

وإثما كانت الخمر يوم حرمت بالمدينة فضيخ البسر والتمر(2) فلما نزل تحريمها خرج رسول الله صلي الله عليه وآله فقعد في المسجد ثم دعا بأنيتهم التي كانوا يبنذون فيها فكفأها كلها وقال :

هذه كلها خمر وقد حرّمها الله ، فكان أكثر شيء كفي في ذلك يومئذ من الأشربة الفضيخ ، ولا أعلم أكفي يومئذ من خمر العنب شيء إلا إناءً واحداً كان فيه زبيب وتمر جميعاً ، فأما عصير العنب فلم يكن يومئذ بالمدينة شيء حرّم الله الخمر قليلها وكثيرها ، وبيعها وشراءها والانتفاع بها(3).

ص: 324

- 1- سورة المائدة (5) : الآية (90) مفردات الراغب : ص 193 .
- 2- الفضيخ : الشراب المتخذ من التمر وغيره .
- 3- تفسير القمي : ج 1 ص 187 .

عندما أشرقت شمس الإسلام فوق سماء الجزيرة العربية حدث في تاريخ البشرية انقلاب هام حيث إنَّ النفوس تغيّرت وتوجّه الناس نحو الآخرة وراحوا يتسابقون نحو الفضائل حتّى بلغوا أعليّ المراتب وأصبحوا خير الأمم بشهادة الباري تعالي حيث قال في كتابه : «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ (1)».

نعم ، فقد غير الإسلام ذلك المجتمع الجاهلي وحوّله إلى خير أمة وذلك عبر تأكيده المستمر علي اجتناب الرذائل ودعوته الحثيثة إلى تحصيل الفضائل . ومن ضمن الأمور التي أكّد الإسلام علي اجتنابها وشدّد في عقوبته عليها هو شرب الخمر والتردّد علي مجالس اللهو والفسوق التي كانت رائجة في أوساط المجتمع الجاهلي .

وبالفعل ، فقد اهتدي الناس إلي الحقّ وتخلّوا عن عاداتهم السيئة أمثال شرب الخمر وعبادة الأوثان واللعب بالميسر لذلك فقد حالفهم النصر في كل أمورهم وعاشوا سعداء في حياتهم .

ولكن وللأسف الشديد شيئاً فشيئاً أخذ المسلمون يتراجعون القهقري وإذا بهم يعودون إلي سوابقهم ، حيث أضحت الخمر والملاهي رائجة في بلادهم دون أن ينسوا بنت كلمة . وإذا عدنا إلي واقعنا المعاصر .. وفي بعض المجتمعات الإسلامية لوجدنا أنّ هذه الأمور - الخمر والقمار والفساد - أصبحت متجذّرة في المجتمع ومختلطة بعروق الإنسان بشكل عجيب .

ومع الأسف الشديد بالرغم من تعدّد الآيات المباركة الناهية عن شرب الخمر فضلاً عن مذمّة أهل البيت عليهم السلام لشارب الخمر وتوضيحهم لمساوئه إلا أنّ بعض المسلمين لا يعبأ بذلك ويغضّ الطرف عن جميع هذه المناهي ، فعن رسول الله

قال صلي الله عليه وآله إنه قال : ((شارب الخمر لا تصدّقه إذا حدّث ، ولا تزوّجوه إذا خطب ، ولا تعودوه إذا مرض ، ولا تحضروه إذا مات ، ولا تأمنوه علي أمانة))⁽¹⁾.

وقال الإمام الصادق(عليه السلام) : ((شارب الخمر إن مرض فلا تعودوه وإن مات فلا تشهدوه وإن شهد فلا تزكّوه وإن خطب إليكم فلا تزوّجوه فإنّ من زوّج ابنته شارب الخمر فكأنّما قادهما إلي الزنا ومن زوّج ابنته مخالفاً علي دينه فقد قطع رحمها ومن اتّمن شارب الخمر لم يكن له علي الله تبارك وتعالى ضمان))⁽²⁾.

وقال الإمام علي(عليه السلام) : ((فرض الله ترك شرب الخمر تحصيناً للعقل))⁽³⁾.

وعن الإمام الباقر(عليه السلام) : ((أفاعيل الخمر تعلو علي كل ذنب ، كما تعلو شجرها علي كل الشجر))⁽⁴⁾.

وقال الإمام الصادق(عليه السلام) : ((إنّ الله جعل للشّرّ أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب وشّرّ من الشراب الكذب))⁽⁵⁾.

وقد أشارت بعض الأحاديث إلي الحكمة وراء تحريم شرب الخمر ، فعن المفضّل بن عمر الجعفي قال : قلت لأبي عبدالله(عليه السلام) : لم حرّم الله الخمر ؟ قال(عليه السلام) : ((حرّم الله الخمر لفعالها وفسادها : لأنّ مدمن الخمر تورثه الارتعاش ، وتذهب بنوره ، وتهدم مروّته ، وتحمله علي أن يجسر علي ارتكاب المحارم ، وسفك الدماء ، وركوب الزنا ، ولا يؤمن إذا سكر أن يثب علي حرمه ، وهو لا يعقل ذلك ، ولا زيد شاربها إلا كل شرّ))⁽⁶⁾.

ص: 326

- 1- الكافي : ج6 ص396 ح4 .
- 2- من لا يحضره الفقيه : ج4 ص58 ح5091 .
- 3- نهج البلاغة : ق252 .
- 4- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص571 ح4952 .
- 5- الكافي : ج2 ص339 - 338 ح3 .
- 6- وسائل الشيعة : ج25 ص306 - 305 ح31970 .

وعن الإمام الرضا(عليه السلام) قال : ((حرّم الله الخمر لما فيها من الفساد ، ومن تغيير عقول شاربها ، وحملها إيّاهم علي إنكار الله عزّوجلّ ، والفرية عليه وعلي رسله ، ومسائر ما يكون منهم من الفساد والقتل))⁽¹⁾.

وقال الإمام علي(عليه السلام) : ((ترك شرب الخمر تحصيناً للعقل))⁽²⁾.

اجتناب مجالس شرب الخمر

من جانب آخر فقد بالغ المعصومون عليهم السلام في نواهيهم عن اقتراب الخمر حتّي شملت تحريم المشاركة فيها ، فعن رسول الله قال صلي الله عليه وآله : ((ملعون ملعون من جلس طائعاً علي مائدة يشرب عليها الخمر))⁽³⁾. وقال صلي الله عليه وآله : ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس علي مائدة يشرب عليها الخمر))⁽⁴⁾. وقال صلي الله عليه وآله : «لا تجلسوا علي مائدة يشرب عليها الخمر ، فإنّ العبد لا يدري متي يؤخذ»⁽⁵⁾. وقال صلي الله عليه وآله : ((لعن الله الخمر ، وعاصرها ، غارسها ، وشاربها ، وساقها ، وبائعها ، ومشتريها ، وأكل ثمنها ، وحاملها والمحمولة إليه))⁽⁶⁾. ولا يخفي أنّ آية البحث كما أنّها تنصّ علي حرمة شرب الخمر كذلك فهي تؤكّد علي أمور أخرى منها :

1 - أنّ تحريم الخمر تحريماً قطعياً كما يقول المفسّرون وأصحاب الفقه الكرام .

2 - تحريم القمار لما له من مفسد اجتماعية .

3 - وتحريم عبادة الأصنام ، بل ورفضها رفضاً قاطعاً ، لأنّها رجس من

ص: 327

1- وسائل الشيعة : ج 25 ص 329 ح 32040 .

2- نهج البلاغة : ق 252 .

3- الكافي : ج 6 ص 268 ح 1 .

4- تهذيب الأحكام : ج 9 ص 97 ح 156 .

5- وسائل الشيعة : ج 25 ص 28 ح 31077 .

6- من لا يحضره الفقيه : ج 4 ص 8 ح 4968 .

ناحية، ومن عمل الشيطان من ناحية ثانية، وشرك بعبادة الله - والعياذ بالله - من ناحية ثالثة .

4- تحريم الأزلام وهي أقداح الخشب الذي كانوا يقتربون بها في الجاهلية .

فكل هذه الأمور محرمة لأنها من عمل الشيطان ، وليس لله فيها نصيب أبداً .

مع التفاسير الواهية

ولا- يخفي أن الأمر بالاجتناب يعني التحريم لا كما ذهب البعض حيث جاءوا بتفسيرات واهية ليس لها دليل من شرع أو عقل أو كتاب مبین . حيث قالوا :

إن المراد من اجتنابه : أي أمر بجعله بجانبك دائماً وأبداً ((أي تأبطه)) فلا تشربوا أو لا تقتربوا أو فاجتنبوه .. كلها تفيد التحريم كقوله تعالى :
«وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ(1)».

فالآية إجتماعية بحتة والأضرار الاجتماعية توضحها الآية التي تليها ومنها :

1 - أضرار إجتماعية أشار إليها قوله تعالى : «يُوقَع بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ(2)».

2 - أضرار دينية أشار إليها قوله : «يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ(3)» ووعوده كالسراب تماماً . وعلي كل فإن عنصر الإيمان هو الذي جعل المدينة المنورة ، يسيل فيها الخمر في كل جانب وذلك حين نزول هذه الآية لكثرة ما أريق منه يومذاك كما يذكر أصحاب التواريخ .

ص: 328

1- سورة الأنعام (6) : الآية 152 .

2- سورة المائدة (5) : الآية 91 .

3- سورة النساء (4) : الآية 120 .

إشارة

(39) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلِئِكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيِّدِ تَتَّالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (سورة المائدة: 94)

في رحاب المفردات

يخافه : هو توقع مكروه عن أمانة مظنوننة أو معلومة ، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمانة مظنوننة أو معلومة ، ويضاد الخوف : الأمان ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية(1).

الغيب : مصدر ، فيقال مثلاً غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن الأعين ، واستعمل في كل غائب عن الحاسة وعمّا يغيب عن علم الإنسان ، والغيب في قوله «يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ(2)» ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وإنما يقع بخبر الأنبياء عليهم السلام(3).

ص: 329

1- مفردات الراغب : ص 161 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 3 .

3- مفردات الراغب : ص 381 .

عذاب : هو الإيجاع الشديد ، وقد عذّبه تعذيباً أي أكثر حسبه في العذاب ، قال تعالى : «لَأَعَذَّبَنَّكَ عَذَاباً شَدِيداً»(1).

شأن النزول

روي علامة الحنفية محمد بن يوسف الزرندي في نظم درر السمطين عن مجاهد قال : ((ما كان في القرآن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» فَإِنَّ لِعَلِي سَابِقَةَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ سَبَقَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ)) (2).

عبر من الآية

إنّ كل من يتلو هذه الآية المباركة تجول في خلدته التساؤلات التالية وهي : لماذا خصّصت الآية المباركة النداء بالمؤمنين ؟ وما هو علاقة الابتلاء بالصيد ؟ ولماذا يكون هذا الابتلاء أيام الحجّ فحسب وليس في غيرها ؟ حتّى نجيب علي هذه التساؤلات نقول : إنّ من خلال هذا الدرس المبارك في هذه الآية الكريمة يتبّه الله سبحانه وتعالى المؤمنين إلي مسألة هامة تعتبر بمثابة البلاء لهم أيام الحجّ ألا وهي مسألة ((الصيد)) في حالة الإحرام .

ففي هذه العبادة ((الحجّ)) توجد جملة من العبادات التي أريد منها فصل

ص: 330

-
- 1- سورة النمل (27) : الآية (21) مفردات الراغب : ص 339 .
 - 2- نظم درر السمطين : ص 89 .

الإنسان عن إطار ((المادة)) ولهذا فقد حرّمت الكثير من الأمور المادية علي الإنسان إذ أنّ بين البعد المادي والمعنوي كما يقولون كالمشرق والمغرب ، فكّلما اقترب الإنسان من أحدهما ابتعد عن الآخر .

وكّلما توغّل في ((المادة)) بما هي مادة كلّما ابتعد عن المعنويات .. والعكس كذلك صحيح إلي حدّ ما .

ولذا فقد حرّم في الحجّ حتي النظر في المرأة .. لأنه يرتبط بالزينة والتجمل .

وكذلك حرّمت النساء .

والجدال بالباطل .

امتحان تحريم الصيد

ومن جملة هذه المحرّمات التي حرّمها الشارع المقدّس في الحجّ هو تحريم الصيد - كما في الآية - المباركة وذلك لأنه يرتبط بأمرين إثنين من أمور الدنيا :

1 - إنّه يعتبر حالة من حالات اللهو والعبث أكثر منه إلي الجدّ والعمل .

2 - وهو مقدّمة للأكل اللذيذ وكلا الأمرين كما هو واضح من الأمور المادية الدنيوية ، والحال أنّ الحجّ يريد من الإنسان أن يرتفع إلي الروحانيات والمعنويات باعتبار أنّ الحجّ ((قيامه صغري)) كما قيل .

وعلي كل .. فقد جاء هذا التحريم الإلهي اختباراً في اختبار ((أي مضاعفاً)) حيث إنّ التحريم هو بحدّ ذاته اختبار .. ثمّ هو مع وفرة الصيد وكونه في متناول اليد اختبار آخر .

ففي التاريخ أنّ المسلمين في عام صلح الحديبية وبعد نزول هذه وقعوا في شرك هذا الابتلاء وإلي ذلك تشير الأحاديث الشريفة ، فعن الإمام الصادق(عليه السلام) قال في

قول الله عز وجل: «لِيَلْبَسَنَّكُمْ اللَّهُ بِشِيءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ» : ((حشرت لرسول الله صلى الله عليه وآله في عمرة الحديبية الوحوش حتى نالتها أيديهم ورماحهم)) (1).

وفي حديث آخر عنه (عليه السلام) قال : ((حشر عليهم الصيد في كل مكان حتى دنا منهم ليلوهم الله به)) (2).

وهناك عدة أحاديث في هذا الباب تعطي نفس الفائدة ، فقد قال علي بن إبراهيم صاحب تفسير القمّي المشهور : إن الآية نزلت في غزاة الحديبية قد جمع الله عليهم الصيد فدخلوا بين رحالهم ليلوهم الله به ((أي يختبرهم)) (3).

فالامتحان الإلهي صعب - وربما مستصعب - والأقلاء هم من يجتازون الامتحان بنجاح وخاصة في مثل هذه المواقع الحرجة والحساسة ، فإن تصطاد طير فهذا بحاجة إلي عناء وتعب جداً قاسي ، ولكن أن تكون جائعاً .. ويأتي الطائر إلي رحلك أو يقف علي كتفك أو أفراخه بين قدميك ولا تمد إليه يدك أو توجه إليه سهمك فهذا أمر لا شك أصعب ، وامتحان ما بعده امتحان .

فالأمر يحتاج إلي تقوي ، وهي كما نصّ الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال لإسحاق بن عمّار : ((خف الله كأنك تراه ، وإن لم تكن تراه فإنه يراك)) (4).

فالخوف من الله - بالغيب - هو قمة التقوي والإيمان .

والخوف : هو عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في

ص: 332

1- الكافي : ج 4 ص 396 ح 1 .

2- تهذيب الأحكام : ج 5 ص 301 ح 20 .

3- تفسير القمّي : ج 1 ص 182 .

4- وسائل الشيعة : ج 15 ص 220 ح 20324 .

الاستقبال ، وبحسب تظافر أسباب المكروه تكون قوّة الخوف وشدّة تألم القلب ، وبحسب ضعف الأسباب بضعف الخوف .

وبالتأكيد أنّ الخوف من الله يكون بمعرفة الله ومعرفته صفاته .. تارةً يكون بكثرة الخيانة من العبد بمقارنة المعاصي .. وتارةً يكون بهما جميعاً ، وبحسب معرفته بجلال الله وتعالیه واستغناؤه وبعيوب نفسه تكون قوّة خوفه ..

فأخوف الناس لربّه أعرّفهم به ، ولذلك قال النبي صلي الله عليه وآله : ((ياأيّها الناس اسمعوا ما أمركم به وأطيعوه فإني أخوفكم عقاب الله))⁽¹⁾.

وفي الحديث : ((أعلمكم بالله أخوفكم لله))⁽²⁾.

وقال سبحانه وتعالى : «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»⁽³⁾.

من مقامات الخوف

إنّ الخوف من الله عزّ وجلّ علي مقامين :

1 - الخوف من عذابه : وهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنّة والنار وكونهما دافعين إلي الطاعة والمعصية .. وضعفه بسبب الغفلة وضعف الإيمان .

2 - الخوف من الله .. أي أن يخاف العبد من الربّ ، ويرجو القرب منه وهو خوف العلماء ، وأرباب القلوب والعارفين من صفاته - تعالي - وهذا ما يستفاد من قوله تعالي : «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»⁽⁴⁾ «وقوله تعالي : «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

ص: 333

1- بحار الأنوار : ج38 ص112 ح51 .

2- بحار الأنوار : ج67 ص344 .

3- سورة فاطر (35) : الآية 28 .

4- سورة فاطر (35) : الآية 28 .

وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ(1)».

وقد أشار الأئمة أهل البيت عليهم السلام إلى أهمية مخافة الله وخشيته في أحاديثهم الشريفة ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله :
(رأس الحكمة مخافة الله)(2).

وقال الإمام الصادق(عليه السلام) : ((من عرف الله خاف الله .. ومن خاف الله سخرت نفسه عن الدنيا))(3).

وعنه(عليه السلام) قال : ((إن من العبادة شدة الخوف من الله))(4).

وعنه(عليه السلام) قال : ((المؤمن بين مخافتين .. ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه .. وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك .. فهو لا يصبح إلا خائفاً ، ولا يصلحه إلا الخوف))(5).

وعنه(عليه السلام) قال : ((لا يكون المؤمن مؤمناً حتي يكون خائفاً راجياً .. ولا يكون خائفاً راجياً حتي يكون عاملاً- لما يخاف ويرجو))(6).

وعنه(عليه السلام) قال : ((من خاف الله ، أخاف الله منه كل شيء .. ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء))(7).

وعنه(عليه السلام) قال لإسحاق بن عمار : ((يا إسحاق : خف الله كأنك تراه ، وإن كنت لا تراه فإنه يراك .. وإن كنت تدري أنه لا يراك فقد كفرت ، وإن كنت تعلم أنه

ص: 334

1- سورة البيّنة (98) : الآية 8 .

2- من لا يحضره الفقيه : ج4 ص376 ح5766 .

3- الكافي : ج2 ص68 ح4 .

4- وسائل الشيعة : ج15 ص220 ح20326 .

5- الكافي : ج2 ص71 ح12 .

6- وسائل الشيعة : ج15 ص217 ح20315 .

7- من لا يحضره الفقيه ج4 ص410 ح5890 .

يراك ، ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك)) (1).

فخوف الله سبحانه وتعالى في الغيب لا- ينتج إلا من نفس صافية ، وقلب معلق بحب الله وروح تعشق جذّة الرضا فتخاف من نار القلي والهجر والطرّد من ساحة القدس بجوار رب العالمين .

هكذا يصنع الخوف بأهله

فقد روي الصدوق رحمه الله في أماليه : أنّ رجلاً من الأنصار قال : بينما رسول الله صلي الله عليه وآله مستظلّ بظلّ شجرة في يوم شديد الحرّ ، إذ جاء رجل فنزع ثيابه ثم جعل يتمرغ في الرمضاء .. يكوي ظهره مرّة ، وبطنه مرّة ، وجبهته مرّة ، ويقول : يانفس ذوقي ، فما عند الله أعظم ممّا صنعت بك .

ورسول الله صلي الله عليه وآله ينظر إليّ ما يصنع ، ثم إنّ الرجل لبس ثيابه ثم أقبل .. فأومي إليه النبي صلي الله عليه وآله بيده ودعاه ، فقال له : ((ياعبدالله لقد رأيتك صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من الناس صنعه فما حملك عليّ ما صنعت ؟)).

فقال الرجل : حملني عليّ ذلك مخافة الله .. فقلت لنفسي : يانفس ذوقي ، فما عند الله أعظم ممّا صنعت بك .

فقال النبي صلي الله عليه وآله : ((لقد خفت ربك حقّ مخافته .. وإنّ ربك ليباهي بك أهل السماء)).

ثم قال صلي الله عليه وآله لأصحابه : ((يامعشر لما حضر ادنوا من صاحبكم حتي يدعو لكم .. فدنوا منه ، فدعا لهم وقال : اللهم اجمع أمرنا عليّ الهدى ، واجعل التقوي زادنا ،

ص: 335

نعم ، فكم نحن بحاجة لمثل هذا الخوف - لا سيّما أولئك الشباب - الذين عادةً ما يكونوا عرضة لحمولات الاغواء والانحراف التي يشنّها أعداء الدين وأتباعه .

وعلي آية حال ، فالاعتداء علي حرّمات الله - سواء في الحجّ أو غيره - هو انتهاك للحدود التي حدّدها الله سبحانه وتعالى لعباده ، وعلي العبد أن يخاف سخط وغضب سيّده ومولاه .

ص: 336

1- أمالي الصدوق : ص 340 المجلس 54 ح 26 .

إشارة

(40) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا بِالْغَى الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ» (سورة المائدة : 95)

في رحاب المفردات

يذوق : الذوق هو وجود الطعم بالفم وأصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر ، فإنّ ما يكثر منه يقال له الأكل واختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب لأنّ ذلك وإن كان في التعارف للقليل فهو مستصحب للكثير فخصّه بالذكر ليعمّ الأمرين ، وكثر استعماله في العذاب نحو قوله : «لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (1)». قوله : «وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ

ص: 337

وبال : الوابل والوابل هو المطر الثقيل القطار ، ولمراعاة الثقل قيل للأمر الذي يخاف ضرره وبال كقوله تعالى : «فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ(2)».

ينتقم : النعمة هي العقوبة ، وقد قال الله تعالى : «فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ(3)» وقال : «فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا(4)» وقال : «فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ(5)».

شأن النزول

أخرج العلامة (الشافعي) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الدمشقي المعروف ب (الذهبي) بسنده عن علي بن بديمة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : ((ما نزلت آية فيها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا وعلي رأسها وأميرها وشريفها ، ولقد عاتب الله عز وجل أصحاب محمد صلي الله عليه وآله في غير آية من القرآن وما ذكر علياً إلا بخير)) (6).

ص: 338

1- سورة السجدة (32) : الآية (20) مفردات الراغب : ص .

2- سورة التغابن (64) : الآية (5) مفردات الراغب : ص 547 .

3- سورة الأعراف (7) : الآية 136 .

4- سورة الروم (30) : الآية 47 .

5- سورة الزخرف (43) : الآية (25) مفردات الراغب : ص 526 .

6- ميزان الاعتدال : ج 3 ص 311 .

ونبقي في أجواء الحجّ النورانية المباركة .

حيث إنّ الله سبحانه وتعالى حرّم صيد البرّ علي الأُمّة المحمّدية ، وابتلاهم بالوحوش والطيور المأكولة وغير المأكولة إذ أنّها نزلت فيما بينهم وفرخت فكانوا يمكن لهم أن ينالوها بكل سهولة سواء أكان بالأيدي أم بالرماح كما في الآية السابقة ليعلم من يخافه بالغييب .

وهذا الابتلاء أشبه ما يكون بابتلاء قوم نبي الله موسى (عليه السلام) حيث ابتلاهم ربّهم بتحريم صيد البحر في السبت ، إلا أنّ أُمَّة محمّد صلي الله عليه وآله ابتلاهم بتحريم صيد البرّ في الحجّ ، والصيد يطلق علي كل وحش برّي سواء أكل لحمه أو لم يؤكل ، ففي الشعر المنسوب لأمير المؤمنين (عليه السلام) قوله :

صيد الملوك أرناب وثعالب

فإذا ركبت فصيدي الأبطال

وقد ذهب غيرنا إلي غير ذلك فقيد الصيد بما أكل اللحم فقط .

ولعلّ الحكمة من بعض المحظورات علي المحرم هو أنّ الإنسان يعيش أيامه كلّها بطابعها المادي .

فالأكل والشرب واللباس والتجارة والمال والخسارة والربح وغير ذلك كلّها من أمور الحياة المادية لذلك فلا بدّ للإنسان من فترة يتطهّر فيها عن حطام الدنيا ويتفرّغ فيها لآخرته .

ولا بدّ لطهارته الجسدية من التجردّ من زينة الدنيا وعواقبها كافة .

وحثّي تحصل طهارته الروحية فلا بدّ له من التوجّه إلي الله بقلب سليم وينقطع عن الأمور المادية ، حتّي تعود إلي روحه إلي نصارتها وصفائها وطهارتها ، لأنّه كلّما تجرّد الإنسان وابتعد عن الماديات ، سمي واقترب وارتفع في سماء المعنويات .

ولذا حرّم الشارع المقدّس علي المحرم كل أنواع الزينة والتطيّب .

فحرّم عليه مثلاً (التختم للزينة).

وحرّم (النظر في المرأة) كذلك .

وحرّم (النساء) وحرّم عليهن كل أنواع الزينة كذلك .

حرمة الصيد في الحجّ

ومن جملة المحرّمات المهمّة في الحجّ هو (الصيد البرّي) ولعلّه لأنّه أقرب إلي اللهو والعبث والركض وراء المادّة والابتعاد عن روحانية الإحرام والحجّ .

ولم يكتف الإسلام بذلك (التحريم) بل وضع لمرتكب الجريمة عقوبة مالية هي (الكفّارات) وهي بحدّ ذاتها رادع لمن لا يردعه التحريم بشكل كافي أو مطلق .

فالحاج الذي يفكر أنّه لو اصطاد أي نوع من الصيد - أنه يرتكب محرّماً من جهة - وعليه دفع كفّارة لذلك من ماله الخاصّ بمثل ذلك الصيد الذي أصاب فإنّه بشكل طبيعي سوف يحذر ويتجنّب مثل هذه الأمور .

فصيد بقر الوحش مثلاً - كفّارته من البقر الأهلي وفي قتل الطيبي شاة وفي الثعلب والأرنب شاة . وهكذا مثلاً بمثل حتّي أنه إن لم يستطع المحرم الصائد تقيّم قيمة الصيد ويشتري بقيمته طعاماً يورّعه علي الفقراء والمساكين والمحتاجين .

هذا وللمسألة تفرّعات كثيرة جدّاً ومتشعبة ... تطرّقنا إليها في سؤال القاضي يحيي بن أكثم من الإمام الجواد(عليه السلام) عند المأمون العباسي ووجوه بني العباس إمتحاناً للإمام لمعرفة مبلغ علمه وهو فتى .

فسأله ما رأيك في محرم قتل صيداً؟

ففرّع الإمام الجواد(عليه السلام) المسألة إلي 40 - مسألة وعندما انقطع يحيي بن أكثم

طلب المأمون منه الجواب فأجاب بدقة متناهية عن كل ذلك (1).

الحجّ والانقطاع عن الماديات

وعلي كل فينبغي للإنسان في حالة الإحرام الابتعاد عن كل شيء يصرفه عن أداء وظيفته وتكليفه الشرعي في الحج ، وتحصيل المعطيات المترتبة علي مسائل الحجّ ، فعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : ((إذا أردت الحجّ فجرّد قلبك لله تعالى من شغل كل شاغل ، وحجاب كل حاجب ، وفوّض أمورك كلّها إلي خالقك وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك ، وسلّم لقضائه وحكمه وقدره ، ووّدع الدنيا والراحة والخلق ، واخرج من حقوق تلزمك من جهة المخلوقين .

ولا تعتمد علي زادك وراحلتك وأصحابك وقوّتك وشبابك ومالك ، مخافة أن يصير ذلك عدوّاً ووبالاً فإنّ من ادّعي رضاء الله ، واعتمد علي ما سواه صيرّه عليه وبالاً وعدوّاً ليعلم أنه ليس له قوة وحيلة ، ولا لأحد إلا بعصمة الله وتوفيقه ، فاستعد استعداد من لا يرجو الرجوع .

وأحسن الصحبة وراع أوقات فرائض الله وسنن نبيّه صلي الله عليه وآله وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاوة وإيثار الزاد علي دوام الأوقات .

ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك ، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع .. وأحرم من كلّ شيء يمنحك عن ذكر الله ويحجبك عن طاعته ، ولبيّ بمعني إجابة صادقة صافية خالصة زاكية لله - تعالي - في دعوتك متمسكاً بالعروة الوثقى .

وهرول هروباً من هواك ، وتبرأ من حولك وقوّتك ، واخرج من غفلتك وزلاتك ، بخروجك إلي مني ولا تتمني ما لا يحلّ لك ولا تستحقّه .

ص: 341

1- راجع الإرشاد : ج2 ص283 .

واعترف بالخطايا بعرفات وجدّد عهد عند الله تعالى بوحدانيته ، وتقرّب إليه واتّقه بمزدلفه ، واصعد بروحك إلي الملاء الأعلى بصعودك علي الجبل ، واذبح حنجرة الهوي والطمع عند الذبيحة ، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والذميمة عند رمي الحجرات ، واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك ، وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخولك الحرم ، ودخول البيت متحقّقاً لتعظيم صاحبه ومعرفة جلال سلطانه .

واستلم الحجر رضاً بقسمته ، وخضوعاً لقوّته ، وودّع ما سواه بطواف الوداع ، واصف روحك وسرّك للقاءه يوم تلقاه بوقوفك علي الصفا ، وكن بمراي من الله نقيّاً أوصافك عند المروة ، واستقم علي شرط حجّتك هذه .. ووفاء عهدك الذي عاهدت به مع ربّك وأوجبته له إلي يوم القيامة .

واعلم بأنّ الله - تعالى - لم يفرض الحجّ ولم يخصّه من جميع الطاعات بالإضافة إلي نفسه بقوله تعالى : «وَلِلَّهِ عَلَي النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً(1)» .

ولا شرّع نبيّه صلي الله عليه وآله سنة في خلال المناسك علي ترتيب ما شرّعه إلا للإستعانة والإشارة إلي الموت والقبر والبعث والقيامة . وفضل بيان السبابة من الدخول في الجنّة أهلها ، ودخول النار أهلها . بمشاهدة مناسك الحج من أولها إلي آخرها لأولي الألباب وأولي النهي(2) .

ما أكثر الضجيج

وفي واقع الأمر أنّ الحجّ قيامة صغري بكل ما تعنيه الكلمة من معني .. وعلي

ص: 342

1- سورة آل عمران (3) : الآية 97 .

2- مستدرک الوسائل : ج 10 ص 172 ح 11771 .

الحاج أن يدرك ذلك ويتذكر مواقف يوم القيامة وإذا لم يفعل ذلك كان لاهياً واللاهية لا حج له .. لذلك فإن الكثير ممن يذهبون إلي الحج لا يطلق عليهم حجاج إلا بالظاهر .

أما بالحقيقة والواقع فهم سواح لا أكثر ولا أقل .. فما أكثر الضجيج وأقل الحجيج .. وقد أشار الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) إلي ذلك حيث قال : ((والله ما حج إلا أنا وناقتي وعلي بن يقطين)) رغم أن علي بن يقطين لم يذهب إلي الحج في عامها بل سهّل أمور الحج إلي الكثير من إخوانه المؤمنين .

فالحج طاعة مميّزة ، وعبادة شاقّة متعبة ، وفرض سامي رفيع المستوي ، وواجب علي كل من استطاع إليه سبيلاً ، والمستطيع الذي يسوّف أو يموت دون أن يحجّ فعقابه كبير وشنيع والعياذ بالله .

فقد قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((من مات ولم يحجّ فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً))⁽¹⁾.

وقال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((من مات ولم يحجّ حجة الإسلام لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه .. فليمت يهودياً أو نصرانياً))⁽²⁾.

وقد ورد عن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) أنه : لمّا أحرّم واستوت به راحلته اصفرّ لونه وانتفض ووقع عليه الرعدة ، ولم يستطع أن يلبي .

ف قيل له لم لا تلبي يا بن رسول الله ؟ فقال (عليه السلام) : ((أخشى أن يقول لي لا لبيك ولا سعديك ..)) فلمّا لبّي (عليه السلام) غشي عليه وسقط عن راحلته فلم يزل يعتريه ذلك

ص: 343

1- وسائل الشيعة : ج 11 ص 33 - 32 ح 14166 .

2- الكافي : ج 4 ص 268 ح 1 .

حتى قضى حجّه (1).

فإذا كان هذا حال الإمام زين العابدين ، وسيد الساجدين فما بال بقية الخلق والبشر من العالمين ، فهو(عليه السلام) الذي وصفه الفرزدق بأجمل وصف عبر قصيدته ((الميمية)) الرائعة التي قال فيها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحلّ والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلّهم

هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله

بجدّه أنبياء الله قد ختموا

إلي أن يقول :

يكاد يمسكه عرفان راحته

ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

يغضني حياءً ويغضني من مهابته

فلا يكلمّ إلا حين يتسم

ما قال لا قطّ إلا في تشهده

لولا التشهد كانت لاؤه نعم (2)

إذن ، فعلي من يريد الذهاب إلي الحج أن يطهر نفسه وقلبه ويعرف ربّه ونبيّه ويستمسك بالعروة الوثقى ثم يذهب إلي الحجّ بقيادة واعية ، فمن ليس له قائد تاه وضاع .. ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية .

اللهم ارزقنا حج بيتك الحرام في عامنا هذا وفي كلّ عام ما أبقيتنا في سر منك وعافية .

ص: 344

1- عوالي اللآلي : ج4 ص37 ح121 .

2- مناقب آل أبي طالب : ج4 ص169 .

(41) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن شَيْءٍ إِن تُبَدَ لَكُمْ تُسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ
«(سورة المائدة : 101)

في رحاب المفردات

تبد : بدا الشيء بدواً وبداءً أي ظهر ظهوراً بيئاً ، قال الله تعالى : «وَبَدَأَ لَهُمْ مِنِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ(1)».

تسؤمكم : السوء كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية من فوات مال وجاه وفقد حميم . وعبر عن كل ما يقبح بالسوأي ، ولذلك قوبل بالحسني ، قال تعالى : «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوَاي(2)» كما قال : «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى(3)».

ص: 345

1- سورة الزمر (39) : الآية (47) مفردات الراغب : ص 27 .

2- سورة الروم (30) : الآية 10 .

3- سورة يونس (10) : الآية (26) مفردات الراغب : ص 252 .

شأن النزول

ذكر أصحاب التفاسير والسيرة عند تطرّقهم إلي سبب نزول هذه الآية عدّة أمور منها :

إنّ قوماً كانوا يسألون رسول الله صلي الله عليه وآله استهزاءً مرّة ، وامتحاناً مرّة ، فيقول له بعضهم : من أبي ؟ ويقول الآخر : أين أبي ؟ ويقول الآخر : إذا ضلّت ناقته أين ناقتي ؟

وقيل إنّ رسول الله صلي الله عليه وآله خطب الناس فقال : ((إنّ الله كتب عليكم الحجّ .. فقام عكاشة بن محصن - وقيل : سراقه بن مالك - فقال : أفي كل عام يارسول الله ؟

فأعرض صلي الله عليه وآله عنه حتي عاد مرّتين أو ثلاثاً - فقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ويحك وما يؤمنك أن أقول : نعم ، والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم ، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم علي أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشي ء فاتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شي ء فاجتنبوه)) (1).

عبر من الآية

إنّ من دواعي التسبيح والتهليل والتكبير هو التفكّر في صنائع الله - عزّ وجلّ - .

ولا يخفي أنّ من أعجب عجائب الصنعة الإلهية هو الإنسان نفسه - جسداً ونفساً وروحاً - فهو أعجب من كل المخلوقات العجيبة التي خلقها الله تعالي ، وصدق

ص: 346

عزّ من قائل حيث قال : «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(1)».

فبناء الجسم الإنساني كما يصرّح بعض الأخصائيين أعقد من بناء الكون كلّه ، فالمخّ وتلافيفه ومراكزه الحسّاسة .. والعين وباصرتها ودقّة صنعها .. والمعدة وأعمالها .. هي كما يقول أحد العلماء يحتاج إلي مصنع كيماوي بمساحة باريس حتي يقوم بعمل المعدة فقط .. هذا فضلاً عن بقية أعضاء البدن البشري .

أمّا النفس فهذا الذي ما عرفوه ولا أظنهم سيعرفونه .

وأما الروح فهذه النفخة الإلهية التي لن يعرفوها أبداً .. رغم وصولهم إلي المريخ علواً ، وإلي النبتون دنواً وانخفاضاً وصفراً ، واستنساخ الحيوانات والآدميين ورغم ما بين كل ذلك من علوم رائعة . فلم يستطيعوا - ولن يستطيعوا - معرفة ماهية الروح الإنسانية .

ومن عجائب الجسم الآدمي اللسان تلك القطعة اللحمية اللينة الناعمة فإنه من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعته الغريبة ، فهو صغير الحجم عظيم الطاعة والجزم .. إذ لا يتبيّن الإيمان والكفر إلاّ بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والطغيان ..

من جانب آخر فإنّ للسان ميدان رحب ليس له مرد ، ولا لمجاله منتهي ولا حدّ .. فله في الخير مجال رحب ، وله في الشرّ مجرى سحب ، فمن أطلق لسانه العنان سلك به الشيطان في كل ميدان ، وساقه إلي شفا جرف هار إلي أن يضطره إلي البوار .

وفي واقع الأمر إنّ الإنسان لن ينجو من شرّ اللسان إلاّ إذا قيده بلجام الشرع .. فلا يطلق إلاّ فيما ينفع في الدنيا والآخرة ، علماً أنّ إلبام اللسان عمل في غاية الثقل والعسر لأنه من أعصي الأعضاء علي الإنسان حيث إنّ لا تعب في تحريكه ، ولا مؤونة في إطلاقه .

ص: 347

من هنا فإنّ الذي يلاحظ أخبار أهل البيت ويدقق في أبعادها العميقة يجدها أنّها كثيراً ما تؤكد علي مسألة حفظ اللسان وصيانته من الآفات الكثيرة التي عادةً ما يبتلي بها عامة الناس ، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : ((من صمت نجاً))⁽¹⁾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((إمسك لسانك فإنها صدقة تصدق بها علي نفسك .. لا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتّى يحفظ لسانه))⁽²⁾.

ومرّ أمير المؤمنين (عليه السلام) برجل يتكلم بفضول الكلام فوقف (عليه السلام) وقال : ((يا هذا : فإنّك تملي علي حافظيك كتاباً إلي ربك .. فتكلم بما يعينك ، ودع ما لا يعينك))⁽³⁾.

وقال الإمام السجّاد (عليه السلام) : ((إنّ لسان ابن آدم يشرف علي جميع جوارحه كل صباح فيقول : كيف أصبحتم ؟ فيقولون : بخير إن تركتنا .. ويقولون : الله .. الله فينا ويناشدونه ويقولون : إنما نثاب ونعاقب بك))⁽⁴⁾.

وقال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((إنّ النوم راحة للجسد .. والنطق راحة للروح .. والسكوت راحة للعقل))⁽⁵⁾.

وقد قال لقمان الحكيم لولده : ((يا بني .. إن كنت زعمت أنّ الكلام من فضة فإنّ السكوت من ذهب))⁽⁶⁾.

إذن - وكما يستفاد من الأخبار - فالكلام مذموم إلا في مواضع بيّنها الإمام

ص: 348

1- وسائل الشيعة : ج 12 ص 251 ح 16228 .

2- الكافي : ج 2 ص 114 ح 7 .

3- من لا يحضره الفقيه : ج 4 ص 396 ح 5841 .

4- الكافي : ج 2 ص 115 ح 12 .

5- من لا يحضره الفقيه : ج 4 ص 402 ح 5865 .

6- الكافي : ج 2 ص 114 ح 6 .

السجّاد(عليه السلام) عندما سئل عن الكلام والسكوت أيهما أفضل؟

فقال : ((لكل واحد منهما آفات ، فإذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت)).

قيل : وكيف ذلك يا بن رسول الله؟

قال(عليه السلام) : ((لأنّ الله - عزّوجلّ - ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت ، إنّما بعثهم بالكلام ، ولا استحققت الجنّة بالسكوت ، ولا استوجبت ولاية الله بالسكوت ، ولا توقيه النار بالسكوت ، ولا يجتنب شرط الله بالسكوت إنما ذلك كلّه بالكلام .. ما كنت لأعدل القمر بالشمس ، إنّك تصف فضل السكوت بالكلام ولست تصف فضل الكلام بالسكوت))⁽¹⁾.

من آفات اللسان

ولا يخفي أنّ آفات اللسان كثيرة منها : الغيبة والنميمة ، والكذب ، والفحش ، والمرء ، والخصومة ، والفضول بالباطل ، والتحريف والزيادة والنقصان ، وإيذاء الخلق ، وهتك العورة ، وإفشاء السرّ ، والسخرية ، والاستهزاء .. وما إلي ذلك من الآفات المذمومة التي لا ينجو منها الإنسان إلا إذا استحضر الله في كلماته دائماً ، وإلي ذلك يشير قوله تعالى : «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ»⁽²⁾.

وفي هذه الآية المباركة نجد أنّها تشير إلي آفة من آفات الإنسان أداؤها وسلاحها اللسان ألا وهي الإلحاح بالسؤال والبحث عن الخفايا والخبايا في الأحكام والتشريعات .

وهذا ما لم يتطرّق إليه الشارع المقدّس حيث إنه سكت عن بني البشر في كثير

ص: 349

1- وسائل الشيعة : ج12 ص188 ح16045 .

2- سورة ق (50) : الآية 18 .

من القضايا والأحكام لأنه - تعالي - عالماً بهم وبما يمكن أن يحتملون فإن أكثرهم ضعاف ، خائري القوي فاتري العزائم مشتتي الإرادة ، فسكوت الله سبحانه ورسوله صلي الله عليه وآله عن أمثال هذه القضايا هو من باب الرحمة لهذه الأمة وبالأجيال التي جاءت بعدهم ..

فهناك ملاك راعاه الشارع في كثير من الأحكام وهو ملاك (التسهيل) حيث قال تعالي : «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(1)» فكل عسر في الشريعة لابد أن يكون معه يسر فلا عسر ولا حرج ولا ضيق علي المكلفين في الشريعة الإسلامية . حتّي أن الصلاة - وهي عمود أو عماد الدين - عند العسر أو الإعسار تتبدّل حالتها - من القيام إلي القعود وربما إلي الاستلقاء بل حتّي إلي الإيماء بالعينين - كما أن الصوم يسقط عن المريض والمسافر والنفساء ، والحجّ الذي هو فرض واجب مشروط بالاستطاعة . كما أن الطهارة - كالغسل والوضوء - تسقط في حال العسر والحرج وتستبدل بالتيّم بالصعيد الطيب .

مساوء التشدد في السؤال

من المسلمّات لدي جميع المسلمين أنّ هناك أحكاماً معيّنة قد سكت عنها الشارع المقدّس - لا نسياناً ولا إهمالاً - بل للتسهيل علي الأمة .. فينبغي عدم السؤال عنها وتتبع دقائقها ، لأنّه لو كان هناك لجاجة وعناد فلربما يشدّد الحكم علي الأمة كلّها بسبب سؤال واحد فقط ..

ففي سورة البقرة المباركة يحدّثنا الباري تعالي عن امتحان بني إسرائيل بالبقرة التي أمروا بذبحها ، فلو أنّهم منذ البداية جاءوا بأيّة بقرة وذبحوها لقضي الأمر وانتهى .. ولكن كلّما جاء أمر سألوا عن تفاصيله فشددوا علي أنفسهم فشدد الله الحكم

ص: 350

عليهم .. حتّى جاءتهم أوصاف بقرة في قوله تعالى : «صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ(1)» فاشتروها بثمن غالٍ جدّاً وذبحوها «وما كادوا يفعلون(2)».

فلماذا هذا اللجاج واللحاح في السؤال ؟

وصدق رسول الله صلي الله عليه وآله في حديثه السابق حيث قال : ((فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم علي أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه)) (3) فمن ممّن يستطيع في الحال الحاضر أن يحجّ في كل عام ؟ فهذا لا يمكن حصوله حتّى لسكّان البلاد المقدّسة نفسها ... إذن الرحمة رحمة ربّانية لهذه الأمة المرحومة . من جانب آخر فإنّ النهي جاء في الآية لكي لا تنكشف السرائر وتفتضح الضمائر الأمر الذي يسوء الإنسان ، غرار ذلك الشخص الذي سأل رسول الله صلي الله عليه وآله عن والده فنسبه إلي والده الحقيقي فافتضحت أمّه وأباه ..

وذاك الذي سأله صلي الله عليه وآله عن مكان أبيه فقال له : هو في النار وبئس القرار ..

أو ذاك الذي سأل مولانا أمير المؤمنين(عليه السلام) - وهو سعد بن أبي وقاص - كم شعرة في لحيّتي ورأسي(4).

فقال له(عليه السلام) : عددها وأنّ تحت كل شعرة شيطان يلعبه .

فإنّ مثل هذه القضايا مخفية في علم الله ، فلماذا يفتضح الإنسان أمر نفسه ؟

ففي الحديث عن أمير المؤمنين(عليه السلام) أنّه قال : ((إنّ الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها ، وحدّ لكم حدوداً ، فلا تعتدوها ، ونهاكم عن أشياء ، فلا تنتهكوها ، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً فلا تتكلّفوها)) (5).

ص : 351

1- سورة البقرة (2) : الآية 69 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 71 .

3- بحار الأنوار : ج 22 ص 31 .

4- بحار الأنوار : ج 42 ص 146 ح 6 .

5- نهج البلاغة : ق 105 .

وقال الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) : ((ليس عليكم المسألة)) (1).

وقال (عليه السلام) : ((إنَّ الخوارج ضيِّقوا علي أنفسهم بجهالتهم إنَّ الدين أوسع من ذلك)) (2).

ولذا فالفحص والسؤال عن واقع الأشياء كالطهارة والنجاسة ، والحلية والحرمة وعدم الاكتفاء بالظاهر موجب لتشديد الحكم علي المكلف وبهذا مشقة من نفسه عليها إذ لو ترك لترك .

التشدد في صالح من ؟

من جانب آخر فإنَّ التشديد ليس بصالح العبد ، لأنَّه كثيراً ما لا يطيقه فيصبح منكراً للقضية من أصلها ، فعلي العبد أن لا يضيق واسعاً علي نفسه خاصة ، فالقواعد الفقهية تقول : كل شيء طاهر حتي تعلم أنه قذر (3) وكل شيء لك حلال حتي تعلم أنه حرام بعينه (4) وغيرها ..

وخلاصة القول إنَّ الإفراط في جانب يؤدي إلي تفريط في جانب آخر .. فعندما سأل بنو إسرائيل نبيهم القتال فأشفق عليهم ، ألحوا عليه بذلك .. وعندما كتب عليهم القتال أول ما رفضوا القائد المحدد ..

وبعد ذلك قالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ..

نستجير بالله .. فالأمر بيد الرحمن ، ومن رحمته أعطي هذه الرخص ، فعلينا أن نأخذ بالواجبات فعلاً والمحرمات تركاً وندع الباقي لرب العالمين فهو أرحم الراحمين .

ص: 352

1- من لا يحضره الفقيه : ج 1 ص 258 ح 791 .

2- تهذيب الأحكام : ج 2 ص 368 ح 61 .

3- مستدرک الوسائل : ج 2 ص 583 ح 27494 .

4- الكافي ج 5 ص 313 ح 40 .

إشارة

(42) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَصُدُّكُمْ عَنْ صَلَّاءِ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَبِئْسَ لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (سورة المائدة: 105)

في رحاب المفردات

اهتديتم : الهداية دلالة بلطف ومنه الهدية وهوادي الوحش أي مقدماتها الهداية لغيرها وخص ما كان دلالة بهدیت وما كان إعطاءً بأهدیت نحو أهدیت الهدية وهدیت إلي البيت(1).

فينبئكم : النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثلاثة ، وحقّ الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرّي عن الكذب كالتواتر وخبر الله تعالى وخبر النبي صلي الله عليه وآله ، قال الله تعالى : «يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ(2).

ص: 353

1- مفردات الراغب : ص 536 .

2- سورة القيامة (75) : الآية 13) مفردات الراغب : ص 501 - 500 .

شأن النزول

قيل : نزلت الآية لَمَّا كان المؤمنون يتحسرون علي الكفرة ويتمنون إيمانهم .

وقيل : كان الرجل إذا أسلم ، قالوا له : سَفَّهت آباءك [أو لاموه] فنزلت(1).

عبر من الآية

تنبيه وتوجيه ربّاني رائع يتوجّه به الحقّ سبحانه إلي خصوص عباده المؤمنين ..

فالحجّة - كما يقول أحد العلماء - مشروع خاصّ .. ورحلة ذاتية نابعة من أعماق الإنسان المؤمن الذي يجذّر الإيمان في قلبه ، فيتوجّه إلي محبوبه كلياً ، ويمثّل أوامره ونواهيه .

فاليوم عمل ونعم .. وغداً جنان عدن مفتحة الأبواب ، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، وفيها ما لا عين رأت ولا خطر علي قلب بشر قطّ ..

فالتوجيه الربّاني ينطلق من (عليكم أنفسكم .. أي إلزموا أمر أنفسكم ، فإثما ألزمكم الله أمرها .. أو احفظوها من ملامسة المعاصي ، والإصرار علي الذنوب .. أي أطيعوا أمري واحفظوا وصيتي لكم في أنفسكم .. فأنت أنت ولا أحد سواك ..

ولكن قد يسأل هنا عن النفس ، فما هي النفس الإنسانية ؟

الجواب : هي الجوهر اللطيف الملكوتي الذي يستخدم هذا البدن الجسماني في حاجاته مسخراً له تسخير المولي لخدمه .. وهي ذات الإنسان وحقيقته العالمة

ص : 354

1- تفسير كنز الدقائق : ج 4 ص 250 .

بالمعلومات ، ولذلك فإنَّ الله تعالى يدعو الناس إلى التفكّر في أنفسهم فقال عزّ من قائل : «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(1)».

وقال الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله : ((من عرف نفسه فقد عرف ربه)) (2).

وقال صلي الله عليه وآله : ((أعرفكم بنفسه أعرّفكم بربه)) (3).

وقد يسمّي هذا الجوهر الملكوتي بالروح : لتوقف حياة البدن عليه .. وبالقلب : لتقلّبه في الخواطر .. وبالعقل : لاكتسابه العلوم واتّصافه بالمدرّكات ، وقد تستعمل هذه الألفاظ الأربعة في معانٍ أُخري تعرف بالقرائن ..

حالات النفس الإنسانية

ثم إنَّ النفس الإنسانية توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها .. وهي :

1 - المطمئنة وهي التي زال عنها الاضطراب بسبب امثالها للأوامر وتجنّبها للنواهي .. وهي المناداة بقوله تعالى : «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي(4)».

2 - اللوامة : وهي النفس التي لم يتم سكونها .. ولكنها صارت مدافعة للشهوة والغضب ومعتزلة عليها ، وتلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه أو اقترافه للذنوب والخطايا وإليها يشير الباري تعالى في قوله : «لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا

ص: 355

1- سورة الذاريات (51) : الآية 21 .

2- بحار الأنوار : ج2 ص32 ح 32 .

3- جامع الأخبار : ص 4 .

4- سورة الفجر (89) : الآية 30 - 27 .

3 - الأمانة : وهي التي تركت الاعتراض ، وأطاعة مقتضى الشهوات ودواعي الشيطان - كما اعترفت زليخا بعد أن حصحص الحق ، وبانت براءة نبي الله يوسف (عليه السلام) فقالت : «وَمَا أُبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي (2)».

فإن مثل الجوهره التي يمتلكها الإنسان إن راعاها وحفظها وصانها من هجمات الشيطان وجنوده ، ساقته إلي الجنان ورضا الرحمن .

أما إن تركها نهياً للشياطين يدوسونها تارةً ويطؤونها أخرى فلا شك فإنها ستأخذ بيده إلي دركة من دركات النيران - والعياذ بالله - وقد قال سبحانه وتعالى : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (3)».

وكما في الحديث عن رسول الله صلي الله عليه وآله : ((ياأبا ذر إذا أراد الله عزوجلّ بعبد خيراً فقهه في الدين وزهده في الدنيا وبصره بعيوب نفسه)) (4) فمن كملت له بصيرته لم تخف عليه عيوبه ، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوب أنفسهم .. بحيث يري أحدهم القذي في عين أخيه ، ولا يري الجذع في عينه ..

فمن أراد أن يقف علي عيب نفسه فليطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً فينصبه رقيباً علي نفسه ، ليراقب أحواله وأفعاله ، فما يكرهه من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبّهه عليها ، أو يستفيد معرفة عيوب نفسه من لسان عدوّه ، فإن عين السخط تبدي المساوي .

ص: 356

1- سورة القيامة (89) : الآية 2 - 1 .

2- سورة يوسف (12) : الآية 53 .

3- سورة الشمس (91) : الآية 10 - 9 .

4- مستدرک الوسائل : ج 12 ص 42 ح 13464 .

ولعل انتفاع الإنسان بعدو شاحن يذكر عيوبه ، أكثر من انتفاعه بصديق مدهن ينثي عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه .. إلا أن الطبع مجبول علي تكذيب العدو وحمل ما يقوله علي الحسد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه ، فإن مساويه لا بد أن تنتشر علي ألسنتهم ، أو يخالط الناس فكل ما يراه مذموماً فيما بين الخلق فيطالب نفسه بتركه ، وما يراه محموداً يحمل نفسه عليه فإن المؤمن مرآة المؤمن فيري في عيوب غيره عيوب نفسه ..

ولا يخفي أن الطباع متقاربة في اتباع الهوي ، فما يتّصف به واحد من الأقران لا ينفك القرين الآخر عن مثله أو عن أعظم منه فيتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره ، وناهيك بهذا تأديباً ، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدّب .. هذا وقد قيل لعيسي المسيح (عليه السلام) من أدّبك ؟ ما أدّبني أحد رأيت قبح الجهل فجانبته(1).

إلا أن نبيّنا المصطفى صلي الله عليه وآله قال : ((أدّبني ربّي فأحسن تأديبي)) (2) وقال الله سبحانه في حقّه صلي الله عليه وآله : «إِنَّكَ لَعَلِي خُلِقَ عَظِيمٌ(3)».

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((رحم الله من أهدي إليّ عيوبي)) (4) - وحاشاه من العيوب - فهو المعصوم في أعلي درجات العصمة الربّانية إلا أن هذه الحكمة النورانية درساً أخلاقياً بليغاً لنا نحن بني البشر عامّة والمؤمنين خاصّة .

فعلي المؤمن أن يعرف نفسه ، ويراقب أعماله كلّها فإن كانت بما يرضي الله فهو السعيد بلا شك أما أن يقول : نحن من الناس .. أو الحشر مع الناس عيد أو غير ذلك

ص: 357

1- بحار الأنوار : ج14 ص326 ح45 .

2- بحار الأنوار : ج68 ص382 .

3- سورة القلم (68) : الآية 4 .

4- الكافي : ج2 ص639 ح5 .

نقد نظرية الحشد

أمّا نظرية علماء الاجتماع المسماة بـ (نظرية الحشد) والتي تعني أن يكون الإنسان بطبعه منشداً إلى التجمّع والاجتماع فتراه يتأثر به ويميل إلى السير مع التيار العام .

فهذه النظرية صحيحة في نظر الدين الإسلامي الحنيف إذا كان الناس قد اجتمعوا على الهدى والخير .. أمّا لو اجتمعوا على الضلال والشر فعلي الإنسان أن لا يكون مع أهل الباطل وكما قال تعالى : «لَا يَصْدُرُكُمْ مِنْ صَدَلٍ (1)» أي لا يوقعكم في الضلال والضرر بمشاركتكم مع الضالين ، بل الزموا خطّ الهداية والصلاح ما استطعتم ..

وقد أخبر القرآن الكريم عن أسباب الخلود في سقر فقال تعالى : «مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (2)» بالنسبة للكافرين فكان ما أجابوا به هو قولهم : «وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (3)» أي نخوض في الأحاديث الباطلة كالغيبة والنميمة وما أشبه ذلك ..

فعلي الإنسان أن يكون حكيماً عالماً بنفسه عارفاً بما يرفعها فيعمل بمقتضاه ، وبما يشقيها فيعمل لتجنّب قدر الإمكان ، وقد صدق الله تعالى حيث قال في كتابه الحكيم : «بَلْ الْإِنْسَانُ عَلِيّ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (4)».

وقد جاء في وصية الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) لتلميذه المخلص هشام بن الحكم : يا هشام : ((لو كان في يدك جوزة وقال الناس : في يدك لؤلؤة ما كان ينفعك ،

ص: 358

1- سورة المائدة (5) : الآية 105 .

2- سورة المدثر (74) : الآية 42 .

3- سورة المدثر (74) : الآية 45 .

4- سورة القيامة (75) : الآية 15 - 14 .

وأنت تعلم أنّها جوزة .. ولو كان في يدك لؤلؤة وقال الناس : إنّها جوزة ما ضرك وأنت تعلم أنّها لؤلؤة)) (1).

وفي الحديث عن الإمام علي (عليه السلام) : ((لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله)) (2).

وقال (عليه السلام) : ((إنّ قول الحقّ لم يدع لي صديقاً)) (3).

لأنّ الحقّ أحقّ أن يتبع كما في القرآن الكريم «قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَيَّ الْحَقُّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَيَّ الْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (4)».

وقد قال شيخ الإسلام الطبرسي في تفسير قوله تعالى : «يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (5)».

وقيل : هو عام في كل ظالم نادم يوم القيامة ، وكل خليل يخالّه غير في ذات الله . ثمّ يقول : وإن قلنا : المراد بالظلم هنا جنس الظلمة ، فالمراد به كل خليل يضلّ عن الدين . ولو قال : لما اتّخذ فرعون وهامان وإبليس وجميع المضلّين لطلال ، فقال : فلاناً ، حتّى يتناول كل خليل مضلّ عن الدين (6).

وقصّة العبد الصالح (سعيد بن جبير) مع الطاغية السفّاح (الحجاج بن يوسف

ص : 359

1- بحار الأنوار : ج 1 ص 136 .

2- نهج البلاغة : خ 319 في كلام يعظ بسلوك الطريق .

3- كمال الصديق : ج 2 ص 574 .

4- سورة يونس (10) : الآية 35 .

5- سورة الفرقان (25) : الآية 29 - 28 .

6- مجمع البيان : ج 19 مج 7 ص 293 - 292 .

الثقفي (خير شاهد علي ذلك حيث إنَّ الحجاج قال له أخيراً : كيف تريد أن أقتلك ؟

فقال سعيد : بل أنت إختَر فلا تقتلني قتلة إلا قتلتك مثلها أبداً ..

وقد كان من أسباب هلاك ذاك الطاغية - وقيل إنه جُنَّ - بعد قتله سعيد بن جبير الذي ذهب إلي ربّه مضرّجاً بدمه شهيداً وشاهداً علي ظلم بني أميّة وأذنا بهم ..

فمرجع الناس جميعاً إلي الله وهناك يخسر المبطلون ، وعلي الإنسان أن يكون كما قال الإمام الصادق (عليه السلام) لرجل من أصحابه : ((لا تكون امعة تقول أنا مع الناس وأنا كواحد من الناس)) (1).

وكما ورد عن الإمام السجّاد (عليه السلام) قوله : ((إذا رأيتم الرجل قد حسن سمته وهديه وتماوت في منطقته وتخاضع في حركاته ، فرويداً لا يغرّنكم ، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام منها لضعف نيّته ومهانته وجبن قلبه فنصب الدين فخاً لها .. وإذا وجدتموه يعفّ عن المال الحرام فرويداً لا يغرّنكم .. فإنّ شهوات الخلق مختلفة ..

ولكن الرجل كل الرجل ، نعم الرجل ، هو الذي جعل هواه تبعاً لأمر الله وقواه مبذولة في رضا الله يري الذلّ مع الحقّ أقرب إلي عزّ الأبد من العزّ الباطل .. ويعلم أنّ قليل ما يحتمله من ضررائها يؤدّيه إلي دوام النعيم .. فذلكم الرجل .. نعم الرجل فيه تمسّكوا ، وبسنته اقتدوا)) (2).

اللهم وفقنا إلي عزّ الطاعة ، واجتنب ذلّ المعصية إنك سميع قريب مجيب .

ص: 360

1- بحار الأنوار : ج2 ص82 ح4 .

2- وسائل الشيعة : ج8 ص317 ح10777 .

إشارة

(43) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا هَدَاكُمْ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِنُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَ مَنِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ» (سورة المائدة : 106)

في رحاب المفردات

ارتبتم : يقال رابني كذا وأرابني ، فالريب أن تتوهم بالشيء أمرأ ما فينكشف عما تتوهمه ، وقد قال الله تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبُعْثِ (1)»

ص : 361

« . وقال : «إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَيَّ عَبْدِنَا(1)» .

نكتم : الكتمان هو ستر الحديث ، يقال كتمته كتماً وكتماناً ، وقد قال الله تعالى : «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ(2)» .

الآثمين : الإثم والآثم اسم للأفعال المبطنة عن الثواب ، وجمعه آثام ، ولتضمنه لمعني البطاء قال الشاعر :

جماليّة تغتلي بالسرّ وادف

إذا كذب الآثمات الهجيرا

وقوله تعالى : «فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ(3)» أي في تناولهما إبطاء عن الخيرات(4) .

شأن النزول

ذكر المفسّرون أنّ شأن نزول هذه الآية المباركة هو : أنّ ثلاثة نفر خرجوا من المدينة تجاراً إلي الشام ، وهم تميم بن أوس الداري ، وأخوه عدي - وهما نصرانيان - وابن أب مارية - مولي عمرو بن العاص السهمي - وكان مسلماً .. حتي إذا كانوا ببعض الطريق ، مرض ابن أبي مارية ، فكتب وصيّته بيده ، ودسّها في متاعه ، وأوصي إليهما ، ودفع المال إليهما .

ص: 362

1- سورة البقرة (2) : الآية 23) مفردات الراغب : ص 213 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 140) مفردات الراغب : ص 442 .

3- سورة البقرة (2) : الآية 219 .

4- مفردات الراغب : ص 5 .

وقال : أبلغا هذا أهلي ، فلمّا مات ، فتحا المتاع ، وأخذوا ما أعجبهما منه ، ثم رجعا بالمال إلي الورثة ، فلمّا فُتّش القوم المال ، فقدوا بعض ما كان قد خرج به صاحبهم ، فنظروا إلي الوصية ، فوجدوا المال فيها تاماً ، فكلموا تميماً وصاحبه .

فقالا : لا علم لنا به ، وما دفعه إلينا أبلغناه ، كما هو ؟

فرفعوا أمرهم إلي رسول الله صلي الله عليه وآله فنزلت الآية مشيرة إلي شأنهم(1).

عبر من الآية

تتناول هذه الآية المباركة مسألة في غاية الأهمية طالما أكد عليها الشارع المقدّس واعتني بها الأئمّة الأطهار عليهم السلام ألا وهي ((الوصية)) والشهادة عليها ممّن حضر المجلس ذاك .

فما أضعف الإنسان وما أضعف إيمانه وأقلّ يقينه وأندر خوفه من الله ؟

فهو ما دام بصحته وعافيته نادراً ما يلتفت إلي الله ويتذكّره ويخافه . بل هو أخوف ما يخاف الموت ليس لتفكيره في الآخرة .. بل لأنه سينقطع عن نعم الدنيا الذي أفني عمره كلّه في سبيل جمعها والحصول عليها . ومن جانب آخر هناك نداء خفي في باطن ضمير الإنسان يحذّره ويخوّفه من الموت لشدة الخطايا والذنوب التي ارتكبها في أيام عمره .

فكثير من الناس الملتزمين إنما يلتزمون بالحقوق خوفاً من كلام الناس ، لا خوفاً من الله - والعياذ بالله - ولذا تراهم إذا أُتيحت لهم الفرصة يتواثبون علي الحرام

ص: 363

1- مجمع البيان : ج 7 مج 3 ص 439 - 438 وقد ذكرت القضية في تفسير نور الثقلين : ج 2 ص 303 - 302 مفصلاً .

دون آية مبالاة أو تورّع أو وجل من أن يأتي الأجل .

وتظهر هذه الحالات في قضية ((الموت)) فما أكثر الأبناء الذين يستولون علي ثروات الآباء من خلال تلاعبهم بالوصايا الشرعية التي يتركها المورثون . ومنهم من يخبأ الوصية ولا يعرضها علي أحد حتّي لا يفتضح أمره أمام إخوته وأقاربه والمجتمع كلّه فيدسّها في مكان ما كي لا يراها أحد .

فما أكثر الذين يستولون علي حقوق الأيتام ؟ لا سيّما الصغار منهم والبنات علي وجه العموم - فالمرأة اليوم شبه محرومة من الميراث - إذ أنّ الميّت لا يستطيع الدفاع ، بل وضع ثقته بأحد أبنائه وبقية الناس الآخرين لا يعلمون شيئاً عن ذلك أو لا يقدرّون علي أي شيء من ذلك .

من هنا أكّدت الآية المباركة علي قضية الاشهاد حين الوصية حتّي لا تحصل مثل هذه الأمور التي لا يحمد عقباها . وقد أشارت الآية المباركة إلي كيفية الاشهاد فقال عزّ من قائل : ((تحبسونهما من بعد الصلاة .. فيقسمان بالله ..)) أي يجب إيقافهما إلي ما بعد الصلاة المفروضة - ظهراً أو عصرًا - وذلك لأنّ اجتماع المسلمين في هاتين الصلاتين كان أكثر ممّا يجعل إشهاده الحضور أوفر وأوضح وأبلغ ، إذ أنّ الكذب في اجتماع الناس يكون أصعب من أن يكون الشخص الشاهد نفسه أو مع ذوي المال فقط .

وعليهما - الشاهدان - أن يقسما يميناً معظّماً ((باللّه)) علي أن لا يشهدا إلاّ بالحقّ .

وأن ((لا نشترى به ثمنًا قليلاً)) أي لا نشترى بتحريف الشهادة ثمنًا ، فحتي لو كان موضوع الشهادة يتعلّق بذوي قرابتنا - الشهادات - فإننا لن نكتم الشهادة لأنّ شهادتنا لله وليس لأي شيء آخر وقد أقسمنا بالله علي ذلك ومن يحنث يمينه أو

يقسم يميناً كذباً وزوراً وبهتاناً فإنه لا شك ((لمن الآثمين)) أي مرتكبي الذنب العظيم .

وفي الآيتين التاليتين لهذه الآية المباركة زيادة توضيح لهذه المسألة وتعليم لهم علي كيفية إثبات الحق وكشف الكذب وشهادة الزور إن كان هناك ريبة من قبل المدّعين علي الشاهدين أو خالجهم الشك بأنّهما كاذبان ، فعليهما إذن الإثبات بشاهدين عادلين يشهدان ضدّ شهادة الشاهدين السابقين ويحلفان كذلك باللّه أنّ شهادتهما أحقّ من شهادة أولئك .

إذن من خلال هذه الآية المباركة يرشد القرآن المسلمين إلي ضرورة الوصية قبل الموت ، والشهادة بعد الموت ، حيث ينبغي أن يُشهد الشخص إذا دنت منه المنية ، شخصين عادلين ، وينقل إليهما مسؤولية الوصية والشهادة عليها بعد الموت ، وإذا كانا موضع تهمة فعليهما أن يحلفا باللّه بعد أداء الفريضة قسماً بأنّهما لا يكذبان في الشهادة .

وإذا تبين كذبهما فلا- يمكن الحكم بكذبهما إلا إذا حلف إثنان من المعارضين المدّعين عليهما الإثم .. يحلفان علي التهمة الموجهة للشاهدين ، كما يحلفان علي أنّهما ليسا بظالمين في توجيه التهمة إلي هذين الشخصين .

حتي نصل إلي الحقيقة

فهذا العمل هو أفضل طريقة لصدق الشهادة وعدم ردّ الإيمان .. وعلي الإنسان إذا أراد أن يصل إلي الحقيقة - وبالذات علي القاضي - إذا أراد أن يتوصّل إلي الحقّ فعليه اتّباع ومراعاة أمرين إثنين :

أ - تقوي اللّه واتّباع أوامره كافة .

ب - أن يسمع كل الآراء ويحكم بحسب البيّنات لديه .

من جانب آخر فإنّ الحكم الشرعي يثبت بأحد أمرين وهما :

1 - العلم البعيد عن تقليد الآباء ، أو تقليد المجتمع ، أو استعجال الأحكام الشرعية ، وهذا ما أوضحتها آيات سابقة في سورة ((المائدة)) وغيرها .

2 - بالشهادة : وهي تختص بالعدول من المؤمنين (للإطمئنان) والعدل : هو الرجل المستقيم الذي ينفذ تعاليم ربّه ، فهذه الآية المباركة هي من الآيات الواردة من أجل حفظ الإسلام الحنيف علي الحقوق الشرعية للناس حتّي لا تضيع ، إذ أنّ ضياع الحقوق يؤدي إلي فساد المجتمع كلّهُ .

فالوصية مؤكّد عليها بشدّة علي الميّت ، والشهادة واجبة علي الحي .

فعن رسول الله صلي الله عليه وآله قال : ((من لم يحسن وصيّته عند الموت كان ذلك نقصاً في مروّته)) (1).

وعن النبي صلي الله عليه وآله قال : ((من مات علي وصية حسنة مات شهيداً)) ، وقال صلي الله عليه وآله : ((من لم يحسن الوصية عند موته كان ذلك نقصاناً في عقله ومروءته)) (2).

وصية الرسول صلي الله عليه وآله الخالدة

ومن هذا البحث يمكن أن نطرح سؤالاً مهماً يتعلّق بمصير الأُمَّة الإسلامية وهو :

هل أنّ رسول الله صلي الله عليه وآله أوصي علي رسالته أم لا ؟

وهل أوصي علي دنياه وما يملك من حطامها ؟

وماذا ترك لورثته بعد التحاقه إلي الرفيق الأعلى ؟

ص: 366

1- مستدرك الوسائل : ج 14 ص 92 ح 16170 .

2- مستدرك الوسائل : ج 14 ص 92 ح 16171 .

فكل هذه الأسئلة وتشعباتها قد ترد إلي الذهن ولكن جوابها قد يكون من أصعب ما يكون لدي بعض الناس من هذه الأمة ، حيث إنهم يدعون أن رسول الله صلي الله عليه وآله لم يوص قط لا في دين ولا في دنيا .

ومنهم من قال أوصي بالذي أوصاه به الله - في اليتامي ، والفقراء ، والأطفال والنساء - وبعض العبادات لا سيما - الصلاة والصيام - .

ومنهم من قال عنه صلي الله عليه وآله : أنه يهجر . أو إنه قد غلب عليه الوجد وحسبنا كتاب الله . أو إن النبي أو نبيكم - يهجر - .

فياويح أنفسهم ، فلماذا لم يقرأوا علي ... بالهجر عندما طعن قبل مماته فقبلوا وصيته ونفذت بحذافيرها - حتي لو أدت إلي قتل إثنين أو ثلاثة من كبار الصحابة - بينما تركت وصية رسول الله صلي الله عليه وآله ؟

وليتهم اقتصروا علي ذلك وإنما خالفوا نص وصية الرسول الأكرم صلي الله عليه وآله المؤكدة علي قداسة ابنته الصديقة فاطمة عليها السلام فعمدوا إلي نحلته واغتصبوها بذريعة حديث مجعول كذبه الصديقة الزهراء من خلال آيات القرآن حيث قالت عليها السلام : ((أفي كتاب الله يابن أبي قحافة ترث أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فرياً ، أفعلي عمدتكم كتاب الله ، ونبذتموه وراء ظهوركم ، إذ يقول : «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ(1)» وقال فيما اقتص من خبر يحيي بن زكريا عليهما السلام : إذ قال : «رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ(2)» وقال : «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ(3)» وقال : «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ(4)» وقال : «إِنَّ

ص: 367

1- سورة النمل (27) : الآية 16 .

2- سورة مريم (19) : الآية 5 و6 .

3- سورة الأنفال (8) : الآية 75 .

4- سورة النساء (4) : الآية 11 .

تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَي الْمُتَّقِينَ (1)»، وزعمتم ألا حِطْوَةٌ لِي ، ولا إرث من أبي لا رحم بيننا)) (2)!

فقصة الوصية والوصايا هي قصة الإسلام الحقيقي - وإسلام المنافقين - فالذي التزم بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وحفظ القرآن والثقلان كما أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله بحديث الثقلين المشهور بين عامة الجمهور حيث قال صلى الله عليه وآله : ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلي الأرض وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)) (3).

يكون قد حفظ الوصية وامثل هذا النداء القرآني العظيم ، ولكن هل حفظت الأمة الوصية المحمدية فيهم عليهم السلام ؟ لا أعتقد ذلك إذ أن الأمة جهلتهم ولم تعد تعرفهم بالأسماء حتي .. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ص: 368

1- سورة البقرة (2) : الآية 180 .

2- الاحتجاج : ج 1 ص 102 .

3- صحيح الترمذي : ج 5 ص 663 ح 3788 .

(44) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ» (سورة الأنفال : 15)

في رحاب المفردات

لقيتم : اللقاء مقابلبة الشيء ومصادفته معاً ، وقد يعبر به عن كل واحد منهما ، يقال لقيه يلقاه لقاءً ولُقيًا ولُقيَةً ، ويقال ذلك في الإدراك بالحسّ وبالبحر وبالبحيرة ، قال : «لَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَتَّنُونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ (1)».

زحفاً : أصل الزحف انبعاث مع جرّ الرجل كانبعاث الصبي قبل أن يمشي وكالبعير إذا أعيأ فجر فرسنه ، وكالعكسر إذا كثر فيعشر انبعاثه (2).

تولّوهم : الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما . ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد (3).

ص: 369

1- سورة آل عمران (3) : الآية 143 مفردات الراغب : ص 473 .

2- مفردات الراغب : ص 216 .

3- مفردات الراغب : ص 570 .

القرآن الكريم هو كتاب علم ونظم وحكمة . وفي آياته كل ما يخلص البشر من الشرّ ويقربهم إلي الخير والنور ، وفي كتاب الله آية عظيمة جداً - وكلّه عظيم - لأنها تتحدّث عن القرآن ذاته إذ يقول جلّ وعلا : « مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ (1) أَي أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَهْمَلْ شَيْءٌ إِلَّا وَأَعْطِيَ لَهُ حِكْمًا شَرِيعًا ، أَوْ عِلْمًا مَفِيدًا ، أَوْ نُورًا مُبِينًا . وميزة سورة الأنفال المباركة أنها مفعمة بالحديث عن الجهاد والمجاهدين وأحكام الجهاد في سبيل الله إذ أنّ الأنفال لغة : جمع نفل ، والنفل زيادة علي الشيء . والنافلة : صلاة التطوّع دون وجوب (2).

والأنفال : هي الغنائم الناتجة عن الحرب أو بعدها .

وأول درس في هذه السورة الخاصّة بالمؤمنين ، هو التوجيه الربّاني الوارد في الآية المباركة وأمر المؤمنين لتلا يفروا من الزحف ، بل عليهم الثبات والدفاع عن دينهم ونيّهم وأنفسهم . فساعة المواجهة ، هي ساعة الحقيقة . وفيها تتجلّى جواهر الرجال وتبيّن حقائق نفسيّاتهم ، فالإيمان والشجاعة ، والكرامة ، والاستعداد للتضحية ، وغيرها من صفات الفروسية لا تظهر إلّا في ساحة الوغي ، عند المواجهة الفعلية . ولذلك فإنّ الحديث عن هذه الصفات شيء ، وممارستها لدي المواجهة شيء آخر . ومن هنا فإنّ الكثيرين يخيفهم منظر الدماء ، وسقوط الشهداء ، فتنتابهم حالة الذعر ، والخوف من الموت ، فإذا أضيف إلي ذلك ضعف الإيمان ، والتمسك بالدعة ، والراحة ، وحبّ الدنيا ، والجبن ، فإنّ ذلك سيؤدّي إلي اختيار الفرار والزحف ، بدل الإنطلاق في المواجهة . فكلّما كان الإنسان ضعيف الإيمان ، كان أكثر ميلاً للفرار ، وهذا الذي يعبر عنه بالروح المعنوية ، التي تعتبر أعظم عامل من العوامل المؤدّية إلي

ص: 370

1- ((- سورة الأنعام (6) : الآية 38 .

2- مجمع البيان : ج 9 مج 4 ص 423 .

تحقيق النجاح ، فالمعارك إنما تكسب أولاً في قلوب الرجال ، ثم يعلن عنها في ساحة المواجهة . وكلما كان الإنسان أصلب إيماناً وأفوي جناناً ، كان أكثر صموداً في القتال .

فالجهد معاناة قاسية لا يتحملها إلا أصحاب العزائم الكبيرة . ونظراً إلي ما يتركه ((الفرار)) من الزحف من آثار مدمرة علي بقية المجاهدين ، فقد حرّمه الله تعالى ، وأعد عليه عذاب النار .

حرمة الفرار من الجهاد

هناك العديد من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام التي يستفاد منها حرمة الفرار من مجابهة العدو في ساحات الجهاد ، فقد أشار الإمام الرضا(عليه السلام) إلي حكمة حرمة الفرار من ساحات الجهاد فقال في كتاب له : ((حرّم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين ، والاستخفاف بالرسول والأئمة العادلة ، وترك نصرتهم علي الأعداء والعقوبة لهم علي ترك ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية ، وإظهار العدل ، وترك الجور وإماتة الفساد ، لما في ذلك من جرأة العدو علي المسلمين ، وما يكون في ذلك من السبي والقتل وإبطال دين الله عزّوجلّ وغيره من الفساد))⁽¹⁾.

وقال الإمام علي(عليه السلام) : ((وليعلم المنهزم أنه مسخط ربّه ، وموبق نفسه ، إنّ في الفرار موجدة الله ، والذلّ اللازم والعار الباقي ، وفساد العيش عليه ، وإنّ الفار لغير مزيد في عمره ، ولا محجوز بينه وبين يومه ، ولا يرضي ربّه ، ولموت الرجل محقّقاً قبل إتيان هذه الخصال خير من الرضا بالتلبّس بها ، والإقرار عليها))⁽²⁾.

فالفرار من الزحف ، موجب للذلّ والهوان في الدنيا والآخرة حتي أنه يلحق العار في الأعقاب من الأولاد والأحفاد ، فتبقي العائلة توصم بوصمة عار علي طول

ص: 371

1- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص369 ح1748 .

2- الكافي : ج5 ص41 ح4 .

الملفت للانتباه أنّ القادة عليّ مرّ الزمان كانوا يعانون من أمثال هؤلاء الضعفاء ، لا سيّما إذا كان القائد في غاية النبل والفضل والإقدام والشجاعة كأمر المؤمنين(عليه السلام) الذي كان يقول :

((لو تظاهرت العرب عليّ قتالي لما وليت عنهم))⁽¹⁾.

فكم عاني أمير المؤمنين(عليه السلام) من جنوده وقوّاته أثناء حروبه الثلاثة - الناكثين في الجمل ، والفاسقين في صفّين ، والمارقين في النهروان - وأشدها ألماً كان لديّ تخاذلهم عنه في حرب صفّين . وقد تجلّى هذا التخاذل في موقفين وهما :

1 - متابعة الحرب قبل التحكيم وبعد رفع المصاحف .

2 - مسألة التحكيم واختيارهم لأبي موسى الأشعري ولم يتركوا أمير المؤمنين(عليه السلام) أن يختار الأشتر النخعي .

فالقائد يجب أن يطاع ، لا أن يطيع لأنّ القائد هو نصف المعركة إذا ما كان كلّها إن كان بمستوي الأمير(عليه السلام)، ولذلك كان(عليه السلام) يقول لهم :

((والله لكأني بكم - فيما أخالكم أن لو حمس الوغي وحمي الضراب . قد انفرجت عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها .

وإنني عليّ بيّنة من ربّي ، ومنهاج من نبيي ، وإنّي لعليّ الطريق الواضح . ألقطه لقطاً))⁽²⁾.

فالأساس هو أن تكون عليّ بيّنة من ربّك ، وسائراً عليّ نهج رسولك وقائدك حتي آخر الطريق في مسألة الجهاد المقدّس .

فالجهاد إذن ليس ((نزهة)) ، وإنما هو أمر شاقّ ومكلف ، فربما أدّي الثبات في

ص: 372

1- من كتاب له إلي عثمان بن حنيف : 45 .

2- نهج البلاغة : خ97 في أصحابه وأصحاب رسول الله صلي الله عليه وآله .

ساحة الحرب والجهاد إلي موت الإنسان ، أو أنه يؤدّي به إلي فقد بعض أعضائه وجوارحه وجميعها شاقّة علي الإنسان . ولذا فإنّ القرآن الكريم يفتتح الخطاب ب «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» فيذكّرهم بإيمانهم باللّهِ ووحدانيته أي يذكّرهم بالمبادئ التي قامت عليها الدعوة والرسالة كلّها التي آمنوا بها وحاربوا دونها ونصروها فنصرهم اللّهُ تعالي ببركة الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله .

رفع معنويات المؤمنين

من جانب آخر يستفاد من هذا النداء الجميل مسألة الرفع للحالة المعنوية للمقاتل ، وكم لهذه الحالة من تأثير في مجريات المعركة فنداء ((اللّهُ أكبر)) الذي اتّخذه المسلمون في بداية الدعوة هو من أقوى الشعارات والنداءات تأثيراً في النفوس .

فقد كان للمؤمنين علامة للنصر وكانوا يشعرون بهذا النداء وكأنّ الأرض تتزلزل تحت أقدام الأعداء ، وتنخرّ له الجبال هدّاً . لقد كان هذا الشعار كالصاعقة علي الأعداء ، فيوقع بينهم الانهزام فكانوا يرتجفون أمامه وتخور قواهم وربما ولّوا مدبرين . إذن فالحالة المعنوية لدي المقاتل لها أثرها المهم في الحرب ، وحالة المؤمنين هي بحجم ثقتهم باللّهِ وإيمانهم بعدالة وأحقّية رسالتهم وقائدهم .

وقد دوّن التاريخ العديد من مواقف الأبطال الذين دفعوا أرواحهم كهديّة إلي السماء وذلك من خلال اقتحامهم غمار المعارك حيث تطاحن السيوف وتعانق الرماح .

شواهد من التاريخ

يضم التاريخ الإسلامي بين طيّاته للعديد من الشواهد التاريخية التي تدلّ علي عظمة إيمان المسلمين في صدر الإسلام ومدى رفعة معنوياتهم .

ففي أحوال عمّار بن ياسر ذلك الصحابي الجليل المعروف نقلوا أنّه قاتل في صفّين - بليلة الهرير الشهيرة - قتالاً شديداً فطلب ماءً فجاءوا له بكوب من اللبن فاستبشر خيراً وقال : اليوم ألقى النبي محمد وصحبه .

فسأله أحدهم من ممّا علي الحقّ يا أبا اليقظان والجميع يشهد أن لا إله إلا الله ؟

فقال : والله لو قاتلونا ووصلوا بنا علي سعفات هجر ، لما تززع يقيني أنّا علي حق وهم علي باطل(1). أجل هكذا يكون الإيمان الصحيح والجهاد الواعي في سبيل الله .

فالفرار والزحف من ساحات القتال هو من الكبائر ، ولا يهزم إلا من كان إيمانه مستوراً وعرضياً لا مستقراً وراسخاً ، ففاقدي الإيمان ، وضَعْفَةُ اليقين كانوا يهزمون في حروب الرسول صلي الله عليه وآله والتاريخ حدّثنا عن الكثيرين منهم .

فالشجاعة لا تعرف إلا في ساحات الوغي والقتال ، والجبان يعرف هناك وبالمقابل فإنّ الشجعان يخوضون غمار الموت طالبين الشهادة .

ففي غزوة أحد لما هربوا جميعاً إلا بعض المؤمنين ولم يتجاوزوا عدد أصابع اليدين ، فمنهم من ذهب بها عريضاً . ومنهم من ركض إلي أطراف الشام ومنهم غير ذلك . بينما بقي أمير المؤمنين(عليه السلام) حول رسول الله صلي الله عليه وآله يدود عنه ويفديه بروحه وبكل ما يملك من شجاعة حتّى باهي به الله سبحانه ملائكة السماء وكان جبرئيل الأمين ينادي بين السماء والأرض :

لا فتى إلا علي

ولا سيف إلا ذو الفقار

وكذا الحال في غزوة الخندق بل كان الأمر أوضح وذلك لما كان الرسول صلي الله عليه وآله ينادي بالجمع : من يبرز إلي عمرو وأنا أضمن له علي الله الجذّة ثلاث مرّات .. فلم يبادر إلا الإمام علي(عليه السلام) لأنه موقن بالجدّة يقينه بالحياة وهو القائل : ((لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً))(2).

ص: 374

1- كشف الغمّة في معرفة الأنمّة : ج1 ص 259 .

2- بحار الأنوار : ج20 ص 215 ح 2 .

(45) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعْتُمْ تَسْمَعُونَ» (سورة الأنفال : 20)

في رحاب المفردات

أطيعوا : الطوع هو الانقياد وبيضاؤه الكره ، قال تعالى : «إِنِّي طَوْعاً أَوْ كَرْهاً(1)» والطاعة مثله لكن أكثر ما يقال في الائتمار لما أمر والارتسام فيما رسم ، وقد قال تعالى في ذلك : «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ(2)».

تولوا : لفظ تولي إذا عدي بعن لفظاً أو تقديراً اقتضي معني الاعراض وترك قربه ، فمن الأول قوله : «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ(3)» ومن الثاني : «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ(4)».

ص: 375

1- سورة فصلت (41) : الآية 11 .

2- سورة النساء (4) : الآية 59) مفردات الراغب : ص 318 .

3- سورة المائدة (5) : الآية 51 .

4- سورة آل عمران (3) : الآية 63) مفردات الراغب : ص 571 - 570 .

روي المفسر المحدث جلال الدين بن أبي بكر السيوطي (الشافعي) في تفسيره عن مجاهد عن ابن عباس قال: ((ما أنزل الله آية فيها: «يا أيها الذين آمنوا» إلا وعلي رأسها وأميرها)) (1).

عبر من الآية

سؤال في غاية الأهمية ينبغي الالتفات إليه والتأمل في أبعاده المترامية الأبعاد ألا وهو: هل الأمر بالطاعة هو أمر واجب كبقية الواجبات المعروفة؟ وبعبارة أخرى هل هو أمر مستقل مولوي في عرض سائر الأوامر الإلهية الأخرى؟

الجواب: بالتأكيد كلاً.

فالأوامر المعروفة في الشريعة الإسلامية هي من قبيل: 1- صلّوا. 2- صوموا. 3- حجّوا. 4- زكّوا. 5- خمّسوا. 6- والوا. 7- تبرّوا. 8- جاهدوا. أمّا الأمر بالطاعة هو أمر من نوع آخر، فهو أمر إرشادي (أي للإرشاد) إلى بقية الأوامر كلّها.

فأطيعوا.. هو إشارة إلى ضرورة الإمثال إلى (700) أمر تقريباً.. أي كل أوامره تعالي، تقيّدوا بها ولا تهملوها أو تهملوا أي واحد منها أبداً.

ولهذا يقول أهل العلم: إنّ أوامر الطاعة (إرشادية) لا (مولوية).

ومن هنا يظهر صعوبتها وتعقيدها، لأنها ليس أمراً واحداً حتى يسهل امتهالها بل هي (700) أمر معاً.

ص: 376

فأطيعوا: أي صلّوا .

وأطيعوا: أي صوموا .

وأطيعوا: أي جاهدوا .. الخ .

وحيث إنّ الطاعة المطلقة صعبة جداً ، لذا كثرت الأوامر في القرآن بها ، فوردت مادّة (أطيعوا) أي الأمر بالطاعة - 19 - مرّة في القرآن الكريم وكلّها - علي الاطلاق - تؤكّد طاعة الله مطلقاً . أو الطاعة لله وللرسول صلي الله عليه وآله معاً . أو لله وللرسول ولأولي الأمر . فكل هذه الأوامر هي أوامر إرشادية عامّة ومطلقة لا تقيد ، بل التقييد يكون في الأوامر العبادية كما هو واضح .

فطاعة الله : هي الالتزام الدقيق بتنفيذ الأوامر الإلهية بحذافيرها أي عملاً للواجبات ، وتركاً للمحرّمات .

وطاعة الرسول صلي الله عليه وآله : هي الإستئان بسنّته النورانية ، والتخلّق بأخلاقه الرحمانية ، والسير بسيرته الذاتية من خلال الاقتداء به صلي الله عليه وآله حيث قال تعالي : «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ (1)» .

وطاعة أولي الأمر : هي طاعة القيادة الرسالية ، والقادة المعيّنين من الله - عزّ وجلّ - لتأويل القرآن الكريم وتطبيق أحكامه علي أرض الحقيقة والواقع ، دون موارد أو خوف من أحد علي الاطلاق لأنه لا تأخذهم في الله لومة لائم .

النهي عن ترك موالاته الرسول صلي الله عليه وآله

والتولّي عن رسول الله صلي الله عليه وآله علي ما يبدو له وجهان :

أ - إذا كان استمرار الحديث عن الجهاد واعتبار الآية امتداداً للآيات السابقة

ص: 377

التي تحدثت عن غزوة بدر الكبرى فالنهي يكون ((ولا تولّوا عنه)) أي لا تهربوا من ساحة المواجهة ، وتتركوا رسول الله صلي الله عليه وآله في ساحات الوغي وحيداً فريداً مع بعض أهل بيته الكرام والخواص من الأصحاب كما فعلوا فيما بعد في أحد وحنين وغيرها .

وهذا الموقف يذكرنا بموقف بني إسرائيل حين قالوا لنبيهم : «اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ(1)» وفي الآية : «لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ(2)» أي لا تمنعوه نصركم وحرركم أبداً .

ب - إذا كان الحديث أعم من ذلك ، فالنهي هنا هو يكون علي الشكل التالي : «وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ(3)» أي لا تعرضوا عنه بوجهكم إذا ما أراد أن يبلغكم بعض الأحكام ، أو بعض الأوامر الجديدة .

أو لا تولّوا عنه وهو يدعوكم إلي الطاعات وينهاكم عن المحرّمات . وهذا ما تشير إليه آيات سورة الجمعة المباركة حيث أخبرت عنهم أنهم : «إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا(4)» حيث كانوا يتركون رسول الله صلي الله عليه وآله قائماً يصلي أو يخطب بهم وينفضوا إلي التجارة وما أشبهه ، وهذا من أصدق مصاديق التولي عن رسول الله صلي الله عليه وآله .

فوائد طاعة الرسول صلي الله عليه وآله

والقرآن الكريم يشير إلي الفائدة الكبرى والحجّة في قوله تعالى : «وَأَنْتُمْ

ص: 378

- 1- سورة المائدة (5) : الآية 24 .
- 2- سورة الأنفال (8) : الآية 20 .
- 3- سورة الأنفال (8) : الآية 20 .
- 4- سورة الجمعة (62) : الآية 11 .

تَسْمَعُونَ(1)» إذ أنه في هذا التوجيه كذلك وجهان هما :

1 - أن المقصود بذلك : هو الأمر بالطاعة مع إعطاء الدليل والحجة ، فلا تولّوا عنه و : «أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(2)» منه مباشرة الأوامر والنواهي ، فلا مجال لكم للتأويل والتعليل ، أو التسويف وتأخير العمل ، فإذا كان الرسول صلي الله عليه وآله بينكم يوضّح الأحكام فالزموا التعلّم منه واعملوا بما تعلّمتم منه لتكونوا بذلك مؤمنين لأنّ الإيمان قول وعمل .

والتعلّم هو ضرورة حضارية وواجب ديني كذلك لأنه الله سبحانه أعطي العقول وأمر بتثمينها وتركيتها بالعلم ، ففي الحديث الشريف عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((أنه يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد)) (3).

ب - أن المقصود من ذلك : «أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(4)» أي أنتم تسمعون الحجّة الموجبة لطاعة الله ، ورسوله بالآيات والمعجزات التي يجريها ربّ العالمين علي يدي رسوله الكريم صلي الله عليه وآله ، فهي من أهم الدواعي للإطمئنان واليقين علي صدق الرسالة وأحقية الدين المنزل علي رسول الله محمد صلي الله عليه وآله دون غيره من العالمين .

وفي كلا- الحالين يعتبر استخدام ((السمع)) ، وهو طريق لتلقي الأوامر من رسول الله صلي الله عليه وآله مباشرة ، وهو طريق من طرق إثبات وحصول العلم ، والمقصود بقوله : «وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ» هو العلم دون أي شيء آخر .

ص: 379

- 1- سورة الأنفال (8) : الآية 20 .
- 2- سورة الأنفال (8) : الآية 20 .
- 3- الكافي : ج 1 ص 47 ح 1 .
- 4- سورة الأنفال (8) : الآية 20 .

الالتفاف حول أهل البيت عليهم السلام

وبالجملة .. فإنّ هذه الآية المباركة هي توجيهاً إلهياً للمؤمنين خاصة للتمحور والالتفاف حول القيادة الصحيحة في هذه الحياة - كما يبدو لي - من خلال تأمل دقيق فيها .

فالقيادة متسلسلة ، فهي لله بالإطلاق وبالذات ، وللرسول الذي قيادته من الله تعالى ثانياً وبالعرض ولذلك طاعة الرسول هي طاعة لله بعينها ، بل إنه سبحانه لا يريد طاعة له إلا عن طريق رسول يبعثه من عنده ليخلص البشر من عذاب الدنيا والآخرة .

وطاعة الإمام ((ولي الأمر)) كذلك هي طاعة لله ولرسول الله صلي الله عليه وآله بل إنّ الطاعة الحقيقية للأمة هي للإمام بعد النبي صلي الله عليه وآله وبهذا يكون انتمائها ، لأنّ النبي يؤيّد من الله ويسدّد بالمعجزات والآيات الواضحات ليقهر الطغاة ويربّي الأمة المؤمنة به ورسالته ، أمّا الإمام(عليه السلام) فهو معيّن من الله - تعالى - قد فرضت علي الأمة طاعته فإنّ اطاعته وسارت تحت ظل قيادته الحكيمة نجحت في الدنيا والآخرة ، وإن أبت ذلك هلكت في الدارين .

ميزان قبول الأعمال

وقد ورد في الأحاديث الشريفة بأنّ الله آلي علي نفسه أن يدخل النار من أطاعه وعصي الأئمة عليهم السلام ، فعن أبي عبد الله(عليه السلام) قال : ((والله لو أنّ إبليس سجد لله عزّ ذكره بعد المعصية والتكبر عُمر الدنيا ما نفعه ذلك ، ولا قبله الله عزّ وجلّ ، ما لم يسجد لآدم كما أمره الله عزّ وجلّ أن يسجد له ، وكذلك هذه الأمة العاصية المفتونة بعد نبيّها صلي الله عليه وآله ، وبعد تركهم الإمام الذي نصبه نبيهم صلي الله عليه وآله لهم ، فلن يقبل الله لهم عملاً ، ولن يرفع لهم حسنة ، حتّى يأتوا الله من حيث أمرهم ، ويتولّوا الإمام الذي أمروا

بولايته ، ويدخلوا من الباب الذي فتحه الله ورسوله لهم)) (1).

وعن أبي حمزة الثمالي ، قال : قال لنا علي بن الحسين (عليه السلام) : ((أي البقاع أفضل ؟ فقلنا : الله ورسوله وابن رسوله أعلم ، فقال لنا : أفضل البقاع ما بين الركن والمقام ، ولو أن رجلاً عمّر ما عمّر نوح في قومه ، ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يصوم النهار ، ويقوم الليل في ذلك المكان ، ثم لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئاً)) (2).

إذن فالقائد هو محور دوران الوجود ، وكما جاء في الحديث الشريف ((علي مع الحق والحق مع علي)) (3) و ((علي مع القرآن والقرآن مع علي)) (4) وكلاهما ((يدوران معه حيثما دار)) فمحورية - الحق والقرآن والحياة - هو الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) بعد النبي الأعظم صلي الله عليه وآله .

وذلك لأن رسول الله صلي الله عليه وآله هو محور دائرة الوجود في أثناء وجوده ، وله الدور البارز في تكوين وإنشاء الأمة الإسلامية في هذا الوجود ، وهذا ما يتجلّى في ما قاله جعفر بن أبي طالب (الطيار (عليه السلام)) ((لملك الحبشة عندما كان قائد المهاجرين إلي هناك وسعي بهم إلي الملك عمرو بن العاص وبعض أعوانه .

ص : 381

1- الكافي : ج 8 ص 226 ح 399 .

2- من لا يحضره الفقيه : ج 2 ص 159 ح 17 .

3- تاريخ مدينة دمشق : ج 3 ص 120 رقم 1162 وقد ذكر معني هذا الحديث كل من : المستدرک علي الصحيحين : ج 3 ص 124 ، المناقب : الفصل الثامن ص 56 ، فرائد السمطين : ج 1 ص 176 ، منتخب الكنز بهامش مسند أحمد : ج 5 ص 62 ، سنن الترمذي : ج 5 ص 297 رقم 3798 ، أسني المطالب ب 18 ص 112 رقم 2 ، تحفة المحييين بمناقب الخلفاء الراشدين : ص 202 ، مجمع الزوائد : ج 9 ص 134 ، مفتاح النجاة : ص 98 .

4- المستدرک علي الصحيحين : ج 3 ص 124 ، وللمزيد من الاطلاع راجع كل من : نور الأبصار للشبلنجي : ص 93 ، كنز العمال : ج 11 ص 603 ط حلب ، تحفة المحييين بمناقب الخلفاء الراشدين : ص 253 ، مجمع الزوائد : ج 9 ص 134 ، الصواعق المحرقة : ص 74 ، ينابيع المودّة : ب 4 ص 40 .

فأحضره الملك العاقل النجاشي وسأل جعفر : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني (حيث كان نصرانياً) ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟

فقال له جعفر الطيار(عليه السلام) : ((أيها الملك ، كنّا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف .

فكنّا علي ذلك حتي بعث الله عزّوجلّ إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه فدعانا إلي الله ، لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان .

أمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، حسن الجوار ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدّقناه وآمنا به ، واتّبعناه علي ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده ، ولم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .

فعدا علينا قومناً فعذبونا ، عن ديننا ليردّونا إلي عبادة الأوثان من عبادة الله تعالي ، ونستحلّ ما كنّا نستحل من الخبائث ، فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلي بلادك))[\(1\)](#).

نعم ، هكذا يكون القائد ، وبمثل هذا المستوي يجب أن تكون الأمة في طاعتها له ، وإحساسها بأهميته وقيمة رسالته السماوية التي حملها وتحمل ثقلها وتبعات تبليغها لهم جميعاً .

ص: 382

(46) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ»

(سورة الأنفال : 24)

في رحاب المفردات

استجيبوا : الاستجابة قيل هي الإجابة وحققتها هي التحري للجواب والتهيؤ له ، لكن عبّر به عن الإجابة لقلّة انفكاكها منها ، قال الله تعالى : «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ(1)» وقال : «فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي(2)» .

يحول : أصل الحول تغيّر الشيء وانفصاله عن غيره وباعتبار التغيّر قيل حال الشيء يحول حؤولاً واستحال تهيئاً لأن يحول ، وباعتبار الانفصال قيل حال بيني وبينك كذا ، وقيل علي ذلك : «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ(3)» .

ص: 383

1- سورة غافر (40) : الآية 60 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 186) مفردات الراغب : ص 100 .

3- سورة سبأ (34) : الآية 54) مفردات الراغب : ص 136 .

تحشرون : الحشر هو إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها ، ولا يقال الحشر إلا في الجماعة كما قال الله تعالى : «وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(1)» وقال : «وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(2)».

شأن النزول

روي الحافظ الحاكم الحسكاني (الحنفي) قال : أخبرني أبو بكر الحافظ عن مجاهد قال : ((ما كان في القرآن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» فإن لعلني سابقة ذلك وفضيلته)) (3).

وعن الإمام الباقر (عليه السلام) إنه قال في قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ(4)» قال : إلى ولاية علي بن أبي طالب)) (5).

عبر من الآية

القرآن الكريم هو كتاب الحكمة في هذه الحياة .

فهو كتاب حياة ، للأحياء لكي يسعدهم ، وللأموات من الأحياء لكي يحييهم ،

ص: 384

1- سورة الشعراء (26) : الآية 36 .

2- سورة التكوين (81) : الآية 5) مفردات الراغب : ص 118 .

3- شواهد التنزيل : ج 1 ص 54 .

4- سورة الأنفال (8) : الآية 24 .

5- الكافي : ج 8 ص 231 ح 349 .

وللأحياء بعد الموت لكي يهديهم ويرشدتهم إلى الجنة الوارفة الظلال .

هذا الكتاب العظيم في كل ما فيه ينادي المؤمنين إلى الاستجابة لدعوة الرسول صلي الله عليه وآله لأن بالاستجابة يحيي الإنسان حقيقة .

فهذه الآية في الحقيقة هي من أعظم التوجيهات القرآنية للبشرية كلها ، فهي تنبّه البشرية قاطبة بأن لا حياة إلا في ظلّ رسالة سماوية ، وقيادة رسول أمين صلي الله عليه وآله يقود الحياة إلى البركة والسعادة والسرور والطمأنينة والأمن والنور .

وربما تسأل - عزيزي القارئ - وتقول : ما هي فلسفة الحياة عندكم إذن ؟

نقول : إنّه الإيمان ، فهو العنصر المحرّك للإنسان والمجتمع علي حدّ سواء إذ أنه يعطي :

1 - الوعي : سواء أكان الرسالي أم العقائدي أم غيرهما .

2 - الحركة : إذ أنّ كل حركة متوافقة مع الشريعة والدين هي جهاد في سبيل الله .

فلمّا يرتفع الإنسان عن المادّيات التي تخلده إلى الأرض .. ويرتفع بروحه إلى آفاق رحمانية رحبة ، فإنه سوف يتخلّص من أطر المادّة ولغتها وكل مظاهرها ، بالتالي سيعيش الإيمان حقيقة وسلوكاً ، والإسلام الحنيف يؤكّد علي هذا النوع من الإيمان لا الإيمان النظري المجرّد من العمل .

وقد سئل أمير المؤمنين(عليه السلام) ذات مرّة عن الإيمان فقال :

((الإيمان علي أربع دعائم : علي الصبر ، واليقين ، والعدل والجهاد :

والصبر منها علي أربع شعب : علي الشوق ، والإشفاق ، والزهد ، والترقّب ، فمن اشتاق إلي الجنة سلا عن الشهوات ، ومن اشفق من النار اجتنب المحرّمات ، ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات ، ومن ارتقب الموت سارع إلي الخيرات .

واليقين منها علي أربع شعب : علي تبصرة الفطنة ، وتأوّل الحكمة ، وموعظة

العبرة، وسنة الأولين، فمن تبصّر في الفطنة تبيّنت له الحكمة، ومن تبيّنت له الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين

والعدل منها علي أربع شعب: علي غائص الفهم، وغور العلم، وزهرة الحكم، ورساخة الحكم، فمن فهم علم غور العلم، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم، ومن حلم لم يقرّط في أمره وعاش في الناس حميداً.

والجهاد منها علي أربع شعب: علي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنان الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شدّ ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنأ الفاسقين وغضب لله، غضب الله له وأرضاه يوم القيامة(1).

فمن خلال هذا التعريف الدقيق من قبل أمير المؤمنين(عليه السلام) يتجلّي لنا كالشمس في رائعة النهار أنّ الإيمان قرين للعمل، والعمل ضروري لترسيخ الإيمان في قلوب المؤمنين وإلا لما وجدت هذه الأمة الإسلامية التي أوجدها رسول الله صلي الله عليه وآله وأهل بيته الكرام عليهم السلام وأصحابه الأوائل من أمجد العرب وسادتهم.

لمحات عن العهد الجاهلي

إنّ العرب في العهد الجاهلي خاصة، وشبه الجزيرة العربية عامة كانوا في غاية السوء سواء في البعد المعنوي أم المادي حتي إنّ الصديقة الزهراء وصفت حالتهم آنذاك قائلة عليها السلام: ((فكنتم علي شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون الورق، أدلة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم(2)). فدعوة رسول الله صلي الله عليه وآله هي

ص: 386

1- نهج البلاغة: ق 31.

2- الاحتجاج: ج 1 ص 10.

دعوة للحياة السعيدة الهانئة ، بوعي تام ، وحركة دائبة نحو التقدّم المطّرد إلي الأمام في الحياة ، والسمو والعلو في الساحات المقدّسة لله عزّوجلّ .

آثار إجابة دعوة الرسول صلي الله عليه وآله

إنّ مثل المجتمع الجاهلي الذي انعدم فيه الكتاب والكاتبين ، بحيث أصبحوا أندر من الكبريت الأحمر ، والذي لم يكن لأهله همّ سوي الشعر والتبارز فيه حتي أنهم جعلوا لذلك سوقاً خاصاً (عكاظ) وكان الفائز منهم يذهبون بقصيدته ويعلّقونها علي جدار الكعبة ، علماً إنّها لم يكن فيها إلا الغزل والنسيب والفخر وما شابه ذلك ، جاء الرسول الأكرم صلي الله عليه وآله وبعث فيما بين أهله الوعي الحضاري ، وبث بين صفوفهم العلم وجعل منهم العلماء والحكماء إذ أنّ أوّل آية نزلت صدع بها الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله هي : «أَقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(1)» .

وبالفعل ، فقد بقي رسول الله صلي الله عليه وآله يؤكّد بأحاديثه وأقواله الشريفة علي العلم والعمل ، فعن جعفر بن محمد ، عن أبيه عليهما السلام قال : ((رجل إلي النبي صلي الله عليه وآله فقال : يارسول الله ما حقّ العلم ؟ قال : الإنصات له ، قال : ثمّ مه ؟ قال : الاستماع له ، قال : ثمّ مه ؟ قال : الحفظ له ، قال : ثمّ مه ؟ قال : ثمّ العمل به ، قال : ثمّ مه ؟ قال : نشره)) (2).

وعن رسول الله صلي الله عليه وآله قال : ((أربع تلزم كل ذي حجي من أمّتي ، قيل : وما هنّ يارسول الله ؟ فقال : استماع العلم ، وحفظه ، والعمل به ونشره)) (3).

ص: 387

- 1- سورة العلق (96) : الآية 5 - 1 .
- 2- بحار الأنوار : ج2 ص28 ح8 .
- 3- بحار الأنوار : ج2 ص24 ح79 .

وعن النبي صلي الله عليه وآله قال : ((من الصدقة أن يتعلّم الرجل ويعلمه الناس))⁽¹⁾.

وعن النبي صلي الله عليه وآله قال : ((إنّ العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه))⁽²⁾.

وعن رسول الله صلي الله عليه وآله قال : ((العلم وديعة الله في أرضه ، والعلماء أمناءه عليه ، فمن عمل بعلمه أدّى أمانته ، ومن لم يعمل بعلمه كتب في ديوان الخائنين))⁽³⁾.

نعم ، بهذه الكيفية بعث الرسول صلي الله عليه وآله في المسلمين روح التعلّم وبنى لهم وبهم حضارة إنسانية يملؤها الإيمان ، ويعلوها الإحسان ، بدستورها القرآن الحكيم ، فأصبحوا قادة الدنيا لقرون طويلة لأنهم استجابوا لدعوة الرسول صلي الله عليه وآله واتبعوا أوامره لما يحييهم وهو تحصيل العلم والسير علي نهج الإيمان .

وقد لاحظ الكاتب المسيحي كل ذلك حين دراسته لتاريخ التمدّن الإسلامي وهو جرجي زيدان الذي قال في كتابه : أنّ سبب تقدّم المسلمين عاملين هما :

1 - إندفاعهم إلي التحيّة .

2 - المواساة .

وبالفعل فإنّ لهذين العاملين أعظم الأثر في بناء الدولة الإسلامية . يبقى القول إنّ التعمّق في الآية المباركة أكثر من ذلك ربما يجعلنا نكتب كتاباً كاملاً عن ذلك إلا أنّ الاختصار منهجنا في هذا البحث القرآني ، وأكتفي بهذه الإشارات اللامعة لإنارة أفكار الناشئة لكثير ممّا توحى إليه الآية الشريفة .

ص: 388

1- بحار الأنوار : ج2 ص24 ح 79 .

2- بحار الأنوار : ج2 ص33 ح 29 .

3- بحار الأنوار : ج2 ص36 ح 40 .

(47) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»

(سورة الأنفال : 27)

في رحاب المفردات

تخونوا : الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ، ثم يتداخلان ، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر . ونقيض الخيانة : الأمانة ، يقال خنت فلاناً وخنت أمانة فلان وعلي ذلك قوله : «صَدَرَ رَبِّ اللَّهِ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِمْرَأَةً نُوحٍ وَامْرَأَةً لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا(1)».

أماناتكم : الأمانة والأمان في الأصل مصادر ويجعل الأمان تارةً إسمًا للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمان ، وتارةً إسمًا لما يؤمن عليه الإنسان نحو قوله : «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ(2)».

ص: 389

-
- 1- سورة التحريم (66) : الآية (10) مفردات الراغب : ص 162 .
 - 2- سورة الأحزاب (33) : الآية (72) مفردات الراغب : ص 21 .

ذكر أصحاب التفاسير والسير النبوية الشريفة عن جابر بن عبد الله أنه قال: إنَّ أبا سفيان خرج مع ثلثة، فأتي جبرائيل (عليه السلام) النبي صلي الله عليه وآله فقال: إنَّ أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتبوا. قال: فكتب إليه رجل من المنافقين: إنَّ محمداً صلي الله عليه وآله يريدكم فخذوا حذرکم، فأنزل الله الآية.

وقيل إنَّها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري. وذلك أنَّ رسول الله صلي الله عليه وآله حاصر يهود بني قريظة، إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله صلي الله عليه وآله الصلح علي ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، علي أن يسيروا إلي إخوانهم إلي أذرعات وأريحا في أرض الشام. فأبي أن يعطيهم ذلك رسول الله صلي الله عليه وآله إلا أن ينزلوا علي حكم سعد بن معاذ. فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصراً لهم لأنَّ عياله وماله وولده كانت عنده، فبعثه رسول الله صلي الله عليه وآله فأتاهم. قالوا: ما تري يا أبا لبابة أننزل علي حكم سعد ابن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلي حلقه: أي أنه الذبح فلا تفعلوا.

فأتاه جبرائيل (عليه السلام) فأخبره بذلك، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتي عرفت أنني قد خنت الله ورسوله، فنزلت الآية فيه.

فلما نزلت الآية شدَّ نفسه علي سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً، ولا شرباً، حتي أموت، أو يتوب الله عليّ. فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شرباً، حتي خرَّ مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحل نفسي حتي يكون رسول الله صلي الله عليه وآله هو الذي يحلني.

فجاء صلي الله عليه وآله فحله بيده ثم قال أبو لبابة: إنَّ من تمام توبتي أن أهجر دار قوم قويم التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي. فقال صلي الله عليه وآله: يجزئك الثلث أن تصدق به، وهذا مروى عن أئمتنا الكرام عليهم السلام الباقر (عليه السلام) والصادق (عليه السلام).

ص: 390

نداء عجيب وتقريع غريب من الباري تعالي إلي عباده المؤمنين بأن لا تخونوا الله ورسوله ... حقاً إن هذه الآية تشير الاستغراب في أعماق النفس ، فما هذا التناقض بين الإيمان وبين الخيانة ؟ وهل أن المؤمنين يخونون الله ورسوله ؟

وفي الجواب عليه نقول : إن لخيانة الله سبحانه أشكال عديدة ، فمنها :

أ - عدم الطاعة والالتقياد لأوامره تعالي .

ب - عدم القيام بالواجبات الشرعية والفرائض اليومية .

ج - اقتراف المحرّمات أو المحظورات دون تورّع أو دون خوف أو وجل .

فهذه المخالفات كلّها تشكّل خيانة لله سبحانه وتعالي الذي خلق الخلق ليعبدون ، وأخذ عليهم العهد والميثاق في عالم الذرّ علي الطاعة والالتقياد له ولمن يرسله إليهم فقال عزّ من قائل : «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ (1)».

الأمة تخون الرسول صلي الله عليه وآله في أهل بيته عليهم السلام ؟

أمّا الخيانات العظيمة التي خانت الأمة فيها الرسول صلي الله عليه وآله فهي :

1 - إضاعة حقّه عليهم وإضاعة سنّته المطهّرة ، حيث إنّ الأمة راحت تعبّ من كل ماء وتأخذ من كل راوٍ ، حتّي أنّهم عدّلوا الصحابة كلّهم وقالوا : إنّ الصحابي هو كل من رأي أو سمع رسول الله صلي الله عليه وآله ولو مرّة واحدة ولو كان طفلاً لا يعي ولا يميّز .

فأكبر خيانة لرسول الله صلي الله عليه وآله أن تعجّ كتب الحديث لدينا حالياً بألاف المؤلّفة من أحاديث أبو هريرة الدوسي وهو أكبر من دسّ في صدر الإسلام بشهادة الخليفة الثاني حيث إنه أمر بجلده ، وفي نفس الوقت الذي نجد فيه الأمة تأخذ أحاديثها من

ص: 391

كل راوٍ فهي تترك أحاديث الصفوة من الصحابة أمثال - أبو ذرّ الغفاري - الذي ما أقَلَّت الغبراء وأظَلَّت الخضراء أصدق من ذي لهجة منه ، أو سلمان المحمّدي ، أو المقداد ابن الأسود .

إنّ أمة تترك مثل هؤلاء فضلاً عن أهل البيت عليهم السلام وتأخذ من كعب الأحابر وعبدالله بن منبه ، وعمرو بن العاص ، ومروان بن الحكم ، وغيرهم فهذه أكبر خيانة للرسول الأعظم صلي الله عليه وآله .

2 - ترك وإضاعة حقّ أهل البيت الأطهار عليهم السلام : الذين كانوا عنده صلي الله عليه وآله - وعند الله - عدل للقرآن الكريم وأمر باتّباعهم بأحاديث تنوء عن العَدِّ والحصر عند جميع فرق المسلمين وحديث الثقلين من أوضحها حيث قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((إني تارك فيكم ما إن تمسّ كتم به لن تضلّوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلي الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتّي يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما)) (1).

وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((إنّ مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها هلك)) (2).

ص: 392

1- بحار الأنوار : ج37 ص180 ح66 .

2- بحار الأنوار : ج29 ص341 . وقد روي كبار علماء العامة هذا الحديث ومنهم : أحمد بن حنبل في مسند : ج3 ص14 ، الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء : ج4 ص306 ، ابن عبد البرّ في الاستيعاب ، الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد : ج12 ص91 ، الشافعي في مطالب السؤل : ص20 ، ابن الأثير في النهاية : مادّة (زخ) ، ابن الجوزي في تذكرة خواص الأمة : ص323 ، ابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمّة : ص8 ، السبلنجي في نصور الأبصار : ص105 ، الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب : في آية المودّة ، السيوطي في الدرّ المنثور : في تفسير «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم» ، الحاكم في المستدرک : ج3 ص150 ، القندوزي في ينابيع المودّة : الباب الرابع والسادس والخمسون ، ابن حجر في الصواعق المحرقة : ص234 ، الكنجي الشافعي في كفاية الطالب : باب 100 .

3 - عدم دفع أجر الرسالة الخاتمة : فقد قال الله تعالى مشيراً إلي ذلك : «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى (1)».

وفضلاً عن عدم حفظ الأمة المودة لقربي رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلم يمض علي انتقاله إلي الرفيق الأعلى سوي أيام حتّي وثبوا إلي وريثته الوحيدة وصادروا جميع الأملاك المنقولة وغير المنقولة لها ، وكذبوها - والعياذ بالله - بل وهجموا علي منزلها وأرادوا إحراقها هي وأبنائها وبعليها ومن في الدار ولم يكتفوا بذلك بل عصروها خلف الباب فكسروا ضلعها ، وأسقطوا جنينها ، وضربوها بدرّتهم حتّي كان في عضدها كالدملج ، ولطموا وجهها الشريف حتّي تناثر قرطها ، وفعلوا ، وفعلوا حتّي استشهدت عليها السلام - وهي واجدة عليهم ، تدعو الله عليهم في كل صلاة كانت تصلّيها .

ولم تكتف الأمة بذلك بل لاحقت ذريتها وراحت تقتلهم تحت كل حجر ومدبر وما كربلاء إلا واحدة من تلك المذابح الرهيبة والعجيبة في دنيا الإنسانية .

4 - خيانة الرسول : حيث إنهم خانوا رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته ، وبعد انتقاله إلي ربّه ، بإفشاء بعض أسراره إلي عدوّه من الكفّار والمشرّكين - كما في قصّة النزول - وغيرها في كثير من المواقف المخزية لهم حتّي أنّ بعضهم راح يسبّه ويقول عنه : إنه شجرة نبتت في كبا (أي في مزبلة ومكبّ الأوساخ) - نعوذ بالله من الزيغ - .

ومسألة الخيانة هي متشعبة وتشمل حتّي القضايا الشخصية والخاصّة بالمؤمنين إذ أنّ لكل واحد منهم أسراراً ولكل مجلس أسرار وخيانة ذلك يعتبر من خيانة الأمة لبعضها البعض إذ ورد في الحديث الشريف : ((المجالس بالأمانة)) (2)، وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((المجالس بالأمانة وليس لأحد أن يحدث بحديث يكتمه

ص: 393

1- سورة الشوري (42) : الآية 23 .

2- الكافي : ج2 ص 660 ح 1 .

صاحبه إلا بإذنه إلا أن يكون ثقة أو ذكراً له بخير)) (1).

وجاء أيضاً: ((المؤمن أخ المؤمن لا يخونه ولا يخذله)) (2).

وغيرها من الأحاديث الشريفة التي تؤكد علي ضرورة حفظ الأسرار وأن إفشاء الأسرار هي مفسدة من القائل إذ أن نقاط الضعف تبرز بذلك

أسباب الخيانة

أما أسباب خيانة الأمة فهي كثيرة جداً منها :

1 - حقارة النفس : أي تكون طينته ملوثة أو حليبه بخس كما يقال بالأمثال .

2 - الطمع وحب المال : لأنّ بريق الذهب ، وحبّ المال قلّما تجد من يستطيع أن يقاومها ، فالمال من أصعب الامتحانات علي الاطلاق

3 - الروابط والقربات : مثل (الأولاد والأقارب) وهذه كذلك لا تقل عن الأموال ولذلك قرنهما الله سبحانه (الأموال والأولاد) وقال أنّهما (فتنة).

4 - حبّ السلطة : التي جعلت الكثير من الناس يقترف أشد المنكرات .

فعلي الإنسان أن يكون حذراً لكي لا يغريه المال ويأخذه بريقه إلي الإفراط بحبّه فيجعله صنماً يعبده ولا يكون له همّاً إلا جمعه وتراكمه ، وكذلك الأولاد والأقارب فالحبّ المفرط لهم يجعل الإنسان لا يرد لهم طلباً ولو كان فيه غضب لله أو غضب الناس كل الناس ، وأكبر مثلاً علي ذلك الخليفة الثالث حيث أفرط كثيراً بحبّ بني أمية ، فكانوا سبب قتله وهم أول من خذله عند حاجته إليهم والقصة مشهورة في كتب التاريخ .

ص: 394

1- الكافي : ج2 ص660 ح 3 .

2- مستدرک الوسائل : ج9 ص49 ح10168 .

(48) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (سورة الأنفال : 29)

في رحاب المفردات

فرقاناً: الفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل وقوله تعالى: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ (1)» أي اليوم الذي يفرق فيه بين الحق والباطل ، والحجة والشبهة ، وقوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا (2)» أي نوراً وتوفيقاً علي قلوبكم يفرق به بين الحق والباطل ، فكان الفرقان هاهنا كالسكينة والروح (3).

سيئاتكم : السيئة هي الفعلة القبيحة وهي ضد الحسنه ، قال تعالى : «بَلِي مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً (4)».

ص: 395

- 1- سورة الأنفال (8) : الآية 41 .
- 2- سورة الأنفال (8) : الآية 29 .
- 3- مفردات الراغب : ص 392 .
- 4- سورة البقرة (2) : الآية 81 .

وقال : «اذْفَعِ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ(1).

شأن النزول

روي العلامة السيّد هاشم البحراني عن تفسير (مجاهد) فقال : ((ما في القرآن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا ولعلي سابقة ذلك ، لأنه سابقهم إلي الإسلام ، فسّمّا الله تعالى في تسعة وثمانين موضعاً أمير المؤمنين)) (2).

عبر من الآية

تتناول هذه الآية المباركة مسألة حياتية ألا وهي آثار التقوي علي الإنسان المتّقي ، فياتري ما هي التقوي ؟ وماذا يقصد الباري تعالى بقوله : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً» ؟

هذا ما نأخذه من إمام المتّقين ، الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) حيث قال : ((فإنّ تقوي الله مفتاح سداد ، وذخيرة معاد ، وعتق من كل ملكة ، ونجاة من كل هلكة ، بها ينجح الطالب ، وينجو الهارب ، وتنال الرغائب)) (3).

كما أنه (عليه السلام) وصف المتّقين وصفاً لم يصفه أحد قطّ قبله ولا بعده وذلك حين سأله همام أن يصف له المتّقين فرفض (عليه السلام) ، وبعد إلحاح شديد استجاب الأمير (عليه السلام)

ص: 396

1- سورة المؤمنون (23) : الآية (96) مفردات الراغب : ص 252 .

2- غاية المرام : ص 441 .

3- نهج البلاغة : خ 230 في مقاصد أخرى .

وخطب قائلاً :

((.. فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل ، منطقتهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، مشيهم التواضع ، غضّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم ، ووقّفوا أسمعهم علي العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم في البلاء ، كالتي نزلت في الرخاء ، ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم ، لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين ، شوقاً إلي الثواب ، وخوفاً من العقاب .

عظم الخالق في أنفسهم ، فصغر ما دونه في أعينهم ، فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون .

قلوبهم محزونة ، وشروهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، صبروا أياماً قصيرة ، أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسرها لهم ربّهم .

أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم فغدوا أنفسهم منها))⁽¹⁾.

إذن فالتقوي : هي الإلتزام بالسير في جادة الشرع الحنيف علي المحبّة البيضاء ، وعدم الانحراف عنها .

معرفة حقائق الأمور

وفي واقع الأمر إنّ للتقوي آثاراً عدّة منها :

أنّ الله - تعالي - يجعل للإنسان ملكة باطنية ، ونوراً يميّز به كلاً من : الحقّ والباطل ، الخير والشرّ والضلال والهوي ، وبذلك يتفادي السقوط في مهاوي الخطيئة والمعصية ، فهو كالنور الظاهري الذي يكشف الطريق المادّي .

ص: 397

1- نهج البلاغة : خ193 يصف فيها المتّقين .

فإذا كان الإنسان متميّباً لم تستطع الشهوات ولا الإغراءات أن تؤثر علي عقله السليم فيستطيع أن يعرف الحق ويرى الأمور بوضوح لا لبس فيه .

فالله سبحانه وتعالى يمنح الإنسان نوراً باطنياً يستطيع به التمييز بين الحق والباطل ، وإلي ذلك يشير الإمام الكاظم (عليه السلام) في حديثه لسليمان الجعفري قائلاً : ((ياسليمان اتق فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله)) ، فسكت حتى أصبت خلوة ، فقلت : جعلت فداك سمعتك تقول : اتق فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ؟ قال : ((نعم ياسليمان إن الله خلق المؤمن من نوره ، وصبغهم في رحمته وأخذ ميثاقهم لنا بالولاية ، والمؤمن أخ المؤمن لأبيه وأمه ، وأبوه النور وأمه الرحمة وإنما ينظر بذلك النور الذي خلق منه)) (1).

وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((إياكم وفراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى)) (2).

وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((المؤمن ينظر بنور الله)) (3).

فتقوي الله : هي سبيل النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة .

تحصيل الفرقان العظيم

كما أن من الآثار المهمة للتقوي هو أن الله تعالى يجعل للإنسان المتمقي فرقاناً .

وقد اختلف المفسرون في المعني المراد من الفرقان إلا أن أحد الأقوال فيها هو أن يجعل - الله - لكم عزّاً في الدنيا ، وثواباً في الآخرة (4).

والروايات الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تؤكد هذا المطلب ، فعن

ص : 398

1- بحار الأنوار : ج 64 ص 73 ح 1 .

2- بحار الأنوار : ج 6 ص 75 ح 8 .

3- بحار الأنوار : ج 64 ص 75 ح 9 .

4- مجمع البيان : ج 9 مج 4 ص 456 .

رسول الله صلى الله عليه وآله قال : ((خصلة من لزمها أطاعته الدنيا والآخرة وربح الفوز بالجنة ، قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : التقوي من أراد أن يكون أعز الناس فليتق الله عزوجل ، ثم تلا : «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ(1)» .

وعن يعقوب بن شعيب قال : سمعت أبا عبد الله(عليه السلام) قال : ((ما نقل الله عزوجل عبداً من ذل المعاصي إلي عز التقوي إلا أغناه من غير مال ، وأعزه من غير عشيرة ، وأنسه من غير بشر)) (2).

وعن الإمام الصادق(عليه السلام) قال : ((من أخرج الله من ذل المعصية إلي عز التقوي أغناه الله بلا مال ، وأعزه بلا عشيرة ، وأنسه بلا بشر ، ومن خاف الله عزوجل أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله عزوجل أخافه الله من كل شيء)) (3).

كما أن من القضايا التي يمكن استفادتها في هذه الآية المباركة هي :

تكفير السيئات ، حيث إن الله سبحانه وتعالى يسترها علي العبد ، بأن يخفيها علي الملكين الكاتبين .

وكذلك غفران الذنوب ، بإزالتها حيث إنه سبحانه يأمر الملائكة الكرام بشطبها ومحوها من لوح سيئاته تماماً .

ولا يخفي أن الستر هو غير الإزالة إذ أن الستر هو وضع شيء كغطاء فتستر ما وراءها أما الإزالة فهي نزع الشيء تماماً وإزالته من مكانه .

ص: 399

1- سورة الطلاق (65) : الآية 4 - 3) بحار الأنوار : ج 67 ص 285 ح 8 .

2- بحار الأنوار : ج 67 ص 282 ح 1 .

3- بحار الأنوار : ج 67 ص 289 ح 22 .

وهنا تتجلّى عظمة الخالق ومدى رحمته الواسعة حيث إنّه تعالى يمحو السيئات عن عباده ويخفيها حتّى علي ملائكته المقربين وكل ذلك بالفضل والإحسان الإلهي لعبيده «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» إذ أنّ كل ما في الدنيا من نعم هي هبة وعطيّة من الله الكريم .

وأما جنّات الآخرة ونعيمها المقيم ، وظلّها الممدود ، وماؤها المسكوب ، وفاكهتها اللذيذة ، وحياتها الأبدية الخالدة ، وحورها وقصورها فكلّها بالفضل الإلهي علي عباده المؤمنين .

فكل من يدخل الجنّة يدخلها بالفضل ، وكل من يدخل النار يدخلها بالاستحقاق .

اللهمّ تفضل علينا بالجنّة ، وجنّبنا نار الجحيم إله الحقّ آمين .

إشارة

(49) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»

(سورة الأنفال : 45)

في رحاب المفردات

فاثبتوا : الثبات ضد الزوال يقال ثبت يثبت ثباتاً ، ورجل ثبت وثبت في الحرب وأثبت السهم ، ويقال ذلك للموجود بالبصر أو البصيرة ، فيقال فلان ثابت عندي(1).

اذكروا : الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه ، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ، ولذلك قيل الذكر ذكران : ذكر بالقلب وذكر باللسان(2).

ص : 401

1- مفردات الراغب : ص 74 .

2- مفردات الراغب : ص 181 .

شأن النزول

أخرج الحافظ (الحنفي) خطيب خوارزم موقّق بن أحمد قال : أخبرنا الشيخ الزاهد الحافظ زين الأئمّة أبو الحسن علي بن أحمد العاصمي الخوارزمي عن علي بن ترفة عن عكرمة عن ابن عباس قال : ((ما أنزل الله - عزّ وجلّ - في القرآن آية يقول فيها : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إِلَّا كان علي بن أبي طالب شريفها وأميرها)) (1).

عبر من الآية

ويعود الحديث من جديد حول الثبات والاستقامة في ساحات القتال حيث تعانق الأسنة وتطاحن الرماح . نعم ، فقد جاء هذا النداء الإلهي مشيراً إلي عوامل الثبات عند مواجهة الأعداء .

فالصراع في الحياة حقيقة قائمة ، وقد جرت سنّة الله علي أن تكون الدنيا لكل الكائنات مسرح مجابهة ومنافسة وصراع .

فالبذرة تصارع التراب حتي تخرج إلي النور وتتحوّل إلي نبتة ، والحيوانات تصارع عوامل الموت حتي تبقى حيّة ، والليل والنهار يتصارعان فتارةً يغلب النهار الليل ، وأخري يغلب الليل النهار .

والإنسان كذلك ، فهو يواجه عوامل المرض ، والضعف ، وأسباب الموت ومشاكل الحياة منذ أن تطأ قدماه الأرض ، حتي يموت ويقبر في جوفها .

ولولا هذا الصراع ، لم يخترع الإنسان الزراعة ، ولا الصناعة ، ولا كان التطوّر

ص: 402

1- المناقب للخوارزمي : ص 198 .

نبذة عن الصراع البشري

وبعد الحديث عن الصراع مع مشاكل الحياة تنتقل إلي الصراع بين بني الإنسان ، الذي لا مجال لإنكاره ، بل إن تصوّر إنتهائه من علي سطح الأرض هو تصوّر ساذج ، وحلم عقيم ، فمنذ أن وجد الناس فوق هذه البسيطة وقع بينهم خلاف في الرأي ، واختلاف في العقيدة ، ومن ثم صراع ثم حرب .

وهذا هو الواقع المستمر إلي الآن ، في كل مكان وعبر كل الأزمان ، وسيستمر علي هذه الحال إلي يوم يبعثون ، لأن طبيعة الإنسان لن تتغير في هذه الدنيا .

فالصراع الذي في داخل النفس البشرية ، هو ذاته يطلّ علي الحياة ، ويتحوّل إلي صراع الجماعات ، وتنافس المجتمعات ، وحروب الشعوب .

وفي الحياة - دائماً وأبداً - هناك حقّ وباطل ، خير وشرّ ، صلاح وفساد ، ولكل أهل وأتباع .

وكما أنّ الحقّ لا يجتمع مع الباطل ، والخير لا يتوافق مع الشرّ ، والصلاح لا ينسجم مع الفساد ، كذلك أهل كل منهم ، ومن هنا فإنّ الذي يخوض في الصراع بينهما هم رجال - أو أفراد وجماعات - .

ولذلك كان صراع الحق والباطل بين أهل كل منهما ، باعتبار (أهل الحق) و(أهل الباطل) وهذا الصراع قد يطول وقد يقصر ، وربما استعلي فيه صوت الباطل ظاهراً ، وغلب فيه الظلم ، أو ساد الفساد عليّ الصلاح ، وانتصر الشرّ عليّ الخير ، ولكن حتماً لن يتحوّل الحق إليّ باطل ، ولن ينقلب الخير شرّاً ، ولن يصبح الصلاح فساداً .

ولذلك قيل : إنّ للباطل جولة ، فإذا ما جاءت جولة الباطل فما عليّ (أهل الحق) إلاّ بالثبات عند المواجهة ، لأنّ (الثبات) هو من أهمّ العوامل والأمر التي توجب النصر عليّ العدو .

فلولا- ثبات رسول الله صلي الله عليه وآله عليّ حقّه ، و يقينه بنصر ربّه - جلّ وعلا- - فإنه ما كان ليستطيع المتابعة في تبليغ الرسالة الإسلامية .

وقد قال صلي الله عليه وآله مقولته الشهيرة لعمّه أبو طالب (عليه السلام) عندما أرسلته قريش إليّ ابن أخيه لكي يعطوه ما يريد - حسب ما يظنون - من مال ، أو جاه ، أو نساء ، أو سيادة ، أو غير ذلك من أمور الدنيا الدنيّة .

فقال صلي الله عليه وآله : ((والله ياعم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ما تركت هذا القول حتّيّ أنفذه أو أقتل دونه)) ثم استعبر فبكي ثمّ قام يولي ، فقال أبو طالب (عليه السلام) امض لأمرك فوالله لا أخذلك أبداً . وفي رواية أنّه قال صلي الله عليه وآله : إنّ الله تعاليّ أمرني أن أدعو إليّ دينه الحنفيّة وخرج من عنده مغضباً فدعاه أبو طالب وطيب قلبه ووعدته بالنصر ثمّ أنشأ يقول :

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة

وأبشر بذاك وقرّ منك عيوننا

ودعوتني وعلمت أنّك ناصحي

ولقد دعوت وكنت ثمّ أمينا

ولقد علمت بأنّ دين محمّد

من خير أديان البرية ديناً (1)

وقد ثبت أبو طالب (عليه السلام) في مواجهة قريش كلّها حتيّ آخر لحظة من عمره الشريف دفاعاً عن رسول الله صلي الله عليه وآله ودين الإسلام الحنيف .

وثباته (عليه السلام) ثبت رسول الله صلي الله عليه وآله خلال (13) عام في تبليغ الرسالة وما هاجر

ص: 404

إلا بعد أن توفيّ حاميه البطل أبو طالب (عليه السلام) فهاجر صلي الله عليه وآله إلي المدينة المنورة وبني دولة فيها وأسس البنين لحضارة الإنسان .

ولولا- صمود وثبات المهاجرين والأنصار في وجه - المشركين واليهود والنصارى وذؤبان العرب - وغيرهم من الامبراطوريات المحيطة الطامعة بهم لما قام للإسلام عود ولما انتصب له بناء .

فالثبات لدي المواجهة هو أول خطوة في طريق النصر ، وكما يقولون في العلم العسكري الحديث : ثبات الدفاع وصدّ أول هجمة يعدّ الخطوة الأولى لتدمير العدو وسحقه ودحره بالهجوم المعاكس .

الطريق إلي الثبات

إنّ الثبات عملية صعبة للغاية ، وهو يحتاج إلي تضحيات جسيمة ، وإرادة قوية أقوى من الفولاذ ، ومعنويات عالية ، لذلك أكّد الباري تعالي عليه في أكثر من مرة في القرآن الكريم وتطرّق إلي أسبابه التي منها :

1 - ذكر الله ، وذكر الله قد يكون باللفظ (كالتهليل والتكبير والحوقلة وغير ذلك) وهذا مهم جداً بلا شك ، ولكن يبقى الأهم منه وهو (الذكر القلبي) (أي أن يري المجاهد الله سبحانه حاضراً أمامه في كل عمل يقوم به ، وهو - سبحانه - ناظر إليه ، لأنه أقرب إليه من جبل الوريد .

وقد ورد في الأثر عن أهل البيت عليهم السلام الكثير من الأحاديث التي تؤكّد علي أهمية ذكر الله في السرّ والعلن منها :

قال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((ما من شيء إلا وله حد ينتهي إليه إلا الذكر فليس له حد ينتهي إليه ، فرض الله الفرائض من أذاهنّ فهو حدّهن ، إلا الذكر فإنّ الله

عزّوجلّ لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حدّاً ينتهي إليه ثم تلا- هذه الآية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(1)»(2).

وبحث الذكر سوف نتناوله بالتفصيل عند ورود الآية المذكورة أعلاه - بإذن الله - .

فوائد الذكر

لا يخفي علي المطلع الموالي أنّ للذكر فوائد جمّة منها :

أ - الآثار الغيبية له ، بحيث إنه يسبّب الإمداد الإلهي للذاكرين .

ب - الروح المعنوية : إذ أنّ الإنسان إذا رأى أنه متصل بأعظم قوة في الكون ، وأنها تمدّه بما يريد ، فيتولّد عنده قدرة عالية وهائلة وخارقة للمألوف من المعنويات ... ومن الواضح لدي الجميع أنّ المعنويات الرفيعة هي من أولي عوامل النصر والنجاح في ميادين الصراع كافة ، فقد قال تعالى مشيراً إلي تلك الروح : «كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ(3)» .

ولذا نجد التاريخ يشهد - قديمه وحديثه - بحوادث هائلة ومواقف مشرقة لشهادتنا في ساحات الصراع مع الأعداء .

فذاك الصحابي يريد أن يعرج إلي السماء ويطأ الجنّة بعرجته .

وذاك ليس عنده وقت للاغتسال فيستشهد وتغسله الملائكة .

وذاك يرمي الثمرات من يده ويقول لو أكلتها لتأخّرت عن الجنّة فالرواح إلي

ص: 406

1- سورة الأحزاب (33) : الآية 41-42

2- الكافي : ج2 ص 498 .

3- سورة البقرة (2) : الآية 249 .

وهكذا والأمثال كثيرة وأصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) كلهم أمثلة لذلك ، فالحرّ الرياحي يريد أن يكون الشهيد الأول لأنه المواجه الأول .

وعابس بن شبيب يطارد أهل الكوفة حاسراً ويقول : حبّ الحسين أجنّني .

ومسلم بن عوسجة يقول : أنحن نخليك هكذا تتصرّف ؟ لا والله لا يراني الله وأنا أفعل ذلك أبداً ، حتي أكسر في صدورهم رمحي ، وأضرب فيهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن لي سلاح أقاتلهم به لقدفتمهم بالحجارة ، ولم أفارقك حتي أموت بين يديك(1).

وسعيد بن عبد الله الحنفي يقول : والله لو علمت أنّي أقتل ثم أحيأ ثم أحرق حيّاً ، يفعل بي ذلك سبعين مرّة لما فارقتك أبداً حتي ألقى حمامي من دونك(2).

وزهير بن القين البجلي المبحّل يقول : (والله يابن رسول الله وددت أنّي قتلت فيك ثم نشرت حتي أقتل فيك ألف مرّة ، وأنّ الله قد دفع القتل عنك وعن هؤلاء الفتية(3) هذا فضلاً عن سائر الأصحاب الذين قالوا للإمام الحسين (عليه السلام) : أنفسنا لك الفداء ، ونفديك بأيدينا ، ووجوهنا وصدورها ، فإذا نحن قتلنا بين يديك نكون قد وفّينا وقضينا ما عليها(4).

فالثبات علي الحقّ ، وفي مواجهة العدو يعطي أفضل النتائج والعبر ، وخذ قصة أي واحد من شهداء كربلاء فستجدها دليل علي ما ذهبنا إليه .

ص: 407

1- اللهوف : ص 92 - 91 .

2- اللهوف : ص 93 .

3- اللهوف : ص 93 .

4- اللهوف : ص 93 .

فقصصهم قصص الحق في مواجهة الباطل .

قصص الفداء المقدس ، للشخص المقدس .

قصص الدم الطاهر ، للسبط الطاهر المطهر .

قصص التضحية بالغالي من أجل من هو أعلي من كل شيء .

قصص العطاء بدون حدود ولا حساب ، لوجه الله - سبحانه - ليكونوا يوم الورود ممن يرد بلا حساب ، فيدخلون الجنة التي عرفها المولي

لهم وحسن الثواب .

ص: 408

إشارة

(50) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (سورة التوبة : 23)

في رحاب المفردات

أولياء : الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد ، والولاية هي النصرة ، والولاية تولّي الأمر ، وقيل الولاية والولاية نحو الدلالة ، وحقيقته تولّي الأمر (1).

استحبوا : المحبة إرادة ما تراه أو تظنّه خيراً وهي علي أوجه : محبة اللذة كمحبة الرجل المرأة ، ومحبة للنفع كمحبة شيء ينتفع به ، ومحبة للفضل كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل العلم (2).

ص : 409

1- مفردات الراغب : 571 - 570 .

2- مفردات الراغب : ص 104 - 103 .

شأن النزول

إن أسباب نزول هذه الآية المباركة كما يرويها أصحاب التفاسير ، عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، وملخصها هو :

لما أراد الرسول صلي الله عليه وآله أن يفتح مكة المكرمة ، أمر أصحابه بكتمان الأمر حتى يفاجئ المسلمون الكفار ولا تراق الدماء ، فكتب حاطب إلي أهل مكة يخبرهم بنخبر الرسول صلي الله عليه وآله وأطلع الله رسوله بالخبر .

فوبّخ ثم عفا عنه ، وأرجع الرسول الذي كان بيده الكتاب ، فكان الفتح كما أراد الرسول صلي الله عليه وآله من السرية وعدم وصول الخبر إلي أهل مكة .

وقد اعتذر حاطب قائلاً : أن له أهلاً في مكة ، فخاف أن تكون الدائرة علي المسلمين ، فيكون له يد علي الكفار ، ويسلم أهله من عقابهم وعذابهم(1).

عبر من الآية

نداء وتحذير إلهي لأمر هو في غاية الصعوبة .

وذلك لفرط حساسيته ودقته في حياة الناس كافة إذ أن العلاقات النسبية هي إحدي الأشياء المؤثرة جداً في حياة الإنسان .

ففي فطرة الإنسان الإنشداد والإنجذاب إلي أبيه وأمه وإخوته ، وفيما بعد إلي أبنائه وزوجته ، وهذا يمتد إلي كل من تربطه به رابطة قرابة أو ما يسمي بالنسب .

فهل في كل ذلك إشكال شرعي أو أخلاقي أو غير ذلك ؟

ص: 410

الجواب : لا-أبداً، بل الأمر في حد ذاته مرغوب ، إذ أنه أمر فطري أودعه الله - تعالي - في كيان الإنسان وربما يكون خارجاً عن السيطرة الإنسانية .

ولكن تبقي المسألة نسبية بالنسبة لذات الشخص وعليه أن يجعل مسألة الإيمان فوق كل اعتبار آخر ، إذ أن المؤمن يحب دينه وربّه أكثر من أي حبّ آخر من تلك الاعترافات ((فالمؤمن أشدّ حبّاً)).

إذن ، فعند تعارض ((الإيمان)) مع ((العلاقات النسبية)) أيهما يقدم ؟

أيهما يتولاه الإنسان ويتمسك به من أعماقه ، فيختاره ، ويرجّحه ، ويتعلق به ؟

فهاهنا تظهر المعادن ويعرف المؤمن من غيره ، وذلك بظهور حقيقة الإيمان بالله والتمسك بحبله المتين وصراطه المستقيم ، ولا يقدم علي هذا شيء أبداً إن قطع أو أحرق أو أغرق .

وقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) مشيراً إلي ذلك : ((ولقد كتنا مع رسول الله صلي الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمالنا ، وما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ، ومضياً علي اللقم وصبراً علي مضمض الألم ، وجدداً في جهاد العدو)) (1).

نعم فلولا ذلك ما قام للدين عمود ، ولا اخضر للإيمان عود .

وورد عن ابن عباس قوله : لما أمر الله تعالي المؤمنين بالهجرة ، وأرادوا الهجرة ، فمنهم من تعلقت به زوجته ، ومنهم من تعلقت به أبواه وأولاده فكانوا يمنعونهم من الهجرة ، فيتركون الهجرة لأجلهم ، فبين سبحانه أن أمر الدين مقدم علي النسب ، وإذا وجب قطع قرابة الأبوين فالأجنبي أولي «إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَيَّ الْإِيمَانَ (2)

ص: 411

1- نهج البلاغة : خ56 يصف فيها أصحاب رسول الله صلي الله عليه وآله .

2- «(- سورة التوبة (9) : الآية 23 .

أي : إن اختاروا الكفر ، وآثروه علي الإيمان(1).

فالمسألة ليست مسألة قرابة ونسب - أب وأم أو أخ وأخت - بل هي مسألة إيمان وكفر ، وكما جاء في الحديث الشريف ((المؤمن أخ المؤمن)) (2)، وقال تعالى : «وإنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (3)، وفي الحديث : ((ربّ أخ لم تلده أمك)) (4)، إلي غير ذلك من الآيات والروايات التي تؤكد علي عمق الرابطة الدينية والإيمانية ، وهشاشة بقية الروابط بالطرف المقابل لها .

فالحبّ والبغض ، والتولي والتبرّي ، والتواصي وكل ذلك يجب أن يكون في الله ولوجه الله وكما قال تعالى : «لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا» بل كل ما نريده هو رضا الله سبحانه وتعالى .

وأما بخصوص العلاقة مع الآباء (الوالدين) فيجب أن تكون بالمعروف والإحسان وذلك لقوله تعالى : «وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا» (5) ولكن إياك أن تتخلّي عن دينك وإيمانك برّبك من أجل أحد .

عبر من قصص الأنبياء عليهم السلام

إنّ التاريخ مليء بالقصص والعبر في هذا السياق وفي هذا المجال بالذات ، ولكن يبقى القول إنّ أجملها هي قصص القرآن الكريم ، وقصص الأنبياء العظام عليهم السلام فما منهم أحد إلاّ وابتلي بأحد أقربائه المقربين ليحاربه ويناصب له العداة جهاراً ونهاراً .

ص: 412

- 1- مجمع البيان : ج 10 مج 5 ص 30 .
- 2- الكافي : ج 2 ص 166 ح 3 .
- 3- سورة الحجرات (49) : الآية 10 .
- 4- غرر الحكم : 9752 .
- 5- سورة لقمان (31) : الآية 15 .

وأجمل قصة منها وألطفها هي قصة سيدنا إبراهيم خليل الرحمن (عليه السلام) الذي ابتلي بعمه آزر حيث كان يرثيه فأطلق عليه القرآن الكريم اسم ((أبيه)) فكان من أشد المعادين له ولدينه الحنيف .

فكان إبراهيم (عليه السلام) يدعو إلى التوحيد ، وهو يدعو إلى الشرك .

وكان إبراهيم (عليه السلام) يدعو له بالهداية ، بينما كان آزر يدعو عليه ويشتمه ويدس له الدسائس ، حتى أن إبراهيم (عليه السلام) في نهاية المطاف قال له : «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي (1)» .

وكذلك رسول الله صلي الله عليه وآله ذاك العظيم الذي لم ولن ينجب التاريخ مثلاً له فقد ابتلي بعمه أبي لهب وزوجته حمالة الحطب ، الذي كان يسير خلفه ويقف حيث يقف رسول الله صلي الله عليه وآله وينتظره إلى أن يحدث الناس فيقول لهم : ((هذا كذاب)) وأنا عمه وأعلم الناس به فلا تصدقوه - والعياذ بالله - وفي أثناء الطريق كان يضرب عقب الرسول صلي الله عليه وآله بالحجارة حتى أدماه .

فأنزل الله - سبحانه - فيه : «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصِدَّ لِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (2)» .

العقيدة والولاء الخالص

إذن ، فالولاء في المجتمع المسلم يجب أن يكون للعقيدة قبل أي شيء آخر ، وحتى الولاء العائلي الذي يحبّه الإسلام الحنيف - لأنه يعتبر الأسرة هي الوحدة

ص: 413

1- سورة مريم (19) : الآية 47 .

2- سورة المسد (111) : الآية 5 - 1 .

الاجتماعية الضرورية والأساسية للمجتمع الصالح - فيجب أن يكون الولاء لها في إطار الولاء الإيماني لا منافساً أو مناقضاً له .

وقد كان هذا الانتماء الرسالي الخالص سبباً من أسباب انتصار الرسالة في صدرها الأول ، كما عرفنا ذلك من قول أمير المؤمنين (عليه السلام) السابق .

كما أن الإمام الباقر (عليه السلام) عبّر عن هذا الإخلاص الرسالي بقوله : ((لا تتخذوا من دون الله وليجة فلا تكونوا مؤمنين ، فإن كل سبب ونسب وقراة ووليجة بدعة وشبهة منقطع إلا ما أثبتته القرآن)) (1).

أي أن كل ولاء يجب أن يكون في إطار قيم الإسلام وأخلاقه ، وإلا فالانتماء إلى الإسلام يكون ضعيفاً أو مرفوضاً .

وقد فصّلت الآية التالية لآية البحث أنواع العلائق الاجتماعية حيث قال تعالى : «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» (2).

فالأمر إذن ليس بالقرابات مهما كانت قوية وقريبة بل القضية قضية دين وإيمان بالله ورسوله وكتبه والتسليم لمناهج السماء وتعليمات الأنبياء عليهم السلام في كل ما تريد أن تفعل .

فهم المؤمن رضا الله وإن أسخط جميع الخلق فهو لا يبالي .

ص: 414

1- الكافي : ج 1 ص 59 ح 22 .

2- سورة التوبة (9) : الآية 24 .

إشارة

(51) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (سورة التوبة : 28)

في رحاب المفردات

نجس : النجاسة هي القذارة وذلك ضربان : ضرب يدرك بالحاسة وضرب يدرك بالبصيرة ، والثاني وصف الله تعالى به المشركين فقال : «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ (1)». ومنه تنجيس العرب وهو شيء كانوا يفعلونه من تعليق عوذة علي الصبي ليدفعوا عنه نجاسة الشيطان(2).

عيلة : هي الفقر ، يقال عال الرجل إذا افتقر بعيل عيلة فهو عائل ، وقوله : «وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنِي (3)» أي أزال عنك فقر النفس وجعل لك الغني الأكبر وهو المعني بقوله صلي الله عليه وآله : ((الغني غني النفس)). وقيل : ووجدك فقيراً إلي رحمة الله وعفوه

ص: 415

1- سورة التوبة (9) : الآية 28 .

2- مفردات الراغب : ص 504 .

3- سورة الضحي (93) : الآية 8 .

فأغناك بمغفرته لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر(1).

شأن النزول

أخرج الشيخ المحمودي في تعليقاته علي شواهد التنزيل للحافظ (الحنفي) الحاكم الحسكاني عن (القطيعي) بسنده المذكور في كتاب الفضائل عن عكرمة ، وعن ابن عباس قال سمعته يقول : ((ليس من آية في القرآن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إِلَّا وَعَلِي رَأْسُهَا وَأَمِيرُهَا وَشَرِيفُهَا ، ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلي الله عليه وآله في القرآن وما ذكر علياً إلا بخير)) (2).

عبر من الآية

تتناول هذه الآية الكريمة مسألة هي محل ابتلاء الكثير من الناس ألا وهي مسألة نجاسة المشركين وما يتعلّق بها من أمور كمنعهم من دخول المساجد وغيرها من الأحكام الشرعية التي يتناولها الفقهاء في استدلالاتهم في الفقه . وقبل أن نخوض غمار البحث لا بأس من طرح بعض التساؤلات التي تأخذ بيدنا إلي صلب البحث وهي : كيف يكون الإنسان نجساً ؟ وما هو النجس ؟ وكيف نفهم معني النجاسة ؟

الجواب : إنّ النجس في اللغة هو كل مستقذر(3).

وفي الشريعة هي القذارة التي توجب الغسل للشئ الذي تباشره الرطوبة ،

ص: 416

1- مفردات الراغب : ص 367 .

2- التعليق علي شواهد التنزيل : ج 1 ص 19 .

3- راجع لسان العرب : مادة نجس .

وهذه النجاسة قد تكون لأمر خارجية كالبول والغائط ، وقد تكون لأمر معنوية كالكفر . فإنَّ الكافر وإن كان نظيف الجسم إلا أنَّ معتقده أوجب الحكم بنجاسته ، وذلك خير وقاية للمسلمين من أن يتلوَّثوا بعقيدته ، فإنَّهم إذا عرفوه نجساً - حتى أنه يجب الاجتناب منه في المأكل والمشرب والملبس ، وأنه مهما باشر شيئاً برطوبة تنجس فوراً منه - اجتنبوا عنه فلا يعدي إليهم ما انطوي عليه من العقيدة الباطلة .

وبالمقابل فإنَّ الكافر إذا عرف أنه يعدُّ عند المسلمين نجساً ، لا بدَّ وأن يسأل عن السبب ، فعَلَّه يتمكَّن من إزالة هذه الوصمة ، ولدي التحقيق في ذلك تظهر له خرافة معتقده وربما يسبب أن يتركها ويعتقد بالعقيدة الإسلامية الصحيحة .

اعتراض واِه

وقد اعترض البعض ممَّن لاحظ لهم من العلم وقالوا : كيف يحكم بنجاسة إنسان ، ولزوم الاجتناب عنه لمجرد انحراف عقيدته ، بل هذا منافٍ لحرية الآراء ؟ والجواب عليه : أنه كيف يحكم بالاجتناب عن إنسان لمجرد أنه مصاب بالجذام أو أي مرض من الأمراض المعدية الخطيرة لمجرد انحراف مزاج وصحة ، وهذا منافٍ لكرامة الإنسان ، فإذا كان الخوف علي الجسم يبيح الاجتناب فالخوف علي الروح أولى بالإباحة . ولزيادة التوضيح نقول : إنَّ النجاسة ربما تكون من إحدي منطلقين .

1 - النجس بالذات : وهو أن تكون هناك خبائة قابعة في ذات الشيء وداخلة في تركيبه ((كالدّم والخمر)) فمثل هذه الأشياء تكون هي عين النجاسة وتنجس غيرها كذلك إذا ما لامسته .

2 - النجس بالغير : أي أن تكون هنالك عوامل خارجية تسبب الحكم بالنجاسة . وقد تسأل عن نجاسة الكافر من أيهما ؟

والجواب عليه إنَّ الكافر - يا أخي - تجتمع فيه الجهتان معاً :

أ - فهو ملوَّث بالنجاسات التي لا يعتقد بقذارتها وبنجاستها كالخمر والخنزير

وما شابه ذلك لأنه عادةً لا يحتاط لها بل يأكلها ويشربها وكأنّها الغذاء المحبّب لجسده .

ب - هو ملوّث بقذارات معنوية ، حيث إنّه يعتقد بالمعتقدات الباطلة من كفر وإلحاد أو إشراك أو ما شابه ذلك - والعياذ باللّه - . ولا بدّ لمثل هذا الإنسان أن يطوّق من حوله بنطاق من ((الضغط الاجتماعي)) حتي لا يتأثر به الآخرون كالمريض بأمراض معدية وفتاكة تماماً ، فكيف أنّهم يعزلون ويوضعون في مصحّات خاصّة وفي غرف خاصّة ولا يدعون أحداً يقترب منهم ، ومن يريد الاقتراب منهم أو زيارتهم يعطوه مصول وأدوية وقائية مضادّة . وكذلك في المجتمع فاللصّ ، يعاقب ويشهّر به ، ويعزل ولا يفسح له المجال كي لا يفسد بعض الشباب الساذجين . فكما أنّ الأب يحذّر أبناءه من مخالطة الفاسدين ، لكي لا يفسدوا له أولاده الصالحين ، كذلك حاله بالنسبة للكافر ، فعندما يكون هناك ((تطبيع)) تذوب الحواجز النفسية ويصبح الإنسان في معرض الإنزلاق إلي أحضان أولئك الأنجاس الأرجاس . أمّا لو وضع هنالك حاجز نفسي كبير يحول بين ذلك الإنزلاق فيكون عند ذلك حاجزاً خارجياً كذلك - داخلي نفسي وخارجي حياتي - . ولعلّ هذا هو الحكمة من حكم تنجيس الكافر ، والحكم عليه - بالتالي - بحرمة دخوله إلي المسجد الحرام ، كما حصل في السنة التاسعة للهجرة المباركة حيث أرسل رسول اللّه صلي الله عليه وآله الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) ونادي في الحج وقال : ((لا يحجّن بعد هذا العام مشرك))⁽¹⁾.

الاختلاف في نجاسة الكافر

وقد اختلف في نجاسة الكافر ، فقال قوم من الفقهاء : إنّ الكافر نجس العين - وظاهر الآية يدلّ علي ذلك - بينما ذهب بعضهم إلي نجاستهم بالعرض . ولا يخفي أنّ

ص: 418

البحث في نجاسة المشركين أعم منهم ومن أهل الذمة الذين انحرفوا عن العقيدة الصحيحة ، فالروايات تؤكد علي نجاستهم ، ففي الحديث أنه سئل الإمام الصادق(عليه السلام) عن ثياب المشركين أيصلي فيها ؟ قال : لا(1).

وعن علي بن جعفر عن أخيه أبي الحسن موسى(عليه السلام) قال : سألته عن مؤكلة المجوسي في قصعة واحدة ، وأرقد معه علي فراش واحد ، وأصافحه ؟ قال : لا(2).

وعن هارون بن خارجة قال : قلت لأبي عبدالله(عليه السلام) : إنني أخالط المجوس فأكل من طعامهم ؟ قال : لا(3).

وقال الإمام الصادق في جوابه علي سؤال زرارة عن حكم آنية المجوس : ((إذا اضطررتم إليها فاعسلوها بالماء)) (4).

وعن خالد القلانسي قال : قلت لأبي عبدالله(عليه السلام) : ألقى الدمّي فيصافحني ، قال : ((امسحها بالتراب وبالحنط)). قلت : فالنائب ؟ قال : ((اغسلها)) (5).

آثار مقاطعة الكافرين

وأما كمال الآية وتامها فهو لا يقل روعة عن بدايتها ، إذ أنّ التوجيه الإلهي يذكر المؤمنين قائلاً : «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً(6)» أي فقراً ، «فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ(7)» لأنّ الأرزاق مقدّرة من الرزاق وليس من أحد غيره ، وصدق الشاعر

ص: 419

- 1- دعائم الإسلام : ج 1 ص 177 .
- 2- الكافي : ج 6 ص 264 ح 7 .
- 3- الكافي : ج 6 ص 264 ح 8 .
- 4- المحاسن : ص 584 ح 73 .
- 5- الكافي : ج 1 ص 475 ح 10 .
- 6- سورة التوبة (9) : الآية 28 .
- 7- سورة التوبة (9) : الآية 28 .

حيث قال :

أنا الرزّاق اطلبني تجدني

وإن تطلب سواي لن تجدني

فالرزق علي خالق الخلق ، وليس علي الكفّار أو المشركين ، الذين تخافون إن منعموهم من دخول مكّة فإنكم ستفتقرون ، وتجوعون وتعرون وغير ذلك من الظنون الباطلة التي ليس لها علي أرض الواقع حقيقة مطلقاً .

وبالفعل فقد أغني الله المسلمين من جهات عدّة منذ القديم ((يوم وضع إبراهيم الخليل(عليه السلام) من ذريته بوادٍ غير ذي زرع ، فجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، ورزقهم من الخيرات والبركات)) بفضل دعاء شيخ الأنبياء إبراهيم(عليه السلام) .

فرغب الناس من أهل الآفاق في حمل المسيرة إليهم ، رحمة منه ، ونعمة علي المسلمين ، وذلك عندما أسلم أهل نجد وصنعاء ومن اليمن ، وحملوا الطعام إلي مكة علي ظهور الإبل والدواب وكفاهم الله ما كانوا يتخوفون(1). وأغني الله المسلمين بالجزية التي تؤخذ من أهل الكتاب ، وبغنائم الحرب والغزوات التي كان يغزوها جيش المسلمين . وكذلك الأمطار والنبات وصوف المرعي فتحسّنت أحوال المدينة التي كانت يثرب إلي طيبة حيث طيب الله هواؤها وماؤها وبارك فيها بدعاء رسول الله صلي الله عليه وآله لأنّها كانت العاصمة السياسية للدولة الإسلامية - بلغة اليوم - .

خلاصة القول عندما يأمر الله سبحانه عباده المؤمنين بأمر فعليهم أن يلتزموا به وينفذونه بحذافيره وليكونوا علي يقين تامّ بأنّ النتائج سوف تكون لمصالحهم العامة والخاصّة ، سواء أكان ذلك علي مستوي الأمة أم الأفراد .

فالتوفيق بيد الله ، وعلي الله فليتوكّل المتوكّلون .

ص: 420

إشارة

(52) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» (سورة التوبة : 34)

في رحاب المفردات

الأحبار : الحبر أي العالم وجمعه أحبار لما يبقى من أثر علومهم في قلوب الناس ومن آثار أفعالهم الحسنة المقتدي بها ، قال تعالى : «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ(1)».

يكنزون : الكنز هو جعل المال بعضه علي بعض وحفظه وأصله من كنزت ، فيقال كنزت التمر في الوعاء ، وقوله : «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ(2)» أي

ص : 421

1- سورة التوبة (9) : الآية (31) مفردات الراغب : ص 104 .

2- سورة التوبة (9) : الآية 34 .

شأن النزول

روي العلامة (الشافعي) (محمد بن يوسف بن محمد) الكنجي (في كتابه) كفاية الطالب في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (بسند من ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((ما في القرآن آية فيها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إِلَّا وَعَلِي رَأْسُهَا وَأَمِيرُهَا)) (2).

عبر من الآية

قد لا نبالغ إذا ذهبنا بالقول إنَّ مثل الآية الكريمة تكشف عن أهم خصال زعماء أهل الكتاب ومقدسيهم ممَّن يحولون عادة عن إقبال عوام أهل الكتاب إلى الدين الإسلامي الحنيف .

فمن أبرز صفاتهم الأساسية وكما نصَّت الآية المباركة هو:

1 - أنهم كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل .

2 - يصدّون عن الإسلام رسالة السماء الخاتمة .

3 - يكتزون الذهب والفضة ويحتجزونها لديهم ولا ينتفعون بها ولا ينفعون

ص: 422

1- مفردات الراغب : ص 460 .

2- كفاية الطالب : ص 54 .

كذلك ، إذ أنّهم هم أصحاب الحقوق المالية الشرعية - كما يظنون - فكيف يؤدّون حقوق ما لديهم من أموال مكّدسة ؟

فالناس البسطاء والسدّج من أهل الكتاب لم يتّبعا الرسالة الإسلامية لأسباب عقائدية حيث إنّهم يظنون أنّهم علي حق ، وربما كانوا معذورين في ذلك ، فهم لو عرفوا الحق لاتبّعوه إذ أنّ الإسلام دين الله كما هي المسيحية واليهودية ، الصحيحتان فتتغيّر عليهما بعض الطقوس والصلوات والصيام وما إلي ذلك .

فالجهد من أشدّ الموانع التي جعلت النصراري لا يدخلون في الدين الجديد الذي جاء به رسول الله محمد صلي الله عليه وآله ومما زاد جهلهم هو صدّ الرهبان والأخبار لهم عن اتّباع تلك الرسالة السماوية الحقّة ، فلماذا صدّوهم ياتري ؟

ولماذا حارب الأخبار والرهبان مدّ الرسالة الجديدة ومنعوا انتشارها بينهم ؟

مع العلم بأنّهم أعلم الناس - في ذلك الحين - بحقيقتها وأحقّيتها ، وصدق صاحبها الصادق الأمين محمد بن عبد الله صلي الله عليه وآله حيث إنّهم قرأوه في كتبهم القديمة والرهبان هم أوائل من عرفوا رسول الله صلي الله عليه وآله ومنهم بحيرا الراهب وغيره ، وقصصهم مشهورة في كتب التاريخ والسيرة المعطّرة له صلي الله عليه وآله (1).

وبالرغم من ذلك كلّهم فقد حاربوا الرسالة والرسول صلي الله عليه وآله وذلك لأسباب ودوافع كثيرة تعود كلّها إلي المصالح الذاتية والمنافع الشخصية ، فظنّوا أنّهم لو آمنوا بهذه الرسالة المباركة لذهبت هيبتهم من القلوب ، وتضرّرت جيوبهم من جرّاء ذلك .

ص: 423

1- راجع بحار الأنوار : ج 15 ص 369 ح 19 ، وإيمان أبي طالب : ص 285 ، والخرائج : ج 1 ص 23 .

دوافع محاربة الرسول صلي الله عليه وآله

إنّ الآية المباركة تشير إلي بعض الجوانب أو الدوافع التي جعلت الرهبان والأخبار يحاربون دعوة الرسول صلي الله عليه وآله مع علمهم بأحقّيتها . ويمكن أن نطلق علي هذه الدوافع ب ((الدوافع الاقتصادية)) ، إن صحّ التعبير - حيث إنّ ذلك الموقع الذي كانوا يحتلونه كان يدّر عليهم امتيازات مادّية كثيرة ، فيجنون الأموال الطائلة ويصبحون من طبقة الأثرياء في أي مجتمع كانوا فيه وهذا يؤمّن لهم معيشة مرموقة دائماً .

هذا فضلاً عن الامتيازات المعنوية من احترام وتقدير الناس كاحتلال صدر المجلس أينما حلّ وأعلي مركب إذا ركب وغير ذلك .

فكفرهم وإنكارهم وصدّهم عن سبيل الله ، كان الضمانة الوحيدة - في نظرهم - للحفاظ علي هذه الامتيازات وتعزيزها ربما لأنّهم سيصبحون أبطالاً إذا ما حاربوا في سبيل عقائدهم ودينهم - كما ظهر الكثير منهم بهذه الحلّة - بينما الإيمان بالله وتصديق رسوله محمد صلي الله عليه وآله كان يعني - في تصوّرهم الساذج - فقدان كل هذه الامتيازات الرفيعة المادّية منها والمعنوية .

وقبل أن نلاحظ نظرة الإسلام لا بأس من معرفة ما يلي :

1 - الأخبار : أنّ العلماء الكبار والمتبحّرين في العلوم الدينية عندهم يطلق عليهم هذا الاسم المقدّس ، فالبابا اليوم في الفاتكان يسمّون ((بالحبر الأعظم)).

2 - الرهبان : وهم الزهاد والعباد الذين يندرون أنفسهم للدين أو لله كما يقولون فيحرّمون علي أنفسهم لذائذ الدنيا كلّها .

ولا يخفي أنّ الإسلام الحنيف ذمّ الرهبانية بشدّة ، فقد قال تعالي : «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ» وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((لا رهبانية في الإسلام تزوّجوا فإتي مكاثر بكم الأمم))⁽¹⁾.

وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((ليس في أمّتي رهبانية ولا سياحة ولا زمّ يعني السكوت))⁽²⁾.

وعن عثمان بن مظعون قال : قلت لرسول الله صلي الله عليه وآله : إنّ نفسي تحدّثني بالسياحة وأنّ الحقّ بالجبال ، قال : ((ياعثمان لا تفعل فإنّ سياحة أمّتي الغزو والجهاد))⁽³⁾.

وعن الإمام علي (عليه السلام) قال : جاء عثمان بن مظعون إلي رسول الله - صلي الله عليه وآله - فقال : يا رسول الله قد غلبني حديث النفس ولم أحدث شيئاً حتّي استأمرتك ، قال : ((بم حدّثتك نفسك ياعثمان؟)) قال : هممت أن أسبح في الأرض قال : ((فلا تسبح فيها فإنّ سياحة أمّتي المساجد)) إلي أن قال : وهممت أن أجبّ نفسي قال : ((ياعثمان! ليس منّا من فعل ذلك بنفسه ولا بأحد إنّ وجاء أمّتي الصيام))⁽⁴⁾.

وبهذا الاعتبار تذكر الآية المباركة هؤلاء الرهبانيين (وتبيّن لهم أنّ كل ما في الدنيا هو متاع زائل وعند الله تنال الرغائب ، فأموال الدنيا سوف تبقي فيها وأما تبعات هذه الأموال سوف تحاسبون عليها في يوم القيامة ، فهي إذن وبالاً عليهم علي

ص: 425

- 1- مستدرك الوسائل : ج 14 ص 155 ح 16356 .
- 2- وسائل الشيعة : ج 10 ص 524 ح 14026 .
- 3- تهذيب الأحكام : ج 6 ص 122 ح 5 .
- 4- مستدرك الوسائل : ج 7 ص 507 ح 8763 .

المدني البعيد سواء أكان في القبر أم في عالم البرزخ أم يوم يؤخذ بالنواصي والأقدام حيث قال تعالى: «فَتَكْوِي بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ(1)».

وعلي الرغم أن التذكير ينفع وخاصة لأمثال أولئك ، إلا إنه لم ينفع معهم في شيء وإثما قالوا : نحن أبناء الدنيا وما علينا إلا الاستزادة من كل ما نستطيع فأخذوا يأكلون أموال الناس بالباطل أكلاً لماً ، و خلفوا وراءهم الآخرة وملذاتها .

وجوه أكل المال بالباطل

ولا يخفي أن أكل الأموال بالباطل له وجوه عدة فمنها :

- 1 - ما يكون عبر الرشاوي للحصول علي أحكام باطلة ، أو لشهادة زور أو ما أشبه ذلك .
 - 2 - ما يحصل عبر الاحتيال علي الفقراء بأخذ الصدقات والزكاة ما ينتهي إلي جيبوهم ليتنعمون بها بدل أن يعطوهم إيها .
 - 3 - عبر التلاعب بالدين باسم السيّد المسيح حيث مرّت مدّة من الزمن أخذ رجال الدين يصدرون فيها صكوك الغفران ، فالذي يكون معه صك يدخل إلي الجنّة بدون استئذان ، وراح الشعب يبيع نفسه من أجل صك من هذا النوع .
- وهكذا فهم يأكلون الأموال ، والطعام ، ويأخذون الضرائب علي كل شيء ، علي الولادة ، وحتى الوفاة وفي كل عيد أو مناسبة لهم أجر ورزق مخصّص دون غيرهم من الناس فراحوا يجمعون تلك الأموال ويكنزونها في التراب أو الجدران أو

ص: 426

1- سورة التوبة (9) : الآية 35 .

ما أشبه ذلك .

وكما نقل عن الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله أنه لما نزلت هذه الآية المباركة قال : تَبّاً للذهب ، ((تَبّاً للفضّة)) - يكرّرها ثلاث مرّات - فشقّ ذلك علي أصحابه فسأله أحدهم فقال : يارسول الله صلي الله عليه وآله أي المال نأخذ ؟

فقال صلي الله عليه وآله : ((لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم علي دينه))⁽¹⁾.

وكان فيما ناجي الله به نبيّه موسي قائلاً : ((ولا تغبط أحداً بكثرة المال فإنّ مع كثرة المال تكثر الذنوب لواجب الحقوق))⁽²⁾.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : ((تكلمّ النار يوم القيامة ثلاثة : أميراً وقارئاً وذا ثروة من المال ، فتقول للأمر : يا من وهب الله له سلطاناً فلم يعدل فتزدرده كما يزدرد الطير حبّ السمسم ، وتقول للقارئ : يا من تزين للناس وبارز الله بالمعاصي فتزدرده وتقول للغني : يا من وهب الله له دنياً كثيرة واسعة فيضاً وسأله الحقيير اليسير قرضاً فأبى إلا بخلاً فتزدرده))⁽³⁾.

فالله ، الله يسأل رسول الله صلي الله عليه وآله عن المال ، فيجاوب بهذا الجواب الجميل إذ أنّ المال متروك للورثة والورثة يتركونه لمن بعدهم ويبقى في دار الدنيا ، أمّا ما ذكره رسول الله صلي الله عليه وآله فهو الوحيد الذي يبقى مع الإنسان حتي يورده إمّا النعيم الدائم ، أو الجحيم الدائم .

ص: 427

1- عوالي اللآلي : ج2 ص67 ح175 .

2- الكافي : ج2 ص135 ح21 .

3- مستدرک الوسائل : ج4 ص251 ح4624 .

فالسّان الذّاكر .

والقلب الشّاكر .

والزوجة المؤمنة ، كلّها أموال مكنوزة في القلوب ولا مكان لها في البنوك ، فتكون معيناً علي الدين ، وطريقاً مستقيماً إلي جنان النعيم في ظلّ ملكٍ مقتدر ، رزقنا الله وإياكم تلك الجنان ومتعنا برضي الرحمن بمحمد وآله الطاهرين صلي الله عليه وآله .

ص: 428

إشارة

(53) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ»

(سورة التوبة : 38)

في رحاب المفردات

انفروا : انفروا هو الانزعاج عن الشيء ء وإلي الشيء ء كالفرع إلي الشيء ء وعن الشيء ء ، يقال نَفَرَ عن الشيء ء نفوراً ، وقد قال تعالى : «مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا(1)» ، والاستنفار هو حثُّ القوم علي النفير إلي الحرب(2).

إثَّاقَلْتُمْ : الثقل والخفّة متقابلان فكلّ ما يترجّح علي ما يوزن به أو يقدر به يقال هو ثقيل وأصله في الأجسام ثم يقال في المعاني نحو : أثقله الغُرم والوزر قال

ص : 429

1- سورة الإسراء (17) : الآية 41 .

2- مفردات الراغب : ص 522 .

تعالى : «أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ(1)».

متاع : هو انتفاع ممتد الوقت ، يقال : متَّعه الله بكذا ، وأمتعته وتمتَّع به ، قال تعالى : «وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(2)» . وكل موضع ذكر فيه تمتَّعوا في الدنيا فعلى طريق التهديد وذلك لما فيه من معنى التوسُّع ، واستمتع أي طلب التمتع(3).

شأن النزول

ينقل أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من الطائف (أمر بالإعداد لغزوة الروم ، وذلك في زمان إدراك الثمار .

فأحبوا المقام في المسكن والمال وشقَّ عليهم الخروج إلى القتال ، وكان من عادته صلى الله عليه وآله فلما خرج في غزوة إلا كتَّي عنها ووَرِّيَ بغيرها إلا ((غزوة تبوك)) لبعده شقَّتْها ، وكثرة العدو ، ليتأهَّب الناس ، فأخبرهم بالذي يريد ، فلما علم الله سبحانه ثقائل الناس ، أنزل الآية(4).

ص: 430

1- سورة الطور (52) : الآية (40) مفردات الراغب : ص 76 .

2- سورة يونس (10) : الآية 98 .

3- مفردات الراغب : ص 481 .

4- مجمع البيان : ج 10 مج 5 ص 55 .

علي خلاف سائر النداءات القرآنية التي يستشتم منها رائحة الرأفة والرفق للمؤمنين جاءت هذه الآية المباركة لتوبيخهم وتدعوهم إلي عدم التثاقل عن الجهاد في سبيل الله .

وبالرغم أن الاستفهام في الآية المباركة استنكاري وشديد اللهجة علي المؤمنين بالخصوص ، إلا أنه في ذات الوقت يشمل جميع المسلمين ، إذ أن المؤمن كالمسلم من حيث إنه يرضي برضا الله ورسوله ، ويأتمر بالأوامر الإلهية دون قيد أو شرط .

وكما يستفاد من شأن نزول الآية أن الرسول صلي الله عليه وآله لما دعا المسلمين إلي الجهاد في تبوك تثاقل المسلمون عن تلبية دعوته وذلك لأن هذه الغزوة لم تكن كسائر الغزوات التي خاضها المسلمون ، وذلك لعدة أسباب منها :

1 - شدة العدو : فهذه المرة المواجهة ليست مع قريش المفككة والمنهزمة نفسياً لأنه ما من بيت إلا وكان منه واحد أو أكثر مع رسول الله صلي الله عليه وآله ، وليست مع اليهود الذين أسهم بينهم شديد وقلوبهم شتى ، ولا حتي مع عشيرة أو قبيلة واحدة ، بل المواجهة مع دولة منظمة وامبراطورية قوية - بل من أقوى الامبراطوريات في ذلك الزمان - ألا وهي الروم وقيادة عظيمها هرقل الشهير ، كما أنها انضمت إليها عدد من القبائل العربية .

وأجواء الحادثة تؤكد النوايا الهجومية للروم علي بلاد الإسلام الفتية .

2 - المسافة من المدينة ، إلي أرض الروم بعيدة جداً وتحتاج إلي طاقات إضافية ، وتكاليف إضافية ، واستعدادات تختلف عن بقية الغزوات .

3 - الوقت غير مناسب للمسير والحركة إذ أنها وقعت في شدة الصيف القانظ ، وهذا الجو يعتبر معيقاً بالنسبة لحركة الجيوش القديمة ، بل وحتى للتعسكر

وإنشاء التجمعات اللازمة لذلك إذ أنّ الجيش بحاجة إلي خيم وأماكن ليتفياً بها .

4 - أنّ الوقت غير مناسب لترك المدينة المنورة لأنّها كانت في تلك الفترة تعجّ وتضجّ بالحركة والنشاط التجاري والزراعي إذ أنّ الثمار قد نضجت وحن قطفها ، وإذا ذهب الرجال والعييد والخدم إلي الحرب فإنّها سوف تذهب هباءً منثوراً بلا فائدة منها ، وهذا بدوره يؤثّر سلباً علي الروح المعنوية للجيش ، وعلي الحالة الاقتصادية للدولة الإسلامية ، وعلي التأمين المادّي والغذائي للمعركة .

5 - كما هو معلوم أنّ هذه المعركة - وكل معركة - لا بدّ فيها من مخاطر كثيرة ، فقد يقتل الإنسان فترمّل زوجته وتيتم أطفاله ، وقد يسمح الإنسان المؤمن لنفسه بالموت والشهادة في سبيل الله ، ولكن تفكيره وقلقه علي زوجته وأولاده يثبته عن ذلك .

ففرق الأحبّة ، وحبّ الدنيا والحياة فيها ، وغير ذلك ، أو ربما يصاب الإنسان المقاتل بعاهة دائمة كقطع اليد ، أو الرجل أو العمي ، أو غير ذلك من القضايا والأحداث التي يمكن أن تقع مع أي مقاتل كان .

فكل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الكثير من المسلمين يتشاقلون ويخلّدون إلي الأرض ، بدلاً من الخفّة والإسراع في تنفيذ أمر الرسول صلي الله عليه وآله الذي يعلم مصالحهم أكثر منهم ويقدر الظروف والأمر بتقدير حكيم بلا أدني شك .

فلماذا إذن الخلود إلي الأرض ، بدل الثوب إلي قمم المجد بالجهاد ؟

القرآن يذكر بدار الخلود

ومن هنا نجد أنّ القرآن الكريم يذكرهم بالحياة الأبدية ، هناك في جنان الخلد والنعيم الدائم ، فالإنسان تارة يكون قصير النظر ، لا ينظر إلا إلي الأشياء المحيطة من

حواله فقط ، وربما لا يتجاوز نظره أرنبه أنه كما يقال .

وتارةً أُخري يكون بعيد النظر ، ينظر إلى القريب والبعيد ، فالمؤمن كما في الحديث : ((ينظر بنور الله))⁽¹⁾ وقد وصف أحدهم الإمام علي (عليه السلام) عند معاوية فقال : ((أنه بعيد المدى))⁽²⁾ .

وعلي الإنسان المؤمن أن يجعل في نفسه ميزاناً عادلاً ، فيلاحظ القريب ، ويرمي بطرفه إلى البعيد ، ويجري موازنة بين القريب والبعيد .
وعليه أن يختار الأفضل ، والأكمل ، والأبقي ، والأبقى ، دائماً وأبداً ولا يتعلّق بالأمر البسيطة الزائلة .

الحرّ الرياحي يتخلّي عن الدنيا

وفي هذا المجال يتجلّي دور الحرّ بن يزيد الرياحي الذي تخلّي عن الدنيا الفانية ونظر إلى الآخرة الباقية حيث انضمّ إلي عسكر الإمام الحسين (عليه السلام) .

يقول الراوي : ثمّ صاح - الإمام الحسين (عليه السلام) - أما من مغيث يغيثنا لوجه الله؟! أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟ قال : فإذا الحرّ بن يزيد قد أقبل إلي عمر بن سعد ، فقال : أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال : إي والله قتالاً أيسره أن تطير الرؤوس وتطيح الأيدي ، قال : فمضى الحرّ ووقف موقفاً من أصحابه وأخذه مثل الأفكل ، فقال له المهاجر بن أوس : والله إنّ أمرك لمريب ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك ، فما هذا الذي أري منك؟ فقال : والله إنّي أخير نفسي بين الجنة والنار ، فوالله لا أختار علي الجنة شيئاً ولو قطّعت وأحرقت ثمّ ضرب فرسه قاصداً

ص: 433

1- الكافي : ج 1 ص 218 ح 3 .

2- بحار الأنوار : ج 33 ص 250 .

إلي الحسين(1)(عليه السلام).

وبالمقابل يأتي موقف عمر بن سعد الذي قال : ((ما عاقل باع الوجود بدين)) فخسر الدنيا وذهبها بعارها وفي الآخرة جهنم وبئس المصير .

فهل مثل هذه الحياة التعيسة تفضّل علي حياة أبدية ، فيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر ؟

ففي عالم الآخرة لا تعب ولا نصب ، ولا مرض ولا بلاء ، ولا موت ولا شقاء ، بل هي دار ((الحيوان)) أي الحياة التي لا موت فيها ، فهي خالدة مخلّدة إلي ما شاء الله .

فعلي الإنسان الاستجابة إلي نداء الرسول صلي الله عليه وآله وتلبية دعوته بالجهاد ضدّ أي عدو وفي أي ظرف من الظروف ومهما بلغت من العنف والقساوة ، فالله أعلم وأحكم الحاكمين فكيف يأمر بدون وجه حكمة في ذلك ؟

ص: 434

1- اللهوف : ص 201 - 301 .

إشارة

(54) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» (سورة التوبة: 119)

في رحاب المفردات

اتَّقُوا: الوقاية هي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاءً، والتقوي هي جعل النفس في وقاية مما يخاف(1).

الصادقين: الصادق هو القائل بالحق، العامل به، لأنه صفة مدح، ولا يطلق إلا علي من يستحق المدح علي صدقه(2).

شأن النزول

أخرج عالم الشوافع السيد الشبلنجي في نور الأبصار، عن ابن عباس قال: ((ليس آية من كتاب الله تعالى) فيها): «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا وعلي أولها،

ص: 435

1- مفردات الراغب: ص 568.

2- مجمع البيان: ج 11 مج 5 ص 139.

أميرها وشريفها)) (1). وعن ابن عباس في قوله: «اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» [نزلت في علي بن أبي طالب خاصة (2)].

عبر من الآية

نداء جميل ، وأمر جليل .

وهو أمر بالتزام خطّ ونهج أهل البيت الأطهار عليهم السلام ((بالمعنيّة)) بنوعيتها ، إذ أنّها علي نوعين إثنيين وهما :

1 - معيّة محدودة : وذلك بأن تكون مع ((إنسان)) في بعض الحالات الخاصّة ، أو بعض المراحل المحدّدة كأن يكون الإنسان مع غيره في مواضع الحقّ والصواب أمّا إذا انحرف إلي الباطل فيتركه وشأنه . فهذه المعيّة إنّما تكون في غير المعصوم ، وهي معيّة مقيدة وليست مطلقة .

فمثلاً : ليست معيتنا مع مراجع التقليد وعلماء الدين الكبار ، معيّة مطلقة ، بل معيّة محدودة ، فإذا انحرف مرجع التقليد تركناه وقلدنا غيره من العلماء الذين يمتلكون مقومات التقليد المعروفة كما حدث في قضية ((الشلمغاني)) وغير من العلماء المنحرفين .

2 - معيّة مطلقة : أي أنّنا نلتزم المعيّة في كل الحالات والظروف ، والأحيان والأزمان وهذا لا يكون إلّا في زمن المعصوم وللمعصوم (عليه السلام) بالذات ، حيث إنّّه دائماً علي الحق ومع الحق ، فيجب علي الإنسان أن يكون معه دائماً ، ليكون مع الحقّ .

ورسول الله صلي الله عليه وآله حدّد وعيّن صاحب الحق ، ومع من يكون الحق أينما وجد ،

ص: 436

1- ((- نور الأبصار : ص 78 .

2- شواهد التنزيل : ج 1 ص 303 ح 351 .

وكيفما توجه علي رؤوس الأشهاد وذلك بأحاديث مشهورة ، ومتواترة ، ومجمع عليها من الجميع . فقد قال صلي الله عليه وآله : ((علي مع الحق والحق مع علي))⁽¹⁾.

وقال صلي الله عليه وآله : ((علي مع القرآن والقرآن مع علي ، يدور معه كيفما دار))⁽²⁾.

وقال صلي الله عليه وآله : ((من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعادي من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه كيفما دار))⁽³⁾.

وللفخر الرازي صاحب التفسير الكبير له كلمة لطيفة في هذا المجال حيث قال : ((ومن اقتدي في دينه بعلي بن أبي طالب(عليه السلام) فقد اهتدي والدليل عليه قوله صلي الله عليه وآله : ((اللهم أدر الحق مع علي حيث دار))⁽⁴⁾.

وقد صرح كثير من أعلام السنّة أنّ المقصود من ((الصادقين)) في الآية الكريمة هم محمد المصطفى صلي الله عليه وآله وعلي المرتضى(عليه السلام) ومتمنّ صرح بذلك هو :

الثعلبي في تفسيره ، وجلال الدين السيوطي في الدرّ المنثور ، والحافظ أبو نعيم في ((ما نزل من القرآن في علي(عليه السلام)) ، والخطيب الخوارزمي في المناقب ، والحافظ سليمان القندوزي الحنفي في ينابيع المودة(الباب 39 ، وشيخ الإسلام الحمويني في فرائد السمطين(ومحمد بن يوسف الكنجي الشافعي في كفاية الطالب(الباب 62 عن تاريخ ابن عساكر الدمشقي .

فهؤلاء كلّهم) وغيرهم كذلك(اتفقوا علي أنّ المقصود من الصادقين : هم النبي الكريم صلي الله عليه وآله والإمام علي(عليه السلام) .

ص: 437

1- راجع كل من : المستدرک علي الصحيحين : ج 3 ص 124 ، المناقب للخوارزمي : الفصل الثامن ص 56 ، فرائد السمطين : ج 1 ص 176 ، منتخب الكنز بهامش مسند أحمد : ج 5 ص 62 ، والترمذي في السنن : ج 5 ص 297 رقم 3798 ، تاريخ دمشق ترجمة الإمام علي - عليه السلام - : ج 3 ص 120 رقم 1162 .

2- فرائد السمطين : ج 1 ص 177 رقم 139 .

3- راجع أسني المطالب : الباب العاشر ص 65 ح 24 .

4- التفسير الكبير : ج 1 ص 205 .

وقال بعضهم بأن المقصود من الصادقين في الآية الشريفة هم رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل بيته وعترته(1).

ومنهم من قال بقول أئمتنا الكرام عليهم السلام من أن المقصود بالصادقين هو علي (عليه السلام) وشيعته وأبنائه وأشياعهم في كل عصر ومصر .

وقد روي سليم بحدِيث المناشدة قول أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((فأنشدتكم الله ، أتعلمون أن الله أنزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(2)»)) (فقال سلمان : يا رسول الله أعمامة هي أم خاصة ؟

قال صلى الله عليه وآله : ((أما المأمورون فعمامة المؤمنين أمروا بذلك ، وأما الصادقون : فخاصة لأخي علي والأوصياء من بعده إلي يوم القيامة ، قالوا : اللهم نعم)) (3).

وابن شهر آشوب يحدث عن ابن عمر أنه قال : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ» أمر الله سبحانه الصحابة أن يخافوا الله ثم قال : «وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(4) يعني مع محمد وأهل بيته عليهم السلام(5).

فهذه المعية المطلقة ليست لأحد إلا للأئمة من أهل البيت المعصومين عليهم السلام إذ ليس هناك معصوم يمكن افتراضه غيرهم علي الإطلاق .

زيادة إيضاح

ومن أجل زيادة الإيضاح للبحث نقول إن الصدق هو أشرف الصفات المرضية ، وقد ورد الكثير من الآيات والأحاديث بمدحه وعظيم فائدته في الحياة

ص: 438

1- راجع ينابيع المودة : الباب التاسع والثلاثون ص 119 .

2- سورة التوبة (9) : الآية 119 .

3- كتاب سليم بن قيس : ص 647 .

4- ((- سورة التوبة (9) : الآية 119 .

5- مناقب آل أبي طالب : ج 3 ص 92 .

الدنيا والآخرة ، فعن الإمام علي (عليه السلام) قال : ((الصدق سيف الله في أرضه وسمائه أينما هوي يقدد(1) فإذا أردت أن تعلم أصدق أنت أم كاذب فانظر في قصد معنك ، وغور دعواك ، وعيرها بقسطاس من الله - عز وجل - كأنك في القيامة قال الله عز وجل : «الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ(2)» . فإذا اعتدل معنك بدعواك ثبت لك الصدق ، وأدني حد الصدق أن لا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان)) (3).

وعنه (عليه السلام) قال : ((إنَّ العبد ليصدق حتي يكتب عند الله من الصادقين ، ويكذب حتي يكتب عند الله من الكاذبين ، فإذا صدق قال الله تعالي صدق وبرّ .

وإذا كذب قال الله تعالي : كذب وفجر)) .

وفي رواية ((ليصدق حتي يكتبه الله صديقاً)) (4).

وقال الإمام الصادق (عليه السلام) لبعض أصحابه : ((انظر ما بلغ علي (عليه السلام) عند رسول الله صلي الله عليه وآله فالزم ، فإنّ علياً إنما بلغ عند رسول الله صلي الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الأمانة)) (5).

أقسام الصدق

وقد نقل بأن للصدق ستّة أنواع هي :

1 - الصدق في القول : وهي الإخبار عن الأشياء علي ما هي عليه حقيقة .

2 - الصدق في النيّة والإرادة : ويرجع ذلك إلي الإخلاص ، وتمحيص النيّة وتخليصها لله .

ص: 439

1- أي يقطع .

2- سورة الأعراف (7) : الآية 8 .

3- بحار الأنوار : ج 68 ص 10 .

4- الكافي : ج 2 ص 105 ح 9 .

5- الكافي : ج 2 ص 104 ح 5 .

3 - الصدق في العزم : أي الجزم علي عمل الخير مباشرةً ودون تأخير .

4 - الصدق في الوفاء : حيث إنّ النفس تسخو بالعزم ولكن قد تتراجع عند أول صعوبة يواجهها الإنسان ، لذلك كان عليه الإصرار علي تنفيذ ما عزم عليه .

5 - الصدق في الأعمال : أي تطابق الباطن والظاهر ، واستواء السريرة والعلانية ، أو كون الباطن خير من الظاهر .

6 - الصدق في مقامات الدين : من الصبر ، والشكر ، والتوكل ، والحب ، والخوف ، والرجاء والزهد ، والتعظيم ، والرضا والتسليم ، وهذا أعلي درجات الصدق وأعزها علي الإطلاق . علماً أنّ هذه الدرجات لا نهاية لها . فقد يكون العبد صادقاً في بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً ومن كانت عادته الصدق فهو الصادق أو الصدوق . ولذلك نجد أنّ أحد أهمّ أوصاف أمير المؤمنين الإمام(عليه السلام) هو الصديق الأكبر ، والفاروق الأعظم . والأمر الإلهي في هذه الآية المباركة واضح بوجوب التزام طريق الحقّ الإمامي ونهج الصدق العلوي الشريف وهي كآية الولاية ، أو آية الإنذار أو حديث المنزلة وغيرها من الآيات الكريمة أو الأحاديث الشريفة . إذن : فليس هناك من أمرنا بالكون معه أو متابعتة ، إلا أهل البيت عليهم السلام ... هؤلاء المعصومون ولا أحد غيرهم ، حيث إنّهم دائماً مع الحق ، ومع القرآن متلازمان ولا ينفصلان . ولذا قال الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله : بحديث الثقلين المشهور والمتواتر لدي الجميع أنّهما ((لن يفترقا)) و ((لن)) تفيد التأييد في الماضي والحاضر والمستقبل البعيد كذلك . أي أنه لا يعقل أن يكون القرآن في جانب ، وأهل البيت في جانب آخر . فالصادقون في كل العصور هم الأئمة عليهم السلام ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية ، فلا يمكن أن يخلو عصر أو زمان من إمام حق معصوم ظاهراً كان أو مستوراً كعصرنا الحاضر . فواجب المؤمنين الالتزام بأئمتهم دائماً وأبداً في كل العصور والأزمان دون غيرهم .

(55) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» (سورة التوبة : 123)

في رحاب المفردات

يلونكم : أي القريبين منكم فيقال : داره وُلِّي داري أي قريبة منها(1).

غلظة : الغلظة ضدّ الرأفة ، ويقال غلظة وغلظة وأصله أن يستعمل في الأجسام لكن قد يستعار للمعاني كالكبير والكثير ، قال الله تعالى : «وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» أي خشونة(2).

ص: 441

1- لسان العرب : مادة ولي .

2- مفردات الراغب : ص 376 .

أخرج الفقير العيني في مناقبه بعدة أسناد قال : قال ابن عباس : ((ما أنزل الله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » إِلَّا وَعَلِيٌّ أَمِيرٌهَا وَشَرِيفُهَا))(1).

عبر من الآية

تارةً أخري يعود بنا الحديث عن الجهاد المقدس في الإسلام ، حيث إن الآية المباركة جاءت لتضع للمسلمين الخطة الحربية لمقاتلة الكفار ، وتعلمهم كيفية التعامل مع الأعداء جميعاً ؟

فالأعداء كثيرون ومتعدّدون وهم موجودون في كل اتجاه ومن كل قوم ومدّة ، فهؤلاء جميعاً متّحدون في المصداق ((بالعداء لنا)) ولكن منهم من هو قريب وخطير ، ومنهم من هو بعيد آلاف الأميال - وللبعد والقرب فوائد كبيرة في الحروب القديمة أمّا في الحروب الحديثة فبسبب التطور الهائل للسلاح وآلة الحرب - فقد ألغيت خصوصية القرب والبعد في الحروب .

فالعدو هو كل من يتربّص بنا الدوائر ، ويريد الوقيعة بنا والشر لنا ولكن من هو في جوارنا أو داخل دولتنا فهو الأخطر دوماً لأنه يكون كالسوس الذي ينخر في الداخل أنفقاً فيهشم البناء ويجعله يندك في الأرض دكاً .

ولذلك كان خطر المنافقين كبير جدّاً علي الأمة الإسلامية ودولتها الفتية ففضحهم القرآن الكريم وحذّر منهم . واللطيف في الأمر أنّ هذه السورة المباركة

ص: 442

((سورة التوبة)) هي ((الفاضحة)) للمنافقين لأنها كشفت جميع أوراقهم للأمة ، إلا أن الأمة ومع الأسف أحببت العماية علي الهدي فأولت الآيات المنزلة بحق المنافقين وجعلتها بحق المشركين والكافرين حتي بلغ الأمر أننا جعلنا كل من رأي أو سمع أو حتي رآه الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله صحابياً جليلاً وصادقاً أميناً ومأموناً علي الدين والدنيا فما مضى من عمر الرسالة سنوات حتي كان قادتها من الطلقاء الذين فعلوا ما فعلوا بقيادة المسلمين الواقعيين .

والسؤال الذي يطرح هنا هو : إذا كان الأعداء متعددين هل من الصحيح مقاتلتهم جميعاً ؟

الجواب : إنَّ العقل والمنطق يقولان عادةً لا وألف لا .

إذن يجب أن نقاتل من ((يلونكم)) أي يقربونكم أو هم بعدكم مباشرةً ، فالشيء يلي الشيء ، أي يتبعه مباشرةً ، وهذا هو القرب الجغرافي - طبعاً - وذلك لأنهم هم الأخطر دائماً .

فهذا الحكم دائم وقائم إلي الآن ، لأنه لا ينبغي لأهل كل بلد أن يخرجوا إلي قتال الأبعد ، ويدعوا الأقرب والأدني منهم ، لأن ذلك يؤدي إلي الضرر ، وربما يمنعهم عن المضي في وجهتهم ، إلا أن يكون بينهم وبين الأقرب موادة - كمعاهدة أو صلح ، أو عهد - .

فلا بأس حينئذ بمجاوزة الأقرب إلي الأبعد - علي ما يراه المتولّي لأمر المسلمين - بل حتي في الحروب الحديثة وآلياته المتطورة والبعيدة المدى في العمق والجبهة يؤكّد الخبراء العسكريون أنه إذا أردت أن تحتلّ موقعاً فعليك أن تطهر الأرض التي مررت بها أولاً كي لا يفاجئك العدو من الخلف ، وتجارب الحروب الحديثة تشهد علي صدق النظرية .

فعلينا مراعاة الضرورة والضرر من العدو الذي نريد أن نحاربه في بداية الأمر .

وقد يتبادر إلي الذهن السؤال التالي وهو : هل القرب الجغرافي له موضوعية أو طريقية للتعامل مع العدو ؟

ففي الظاهر علي ما يبدو : أن له طريقية .

فإذا كان العدو الأبعد أخطر ، فعلينا قتال الأبعد لأنه الأخطر علينا ، وخاصة في هذه الأيام عصر التطور التكنولوجي والتقدم العسكري العجيب الذي يغزو العالم الأكبر .

التقوي عند قتال الأعداء

من جانب آخر - وكما تشير الآية - أن علي المقاتل المسلم أن يلتزم بالتقوي في الحروب إذ أنه عادة ما تشهد الحروب الفتك والقتل والتدمير فضلاً عن الانتهاكات سواء بحق أو بغيره ، فالمحاربون لا يتركون - عادةً - التعدي والظلم والتجاوز في كل اتجاه ، وذلك لأن الحرب - بطبيعتها - تثير مشاعر الهمجية والوحشية في الإنسان ، ولا تجعله يفكر إلا في حماية نفسه وتدمير عدوه المقاتل له .

ولذا تذكّر الآية المباركة المقاتلين ((بالتقوي)) وتأمروهم بالشجاعة وشدة البأس ، والصبر الشديد علي القتال ، ليحسّ العدو بالشدّة ، والصرامة والقوة والعنفوان منكم فإنّ هذا يعزّز الروح المعنوية لدي المسلمين ويدور الروح المعنوية للطرف المقابل .

وتعليمات الإمام علي (عليه السلام) القتالية لولده محمد بن الحنفية في معركة الجمل مشهورة حيث قال له (عليه السلام) :

((تزلزل الجبال ولا تزل! عَضَّ علي ناجزك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، إرم ببصرك أقصى القوم، وغَضَّ ببصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه)) (1).

أجل، بهذه الكيفية يجب أن يقاتل الرجل المؤمن والمدافع عن دينه وإمامه .

إلا أن التقوي ضرورية في كل المواقع والمواقف لأنها أساس البناء الديني الذي هو من أسس بناء الكون فإن الإسلام جاء محرراً لا خاتماً ومستعمراً، فليس للجيوش الإسلامية أن تفعل ما تشاء إذا غلبت بل هناك تعليمات وحدود يجب التقيد بهذا لا سيما الأخلاقية منها).

ولهذا زجر الرسول صلي الله عليه وآله بلال الحبشي بعد فتح خيبر، حيث أنه مر بصفية بنت حبي علي مصارع قتلاها فجزعت حتى كادت روحها تخرج من بدنها .

فقال رسول الله صلي الله عليه وآله لبلال زاجراً: ((أنزعت منك الرحمة يا بلال)) (2)؟

الوصايا الخالدة

إذن، فالإسلام بريء من كل الأعمال الشنيعة المخالفة لرحمة الدين وخير شاهد علي ذلك هي الوصايا المهمة التي أكد عليها أهل البيت عليهم السلام قبل خوض الحروب ومنها ما عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله - صلي الله عليه وآله - : ((إذا أراد أن يبعث سرية دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلي ملة رسول الله لا تغلوا ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا إليها، وأيما رجل من أدني المسلمين

ص: 445

1- نهج البلاغة: خ 11 لما أعطي محمد بن الحنفية الراية يوم الجمل .

2- إعلام الوري: ج 1 ص 100 .

أو أفضلهم نظر إلي رجل من المشركين فهو جارٍ حتّي يسمع كلام الله ، فإن تبعكم فأخوكم في الدين ، وإن أبي فأبلغوه مأمّنه واستعينوا بالله عليه)) (1).

وقد كان رسول الله صلي الله عليه وآله إذا بعث سرية دعا أميرها فأجلسه إلي جنبه وأجلس أصحابه بين يديه ثم قال : ((سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلي ملة رسول الله صلي الله عليه وآله لا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثّلوا ولا تقطعوا شجرة إلا أن تضطّروا إليها ولا تقتلوا شيخاً ولا صبيّاً ولا امرأة ، فأيّما رجل من أدني المسلمين وأفضلهم نظر إلي أحد من المشركين فهو جار له حتّي يسمع كلام الله فإن تبعكم فأخوكم في دينكم وإن أبي فاستعينوا بالله عليه وأبلغوه مأمّنه)) (2).

وغير ذلك من الوصايا التي تدلّ علي تأكيد الإسلام بأن يتمتع المجاهدون بأرفع الأخلاقيات الإسلامية ، ولهم في رسول الله صلي الله عليه وآله وبأمر المؤمنين (عليه السلام) قدوة حسنة . والحمد لله .

ص: 446

1- الكافي : ج 5 ص 27 ح 1 .

2- تهذيب الأحكام : ج 6 ص 140 ح 3 .

(56) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ازْكُرُوا مَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (سورة الحج : 77)

في رحاب المفردات

اركعوا : الركوع الانحناء فتارة يستعمل في الهيئة المخصصة في الصلاة كما هي وتارة في التواضع والتذلل إما في العبادة وإما في غيرها نحو «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ازْكُرُوا مَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ» (1).

اسجدوا : سجد أي وضع جبهته بالأرض (2).

ص: 447

1- سورة الحج (22) : الآية (77) مفردات الراغب : ص 208 .

2- لسان العرب : مادة سجد .

شأن النزول

أخرج ابن أبي حاتم محمد بن إدريس الحنظلي المعروف ب (حافظ المشرق) (في كتابه) الجرح والتعديل (، بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال : ((ما نزلت آية فيها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إِلَّا وَعَلِي رَأْسِهَا وَأَمِيرُهَا وَشَرِيفُهَا ، ولقد عاتب الله عز وجل أصحاب محمد صلي الله عليه وآله في غير آية من القرآن وما ذكر علياً إلا بخير)) (1).

عبر من الآية

اللَّهُ ، اللَّهُ حقيقة تبارك الخلاق العظيم ، الذي أنزل القرآن علي عبده ليكون للناس بشيراً ونذيراً وأرسله رحمة للعالمين ليخرجهم من الظلمات إلي النور .

إنّ مثل هذا النداء الجميل ، وهذه البلاغة الفائقة في هذه الآية المباركة ، يجعلان المؤمن ينتشي طرباً وشوقاً إلي الجنّة ، فهذا السبك الجميل ، وهذا القول الجليل رغم وجاهته إلا أنه جمع الخير كلّه والفلاح كلّه في الدنيا والآخرة .

وخصّ به المؤمنين لأمرين إثنيين علي ما يبدو .

1 - لأنّ المؤمن هو من يفعل هذه الأفعال - الركوع ، والسجود ، والعبادة ، وفعل الخير - دون غيره من بني البشر فهذه كلّها مجتمعة لا يفعلها إلا المؤمنون فقط .

2 - أنّ الفلاح في الدار الآخرة للمؤمنين كذلك دون غيرهم ، وقد ختمت الآية ب ((لعل)) من أجل بقاء الرجاء واستمراره لأنّ المؤمن بين الأمل والرجاء في كل

ص: 448

وقد ذكرت الآية في صدرها ((الركوع)) و ((السجود)) والظاهر أنّ ذلك إشارة إلى عبارة ((الصلاة)) وذلك من باب ذكر الجزء وإرادة الكل ((أي الصلاة كلّها)).

وإنما تم التركيز عليهما لأنّهما ركنان أساسيان من أركان الصلاة السبعة ، ومن خلالهما يتجلّى الخضوع والخشوع العبادي بأبهي صورة لا سيّما في ((السجود)) الذي هو الخضوع الذي ما بعده خضوع ، ولذا ذكر الفقهاء : أنه لا يجوز السجود لغير الله تعالى ، لأنه غاية الخضوع ، ولا يستحقّها إلا من هو في غاية العظمة وهو الله تعالى .

وهنا قد يتساءل البعض قائلاً : ماذا تقولون في سجود الملائكة لآدم ؟

فيجاب عليه بأنّ سجود الملائكة لآدم (عليه السلام) إنّما هو امثالٌ لأمر الله بذلك ، أي أنه سجود لله بكل ما تعنيه الكلمة ، ولذلك عندما رفض إبليس اللعين السجود قال له سبحانه : لماذا لم تسجد إذ أمرتك .

السجود والقرب إلى الله تعالى

ولا يخفي أنّ العبد أقرب ما يكون من ربه ومولاه حيث يكون في حالة السجود ، وأبعد ما يكون عنه حين يستتكف عن السجود ويتنفر منه ليكون كالشيطان الرجيم .

فالسجود لله يرغم أنف الشيطان ، وعدم السجود يسره ويرغم أنف الإنسان ويجعله من المطرودين من ساحة القدس لدى ربّ العالمين .

وذكر الصلاة - التي هي أقرب القربات وأحلي العبادات وأقصر الطرق إلى

اللّٰه - له خصوصية نابعة من ذاتها، إذ أنها هي معراج كل مؤمن وقرّبان كل تقي، وهي الصلوة بين العبد وربّه، وهي عمود - أوعمداد - الدين من أقامها أقام الدين ومن هدمها هدم الدين، وهي أول ما ينظر إليها البارئ تعالي في سجل الإنسان يوم القيامة فإن قبلت حوسب وإن ردّت ردّ صاحبها إلي جهنّم وبئس المصير .

فالصلوة : هي وصية الأنبياء والأوصياء، وخصوصية الأتقياء، وفيها يرفع الإنسان إلي الدرجات العلي وبتضييعها يتقلّب في الدرجات .

فآخر وصية لرسول اللّٰه صلي الله عليه وآله كانت اللّٰه، اللّٰه في الصلوة، ولأنّها كانت قرّة عين له صلي الله عليه وآله حيث قال ((وقرّة عيني الصلوة))⁽¹⁾ فكانت الصلوة راحة لنفسه النورانية حيث كان يقول لبلال : ((أرحنا بها يا بلال))⁽²⁾، أي أذن كي تقف بين يدي اللّٰه عزّوجلّ فترتاح ونطمئن .

وصايا العترة عليهم السلام بالصلوة

وقد أكّد أهل البيت عليهم السلام علي الصلوة بشدّة في أحاديثهم الشريفة، فعن عقيل الخزاعي : أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان إذا حضر الحرب يوصي المسلمين بكلمات فيقول : ((تعاهدوا الصلوة وحافظوا عليها واستكثروا منها وتقرّبوا بها فإنّها كانت علي المؤمنين كتاباً موقوتاً))⁽³⁾.

وقال رسول اللّٰه صلي الله عليه وآله : ((لا ينال شفاعتي من استخفّ بصلاته، لا يرد عليّ

ص: 450

1- الكافي : ج 5 ص 320 ح 7 .

2- بحار الأنوار : ج 79 ص 193 .

3- الكافي : ج 5 ص 36 ح 1 .

وعن أبي بصير قال : دخلت علي أم حميدة أعزّيتها بأبي عبد الله (عليه السلام) ، فبكت وبكيت لبكائها ، ثم قالت : يا أبا محمد ، لو رأيت أبا عبد الله (عليه السلام) عند الموت لرأيت عجباً ، فتح عينيه ثم قال : ((اجمعوا كل من بيني وبينه قرابة)) ، قالت : فما تركنا أحداً إلا جمعناه ، فنظر إليهم ثم قال : ((إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة)) (2).

وأما العبادة : فهي الخضوع والتذلل لله جلّ جلاله - والصلاة جزء أساسي لا يتجزأ منها - ولكن ذكر العبادة بهذا اللفظ يفيد الإطلاق حيث تشمل جميع أنواع العبادات - من صوم وصلاة ، وحج وزكاة ، وخمس وجهاد ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، والتولي لأولياء الله والتبري من أعدائهم وبقية العبادات الأخرى - .

فعلي الإنسان أن لا يتحرك إلا بما يرضي الله سبحانه ، فلا يخضع أو يتذلل إلا لخالقه ورازقه - تعالي - أي عليه ألا يعبد إلا الله تعالي ، فهو لما يقول في صلاته ((إياك نعبد)) أي إتنا نعبدك في طول حياتنا وعرضها ولا أحد سواك .

وعلي كل فإن مفهوم العبادة ينافيه الخضوع لغير الله ، سواء أكان ذلك الشيطان أم الإنسان أم غير ذلك حتي الأهواء النفسية والأموال الدنيوية والمناصب فإن كل طاعة لأمر من هذه الأمور هي عبادة لغير الله منهيّاً عنها وصاحبها مشرك بنوع أو أنواع من الشرك والله سبحانه يقول : «لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (3).

ص : 451

1- وسائل الشيعة : ج4 ص26 ح4422 .

2- وسائل الشيعة : ج4 ص27 - 26 ح4423 .

3- سورة النساء (4) : الآية 48 .

القرآن ينهي عن الشرك

وقد نهى الله تعالى في كثير من الآيات القرآنية المباركة عن عبادة غير الله تعالى ومنها :

قوله عز وجل : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (1) ».

والأحاديث المرورية بالنهي عن عبادة المخلوقين دون الخالق كثيرة ، سواء أكانت عن الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله أم عن أهل بيته الأطهار عليهم السلام فمنها علي سبيل المثال والتبرك :

ما عن الإمام الصادق (عليه السلام) : ((ليس العبادة هي السجود ولا الركوع ، وإنما هي طاعة الرجال ، فمن أطاع المخلوق في معصية الخالق فقد عبده)) (2).

وعنه (عليه السلام) قال : ((من أصغى إلي ناطق فقد عبده ، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله ، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس)) (3).

وعن (عليه السلام) قال : ((من أطاع رجلاً في معصية فقد عبده)) (4).

التربية الإلهية

الملفت للانتباه أنّ الآية ختمت بقوله تعالى « رَبِّكُمْ » ، أي أنه هو الذي ربّاكم وأنشأكم وخلقكم ، وهو الذي يرزقكم من حيث لا تعلمون .

ولهذه التربية نوعان رئيسيان هما :

ص : 452

1- سورة يس (36) : الآية 60 .

2- تفسير القمّي : ج 2 ص 53 .

3- الكافي : ج 6 ص 431 ح 24 .

4- الكافي : ج 2 ص 398 ح 8 .

1 - تربية تكوينية : وذلك بالرعاية الشاملة لكل ما في الكون ، وآيات القرآن تشهد بذلك ، فقد قال تعالى : « مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا(1)» .

وقال عز وجل : « الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى(2)» . وقال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(3)» .

وغيرها من الآيات الكونية التي تحدت عنها القرآن الكريم بكثرة بين دفتيه .

2 - تربية تشريعية : وذلك بسنّ القوانين المنظمة للحياة ، وبعث وإرسال الأنبياء والرسل الكرام وتنزيل الكتب السماوية وكل ذلك لإخراج الناس من الظلمات إلي النور ، وإرشادهم إلي ما يصلح دنياهم وآخرتهم .

وأخيراً توجه الآية وتأمّر ((بفعل الخير)) وهو حسب إصطلاح العلماء (مطلق) فيشمل كل أنواع الخير في هذا الوجود ، فعلي الإنسان أن يعمل الخير مطلقاً ولوجه الله جلّت قدرته ، سواء أكان ذلك صغيراً أم كبيراً ، ومع من هم أهلاً للخير أو حتي غير ذلك ، فعلي الإنسان أن يكون هو من أهل الخير .

فإذا فعل الإنسان هذه الأمور .

1 - الخضوع والخشوع لله في الصلاة .

2 - الخضوع العبادي المطلق لله .

ص: 453

1- سورة هود (11) : الآية 56 .

2- سورة الأعلي (87) : الآية 4 - 2 .

3- سورة الأنعام (6) : الآية 59 .

فَعِنْدَهَا يَرْجِي - فِي دَائِرَةِ الرَّجَاءِ لِأَنَّ الْجَنَّةَ بِالتَّفَضُّلِ لَا بِالتَّحْقَاقِ - لَهُ الْفَوْزُ الْفَلَاحُ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرِ عَلِيَّ حَدْ سِوَاءِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ حَذْفَ الْمُتَعَلِّقِ يَفِيدُ الْعُمُومَ ، وَمَنْ زَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، اَللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْفَائِزِينَ إِلَهَ الْحَقِّ آمِينَ .

اشارة

(57) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (سورة النور: 21)

في رحاب المفردات

الفحشاء: الفحش والفحشاء والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وقد قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ(1)» وقال: «وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(2)».

المنكر: هو كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه أو تتوقف في استقباحه

ص: 455

1- سورة الأعراف (7): الآية 28.

2- سورة النحل (16): الآية 90) مفردات الراغب: ص 387.

واستحسانه العقول فتحكم بقبحه الشريعة وإلي ذلك قصد بقوله : «الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ(1)».

زكا : أصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى ويعتبر ذلك بالأموال الدنيوية والأخرية .

والتزكية تارةً تنسب إلي العبد لكونه مكتسباً لذلك نحو قوله : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(2)».

وتارةً ينسب إلي الله تعالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة نحو قوله تعالى : «بَلِ اللّٰهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ(3)».

وتارةً إلي النبي صلي الله عليه وآله لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم نحو : «تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا(4)».

عبر من الآية

عندما نلاحظ الآيات المباركة المحذرة من اتباع خطوات الشيطان نجد أنها عادةً ما تذكر الأسباب والعلل من هذه التحذيرات .

ص: 456

1- سورة التوبة (9) : الآية 112) مفردات الراغب : ص 527 - 526 .

2- سورة الشمس (91) : الآية 9 .

3- سورة النساء (4) : الآية 49 .

4- سورة التوبة (9) : الآية 103) مفردات الراغب : ص 219 - 218 .

وكذا الحال في ما نحن فيه ، فالنداء جاء ليدعو المؤمنين إلي اجتناب خطوات الشيطان ليدركوا أنّ الشيطان يسير في أجسامهم كمسري الدم في العروق ، وأنه يوسوس لهم ويلقي في أمانيتهم إذا تمنّوا ، ويزين لهم أعمال الباطل ، ويكرّه إليهم أعمال الخير ويصعّبها عليهم ، ولا يتركهم حتي في نومهم حيث انه يريهم الأحلام ويشاركهم في المنام ، وألف قضية وقضية تجد أنّ للشيطان فيها دخلاً وفساداً .

ففي الحديث الشريف عن النبي صلي الله عليه وآله قال : ((إنّ الشيطان ليحري من ابن آدم مجري الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع))⁽¹⁾.

والسؤال الذي يطرح هنا هو : كيف يغري الشيطان الإنسان ويغويه ؟

فهل يأمره مباشرة وبدفعة واحدة بقتل بريء مثلاً ؟ ولو فعل الشيطان ذلك هل يستجيب له الإنسان ؟

علي الأرجح والغالب ، كلاً ، لأنه لا مبرر ولا مسوّغ لهذه الجريمة النكراء ، وفطرة الإنسان النقيّة ترفض وتستقبح الأعمال الشريرة كالقتل والسرقة والنهب ، وما إلي ذلك .

ولكن الشيطان يعرف الإنسان أكثر من نفسه ، ويعلم نقاط الضعف فيه ونقاط القوّة كذلك ، فيتجنّب نقاط القوّة ويستغلّ نقاط الضعف ويبدأ بالاستدراج خطوة بعد أخرى بهدوء وخبث شديدين .

فهو عندما يري ضعفاً في الإنسان فإنه يغريه ويبدأ يزين له العمل الحرام شيئاً فشيئاً ويصوّر له أنه ليس بحرام ، أو يقول له : من يراك الآن ؟ أو افعل هذه مرّة وتب بعدها ، أو أنّ كلّ الناس تفعل ذلك الشيء ، ففلان وفلانة وغيرهم فعلوا ذلك ، وهل

ص: 457

1- مستدرك الوسائل : ج16 ص220 ح19650 .

إذا فعلتها أنت ستخرب الدنيا؟ وغير ذلك من المبررات الشيطانية .

وهكذا يستمر الشيطان بملاحقة الإنسان حتي ينحرف إلي الحرام خطوة فيسهلها عليه ويشجعه علي الخطوة الثانية والثالثة إلي أن يصبح مطية له يركبه أينما ذهب ، ويستمر معه حتي يصبح شيطاناً ، فشياطين الإنس كشياطين الجنّ بل أخبث وألعن .

فاتّبع الشيطان أخطر ما يكون في الخطوة الأولى التي تبدأ بفعل بسيط من الحرام ويزداد خطوة فخطوة حتي يصل إلي مستوي عالي من الإجرام ، أو يصبح طاغية من الطغاة كمعاوية بن أبي سفيان أو ولده يزيد أو عامله الحجاج بن يوسف أو أبو العباس السفاح وغيرهم من مجرمي الإنسانية ، الذين لا تروق لهم الحياة إلّا إذا رأوا الدماء البريئة تراق ، والنفوس الآدمية تقتل ، والأعراض الطاهرة تنتهك .

فتراهم يشتمّزون من يوم لا يرتكبون فيه جريمة إنسانية عظمي ، فالتاريخ يحدّثنا عن طاغية العراق القديم (الحجاج بن يوسف الثقفي) أنه كان يجلس متضجّراً ويلتفت إلي من هم حوله من الزبانية قائلاً : ألا تعرفون أحداً من أصحاب (أبو تراب) عليه السلام ((أتقرب إلي الله بدمه(1)؟

وهناك العديد من الشواهد التاريخية التي تدلّ علي أنّ الإنسان إذا اتّبع الشيطان في الخطوة الأولى فإنه يصل إلي هذا المستوي المنحطّ من الفساد .

من أين يبدأ الاستدراج ؟

إذن إنّ مسألة الاستدراج تنطلق من كسر الحاجز النفسي باتّجاه الحرام ،

ص: 458

1- الإرشاد : ج 1 ص 328 .

وعندما ينكسر هذا الحاجز يبدأ الإنسان تدريجياً بالغوص والخوض في بحر الظلمات من المحرّمات ، كالزاني الذي يكون يتحرّج من النظر إلي النساء فعندما يزني مرّة يتبعها مرّات إلي أن يصبح فاسقاً .

فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله :

((بينما موسى (عليه السلام) جالساً إذ أقبل إبليس وعليه برنس (1) ذو ألوان ، فلمّا دنا من موسى (عليه السلام) خلع البرنس وقام إلي موسى فسلمّ عليه .

فقال له موسى (عليه السلام) : من أنت ؟

فقال : أنا إبليس .

قال : أنت فلا قرب الله دارك .

قال : إني جئت لأسلمّ عليك لمكانك من الله .

قال : فقال له موسى (عليه السلام) : فما هذا البرنس ؟

قال : به أختطف قلوب بني آدم .

فقال موسى : فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه ؟

قال : إذا أعجبتة نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه ((2)).

فالشيطان ينهي عن الصلاة ، لأنّها تنهي عن اتّباع الشيطان وعبادته ، ولذلك نجد أنّ العداة علي أشده بين الشيطان والصلاة ، إذ أنّها تحتوي علي الركوع والسجود باعتبارها غاية الخضوع والخشوع لله تعالى .

ص: 459

1- البرنس : كل ثوب رأسه منه ملتزق به ، دُرّاعةٌ كان أو ممط أو جبّة . وقال الجوهري : البرنس قلنسوة طويلة ، وكان النساك يلبسونها في صدر الإسلام . (لسان العرب مادة : برنس).

2- الكافي : ج2 ص314 ح 8 .

وإبليس اللعين طرد من الجوار المقدس ، وجنة القرب الإلهية لأنه رفض السجود لآدم الذي أمر الله به ، وأراد أن يفديها بسجدة مدتها أربعة آلاف سنة فلم تقبل منه وقال له المولي عزوجل :

((أريد أن أعبد كما أريد لا كما تريد أنت))⁽¹⁾.

ولذلك جاء في الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام أنه إذا أردت أن ترغم الشيطان فاسجد لله تعالى .

ففي الحديث عن معاوية بن عمّار قال : سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) وهو يقول : ((إنَّ العبد إذا أطال السجود حيث لا يراه أحد قال الشيطان : ياويلاه أطاعوا وعصيت وسجدوا وأبیت))⁽²⁾.

وعن أبي أسامة قال : سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : ((كونوا دعاة إلي أنفسكم بغير ألسنتكم وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً وعليكم بطول الركوع والسجود فإنَّ أحدكم أطال الركوع والسجود هتف إبليس من خلفه وقال : ياويله أطاع وعصيت وسجد وأبیت))⁽³⁾.

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((أحبّ الأعمال إلي الله الصلاة وهي آخر وصايا الأنبياء عليهم السلام فما أحسن من الرجل أن يغتسل أو يتوضأ فيسبغ الوضوء ثمَّ يتنحّي حيث لا يراه أنيس فيشرف الله عزوجلّ عليه وهو راكع أو ساجد ، إنَّ العبد إذا سجد فأطال السجود نادي إبليس : ياويلاه أطاعوه وعصيت وسجدوا وأبیت))⁽⁴⁾.

ص: 460

1- راجع تفسير القمّي : ج 1 ص 36 .

2- وسائل الشيعة : ج 6 ص 380 ح 8236 .

3- الكافي : ج 2 ص 77 ح 9 .

4- من لا يحضره الفقيه : ج 1 ص 210 ح 638 .

دور العبادات في تزكية النفس

ثم بعد ذلك تشير الآية المباركة إلي مسألة ((التزكية)) أي أنّ قضية ((الطهر والنقاء)) ليست مرتبطة بالإنسان مباشرة بل هي بفضل وكرم ورحمة من الله - سبحانه - .

فالله سبحانه أعطي الإنسان جميع مقومات الطاعة والعبادة والتزكية وأمره بها ، وكذلك أعطاه القوة والإرادة ونهاه عن المعصية واتباع الشيطان وقال له : إنّه لكم عدو فاتخذوه عدواً .

فجعلنا - جميعاً - علي الفطرة النقيّة الصافية .

وأعطانا الفعل وهو النور الربّاني الهادي للخير والصلاح .

وهو الذي منحنا الإرادة وأرسل إلينا الأنبياء والرسل ، وأنزل الشرائع والقوانين ، وسهّل سبل الطاعات وأمرنا باتباع الأنبياء والأوصياء ليقودونا إلي الجنّة .

ولكن الشيطان راح يقعد لنا في الطرق كافة ويأتينا من كل اتجاه وناحية ((من فوقنا وتحتنا وعن أيمننا وشمالنا)) من أجل إعاقة الإنسان من طاعة الله ورسله ، وطاعته هو وجنده من الأبالسة .

ليصبح الإنسان عبداً للشيطان ، لا عبداً للرحمن - والعياذ بالله - .

من جانب آخر فإنّ الإنسان إذا نجا من قبضة الشيطان ، ولم يستمع إلي اغوائه واغرائه ، فذلك فضل من الله وتوفيق منه الله تعالى . ولذا ورد في الحديث القدسي قوله تعالى : ((يا بن آدم أنا أولي بحسناتك منك ، وأنت أولي بسيئاتك منّي))⁽¹⁾

ص: 461

فالجنان والخيرات تفضّل علي كل إنسان حتي علي الأنبياء عليهم السلام .

وأما كلمة ((من يشاء)) فهي إشارة إلي الجانب التكويني من الفضل الإلهي ، حيث أعطانا الله سبحانه والعقل والإرادة ، ولكن هذا لا يعني الجبر - حاشا لله - فهي - إذن - ليست ((علّة تامّة)) كما يقول الفلاسفة .

بل هي بمعنى ((الاقضاء)) كما فضّله علماء الكلام في كتبهم الكلامية .

ص: 462

إشارة

(58) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَيَّ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»

(سورة النور : 27)

في رحاب المفردات

بيوتكم : بات أي أقام بالليل كما يقال ظلّ بالنهار ثم قد يقال للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه وجمعه أبيات وبيوت لكن البيوت بالمسكن أخصّ والأبيات بالشعر . قال الله عزّ وجلّ : «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا(1)» .

تستأذِنوا : الإذن في الشيء ، إعلامٌ بإجازته والرخصة فيه نحو قوله : «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ(2)» أي بإرادته وأمره(3) .

ص: 463

1- سورة النمل (27) : الآية 52) مفردات الراغب : ص 64 .

2- سورة النساء (4) : الآية 64 .

3- مفردات الراغب : ص 10 .

أخرج العلامة الحنفي الشيخ محمد الصبّان في إسعاف الراغبين عن الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ((ما أنزل الله «يا أيّها الذين آمنوا» إلّا وعلي أميرها وشريفها ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلي الله عليه وآله في غير مكان وما ذكر علياً إلّا بخير)) (1).

عبر من الآية

من رحمة الله سبحانه لبني البشر هو إرساله الأنبياء والرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور .

ومن حكمة القرآن هذه الآيات المنظّمة لحركة الإنسان والموجّهة لها لأن لا تتّجه إلى الشيطان فتقفوا أثره وتضيع في متاهات الضلال .

ومن عظمة الإسلام هذه التعاليم الإنسانية الرائعة التي تعلّم الإنسان كيف يعيش في المجتمع وفي الأسرة، وتعلمه حتى كيف يدخل إلى المنزل وكيف ينام ويعاشر وما إلى ذلك من تعاليم لو أخذ بها الإنسان لعاش في الدنيا سعيداً .

ومن هذه الآيات المباركة - آية البحث - وهي في سياق سورة النور العظيمة التي يمكن أن يطلق عليها اسم سورة الأسرة والمجتمع لأنها في معظم آياتها تتحدّث عنهما سواء أكان في جانب التربوي أو التعليم أم غيرهما من الأمور الهامة .

ص: 464

وعلي كل فإنّ للإنسان حياتين :

1 - حياة عامّة مع المجتمع ككل .

2 - حياة خاصّة في البيت مع الأهل .

ويختلف نمط سلوك الإنسان في هاتين الحياتين ، ففي الحياة العامّة هناك آداب اجتماعية معيّنة لا بدّ من مراعاتها ليكون الإنسان حميد السيرة بين الناس .

فعن الإمام الصادق(عليه السلام) قال : ((أربع من أخلاق الأنبياء عليهم السلام : التّطيّب والتنظيف بالموسي وحلق الجسد بالنورة وكثرة الطروقة))⁽¹⁾.

وقال الإمام الصادق(عليه السلام) : ((ليتزّين أحدكم يوم الجمعة يغتسل ويتطيّب ويسرّح لحيته ويلبس أنظف ثيابه))⁽²⁾.

وقال أمير المؤمنين(عليه السلام) : ((ليتزّين أحدكم لأخيه المسلم كما يتزّين للغريب الذي يحبّ أن يراه في أحسن الهيئة))⁽³⁾.

وينقل عن الإمام الحسن(عليه السلام) الذي كان أعظم خلق الله في الخلق والخلق أنه اغتسل وخرج من داره في حلّة فاخرة ، وبزّة طاهرة ، ومحاسن سافرة ووجهه يطفح حسناً ، وشكله قد كمل صورة ومعني .

والإقبال يلوح من أعماقه ، ونضرة النعيم تعرف في أطرافه .

ثم ركب بغلة فارهة غير قطوف⁽⁴⁾، وسار مكتنفاً بحاشيته .

ص: 465

1- من لا يحضره الفقيه : ج 1 ص 131 ح 341 .

2- الكافي : ج 3 ص 17 ح 1 .

3- الكافي : ج 6 ص 439 ح 10 .

4- القطوف من الدواب : البطي ء ومعني العبارة أنه(عليه السلام) كان راكباً دابة غير بطيئة راجع لسان العرب : مادّة قطف .

فعرض شخص له قوم من محاويج اليهود ، وهو في هدم مرقعة قد أنهكته العلة وارتكبتة الذلة ، وأهلكته القلة ، وجلده يستر عظامه ، وضعفه يقيه أقدامه ، فاستوقف الإمام الحسن (عليه السلام) وقال : يا بن رسول الله أنصفي !

فقال : ((من أي شيء؟!)).

قال : جدك يقول : ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)) وأنت مؤمن وأنا كافر فما أرى الدنيا إلا جنة لك تتنعم بها وتستلذ فيها وما أراها إلا سجناً لي قد أهلكني ضرّها وأتلفني فقرها .

فأجابه الإمام (عليه السلام) : ((لو نظرت إلي ما أعدّ الله لي وللمؤمنين في الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت لعلمت أنني قبل انتقالني إليه في هذه الدنيا في سجن ضنك ولو نظرت إلي ما أعدّ الله لك ولكل كافر في الدار الآخرة من سعير نار الجحيم ونكال العذاب المقيم ، لرأيت أنك قبل مصيرك إليه الآن في جنة واسعة ونعمة جامعة))⁽¹⁾.

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) : ((إنّ الله يحبّ الجمال التجمل ويكره البؤس التباؤس فإنّ الله عزّوجلّ إذا أنعم علي أحد نعمة أحبّ أن يري عليه أثرها)) قيل : وكيف ؟

قال (عليه السلام) : ((ينظف ثوبه ويطيّب ريحه ، ويحسن) أو يخصص (داره ويكنس أفنيتة حتي أنّ السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر ويزيد في الرزق))⁽²⁾.

ص: 466

1- بحار الأنوار : ج 43 ص 346 .

2- وسائل الشيعة : ج 5 ص 7 ح 5746 .

وبما أنّ لباس الزينة الذي يلبسه الإنسان للمجتمع والناس يمكن له أن يستمر في لبسه دائماً ليلاً ونهاراً ...

فمن الطبيعي أنّ الإنسان كغيره من المخلوقات يحتاج إلى وقت للراحة والهدوء .

وهذا ما نسّميه بالحياة الخاصة : حيث يمارس الإنسان حياته كما يريد بحرية كاملة لا يقيدّها إلا الشرع الحنيف ، فيلبس ما يريد أو يتعرّي من ملابسه ، ويجلس كما يجب أو يستلقي علي الأرض بأريحية وهدوء .

وحيث إنّ البيوت والمنازل ذات حرمة كبيرة ، فقد حرّم الدخول إلي إليها إلا بعد الحصول علي الإذن المشروع بالدخول وإلا فليرجع من حيث أتى .

فعن أبي أيّوب الأنصاري ، عن رسول الله صلي الله عليه وآله ، قال : سألته عن قوله تعالى : «حَتَّى تَأْتُوا(1)» ما أراد الله تعالى بالاستئناس ؟ فقال صلي الله عليه وآله : ((إذا جاء الرجل إلي باب الدار يسبح ويهلل ، حتّي يعلم أهل الدار أنّه يريد الدخول فيها)) (2).

إذن - وكما نصّ رسول الله صلي الله عليه وآله - إنّ من آداب الدخول إلي المنازل الاستئناس : أي إعطاء الصوت الخفيف من ذكر لفظ الجلالة كأن يقول ((ياالله ، ياالله)) أو أي كلمة من تحميد أو شهادة أو تمجيد أو غير ذلك كأن يتنحّج أو يصدر صوتاً خفيفاً يشعر أهل المنزل بقدمه بلطف ومحبة وهدوء .

ص: 467

1- سورة النور : 24 .

2- تفسير أبو الفتوح الرازي : ج4 ص29 .

كما أنّ من الآداب الإسلامية التي أكّدها الشارع المقدّس هو السلام إذ أنّ السلام هو تحيّة الإسلام الحنيف وهو تحيّة أهل الجنّة كما ورد في الحديث الشريف ، وهو :

1 - تحيّة طيّبة تشعر الطرف الآخر بالمحبّة والأمان .

2 - وهو دعاء ، بأن نطلب من الله ((السلامة)) للشخص الذي نسلم عليه .

ولا يخفي أنّ السلامة لها معني عام يشمل الكثير من القضايا ، كالسلامة من الأمراض العاهات والمشاكل المستعصية ، والسلامة من كل سوء يخاف منه الإنسان أو يخاف منه عليه .

ففي هذه الآية المباركة حديث تنظيمي رائع لحفظ حرمة المنازل والبيوت حتي لا تصبح كالطريق العام أو الشارع يدخله ويخرج منه من يريد ومتي كيف يريد ؟

فقد روي أنّ رجلاً- أطلع في حجرة من حجر رسول الله صلي الله عليه وآله فقال رسول الله صلي الله عليه وآله ومعه مدري(1) يحكّ به رأسه : لو أعلم أنّك تنظر لطحنت به في عينيك ، إنّما الاستئذان من النظر(2).

وروي أنّ رجلاً قال للنبي صلي الله عليه وآله : أستاذن علي أمّي ؟

قال صلي الله عليه وآله : ((نعم)).

قال الرجل : ليس لها خادم غيري ، أفأستاذن عليها كلّما دخلت ؟

قال صلي الله عليه وآله : ((أتحبّ أن تراها عريانة ؟)).

ص: 468

1- المدري : المشط .

2- مجمع البيان : ج 18 مج 7 ص 237 .

قال الرجل : لا .

قال صلي الله عليه وآله : ((فاستأذن عليها إذن))⁽¹⁾.

ويروي أنّ رجلاً استأذن علي رسول الله صلي الله عليه وآله فقال : ألعج ؟ فقال الرسول صلي الله عليه وآله لجارية إسمها روضة : ((هذا الرجل لا يعرف الاستئذان إذ هبني وعلميه حتى يدخل)) فجاءت إليه وقالت : يا هذا إذا أردت الاستئذان فقل أولاً : السلام عليكم ، أدخل ، فسمع وعلم ، فقال : ((فادخل))⁽²⁾.

وروي جابر بن عبد الله الأنصاري قاتلاً : خرج رسول الله صلي الله عليه وآله يريد بيت فاطمة عليها السلام وأنا معه ، فلما انتهينا إلي الباب وضع يده فدفعه ثم قال : ((السلام عليكم)).

فقال فاطمة عليها السلام : ((عليك السلام يارسول الله)).

قال صلي الله عليه وآله : ((أدخلك؟)).

فقال فاطمة عليها السلام : ((أدخل يارسول الله)).

قال صلي الله عليه وآله : ((أدخلك ومن معي؟)).

فقال فاطمة عليها السلام : ((يارسول الله ليس عليّ قناع)).

فقال صلي الله عليه وآله : ((يافاطمة خذي فضل ملحفتك فقنّعي به رأسك)).

ففعلت ثم قال صلي الله عليه وآله : ((السلام عليكم)).

فقال فاطمة عليها السلام : ((وعليك السلام يارسول الله)).

قال صلي الله عليه وآله : ((أدخلك؟)).

ص: 469

1- مستدرك الوسائل : ج 14 ص 282 ح 16724 .

2- مستدرك الوسائل : ج 8 ص 377 ح 9724 .

قالت عليها السلام : ((نعم يا رسول الله)).

قال صلي الله عليه وآله : ((أنا ومن معي)).

قالت عليها السلام : ((ومن معك))⁽¹⁾.

فبهذه الدقة والتودد أدبنا الإسلام فوجب علينا أن نتأدب بأدابه الرائعة .

ص: 470

1- الكافي : ج 5 ص 528 ح 5 .

إشارة

(59) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (سورة النور: 58)

في رحاب المفردات

الحلم : المراد بالحلم في الآية الشريفة أي زمان البلوغ وسمي بالحلم لكون صاحبه جدير بالحلم (1).

عورات : العورة هي سواة الإنسان وذلك كناية وأصلها من العار وذلك لما

ص: 471

يلحق في ظهوره من العار أي المذمة ، ولذلك سمي النساء عورة ، ومن ذلك العوراء للكلمة القبيحة(1).

جناح : سمي الإثم المائل بالإنسان عن الحق جناحاً ، ثم سمي كل إثم جناحاً نحو قوله تعالى : «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ(2).

شأن النزول

أخرج الشيخ المحمودي في تعليقاته علي شواهد التنزيل للحافظ (الحنفي) الحاكم الحسكاني عن (القطيعي) في كتاب الفضائل عن عكرمة عن ابن عباس قال سمعته يقول : ((ليس من آية في القرآن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا وعلي رأسها وأميرها وشريفها ، ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلي الله عليه وآله في القرآن وما ذكر علياً إلا بخير)) (3).

عبر من الآية

في ضمن آيات التنظيم الأسري والأخلاقي والتربوي أتت هذه الآية المباركة لتنظيم الحياة الخاصة للمؤمنين . فقد تبدو هذه القضايا جزئية وهامشية لدي البعض ،

ص: 472

1- مفردات الراغب : ص 365 .

2- سورة البقرة (2) : الآية 235) مفردات الراغب : ص 98 .

3- التعليق علي شواهد التنزيل : ج 1 ص 19 .

ولكنّها - في الواقع - هامة جداً وضرورية ، لأنها ترسم حدود الأسرة ، والتي من بينها تنظيم التزاور بحيث تستطيع الأسرة أن تبقى آمنة في مأواها ، بعيدة عن العيون القريبة ، فمثلاً ينبغي للمملوك والأطفال أن لا يدخلوا الغرف ، إلا بعد الاستئذان ، وذلك في أوقات الاستراحة كالليل والظهيرة ومن قبل صلاة الفجر .

وكذلك ينهي الأطفال الذين لم يبلغون الحلم أن يترسلوا علي عاداتهم في دخول البيوت بلا استئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة ، وذلك للمحافظة علي العفة الاجتماعية .

فكثير ما يظنّ البعض أنّ الطفل (لا يفهم شيئاً ، خصوصاً في الأمور الجنسية ، وهذا تصور خاطئ جداً ، وقد كشفت الأبحاث الكثيرة لعلماء النفس خطئه .

فقد ذكروا أنّ الطفل أذكي ممّا نتصوّر ، وأنه - وحتى الطفل في المهد - يفهم كثيراً جداً وأنه يميّز حتّي بين اللهجات المختلفة ، ويعرف أمّه بالشكل بل حتّي بالرائحة .

وذلك يؤيد قول الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله : ((إياكم وأن يجامع الرجل امرأته والصبّي في المهد ينظر إليهما))⁽¹⁾.

فعلي الآباء والأمّهات الحذر كل الحذر ، في التعامل ضمن الأسرة لا سيّما في القضايا والحياة الجنسية لأنّ ذلك يخلف آثار ضارة جداً علي نفسية الطفل .

وعليهما أن لا يقومان بأي عمل مثير أو ملفت للانتباه أمام الطفل ، لأنه ربما دفع الولد إلي تقليد والديه في ذلك ممّا يؤدّي إلي الانحراف والفساد .

أو ربما يؤدّي إلي إصابة الطفل بالعقد النفسية طوال حياته إذ أنّ الطفل

ص: 473

حساس جداً لأي حركة أو منظر ملفت فينتطبع في خياله ولا يكاد يفارقه أبداً .

الاستئذان في الأوقات الخاصة

من هذا المنطلق المهم أكدت الآية الكريمة علي آداب الدخول إلي الغرف الخاصة للوالدين (غرف النوم) وحظرت الدخول إليها إلا بعد الاستئذان من الوالدين وذلك ل :

1 - الأطفال الكبار والصغار .

2 - العبيد والمماليك .

وذلك في ثلاث أوقات أساسية وخاصة للراحة هي :

1 - قبل صلاة الفجر حيث يكون الإنسان نائماً .

2 - وقيلولة الظهر حيث إنها فرصة للراحة وضرورية لكل إنسان لا سيّما في فصل الصيف .

3 - وبعد صلاة العشاء حيث يأوي الرجل وزوجته إلي الفراش من أجل النوم .

وهذه الأوقات بالخصوص لأنها أوقات الراحة التي يتواجد الناس في بيوتهم ، بعد أن يكونوا قد حضروا صلاة الجماعة في المساجد ، أو قاموا بأعمالهم المختلفة ونشاطاتهم المتنوعة لكسب الرزق ، وتحقيق المعاش .

وكم يرتاح الإنسان نفسياً وجسدياً حين يطمئن بأن لا أحد يدخل عليه إذا وضع عن نفسه الكلفة وأراد أن يتمتع بمتعة خضرت له .

ص: 474

لا يخفي أنّ الأسرة الفاضلة هي الأسرة القائمة علي أساس التعاون البتاء ، ولا يأتي ذلك إلا عن طريق الطاعة السليمة للقيم الحقة ، بحيث لا تكون هذه الطاعة خالية من قانون يحدّها .

بل يجب أن تصبّ في قنوات قانونية ، فلا يكفي الإنسان المنظم بالطاعة لقيادته أو ولي أمره أو ربّ أسرته ، بل عليه أن يلتزم أيضاً بحدود القوانين الاجتماعية المفروضة .

وقد لا تبدو هذه القوانين ذات أهمية ، ولكنها حينما تطبّق في الحياة الاجتماعية تصبح ذات نفع عظيم جداً ، فمثلاً حينما يلزم الإسلام المسلم الوفاء بالعهد والالتزام بالوعد ، أتدري كم ينظّم هذا الأمر حياة المجتمع ؟ أو كم يحافظ علي الوقت الذي يذهب هدرًا ؟ وإلي أي حدّ يحافظ علي علاقات الناس متينة وطيبة ؟

فإنّ المحافظة علي الوقت يعتبر من أهم القضايا الحياتية التي يجب أن نلحظها وننظّمها لأنّ الوقت كما في الخبر : ((كالسيف إن لم تقطعه قطعك)) (1).

ومن الملاحظ أنّ مسألة تنظيم الوقت في هذه الآية المباركة واضح جداً ، فهي تفصل بين أوقات الراحة عن أوقات العمل ، كي يكون هناك وقت للراحة ، كما أنّ هناك وقتاً للسعي والكدح في سبيل ابتغاء فضل الله .

فإنّ الذي يجد وقتاً كافياً للراحة ، يتسنّى له الجدّ والعمل وحتى الإبداع عند العمل ، إذ أنّ أوقات الراحة تجعل الإنسان منطلقاً للتحرّك نحو العمل من جديد ، وروح نشطة وماندفة .

ص: 475

وهذا القانون الذي أشارت إليه الآية الكريمة يوفّر علي الإنسان مزيداً من الوقت وينظّمه ، وهذا يعني مزيداً من التقدّم الحضاري ، لأنّ الأمة التي لا تعرف قيمة الوقت هي أمة لا تعرف طرق التقدّم والحضارة .

ونلاحظ في الآية الكريمة أنّ الخطاب يتعلّق بالعبيد والأطفال فقط ، الأمر الذي يثير السؤال التالي في الأذهان وهو : هل الطفل مكلف ؟

وللجواب نقول : إنّه هنا وجهان للمسألة وهما :

1 - قد يكون هذا تغليّباً حيث إنّ العبيد عادة ما يكونوا مكلفين ، وهم مقيّدون في دخولهم وخروجهم ، ولكن الأطفال يملكون الحرّية بالحركة في المنزل - بالغالب - أمّا الكبار منهم فهم يتحرّجون من الدخول إلي مخادع أهليهم في هذه الأوقات الثلاثة ، والطفل فلا يتحرّج من ذلك .

2 - ربما يكون الخطاب موجّهاً للأطفال ، ولكن واقعه موجّهاً إلي الآباء والأمّهات ، أي أنّ علي الآباء والأمّهات أن يربّوا أبنائهم علي هذه الأخلاقيات بأن لا يدخلوا عليهم في هذه الأوقات ، وذلك بأسلوب إيّاك أعني واسمعي يا جارة .

وأخيراً ..

إنّ الحكمة من هذا التشريع الهام : هي إبعاد الأطفال عن بعض المظاهر غير المناسبة المحتشمة في أماكن الخلوة حيث تثيرهم وتزرع في نفوسهم حبّ الزنا - والعياذ بالله - أو عداوة أحد الوالدين ، ممّا يتسبّب في العقد الجنسية ، وما يتبعها من نتائج خطيرة .

ولقد حدّرت النصوص الشرعية من ذلك واعتبرته نوعاً من التشجيع علي الزنا ، إذ أنّ الحياء يسقط عند الأطفال ، وتصيح المعاشرة الجنسية عملاً عادياً

ص: 476

عندهم يمارسونها عند أول بوادر الحاجة الفيزيولوجية إليها .

ولذا ورد في الحديث المأثور عن الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله أنه قال : ((يَاكُمْ وَأَنْ يَجَامَعَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ وَالصَّبِيَّ فِي الْمَهْدِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا)) (1).

وعلي كل فعفة الوالدين ضرورة لحفظ الأسرة وعفتها ونقاوتها بشكل عام ، ولذا ورد عن النبي صلي الله عليه وآله أنه قال : ((إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ)) (2).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : ((دليل غيرة الرجل عفته)) (3).

وقال الإمام الباقر (عليه السلام) قال : ((ما عبد الله بشيء أفضل من عفة بطن وفرج)) (4).

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((النزاهة آية العفة)) (5).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممن قدر فعفّ ، لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة)) (6).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((العفاف يصون النفس وينزهها عن الدنيا)) (7).

وقال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((عفّوا عن نساء الناس تعفّ نساؤكم)) (8).

ص: 477

1- مستدرک الوسائل : ج 14 ص 228 ح 16568 .

2- مجموعة ورام : ج 1 ص 7 .

3- غرر الحكم : في العفة 5408 .

4- وسائل الشيعة : ج 15 ص 249 ح 20413 .

5- غرر الحكم : في النزاهة ومدحها 7343 .

6- نهج البلاغة : ق 474 .

7- غرر الحكم : في العفة 5420 .

8- من لا يحضره الفقيه : ج 4 ص 20 ح 4985 .

فالعفة من الخصال الحميدة التي تحفظ النفس والأهل وتحصن المجتمع الإسلامي من الانحراف والإنزلاق في مهاوي الرذيلة والعياذ بالله

وحيث إنّ الله - سبحانه - ((عليم)) بما يصلحنا ويصلح مجتمعاتنا فقد أمرنا بالعفة وننظم معيشتنا علي هذه الأسس القويمة التي تقود المجتمعات إلي العفاف والسداد إثر التزامنا بها وتقيّدنا بشرائطها المهمّة .

ص: 478

إشارة

(60) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا» (سورة الأحزاب : 9)

في رحاب المفردات

نعمة : النعمة الحالة الحسنة وبناء النعمة بناء الحالة التي يكون عليها الإنسان كالجلسة والركبة ، والنعمة التنعم وبنائها بناء المنة من الفعل كالضربة والشتم ، والنعمة للجنس تقال للقليل والكثير ، قال «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا(1). (2).

جنود : يقال للعسكر الجند اعتباراً بالغلظة من الجند أي الأرض الغليظة التي فيها حجارة ثم يقال لكل مجتمع جند نحو الأرواح جنود مجتدة قال تعالى : «وَإِنَّ جُنُدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(3). (4).

شأن النزول

روي العلامة البحراني عن أبي نعيم الأصفهاني (فيما نزل من القرآن في علي) بالإسناد عن سفيان الثوري ، عن رجل ، عن مرة ، عن عبد الله قال : وقال جماعة من المفسرين في قوله تعالى : «اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ» ((إنها نزلت في علي يوم الأحزاب)) (5).

عبر من الآية

تذكر الآية المباركة المؤمنين بنعمة إلهية كبرى وهي النصر .

وبالتدقيق نجد أنّ الخطاب هنا لا يختصّ بالمؤمنين في صدر الإسلام الأول فقط ، بل إنّما يمتدّ الخطاب طيلة وجود الدين الإسلامي كلّ ، لأنّ المؤامرة لم تكن تستهدف المؤمنين في صدر الإسلام وحدهم كأشخاص - وإن كانوا مستهدفين - بل كانت تستهدف الإسلام وتهتدّد ((الوجود الإسلامي)) ككل ، وإلي النهاية .

ولولا عناية الله ونعمة النصر ، لمحي هذا الدين عن خارطة العالم ، ولما بقي إلا في بطون الكتب وربما يمحوه كذلك ، ولما كان أحد منّا اليوم مسلماً أبداً .

ص: 479

1- سورة إبراهيم (14) : الآية 34

2- مفردات الراغب : ص 520 .

3- سورة الصافات (37) : الآية 137

4- مفردات الراغب : ص 98 .

5- غاية المرام : ص 420 .

فالخطاب عام والنعمة شاملة ، والنصر للدين وللمنتسبين له جميعاً فما أولاها بالشكر لله تعالى صاحب النعم الدائمة علي العباد .

والعناية الإلهية لم تختص بهذه القضية ، بل رافقت هذا الدين منذ بدايته وفي أيامه الأولى وحتى اليوم وإلي آخر أيام الدنيا بإذن الله تعالى .

وفي عصرنا الراهن نلاحظ عظمة المؤامرات التي يتعرّض لها الدين الإسلامي الحنيف ، فمن الشرق الملحد إلي الغرب المشرك ، وإلي المنافقين والدجالين وأصحاب المصالح من سياسيين وغيرهم .

فقد اكتسحت - قديماً وحديثاً - العالم الإسلامي موجات هائلة من الهمج الرعاع التتار والمغول والقرامطة والصلبيين وجمعهم يريدون محو هذا الدين من خارطة الوجود ، ويأبي الله لهم ذلك ، ويخزيهم ويركسهم علي أنفسهم .

فلولا الألفاظ الإلهية ، والتعهد الربّاني بحفظ هذا الدين لم يبق اسم له ولا رسم .

وهذه الآية المباركة تذكّرنا بنقطة فاصلة بالنسبة للرسالة الخاتمة ، وبمعركة هامة جداً شارك فيها الريح والملائكة والرمل والحصي مع أمير المؤمنين (عليه السلام) قاتل شجاع العرب الذي كان يعدّ بألف فارس ، ويقتله انتصر الإسلام وهزم الكفر والشرك والنفاق .

تلك الغزوة هي غزوة عُرف لها إسمين إثنين هما :

1 - ((الأحزاب)) وهذا ما أطلقه الباري سبحانه وتعالى - كما في الآية - علي هذه الغزوة لتحرّب قريش مع يهود بني النضير ، وغطفان وفزارة ومرة وأشجع من القبائل العربية بقيادة أبو سفيان ، وقد كانوا بألاف معزّزين بالمؤن تخلفهم النساء

يضرِبُ الطبول ويهلهلن ويشجَعُن الفرسان وأولهم هند آكلة الأُكباد .

2 - ((الخنْدق)) حيث إنَّ أهل السِير والتواريخ سمّوها بغزوة ((الخنْدق)) وذلك بسبب حفر المسلمين خندقاً ليحول بين المشركين ودخولهم المدينة كما أشار سلمان المحمّدي وأقرّه النبي صلي الله عليه وآله علي ذلك فحفروا الخندق بزمن قياسي لا يزيد عن الأربعين يوماً ، وكان قد شكّل مفاجأة هائلة لجيش الشرك فعسكر علي الطرف المقابل أيّاماً وليالي .

الملفت للانتباه أنّ كلمة ((جنود)) الواردة في الآية ، جاءت نكرة وهذا يدلّ علي كثرة الجيش الذي جاء به أبو سفيان ، حيث إنّ التذكير يفيد أحياناً معني التحقير ، وأحياناً علي التكثر والتعظيم والتهويل .

قصة الواقعة

فقد نقل أرباب التفاسير والمؤرخين أنّ غزوة الأحزاب وقعت كالتالي :

لَمَّا فرغ رسول الله صلي الله عليه وآله من الخندق ، أقبلت قريش حتي نزلت بين الجرف والغابة (شمال المدينة) في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة ، وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتّي نزلوا إلي جانب جبل أحد .

ص: 481

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع (1) في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله هناك عسكره ، والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام (2).

ص: 482

1- جبل بقرب المدينة .

2- الأبنية المرتفعة كالحصون حفاظاً عليهم .

وخرج عدو الله (حي بن أخطب النضيري) حتى أتى كعب بن أسد القرظي (صاحب بني قريظة ((وكلاهما من يهود المدينة)) وكان - القرظي - قد وادع رسول الله صلي الله عليه وآله علي قومه ، وعاهده علي ذلك .

فلما سمع كعب صوت بن أخطب ، أغلق دونه الحصن ، فاستأذن عليه فأبي أن يفتح له ، فناداه : يا كعب افتح لي .

فقال : ويحك يا حي ، إنك رجل مشؤوم ، إنني قد عاهدت محمداً صلي الله عليه وآله ولست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً .

فقال : ويلك افتح لي أكلّمك ، فقال : ما أنا بفاعل .

فقال : إن أغلقت دوني إلا علي حشيشة تكره أن آكل منها معك ، فاحفظ الرجل (1).

ففتح له فقال : ويحك يا كعب جئتك بعزّ الدهر ، وبيحر طام (2) ، جئتك بقريش علي قادتها وسادتها ، وبغطفان علي سادتها وقادتها ، واعدوني أن لا يرحوا حتي يستأصلوا محمداً صلي الله عليه وآله ومن معه .

فقال كعب : جئتني - والله - بذلّ الدهر ، بجهام (3) قد هراق ماؤه ، ويرعد ويبرق وليس فيه شيء ، فدعني ومحمداً صلي الله عليه وآله وما أنا عليه ، فلم أر من محمد صلي الله عليه وآله إلا صدقاً ووفاء .

فلم يزل حي بكعب حتي سمح وقد أن أعطاه عهداً وميثاقاً : لئن رجعت

ص: 483

1- أي غضب .

2- كثير الماء .

3- سحابة .

قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً صلي الله عليه وآله أن أدخل معك حصنك ، حتي يصيبني ما أصابك .

فنفض كعب عهده ، وبرئ مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله صلي الله عليه وآله .

وبلغ ذلك رسول الله صلي الله عليه وآله فأبشر خيراً واستبشر بذلك ، إلا أنه عظم البلاد علي المسلمين ، واشتدّ الخوف وبلغت القلوب الحناجر وأتاهم عدوهم من فوقهم ، ومن أسفل منهم ، حتي ظنّ المسلمون كل ظنّ ، وظهر النفاق من بعض المنافقين .

فأقام رسول الله صلي الله عليه وآله .

وأقام المشركون عليه بضعاً وعشرين ليلة ، لم يكن بينهم قتال إلا رمي بالنبل ، إلا أنّ فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ودّ ، أخو بني عامر بن لؤي ، وعكرمة ابن أبي جهل ، وضرار بن الخطّاب ، وهبيرة بن أبي وهب ، ونوفل بن عبد الله ، قد تلبّسوا القتال ، وخرجوا علي خيولهم حتي مرّوا بمنازل بني كنانة فقالوا : تهيّأوا للحرب يا بني كنانة ، فستعلمون اليوم من الفرسان .

ثم أقبلوا تعنق (1) بهم خيولهم ، حتي وقفوا علي الخندق ، فقالوا : والله إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ثمّ تيمّموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيولهم ، فاقترحموا فجالت بهم السبخة بين الخندق ولسع ، وخرج الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في نفر من المسلمين ، حتي أخذ عليهم الثغرة التي منها اقتحموا ، وأقبلت الفرسان نحوهم ، وكان عمرو بن عبد ود فارس قريش ، وكان قد قاتل يوم بدر حتي ارتتّ وأثخنته الجراح ، ولم يشهد أحداً .

فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليري مشهده ، وكان يعدّ بألف فارس ،

ص: 484

1- من العنق : وهو ضرب من السير .

وكان يسمي فارس يليل وسمي بذلك لأنه أقبل في ركب من قريش حتي إذا كانوا بيليل ، وهو وادٍ قريب من بدر ، عرضت لهم بنو بكر في عدد فقال لأصحابه : إمضوا فمضوا .

فقام في وجوه بني بكر ، حتي منعهم من أن يصلوا إليه ، فعرف بذلك .

وكان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق المذاد ، وكان أول من ظفره عمرو وأصحابه ، ف قيل في ذلك :

عمرو بن عبد ودّ كان أول فارس

جزع المذاد وكان فارس يليل

وذكر ابن إسحاق : أنّ عمرو بن عبد ودّ ، كان ينادي : من يبارز؟ فقام الإمام علي(عليه السلام) وهو مقنّع بالحديد ، فقال :

أنا له يانبي الله .

فقال صلي الله عليه وآله : إنه عمرو ، اجلس .

ونادي عمرو : ألا رجل ! وهو يؤتّبهم ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها ؟

فقام الإمام علي(عليه السلام) فقال : أنا له يارسل الله .

ثم نادي الثالثة فقال :

ولقد بححت من النداء

بجمعكم هل من مبارز

ووقفت إذ جبن المشجع

موقف البطل المناجز

إنّ السماحة والشجا

عة في الفتى خير الغرائز

فقام الإمام علي(عليه السلام) فقال : يارسل أنا .

فقال له رسول الله : إنّه عمر فقال : وإن كان عمراً .

فاستأذن رسول الله فأذن له صلى الله عليه وآله .

وبرواية عن حذيفة قال : فألبسه رسول الله صلى الله عليه وآله درعه (ذات الفضول) ، وأعطاه سيفه (ذا الفقار) ، وعممه بعمامته (السحاب) ، وجعل علي رأسه تسعة أكوار ، ثم قال له : تقدّم ، فقال لَمَّا وُلِّي : ((اللهم احفظه من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، ومن فوق رأسه ، ومن تحت قدميه)).

قال ابن إسحاق : فمشي إليه وهو يقول :

لا تعجلن فقد أتا

ك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيّة وبصيرة

والصدق منجي كل فائز

إنّي لأرجو أن أقد

م عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقي

ذكرها عند الهزاهز

قال له عمرو : من أنت ؟

قال : أنا علي .

قال : ابن عبد مناف ؟

قال : أنا علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف .

فقال : غيرك ابن أخي من أعمامك من هو أسنّ منك ، فأبّي أكره أن أهرق دمك .

فقال الإمام علي (عليه السلام) : لكّني والله لا أكره أن أهرق دمك .

فغضب ونزل ، وسلّ سيفه كأنه شعلة نار ، ثم أقبل نحو الإمام علي مغضباً فاستقبله الإمام علي بدرقته ، فضربه عمرو بالدرقة ففدّها ، وأثبت فيها السيف ، وأصاب رأسه ، فشجّه ، وضربه الإمام علي علي جبل العاتق ، فسقط .

فجلس أمير المؤمنين (عليه السلام) علي صدره فبصق اللعين في وجهه الشريف فقام عنه ومشى بضع خطوات وعاد إليه فاحتز رأسه وأقبل
باتجاه رسول الله صلي الله عليه وآله فرحاً مستبشراً فقال صلي الله عليه وآله له :

أبشر يا علي فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة محمد لرجح عملك علي عملهم .

وبرواية أخرى إنه قال صلي الله عليه وآله : ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين إلي يوم القيامة .

وقال أمير المؤمنين فيما بعد شعراً يصف حال عمرو :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه

ونصرت ربّ محمد بصواب

فضربته وتركته متجدلاً

كالجدع بين دكادك وروابي

وعففت عن أثوابه ولو أنني

كنت المقطر بزني أثوابي⁽¹⁾

من دلائل الآية

وبعد أن استعرضنا هذه الواقعة التاريخية المهمة نخلص منها بما يلي :

- 1 - مدي تفاني أمير المؤمنين (عليه السلام) في ذات الله تعالى .
- 2 - ثقته التامة بنصرة الدين وعدم مبالاته بأشياء الضلالة مهما كانت شوكتهم قوية .
- 3 - شدة ثباته (عليه السلام) واستقامته في إعلاء كلمة الحق .
- 4 - مبادرته (عليه السلام) إلي ردع المخاطر المحيقة بالدين الإسلامي الحنيف .
- 5 - انفراده (عليه السلام) في مثل هذه الفضيلة وعدم أهلية غيره من المسلمين لمثلها .

ص: 487

6 - نصرۃ الدين الإسلامى عادة ما تكون على يديه (عليه السلام) .

7 - إن غضبه (عليه السلام) لا يكون إلا لله ومن أجل تحصيل رضاه تعالى .

8 - بانتصار أمير المؤمنين (عليه السلام) على ابن ودد العامري أضيف إلى ديوان فضائله (عليه السلام) فضيلة مهمة بقي الإمام (عليه السلام) يفتخر بها طيلة حياته ويشهد على ذلك أبياته المنسوبة إليه .

وغير ذلك من الفوائد المهمة التي تدل على عظمة مناقب أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي صرع يوم الخندق زعيم الإلحاد وأعلى راية الإسلام خفاقة على مر التاريخ .

ص: 488

(61) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا» (سورة الأحزاب : 41)

في رحاب المفردات

اذكروا : الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه ، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ، ولذلك قيل الذكر ذكران : ذكر بالقلب وذكر باللسان(1).

كثيراً : الكثرة والقلة يستعملان في الكمية المنفصلة كالأعداد ، قال : «وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا(2)» وقال : «وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ(3)» وقال : «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ(4)».

ص : 489

1- مفردات الراغب : ص 181 .

2- سورة المائدة (5) : الآية 64 .

3- سورة المؤمنون (23) : الآية 70 .

4- سورة الأنبياء (21) : الآية 24) مفردات الراغب : ص 443 .

أخرج الحافظ جمال الدين محمد بن يوسف (الحنفي) (الزرندي في كتابه) نظم درر السمطين (عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((ما أنزل الله تعالى آية فيها «يا أيها الذين آمنوا» إلا وعلي رأسها وأميرها)) (1).

عبر من الآية

في خضم مناهات الحياة الكثيرة ، ومع تراحم مشاغل الدنيا جاءت هذه الآية المباركة لتحث المؤمنين إلي ذكر الله كثيراً . ولكن ، كيف يكون ذلك وقد آلي الشيطان اللعين علي نفسه ، وحلف أيماناً معظمة بعزة الله أن يغوي الإنسان حيث قال : «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ (2)» لذلك فإنه راهن وأصرّ واستكبر علي إغواء وإضلال بني آدم أجمعين إلا المعصومين لأنهم هم ((المخلصين)) والشيطان ليس له عليهم من سبيل .

فالشيطان عبر الإغواء والإغراء يضلّ العباد ويخرجهم عن طريق الحقّ وجادة الصواب والمحجّة البيضاء التي أرادها الله سبحانه طريقاً مستقيماً وواضحاً لهم حيث قال عزّ من قائل : «أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (3)» .

فهو عدو حاقد ، وعلينا أن نتّخذة عدواً لأنه يحاول أن يجزنا جميعاً إليه وإلي

ص : 490

1- نظم درر السمطين : ص 89 .

2- سورة ص (38) : الآية 83 - 82 .

3- سورة الأنعام (6) : الآية 153 .

نهجه الباطل ومآله المخزي في الجحيم ودركاتها المتنوعة - والعياذ بالله - .

والسؤال الذي يطرح هنا هو ما الطريق إلي مقاومة الشيطان ؟

وكيف لنا أن ننجو من أحييله وأعماله اللعينة ؟

الآية الشريفة تقول لنا : أنّ من بين الأسلحة القوية لذلك ((ذكر الله كثيراً)) لأنّ الذكر يجعل الإنسان دائماً في الحضرة القدسية ، فيبتعد عنه الشيطان بمقدار قربه من الله تعالى .

فكلّما اقترب الإنسان من الله من خلال الذكر ابتعد عنه الشيطان ، وكلّما ابتعد اقترب منه حتى يلاصقه ومن ثم يصاحبه ويبقى يغويه ويغريه حتى يعتليه ويجعله حصاناً له منقذاً لرغباته طائعاً لأوامره .

الذكر حصن المؤمنين المنيع

علي خلاف الإنسان الغافل يكون الإنسان المؤمن والتقي ، فهو لا يسمح للشيطان أن يركبه أو أن يقترب منه ، وإثماً يكون كما وصفه تعالى بقوله : «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ(1)».

فياتري ماذا يتذكّر المؤمنون ؟

الجواب يتذكرون مكائد الشيطان فيستعيذون منها ، ويذكرون الله فيستجيرون به لكي يجيرهم ويعيدهم من كل سوء أو بلية .

فإذا عرضت امرأة نفسها علي الإنسان وهي محرّمة عليه ، عليه أن يتذكّر الله سبحانه كما تذكّر يوسف الصديق(عليه السلام) حيث تهيّأت زليخا واستعدّت ولما دخل

ص: 491

وأغلقت الباب فقالت له : «هَيْتَ لَكَ(1)».

قال (عليه السلام) : «مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ(2)».

أي إنّ تذكّر الله يردع المؤمن من الوقوع في الحرام ، وتذكر اليوم الآخر يلجمه تماماً لأنه يقترّ ويعترف بأنّ الناقد بصير والحاكم عادل والمآل إمّا جنة الخلد أو نار الخلد أبداً .

فالإنسان المؤمن يتورّع عن فعل الحرام - كيف ومتي وحيث كان - وذلك بمجرد أن يتذكّر فضل الله وعدله ودقّته في حسابه .

ولذا فالآية تأمر بذكر الله كثيراً .

حكمة التأكيد علي الذكر

وهنا ربما يقول البعض لماذا هذا التأكيد الكثير في الآية علي الذكر ؟ الجواب لأنّ أحابيل الشيطان مورّعة في كل اتّجاه وفي كل مكان ، وتعرّض الإنسان لها كثير جداً وبأشكال وألوان مختلفة .

ففي البيت مثلاً يتعرّض الإنسان لسوء الخُلُق فيؤدي زوجته وأولاده ومن هم تحت رعايته أو يكون تحت رعايتهم كالوالدين .

وفي السوق يواجه الغشّ ، والربا ، والاحتكار ، والسباب والشتائم والكلام البذيء .

وفي الجامعة يواجه الأجنب ، والتعامل معهم ، وكذلك في الشارع ، والسيارة والقطار والطيارة ، فالمناظر المبتذلة والنساء الكاسيات العاريات ، والتلفاز والكمبيوتر

ص: 492

1- سورة يوسف (12) : الآية 23 .

2- سورة يوسف (12) : الآية 24 .

وألف شي ء وشي ء نراه أمامنا هذا إذا لم نصطدم به .

فأصبح دور الشيطان في هذا العصر العصيب دوراً جدياً واضحاً وهو أقرب إلي التوجّه والمراقبة حيث إنّ شياطين الإنس تجمّعت جميع الأدوار الشيطانية وراحت تبتكر من الأساليب والأعمال التي لم تخطر علي ذهن الشيطان اللعين .

ففي كل ركن من الأركان ، وفي كل اتجاه ، ومع كل خطوة نجد أنّ الشيطان يخرج رأسه ، وينجم قرنه في كل مجتمع ، وكل ذلك يحتاج إلي ذكر الله .

فنحن نحتاج أن نتذكّر الله - سبحانه - في وقبل وبعد ومع كل خطوة نخطوها .

أهمية الذكر القلبي

واعلم - عزيزي القارئ - أنّ للذكر نوعين أساسيين :

1 - ذكر لفظي باللسان .

2 - ذكر قلبي في الجنان .

وكلاهما مهم ، إلا أنّ الأهم هو الذكر القلبي ، وهذا يتجلّي في التوجّه المطلق إلي الله عزّوجلّ والانتقطاع التام عمّا سواه .

أمّا الذكر اللفظي فأهميته تكون إذا كان طريقاً إلي الأهم وهو الذكر القلبي أي أنّ لقلقة اللفظ وتكراره يجب أن تقودنا إلي ترسيخ المعني في الذهن فيزهر معناه في القلب ويعيش الإنسان في كل لحظة مع الله عزّوجلّ .

ففي الحديث أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) قال : ((ما ابتلي مؤمن بشي ء أشدّ عليه من ثلاث خصال يحرمها .

قيل : وما هي ؟

قال (عليه السلام) : المواساة في ذات يده ، والإنصاف من نفسه ، وذكر الله كثيراً .

ص : 493

أما إني لا أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وإن كان هذا من ذاك ولكن ذكر الله عندما أحلّ له ، وذكر الله عندما حرّم عليه)) (1).

فالإنسان لا يدري ، فمكائد الشيطان واحدة منها تسبّب دماره ؟ أوليس إبليس ذاته بدأ الكفر بفكرة جالت في خاطره حينما قال : لو أنصفتني الله لكنت أنا شيخ الملائكة وسيدهم ، فأظهر الله كبره عندما امتحنه بالسجود لآدم (عليه السلام) ؟

من هنا علي الإنسان أن يغتنم الفرص ويجهد في استثمار أوقاته وصرّفها في ذكر الله عزّ وجلّ ، فقد أشار أمير المؤمنين (عليه السلام) إلي أهمية المبادرة إلي الأعمال الصالحة قبل فوات الأوان وضياع الفرص فقال (عليه السلام) : ((فاتّقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقي لكم بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جدّ بكم ، واستعدّوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا قوماً صديح بهم فانتبهوا ، وعلموا أنّ الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فإنّ الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدي ، وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به)) (2).

حقيقة الذكر

وقد اختلفت الأقوال في المعني المراد من الذكر إلي أكثر من معني ، فمما قيل في ذلك هو : ما عن النبي صلي الله عليه وآله أنّه قال : ((من عجز عن الليل أن يكابده ، وجبّ عن العدو أن يجاهده ، وبخل بالمال أن ينفقه ، فليكثر من ذكر الله عزّ وجلّ ، وذكر الله : أي أن لا ينساه أبداً)).

وقيل : إنّ ذكره بصفاته العلي ، وأسمائه الحسني ، وتنزيهه عمّا لا يليق به .

ص : 494

1- الكافي : ج 2 ص 145 ح 8 .

2- نهج البلاغة : خ 64 في المبادرة إلي صالح الأعمال .

وقيل : ان يقول : سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، علي كل حال .

وقد قال الأئمة الأطهار عليهم السلام : أن من قال هذه الكلمات ثلاثين مرة فقد ذكر الله كثيراً .

وقالوا عليهم السلام : إن تسيحات سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام هي الذكر الكثير .

وعن ابن عباس قال : إن جبرائيل (عليه السلام) أتى النبي صلي الله عليه وآله فقال : يا محمد ، قل :

((سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، عدد ما علم ، وزنة ما علم ، ومليء ما علم)).

فإن من قالها كتب الله له ستّ خصال :

((كتب من الذاكرين الله كثيراً .

وكان أفضل من ذكره بالليل والنهار .

وكان له غرساً في الجنة .

وتحاتت عنه خطاياه كما تحات ورق الشجرة اليابسة .

وينظر الله إليه .

ومن نظر الله إليه لم يعدّبه))[\(1\)](#) .

وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : قال الله سبحانه : ((إذا علمت أن الغالب علي عبدي الاشتغال بي نقلت شهوته إلي مسألتي ومناجاتي ، فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو حلتُ بينه وبين أن يسهو أولئك أوليائي حقاً))[\(2\)](#) .

وقيل للنبي صلي الله عليه وآله : من أكرم الخلق علي الله ؟ فقال صلي الله عليه وآله : ((أكثرهم ذكراً لله ،

ص : 495

1- مجمع البيان : ج 22 مج 8 ص 167 - 166 .

2- البحار : ج 93 ص 162 .

وأعلمهم بطاعته)) (1).

وقال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((ما من شيء إلا وله حد ينتهي إليه إلا الذكر فليس له حد ينتهي إليه ، فرض الله عزوجل الفرائض فمن أداهن فهو حدهن : وشهر رمضان فمن صامه فهو حده والحج فمن حج فهو حده ، إلا الذكر ، فإن الله عزوجل لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي إليه ، ثم تلا هذه الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » (2).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((من أكثر ذكر الله عزوجل أحبه الله ، ومن ذكر الله كثيراً كتبت له براءتان : براءة من النار وبراءة من النفاق)) (3).

وعن ابن فضال رفعه قال : قال الله عزوجل لعيسى (عليه السلام) : ((يا عيسى اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي واذكرني في ملئك أذكرك في خير من ملأ- الأدميين ، يا عيسى ألن قلبك وأكثر ذكري في الخلوات واعلم أن سروري أن تبصص إلي وكن في ذلك حياً ولا- تكن ميتاً)) (4).

ص: 496

1- وسائل الشيعة : ج7 ص156 ح8993 .

2- سورة الأحزاب (33) : الآية 42 - 41) الكافي : ج2 ص498 ح1 .

3- الكافي : ج2 ص500 ح3 .

4- الكافي : ج2 ص502 ح3 .

(62) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا» (سورة الأحزاب : 49)

في رحاب المفردات

نكحتم : أصل النكاح للعقد ، ثم استعير للجماع ، قال تعالى : «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامِي (1)» وقال : «فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ (2)».

طلقتموهن : أصل الطلاق التخلية من الوثاق ، يقال أطلقت البعير من عقاله ، ومنه استعير طلقت المرأة نحو خلّيتها فهي طالق أي مخلاة من حباله النكاح .

قال تعالى : «فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ (3)».

ص: 497

1- سورة النور (24) : الآية 32 .

2- سورة النساء (4) : الآية 25) مفردات الراغب : ص 526 .

3- سورة الطلاق (65) : الآية 1) مفردات الراغب : ص 316 .

عدة : عدة المرأة هي الأيام التي بانقضائها يحل لها التزويج ، قال تعالى : «فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا (1)».

فمتَّعوهنَّ : المتاع والمتعة ما يعطي المطلقة لتتفح به مدَّة عدَّتْها .

قال تعالى : «وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرَهُ (2)».

سَرَّحُوهُنَّ : مستعار تسريح الإبل كالطلاق في كونه مستعاراً من إطلاق الإبل (3).

شأن النزول

أخرج العلامة الهندي عبيدالله بسمل امر تسري في كتابه الكبير) أرحح المطالب في عدِّ مناقب أسد الله الغالب علي بن أبي طالب (عن ابن عباس قال : ((ما أنزل الله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا وعلي أميرها وشريفها ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلي الله عليه وآله وما ذكر علياً إلا بخير)) (4).

ص: 498

1- سورة الأحزاب (33) : الآية (49) مفردات الراغب : ص 336 .

2- سورة البقرة (2) : الآية (236) المفردات : ص 481 .

3- المفردات : ص 235 .

4- أرحح المطالب : ص 51 .

إنّ سورة الأحزاب المباركة أكثرت الحديث حول النساء وعن أحوالهنّ وأحكامهنّ لا سيّما فيما يتعلّق بالمعاشرة والطلاق وما شابه ذلك .

وهذه الآية المباركة جاءت لتوضيح بعض الأحكام المتعلقة بالطلاق .

فالطلاق هو فسخ وإبطال لعقد الزواج المبرم بين الزوجين والمتضمّن قبول كل منهما الآخر مقابل المهر الذي يدفعه الرجل والطاعة التي تقدّمها المرأة ، وكل ذلك ضمن الحدود الشرعية التي حددها الشارع المقدّس .

والطلاق - في الحقيقة - هو رحمة ربّانية مهداة للبشرية كلّها .

وقد تسألني عزيزي القاري قائلاً :

كيف يكون الطلاق الذي هو أبغض الحلال رحمة ربّانية؟ بل إنّ الواقع خلاف ذلك ، فهو كارثة إنسانية بكل ما فيها لا سيّما إذا كان بين الأبوين أولاد .

فنتقول إلي من يذهب لذلك لا يأخي ، بل الطلاق هو الحل الوحيد إذا لم يوجد هناك حلّ للحياة بين الزوجين ، لذلك ورد في الحديث أنه : ((أبغض الحلال إلي الله)) (1).

وكما يقال : إنّ آخر الدواء الكي ، أو القطع والبتير .

فإذا لم يكن هناك حيلة لاستمرار الحياة الزوجية فالعقل والشرع يحكمان بأن يذهب كل منهما في حال سبيله ويغني الله كلّاً منهما من فضله وكرمه ، فلعلّ كلّاً منهما يجد إنساناً آخر يسعده ويرتاح معه ، فلماذا نصيّق واسعاً جعله الله لنا فيه فسحة؟

ص: 499

1- راجع كل من : الكافي : ج5 ص328 ح1 ، وسائل الشيعة : ج20 ص16 ح24907 ، مستدرک الوسائل : ج15 ص279 ح18233 .

وفي الواقع لا يوجد قانون أو تشريع هو أجمل وأحكم وأعدل من التشريع الإسلامي ، إذ أنك تشعر فيه بالرحمة والدقة والمراعاة لأُمور الإنسان ومشاعره وأحاسيسه ، وهذا ما لا يوجد في أي قانون من قوانين العالم أجمع .

مقتطفات من أحكام الطلاق

وقد تضمّنت هذه الآية المباركة بعض الأحكام المتعلقة بمسألة الطلاق وهي :

1 - الطلاق الذي يكون بعد الدخول بالمرأة ، أو قبل الدخول بها .

فإذا كان بعد الدخول فعليها العدة المقررة في الشرع وهي ثلاثة قروء ((حيضات)) أو ثلاثة أشهر كما فصّلها الفقهاء في الرسائل العملية والكتب الفقهية .

ولعلّ الحكمة في ذلك هو : احتمال كون المرأة حاملاً من الزوج المطلق ، فعليها أن تنتظر حتى يتبين إن كان هناك حاملاً حقيقة أم لا .

أمّا المرأة غير المدخول بها فإنّ هذا الاحتمال غير وارد مطلقاً لذلك لا عدة عليها إذا طلقها زوجها قبل أن يدخل بها .

وقد تكون الحكمة هو إعطاء فرصة لكل من الطرفين في العودة إلي الآخر خلال فترة العدة .

فلربما كان أحدهما أو كلاهما في حالة نفسية غير مناسبة ، أو حالة عصبية أو انزعاج شديد فيطلقها ، ولكن بمرور الزمن تهدأ الأعصاب ، وتخمد ثورة الإنسان وغضبه فيراجع حساباته ، فلربما يرجع إلي أهله وزوجته ، فتتيح فترة العدة هذا الأمر ، وخاصة إذا ما بقيت المرأة عنده ولم يخرجها من بيتها في تلك الفترة وهذا من حقّه طبعاً .

ص: 500

ولا يخفي أنّ هذه الحكمة منتفية - عادةً - في الطلاق قبل الدخول، إذ أنّ الطلاق قبل الدخول يدلّ علي أنّ هذين الزوجين لا يمكن أن يتعايشا مع بعضهما، حيث انفصلا بهذه السرعة، وقبل أي شيء .

إذن : فلا عدّة ولا داعي أصلاً لها .

كما أنه يمكن أن يكون هناك حكماً أخري وراء مسألة العدّة، كأن يشعر كل منهما بحاجته إلي الآخر إذا ما انقطعا - عن المعاشرة لفترة من الزمن - فربما يقدم أحدهما التنازلات عن حقوقه من أجل الآخر فيعودون إلي سابق عهدهما .

وبالإجمال إذا عقد المؤمن علي امرأة، ثم طلقها من قبل أن يمسه، فلا تجب عليها العدّة بل يجوز لها أن تتزوج بعد الطلاق مباشرة، وإذا كان فرض لها مهراً محدداً وجب عليه دفع النصف لها .

أي عندما يكون المهر محدداً فإن لها عليه أن يمتّعها بأن يدفع لها شيئاً من المتاع ذهباً أو مالاً أو لباساً ممّا يجبر كسر خاطرها عند قريناتها أو بنات جيلها .

وكل ذلك يكون دون نزاع أو جدال أو اتّهامات يلقيها كل طرف علي الآخر، وتبريراً للفرقة، أو تشقيماً من صاحبه .

وهذا الأمر ينبغي أن ينسحب علي جميع العقود الاجتماعية والمعاملات العامة مالية وغيرها .

2 - التمتع : بإعطاء)المتعة) وهي من المتاع وذلك مراعاة لنفسية المرأة المطلقة لأنّ مسألة الطلاق هي ما يشبه العقدة لدي النساء تطاردهن كالأشباح المخيفة .

كما أنّ العادات والتقاليد الاجتماعية عند المجتمعات عادةً ما تنبذ المطلقة وتنظر إليها علي أنّها ناشز حتي لو لم يتم الدخول بها .

ناهيك أنّ الألسن تحوطها وتلوكها من كل جانب وتؤلف القصص حولها وربما أخرجوها من عرضها ودينها كذباً وزوراً وبهتاناً - والعياذ بالله - .

لذلك ينبغي للمجتمع المؤمن أن ينظر إلي مسألة الطلاق بمزيد من الرحمة والعطف والحنان بالمطلقة لا العكس .

فما من امرأة علي وجه الأرض ترغب بالطلاق من زوجها إذا كانت حقوقها محفوظة وكرامتها مصانة .

ومن هذا المنطلق علي الرجل الذي يريد أن يطلق زوجته قبل أن يمسه أن يعطيها بعض المتاع لتستأنس به ويكون لها ما يشبه الذكرى أو البلسم الشافي لأحاسيسها وعواطفها الرقيقة .

فعن محمد بن مسلم ، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : سألته عن الرجل يطلق امرأته ؟ قال : ((يمتعها قبل أن يطلق ، قال الله تعالى : (وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرَهُ(1)).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) ، في الرجل يطلق امرأته قبل أن يدخل بها ، قال : ((عليه نصف المهر إن كان فرض لها شيئاً ، وإن لم يكن فرض لها شيئاً فليمتعها علي نحو ما يمتع به مثلها من النساء)) (2).

وكما هو واضح هنا أنّ المتعة والامتناع ليس المقصود بها ((متعة النساء)) الواردة في سورة النساء بقوله تعالى ((فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ(3)).

ص: 502

1- سورة البقرة (2) : الآية (236) تهذيب الأحكام : ج 7 ص 376 ح 1523 .

2- الكافي : ج 6 ص 105 ح 2 .

3- سورة النساء (4) : الآية 24 .

أي المتعة التي تسمّى ((الزواج المؤقت)) ذاك التشريع الذي يمثل ضرورة حضارية في كل العصور لا سيّما عصرنا الحاضر الذي يعجّ بكل أنواع الفتن والمفاسد بل هي منحة يمنحها الزوج للزوجة عند الانفصال .

الطلاق بالمعروف

وأخيراً فإنّ الطلاق والفراق يجب أن يكون بالمحبّة لأنّ المطلّقة أخت في الدين ونظيرة في الخلق فلا يجب إيذاءها بأي شكل من الأشكال كأن يكيل إليها السباب أو الشتم أو الضرب أو الغيبة والنميمة أو التطاول علي عرضها بسوء والعياذ باللّهُ .

فكل ذلك نهى عنه الآية المباركة بقولها ((وسرّحوهن سراحاً جميلاً)) أي اتركوهنّ يذهبنّ إلي بيوت أهلهنّ بالشيء الجميل الحسن .

فقد فسّر الإمام الباقر(عليه السلام) هذه الآية فقال : ((متّعوهن)) أي جمّلوهنّ(1) بما قدرتم عليه من معروف فإنّهنّ يرجعن بكآبة ووحشة وهمّ عظيم وشماتة من أعدائهنّ ، فإنّ الله عزّوجلّ كريم يستحي ويحبّ أهل الحياء ، إنّ أكرمكم أشدّكم إكراماً لحلالهم)) (2).

ومع الأسف الشديد لمّا يصل الأمر إلي الطلاق تجد أنّ العديد من القصص والروايات المطوّلة التي يبدأ يؤلّفها كل من الزوجين علي الآخر .

فالمرأة تخرج الرجل من رجولته ودينه ، وهو كذلك لا يترك علّة أو نقيصة إلا ويضعها فيها .

ص: 503

1- أي افعالوا معهنّ بالجميل .

2- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص506 ح4777 .

فكل يفضح الآ-خر وينشرون غسيلهم لتراه العيون وتسمعه الآذان وكلها - الاتّهامات - في الأغلب تكون باطلة ، وكل ذلك من أفعال وأعمال الجهل والجهلاء دون شك .

ص: 504

إشارة

(63) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا»

(سورة الأحزاب : 53)

في رحاب المفردات

يؤذن : الإذن في الشيء ء إعلام بإجازته والرخصة فيه نحو قوله : «مَا أُرْسَلْنَا

ص: 505

مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ (1).

مستأنسين : الأُنس خلاف النفور ، والإنسي منسوب إلي الإنس ، يقال ذلك لمن كثر أنسه ولكل ما يؤنس به (2).

فيستحي : الحياء هو انقباض النفس عن القبائح وتركه لذلك يقال حيي فهو حيي ، واستحيا فهو مستحي ، قال الله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَّا فَوْقَهَا (3).

حجاب : الحَجْبُ والحجاب هو المنع من الوصول ، يقال : حجبه حَجْبًا وحِجَابًا ، قال الله تعالى : «وَمَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (4).

شأن النزول

نزلت آية الحجاب عندما تزوج (رسول الله صلي الله عليه وآله بزینب بنت جحش ، وأولم عليها .

قال أنس : أولم عليها بتمر وسويق ، وذبح شاة ، وبعثت إليه أمي أم سليم

ص : 506

1- سورة النساء (4) : الآية 64) مفردات الراغب : ص 10 .

2- مفردات الراغب : ص 24 .

3- سورة البقرة (2) : الآية 26) مفردات الراغب : ص 140 .

4- سورة الشوري (42) : الآية 51) مفردات الراغب : ص 107 - 106 .

بحيس(1) في تور(2) من حجارة ، فأمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أدعو أصحابه إلي الطعام ، فدعوتهم ، فجعل القوم يجيئون ويأكلون ، ويخرجون ، ثم يجيء القوم فيأكلون ويخرجون .

قلت : يا نبي الله! قد دعوت حتي ما أجد أحداً أدعوه ؟

فقال : ارفعوا طعامكم ، فرفعوا طعامهم ، وخرج القوم ، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون في البيت ، فأطالوا المكث .

فقام صلى الله عليه وآله وقمت معه ، لكي يخرجوا ، فمشي حتي بلغ حجرة عائشة ، ثم ظنَّ أنَّهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه ، فإذا هم جلوس مكانهم ، فنزلت الآية .

كما أنَّ عبد الله بن عباس يحدث قائلاً : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يريد أن يخلوا له المنزل ، لأنه كان حديث عهد بعرس ، وكان محبباً لزَيْنب ، وكان يكره أذي المؤمنين(3).

عبر من الآية

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله مجرد مبعوث من السماء أرسله الله إلي الناس ليخرجهم من ظلمات الجاهلية إلي نور الإسلام العزيز بل كان كذلك قائداً وزعيماً للعالمين ، وكما هو معلوم عند الجميع أنَّ التعامل مع القائد له آداب خاصة ينبغي الالتزام بها ، من هنا فإنَّ هذه الآية الكريمة جاءت لتعليم المؤمنين الآداب الخاصة في التعامل مع الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله .

ص: 507

1- تمر يخلط بسمن ويعجن جيّداً .

2- إناء صغير .

3- مجمع البيان : ج 22 مج 8 ص 174 - 173 .

فكما أنّ المعاشرة العادية - بين البشر - لها آداب وأخلاقيات ، ذكرها الفقهاء والمحدثون في كتبهم ومساندهم ، فإنّ لرسول الله صلي الله عليه وآله آداباً خاصة عند التعامل معه .

فقد ورد في التاريخ أنّ الكثير ممّن كانوا حول الرسول صلي الله عليه وآله كانوا جفاة غلاظاً يؤذونه صلي الله عليه وآله بقصد أو دونه بالحديث والكلام حيث كانوا يقاطعون أو يرفعون أصواتهم فوق صوته صلي الله عليه وآله .

بل كانوا يرفضون أو امره ويجعلونه يكرّرها كثيراً ، ولا يقبلوا الأحكام التي يأتي بها لأنّها تخالف هواهم ، فهذا يشكك به وبرسالته ، وذلك يجزّه من ثيابه وهو يصلي والآخر يدعوه إلي الطعام فيجلس عنده طيلة النهار مستأنساً بالحديث ، وما شابه ذلك كثير .

ورسول الله صلي الله عليه وآله كما ورد في الحديث كان حياً فكان يستحي أن يوجّه إليهم أي كلمة تجرح شعورهم أو تمسّ أخلاقياتهم ، إلا أنّ الله سبحانه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور علم أنّه صلي الله عليه وآله كان يضيق بأولئك ذرعاً ، فكانت الآيات تنزل عليه صلي الله عليه وآله لتؤدّبهم وتعلّمهم كيف يتعاملون معه صلي الله عليه وآله .

وكيف يجلسون عنده ، وكيف يكلمونه وقد أشار تعالي إلي ذلك في قوله : «لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ (1)» .

بل تطرقت الآيات إلي كيفية زيارة رسول الله صلي الله عليه وآله ومناجاته فقال عزّ من قائل : «فَدُمُّوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ (2)» .

كيف نتعامل مع القادة ؟

وفي هذه الآية المباركة يعطي الباري سبحانه دروساً أخلاقية وآداباً يجب علي

ص: 508

1- سورة الحجرات (49) : الآية 2 .

2- سورة المجادلة (58) : الآية 12 .

المسلمين - والمؤمنين بالخصوص - أتباعها مع رسول الله صلى الله عليه وآله أو الإمام (عليه السلام) أو حتى المرجع والقائد الديني .

فالنبي صلى الله عليه وآله يجب أن يتعامل معه ضمن آداب خاصّة، فمن هذه الآداب التي ذكرتها الآية المباركة هو :

1 - دخول المنزل : إنّ للمنازل حرّات ، ولدخولها شروطاً وأداباً ، فمثلاً ينبغي أن لا يدخل الإنسان إلّا بعد الاستئذان والحصول علي الإذن ، والسلام والتحية حتي أنّ الرسول صلى الله عليه وآله لم يكن ليدخل بيت من بيوته أو بيت إبنته الزهراء عليها السلام إلّا بعد الاستئذان - كما مرّ سابقاً - . وكذلك من آداب المنزل أنّ الإنسان لو دعى إلي وليمة فيجب أن يأتي في الوقت المحدّد لا أن يأتي قبل فيجلس وينتظر فيطول بقاءه عندهم أو أن يأخذ بالحديث فيما بعد الغداء . فكل ذلك يرهق أصحاب المنزل ويحرجهم وما جعل الله علينا في الدين من حرج ، فكيف نخرج بعضنا بعضاً أو نخرج رسول الله صلى الله عليه وآله كما فعل بعضهم ؟

2 - إذا أكلتم الطعام فاخرجوا وتفردوا .

إنّ هذا أدب صغير وبسيط ولكنّه - لو دققنا فيه - عظيماً جدّاً لأنه ضروري لأهل المنزل ، حيث إنّ البيوت في تلك الأيام لم تكن علي ما نحن عليه الآن من السعة والفسحة بل كانت ضيّقة وفي معظم الأحيان كانت غرفة واحدة لها بعض اللواحق فقط .

3 - علي الضيف أن يراعي حرمة البيت الذي يحلّ فيه ، فلو اضطرّته الحاجة للتعامل مع أهله من النساء يجب أن يتعامل معهنّ بأدب ، وبمقدار حاجته ، ومن وراء حجاب ، فبعد نزول هذه الآية صار حراماً علي المؤمنين التحدّث مع نساء الرسول إلّا بهذه الكيفية .

والحكمة من هذا التشريع هي الوقاية من الذنب ، والتي لا تتم إلّا بطهارة القلب وهذه الطهارة لا تتأتّى إلّا بابتعاد الإنسان عن أسباب المعصية ، والتي من بينها

حديث المرأة مع الرجل وبالذات إذا لم يكن هناك حجاب بين الطرفين ، لأن كل من الرجل والمرأة يميل أحدهما للآخر بالغريزة ، ولعلّ الحديث بينهما بغير الصورة التي تهدي لها الآية ، ينتهي إلى المعصية ، ورسول الله صلي الله عليه وآله كان يدرك هذه الحقيقة تماماً ، ولذلك لم يكن يتقبل مثل هذه الحالة (لغيرته وحشمته) بل كانت تلحق به الأذى النفسي . ولكي يقطع الله - سبحانه - الطريق علي القلوب المريضة ، وينهي هذه المشكلة التي تؤذي رسوله الكريم صلي الله عليه وآله حرّم الزواج من نسائه مطلقاً فقال عزّوجلّ : «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ(1)».

فعن علي بن إبراهيم قال : لما أنزل الله : «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ(2)» وحرّم الله نساء النبي علي المسلمين ، غضب طلحة فقال : يحرّم محمّد علينا نساءه ، ويتزوّج هو نساءنا ؟ لنن أمات الله عزّوجلّ محمداً لتركضن بين خلاخيل نسائه كما ركض هو بين خلاخيل نساتنا ، فأنزل الله عزّوجلّ : «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ(3)».

وربما كان هدف هؤلاء المنافقين هو إيذاء الرسول إلاً أنهم يخفون هذه النوايا ببعض التبريرات كقولهم : لماذا يتزوّج هو نساتنا ؟ ولا يصح لنا زواج نسائه ، فهتدّهم الله من طرف خفي إذ قال : «إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً(4)».

فهذه الآداب هي بعض من الدروس الإلهية لهذه الأمة المرحومة ، لكي تحفظ كرامتها بحفظ مكانة رسول الله صلي الله عليه وآله .

ص: 510

1- سورة الأحزاب (33) : الآية 6 .

2- سورة الأحزاب (33) : الآية 6 .

3- سورة الأحزاب (33) : الآية 53) نور الثقلين : ج6 ص74 ح205 .

4- سورة الأحزاب (33) : الآية 53 .

(64) - «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (سورة الأحزاب : 56)

في رحاب المفردات

يصلُّون : الصلاة ، قال كثير من أهل اللغة : هي الدعاء والتبريك والتمجيد ، يقال صَلَّيت عليه أي دعوت له وزكَّيت ، قال تعالى : «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ(1)» .

النبي : النبوة سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده لإزاحة علتهم في أمر معادهم ومعاشهم .

والنبي : سمِّي نبياً لكونه منبئاً بما تسكن إليه العقول الذكية(2) .

سَلِّمُوا : هو الدعاء له والثناء عليه ، فقد قال تعالى في بعض الأنبياء : «سَلَامٌ

ص : 511

1- سورة التوبة (9) : الآية 103) مفردات الراغب : ص 293 - 292 .

2- مفردات الراغب : ص 501 .

عَلِي نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ(1)».

وقال : «سَلَامٌ عَلَيَّ مُوسَى وَهَارُونَ(2)» وقال : «سَلَامٌ عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ(3) كل هذا تنبيه من الله تعالى إنه جعلهم بحيث يشي عليهم ويدعي لهم(4).

شأن النزول

روي البخاري في صححيحه (أنه لما نزلت هذه الآية قيل لرسول الله صلي الله عليه وآله يارسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة عليك ؟ قال صلي الله عليه وآله : قولوا : ((اللهم صلّ علي محمد وعلي آل محمّد)) (5).

عبر من الآية

بيان رائع ، ونداء محبّب ، وأمر جامع اجتمعوا في هذه الآية المباركة .

أمّا البيان : فهو أنّ الله وملائكته يصلّون علي النبي صلي الله عليه وآله فما كنه هذه الصلاة القدسية المقدّسة وكيفيّتها ، من صاحب القداسة المطلقة علي ذلك النبي العظيم صاحب القداسة الإنسانية الكاملة من بني البشر ؟

الجواب إنّ النداء خاص بالمؤمنين بأن ((ياأيّها الذين آمنوا)) وصدّقوا وأيقنوا

ص: 512

- 1- سورة الصافات (37) : الآية 79 .
- 2- ((- سورة الصافات (37) : الآية 12 .
- 3- سورة الصافات (37) : الآية 109 .
- 4- مفردات الراغب : ص 246 .
- 5- صححيح البخاري : ج 3 كتاب تفسير القرآن باب إنّ النبي وملائكته يصلّون علي النبي .

والتزموا بالتوحيد وشهدوا لله بالوحدانية ، للرسول بالرسالة ، وأقاموا الواجبات واجتنبوا المحرمات ، وتسابقوا في الخيرات وعمل الصالحات

أما الأمر : فهو بأن ((صلّوا عليه وسلّموا تسليماً)) فكيف نصلي علي النبي صلي الله عليه وآله ؟ وكيف نسلم تسليماً ؟ وهذه ميزة رائعة ، وتفصل إلهي فريد إنفرد به رسول الإنسانية محمّد بن عبد الله صلي الله عليه وآله دون غيره من بني البشر ، فالنبي صلي الله عليه وآله وإن كان في الظاهر والمظاهر بشراً ، لكنّه ليس بشراً عادياً كبقية الناس العاديين .

بل هو بشر مرتبط بالوحي الإلهي ، وهذا الوحي ، أو ذلك الإيحاء لا يكون إلا لمن هو في قمة الإنسانية بين بني آدم ، أي أنه مسدّد ومؤيّد وموجّه من الله تعالى بتلك الوسطة التي يقال عنها ((الوحي)).

فقد قال تعالى : «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ (1)».

فالذي يفكر أو ينظر إلي الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله علي أنه بشر عادي - كما كان عرب الجاهلية في بداية الدعوة الإسلامية - أو أنه مثلنا ولا يتميز عنّا بشيء من الخصوصيات ، فهذا من أكبر الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها الإنسان .

فلذلك تجد أنّ أولئك الأعراب كانوا يؤذونه صلي الله عليه وآله كثيراً ويضايقونه كثيراً ، فيأتي إليه بعضهم وينادونه من بعيد فتراهم يجعجعون قبل أن يصلوا إلي منزله : فينادونه من وراء الحجرات .

وذاك يأتي ليسأل عن بعض الأمور فيجيبه الرسول صلي الله عليه وآله حسب عقله وفهمه ، فيبدأ يناقشه ويريد أن يعرف العلل والأسباب للأحكام والآيات وما شابه : فيرفع صوته فوق صوت النبي صلي الله عليه وآله . وأحدهم يأتي إليه وهو واقف يصلي علي الجنّازة فيشدّه من رداءه حتي تحمرّ رقبتة صلي الله عليه وآله وهو يقول : ألم ينهك الله عن الإقامة علي

ص: 513

جنازتهم أو الصلاة عليهم وكأنه هو الذي يسدده الوحي وليس رسول الله صلي الله عليه وآله (1).

وأخر يقول : يحرم علينا محمد نساءه ، ويتزوج هو نساؤنا ؟ لئن أمات الله - عز وجل - محمداً صلي الله عليه وآله لنركضن بين خلاخيل نساءه ، كما ركض هو بين خلاخيل نساننا ، أنظر إلي هذا الكلام ما أجفاه وأغلظه .

فالله سبحانه يقول : أزواجه أمهاتهم ، وهذا يريد أن يركض بين خلاخيلهن ، فهل لإنسان عاقل أن يفعل ذلك بأمه والعياذ بالله ؟ ولكن لا حول لا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فهل يمكن لإنسان فيه ذرة من الاحترام والتقدير لرسول الله صلي الله عليه وآله يقول عنه : إنه نبتة نبتت في كباه (2)؟ وهل يمكن أن تصل الجلافة والفظاظة إلي هذا المستوي ؟ لكنّها الجاهلية الجهلاء ، فعلت بهم ما تشاء .

الصلوات وتعظيم الرسول صلي الله عليه وآله

كثيرة هي الآيات التي تحضّ المسلمين علي تعظيم شأن رسول الله صلي الله عليه وآله - وهو عظيم الشأن بلا شك عند الله وعند العبيد كلهم - فهاهم علماء الغرب في هذه الأيام يعترفون بتفوقه صلي الله عليه وآله علي الخلق طراً في الكثير من الدراسات والكتب الحديثة سواء في الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد أو الأخلاق والآداب وما شابه ذلك .

ففي جميع المجالات يكون الأول هو رسول الله صلي الله عليه وآله كما نصّ مايكل هارث في ((المائة الأوائل)) وويزدبيورات في ((قصّة الحضارة)) وغيرهم كثير ، ومع الأسف الشديد أولئك الذين عاشوا معه لم يعرفوا له قيمة ولم يقدرّوا له قدرأً وصدق الله

ص: 514

1- راجع كنز العمال : ج2 ص419 - 418 ط بيروت .

2- مزبلة .

- جلّت قدرته - حيث قال : «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ(1)».

فرسول الله صلي الله عليه وآله قَمّة البشر أهلتة تلك المرتبة بحيث يصلّي عليه الله - سبحانه - وملائكته أجمعين .

فكيف يصلّي الله وملائكته علي الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله ؟

فهل هي صلاة الجنّازة عند وفاته صلي الله عليه وآله كما يذهب إلي ذلك بعضهم ؟

أم هي صلاة عادية بإمام وصفوف كصلاة الجماعة تماماً ؟ كما يفهم بعض البسطاء السذج ، أم أنّ لها معنأً آخرأً ، وأسلوباً آخرأً ، وكيفية أخرى ؟

الجواب إنّ الصلاة بالنسبة لنا فهي صلة بين العبد وربّه ، أي أنّ العبد الذي يريد أن يتّصل بساحة القدس الإلهية يقوم فيصلّي لله بخشوع وخشوع كاملين ، ورسول الله صلي الله عليه وآله كان من أكثر خلق الله صلاة - بهذا المعني - حيث كان يقوم ثلثي الليل تقريباً ويقرأ القرآن ويتهجّد ما شاء الله حتي أنّ الله - سبحانه - أنزل عليه سورة بكاملها يخفّف عنه بعض من ذلك الشيء ، فقال عزّ من قائل : «طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى(2)».

فالصلاة علي هذا الحبيب لا تكون بركوع وسجود بل تكون بلطف ورحمة وفيوضات نورانية تننزل من الله علي ذاك العبد وعلي قلبه بالذات ، فيتحوّل بكلّه إلي نور متلألئ يضيء لأهل السماء كالشمس في الوجود الأرضي .

ص: 515

1- سورة الأنعام (6) : الآية 91 .

2- سورة طه (20) : الآية 2 - 1 .

فالصلاة من الله تعالى ((الرحمة)) ومن الملائكة ((الاستغفار)) ومن المؤمنين ((الدعاء)) وهذا ما يستفاد من كلام الإمام الصادق(عليه السلام) حيث قال : ((إن الصلاة من الله رحمة ، ومن الملائكة تزكية ، ومن الناس دعاء))⁽¹⁾.

فالصلاة هي : التروّف والتعطف والمزيد من العناية والتوجّه .

لأنه بالنسبة إلى الله ، تأخذ الكلمات غاياتها وتترك مبادئها ، فحينما تقول : بأنّ الله يحبّ ، ويغض ، وينتقم ، فليس المعنى أن تطرأ عليه هذه الحالات - سبحانه وتعالى - فيتغيّر فيه شيئاً كما تغيّر في نفوسنا وأجسامنا ، إنّما تصدق علي الله الغايات منها ، فعطفه علي الإنسان هو هدايته له ، وإنعامه عليه ، وصلاته علي نبيّه أنه يستجيب الدعاء في حقّه وبسببه . وصلاة الملائكة علي الرسول صلي الله عليه وآله تعني الدعاء له عند ربّهم ، وتأييد وتابعة كذلك ، وأمّا صلاة المؤمنين التي أوجبها الربّ علينا في صلواتنا ، وندب إليها في كل وقت ، وبالذات عند ذكره صلي الله عليه وآله فهي تعني الدعاء له ، والتقرّب إلي مقامه الكريم (من أجل القربي إلي الله).

فوائد الصلوات

ولا يخفي أنّ الصلوات التي يصلّيها المصلّي لها فوائد جليّة وعظيمة جدّاً ومنها :

1 - تعظيم الرسول صلي الله عليه وآله وتقديره بالشكل الذي يليق ، وبذلك يتمّ تعزيز الروابط والحبّ بين المصلّي والرسول صلي الله عليه وآله لأنّه من دون ذلك الحب لا- يمكن أن يتقرّب المسلم إلي ربّه ، وكلمات الصلاة علي الرسول صلي الله عليه وآله وآله عليهم السلام تسبّب المزيد من التقرّب إلي الله ولكن عبّر الرسول صلي الله عليه وآله .

2 - أنّ ذلك حقّ علينا تجاه الرسول صلي الله عليه وآله وواجب ، لأنه هو الذي أجهد نفسه القدسية من أجل البشرية ، وتحمل الأذى في سبيل هدايتها حتي قال صلي الله عليه وآله : ((ما أؤذي نبي مثل ما أؤذيت))⁽²⁾.

فلا أقل من أن نشكره علي ما قدّم لنا وللإنسانية من خير ونور وهداية ، بأن

ص: 516

1- وسائل الشيعة : ج7 ص196 ح9100 .

2- مناقب آل أبي طالب : ج3 ص247 .

نرفع له أصواتنا بالصلاة والدعاء له ولآله الأطهار عليهم السلام .

3 - أن الصلاة علي الرسول صلي الله عليه وآله تعود بأكبر النفع علي المصلي ذاته لأنه دعاء ، وكما جاء في حديث الإمام الصادق(عليه السلام) : ((دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب لا يحجبه عن الله حجاب ويقول له : ولك مثله))⁽¹⁾.

فعندما ندعوا ونصلي علي الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله فإن الله سبحانه يستجيب لنا ويصلي علينا كذلك لأنه قال : «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا»⁽²⁾.

فصلاتنا علي الرسول صلي الله عليه وآله تعود لنا بالفائدة والخير والبركة ورفع الدرجات ، والأحاديث كثيرة في هذا الباب ، فمنها ما جاء عنه صلي الله عليه وآله قال : ((من صلي علي ، صلي الله عليه وملائكته ومن شاء فليقل ، ومن شاء فليكثر))⁽³⁾.

وعن أبي عبد الله(عليه السلام) قال : ((إذا ذكر النبي صلي الله عليه وآله فأكثروا الصلاة عليه ، فإنه من صلي علي النبي صلاة واحدة صلي الله عليه ألف صلاة في ألف صف من الملائكة ، ولم يبق شيء مما خلقه الله إلا صلي علي العبد لصلاة الله عليه وصلاة ملائكته ، فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور ، قد برئ الله منه ورسوله وأهل بيته))⁽⁴⁾.

وعن رسول الله صلي الله عليه وآله قال : ((الصلاة علي وعلي أهل بيتي تذهب بالنفاق))⁽⁵⁾.

وعن أبي بصير ، عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال : ((إذا ذكر النبي صلي الله عليه وآله فأكثروا الصلاة عليه فإنه من صلي علي النبي صلي الله عليه وآله صلاة واحدة صلي الله عليه ألف صلاة في ألف صف من الملائكة ، ولم يبق شيء مما خلقه الله إلا صلي علي العبد لصلاة الله عليه

ص: 517

1- وسائل الشيعة : ج 7 ص 112 ح 8883 .

2- سورة الأحزاب (33) : الآية 43 .

3- الكافي : ج 2 ص 492 ح 7 .

4- الكافي : ج 2 ص 357 ح 6 .

5- الكافي : ج 2 ص 357 ح 8 .

وصلاة ملائكته ، فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور قد برئ الله منه ورسوله وأهل بيته))[\(1\)](#).

وعن إسحاق بن فروخ مولي آل طلحة قال : قال أبو عبد الله (عليه السلام) : ((يا إسحاق بن فروخ ، من صَلَّى علي محمد وآل محمد عشرًا صَلَّى الله عليه وملائكته مائة مرّة ومن صَلَّى علي محمد وآل محمد مائة مرّة صَلَّى الله عليه وملائكته ألفاً أما تسمع قول الله عزّوجلّ : «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَي النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا»[\(2\)](#)).

الصلوات واستجابة الدعوات

وكذلك فإنّ الصلاة علي الرسول صلي الله عليه وآله هي وسيلة لاستجابة الدعاء بحدّ ذاته هذا وقد ورد في الكثير من الأحاديث ما يحضّر علي بدء كل عمل ودعاء بالصلاة علي الرسول صلي الله عليه وآله .

فقال صلي الله عليه وآله : ((صلاتكم عليّ إجابة لدعائكم ، وزكاة لأعمالكم))[\(3\)](#).

وقال الإمام علي (عليه السلام) : ((لا يزال الدعاء محبوباً حتّي يصلي علي محمد وآل محمد صلي الله عليه وآله))[\(4\)](#).

وقال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((من كانت له إلي الله - عزّوجلّ - حاجة فليبدأ بالصلاة علي محمد وآله ، ثم يسأل حاجته ، ثم يختم بالصلاة علي محمد وآل محمد صلي الله عليه وآله ، فإنّ الله أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط إذ كانت الصلاة علي

ص: 518

1- الكافي : ج2 ص942 ح6 .

2- سورة الأحزاب (33) : الآية 43- الكافي : ج2 ص294 - 293 ح14 .

3- وسائل الشيعة : ج7 ص96 ح8837 .

4- الكافي : ج2 ص491 ح1 .

محمد صلي الله عليه وآله لا تحجب عنه)) (1).

وقد ورد في حديث شريف عن الرسول صلي الله عليه وآله أنه قال : ((البخيل حقاً البخيل ، من إذا ذكرت عنده لم يصلّ عليّ)).

أمّا قوله تسليماً للأوامر والنواهي عملاً وتركاً أي «لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً(2)» فعليهم الإنقياد التام للأوامر التي جاء بها ، وبذل الجهد في الطاعات .

عود علي بدء

وبعد هذا العرض السريع والشامل نعود إلي سؤالنا وهو : كيف نصلي علي النبي ونسلم إليه تسليماً؟

هذا ما علّمناه رسول الله صلي الله عليه وآله وآل بيته الأطهار عليهم السلام في أحاديث كثيرة وطويلة منها :

ما عن الشمالي عن كعب بن عجرة أنه قال : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ قَلْنَا : يَارَسُولَ اللَّهِ هَذَا السَّلَامُ عَلَيْكَ قَدْ عَرَفْنَا ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ ؟

قال صلي الله عليه وآله : ((قولوا : اللهم صلّ علي محمد وآل محمد ، كما صلّيت علي إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وبارك علي محمد وآل محمد ، كما باركت علي إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد)) (3).

وقال عبد الله بن مسعود القارئ المشهور : إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَحْسِنُوا الصَّلَاةَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعَلَّ ذَلِكَ يُعْرَضُ عَلَيْهِ ، قَالُوا : فَعَلَّمْنَا .

ص: 519

1- الكافي : ج2 ص 494 ح 16 .

2- سورة النساء (4) : الآية 65 .

3- مجمع البيان : ج 22 مج 8 ص 179 .

قال : قولوا : ((اللهم اجعل صلاتك ورحمتك وبركاتك علي سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الدين ، وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغطه به الأولون والآخرون ، اللهم صلّ علي محمد وآل محمد ، كما صلّيت علي إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد))⁽¹⁾.

لا تصلّوا عليّ صلاة بتراء

وقبل أن نودّع الحديث - ونحن بشغف له ولأمثاله - نقول : بأنّ هناك صلاة يتداولها الناس بكثرة وهي منهي عنها ، وللأسف نجدها منتشرة كالعادة بين الكثير من المسلمين وهي :

((الصلاة البتراء)).

أي الصلاة علي النبي فقط وعدم إلحاق الآل الكرام عليهم السلام به ، وقد وردت أحاديث كثيرة تنهي عن هذه الصلاة ، فقد قال صلي الله عليه وآله : ((لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء)). فقليل له : وما الصلاة البتراء يارسول الله ؟

قال صلي الله عليه وآله : ((أن تقولوا : اللهم صلّ علي محمد وتصمتوا ، بل قولوا : اللهم صلّ علي محمد وآل محمد كما صلّيت علي إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد))⁽²⁾. وأحاديث هذا الباب كثيرة ، والغريب العجيب أنّ صحيح مسلم يذكر رواية النهي عن الصلاة البتراء ويجعل باباً للصلاة علي النبي ويقول : باب الصلاة علي النبي صلي الله عليه وآله . ونحن نسأله ألم تكن صلاتك هذه بتراء يا شيخنا ؟

ص : 520

1- بحار الأنوار : ج 17 ص 19 .

2- راجع كل من : صحيح البخاري : ج 4 ص 142 رقم 337 ، صحيح مسلم : ج 1 ص 255 رقم 405 و 406 ، سنن الترمذي : ج 5 ص 359 رقم 3234 ، سنن ابن ماجه : ج 1 ص 488 رقم 904 و 906 ، سنن النسائي : ج 3 ص 45 ، سنن أبي داود : ج 1 ص 256 - 255 .

(65) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» (سورة الأحزاب : 69)

في رحاب المفردات

آذوا : الأذي هو ما يصل إلي الشيء من الضرر إما في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيوياً كان أو أخروياً ، قال الله تعالى : «وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ(1)».

فبرّاه : أصل البراء والتبرّي هو التفصّي ممّا يكره مجاورته ، ولذلك يقال : أبرأته من كذا ، ورجل بريء وقوم براء وبريئون ، قال عزّوجلّ : «بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ(2)».

وجيهاً : يقال فلان وجيه أي ذو جاه ، قال الله تعالى : «وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا

ص: 521

1- سورة التوبة (9) : الآية 61) مفردات الراغب : ص 11 .

2- سورة التوبة (9) : الآية 1) مفردات الراغب : ص 38 .

شأن النزول

عن محمد بن مروان رفعه إليهم قال : ((بأيتها الذين آمنوا لا تؤذوا رسول الله في علي والأئمة صلوات الله عليهم كما آذوا موسى فبرأه الله ممّا قالوا)) (2).

عبر من الآية

لقد أؤذي النبي صلي الله عليه وآله حتي قال : ((ما أؤذي نبي مثل ما أؤذيت)) (3).

وحقّ النبي أن يعظّم ويبجل لا أن يؤذي ، وهذا حق كل نبي فما بال أنبياء ورسول أولي العزم الخمسة الكرام عليهم السلام الذين أؤذوا أكثر من غيرهم؟!

والسؤال الذي يطرح هنا هو : كيف وبماذا أؤذي الأنبياء؟

الجواب : إنّ المصلحين الذين يحملون رسالة تغييرية - لا سيّما الإلهي منها لأنها تستعصي علي الإنحراف - أصحابها يتعرّضون عادةً للأذي الشديد وذلك من جهات عدّة وبأشكال متعدّدة ، ومن مختلف طبقات الناس .

وحتّي يتّضح المطلوب لا بأس من التطرّق إلي الجهات التي آذت الرسول

ص : 522

1- سورة آل عمران (3) : الآية 45) مفردات الراغب : ص 551 .

2- تفسير القمّي : ج 2 ص 197 .

3- مناقب آل أبي طالب : ج 3 ص 247 .

الأعظم صلي الله عليه وآله وكيف أُنْهت تحاربه وتجيّش ضدّه الجيوش ليل نهار ، فمن هذه الفئات التي حاربته صلي الله عليه وآله هم :

1 - الكافرون ((الجاحدون والمشركون)).

وهؤلاء : هم الذين رفضوا الرسالة الجديدة ، ورفضوا الإيمان بتعاليمها ، والتسليم لتوجيهات الرسول القائد - عليه الصلاة والسلام - وراحوا يحاربونها محاربة النّدّ للنّدّ ، والعدو للعدو ، إذ أنّهم يرون فيها تهديداً لمصالحهم وخطراً عليها ، خاصة ذوي النفوذ والسلطة .

من جانب آخر فهم رأوا في العقيدة الجديدة خطراً داهماً يريد أن ينسف عقائدهم وموروثاتهم الدينية فضلاً عن عاداتهم وتقاليدهم التي أخذوها أباً عن جدّ ، بل إنّ في هذه الرسالة تغيير صبغة المجتمع كلّه إلي ما يطابق ويوافق التعاليم المنزلة فيها ، كتحرّيم الكثير من المأكولات والمشروبات ، وفرض الكثير من العبادات والطاعات كالصلاة والصيام والزكاة والجهاد .

مضايقات أصحاب الرسالة

من جرّاء هذه القضايا الخطيرة وغيرها ، وقف المشركون في وجه الرسالة الإسلامية بكل عناد وأخذوا يحاربون رسول الله صلي الله عليه وآله بأشدّ العناد ، فاتّهموه بالكثير من التهم الباطلة فقالوا عنه : مارق أو صابئ .

وقالوا عنه : ساحر ، ومجنون ، أو أنّه ((معلّم مجنون)).

وعذبوا أصحابه الأوائل من المؤمنين به وبرسالته أشدّ تعذيب حتى أنه قتل بعضهم تحت السياط ، كياسر وزوجته سمية ((أبوي عمّار)) اللذين قتلوا تحت التعذيب

وهما يقولان : أحد أحد لا إله إلا الله ، محمّد رسول الله صلي الله عليه وآله فقتلهما أبو جهل .

ناهيك عن بلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي ، وعمّار بن ياسر ، وجندب بن جنادة (أبو ذرّ الغفاري) وبقية الأصحاب الكرام الذي لاقوا أشدّ العذاب والحال إنهم يقولون ربّنا الله ورسولنا محمد صلي الله عليه وآله .

وقد بقي المشركون يؤذون الرسول صلي الله عليه وآله حتي اضطرّوه لالتجاء إلي شعب أبي طالب (عليه السلام) ذاك البطل الذي ما بخل علي الرسالة ولم يعزّ علي الرسول بشيء أبداً ، بل جعل كل ما لديه تحت خدمة الإسلام ورسوله الكريم صلي الله عليه وآله فهو من الذين ((أووا ونصروا)) أو من أوائلهم .

وقد آذوه فيه - أبو طالب - إذ أنّهم إلي الآن يروون أحاديث عنه صلي الله عليه وآله في أنه لم يستطع أن يشفع له بل إنّ الله يضعه في ضحضاح من جهنّم ، أو أنه في جهنّم خالداً ، لأنّه مات كافراً أو مشركاً - والعياذ بالله - والحال أنّه كان من كبار المؤمنين حقّاً (1).

وقد مكث الرسول صلي الله عليه وآله في الشعب ثلاثة سنين تقريباً ، وبعد العودة إلي مكّة خسر في عام واحد زوجته الموسوية أم المؤمنين الأولي خديجة بنت خويلد ، وعمّه أبو طالب - ناصره وحاميه - فأطلق الرسول صلي الله عليه وآله علي ذلك العام بعام الحزن حيث قلّ النصير ، وطمع العدو الحقيير .

فأمره الله - سبحانه - بالهجرة إلي مدينة - يثرب - وما أن استقرّ بها حتي راحوا يشنون الحروب والغارات ضدّه واحدة تلو الأخرى ، ولا هدف لهم فيها إلاّ استئصال الإسلام من الأرض ، وقتل الرسول محمد صلي الله عليه وآله فأخزاهم الله في ((بدر ،

ص: 524

1- راجع بحار الأنوار : ج35 ص110 ح41 ، وإيمان أبي طالب : ص77 ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج14 ص68 ، كنز الفوائد : ج1 ص183 .

وأحد، والأحزاب)).

بل نصره الله في جميعها وتوج نصره له بالحديبية، وفتح مكة في نهاية المطاف وأسرههم جميعاً في ساحة الكعبة المشرفة بعد أن كسّر الأصنام كلّها وقال لهم: ماذا ترون أنّي فاعل بكم؟

فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.

فقال صلي الله عليه وآله: اذهبوا فأنتم الطلقاء(1).

2- المنافقون: وهؤلاء أشدّ خطراً - علي أي حركة - من غيرهم، وذلك لأنهم يندسّون مع أعضاء وعناصر الحركة الرسالية، ويتقصّون الأخبار، ويتتبعون القيادات، ويختلسون الكلمات ويرسلون كل ذلك إلي الأعداء.

فالمنافق: هو الذي أسلم في الظاهر إلّا أنّه في المضمون والجوهر كافر، فهو يقرّ بالشهادة لقلقه إلّا أنّ قلبه مليء بالحقد والحسد والخصومة، وهو ينتظر أي فرصة سانحة لكي يوقع بأعضاء الحركة، حيث يتخلّي عنها في أحلك الظروف عندما تكون في أشدّ الحاجة إليه وإلي أمثاله.

ولذلك يقول أمير المؤمنين(عليه السلام): لقد سمعت رسول الله صلي الله عليه وآله يقول: ((إني لا أخاف علي أمّتي مؤمناً ولا مشركاً، أمّا المؤمن فيمنعه الله بإيمانه وأمّا المشرك فيخزيه الله بشركه ولكنني أخاف عليكم كل منافق عالم اللسان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون)) (2).

وقد حدث ذلك فعلاً حيث إنّ المنافقين فرّوا عن الرسول صلي الله عليه وآله يوم غزوة أحد،

ص: 525

1- بحار الأنوار: ج 21 ص 132.

2- سفينة البحار: ج 8 ص 308.

وتخاذلوا كذلك يوم الأحزاب حيث قال تعالى: «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَ(1)»، وفي حنين وخيبر، وفي الكثير من المواقع هربوا وتركوا رسول الله صلي الله عليه وآله وحيداً مع بعض أهل بيته الكرام، وأصحابه المخلصين.

فلم يبق معه صلي الله عليه وآله في غزوة حنين إلا تسعة من الهاشميين وأيمن ابن أم أيمن فقط لا غير كما يذكر ذلك التاريخ(2).

القرآن يفضح المنافقين

وقد فضح القرآن الكريم المنافقين في سورة المنافقون والتوبة كذلك فضلاً عن سائر الآيات والأحاديث النبوية الشريفة، وما قصة مسجد ضرار الذي ذكرها القرآن الكريم إلا واحدة من عشرات القصص.

فلما بني رسول الله صلي الله عليه وآله مسجد قباء خرج جماعة من المنافقين وبنوا مسجداً يضاهئون به مسجد قباء، وكان الحامل لهم علي بنائه أن يجعلوا أبا عامر الراهب إماماً فيه، وكان أبو عامر الراهب هذا قد خرج من المدينة محارباً لله ورسوله.

وقبل أن يخرج قال لقومه: ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلي قيصر ملك الروم فأتي بجند من الروم لأخرج به محمداً وأصحابه من المدينة فلما فرغوا من بناء المسجد ذهبوا إلي رسول الله صلي الله عليه وآله وهو يتهجز لغزوة تبوك فقالوا يارسول الله إئتنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية المطيرة، ووالله ما أردنا بنائه إلا الحسني وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه وتدعونا

ص: 526

1- سورة الأحزاب (33): الآية 10.

2- بحار الأنوار: ج 21 ص 156 - 155 ح 6.

فيه بالبركة ، وكانوا يقصدون من صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحتجوا عليه بتقريره إياه لهم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : إني علي جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فأصلي لكم فيه .

فلما رجع من غزوة تبوك نزل بذي أوان - بلد علي ساعة من المدينة - فأتاه خبر المسجد وأنزل الله فيه «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(1)».

فأمر الرسول صلى الله عليه وآله بعض أصحابه وقال لهم : ((انطلقوا إلي المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا ، وكان ذلك قبل مقدمه المدينة)) (2).

فخطر المنافق كبير وخطير جداً علي الرسالة والرسول صلى الله عليه وآله لذلك حذر منهم القرآن الكريم والرسول العظيم صلى الله عليه وآله لأنهم أساس الفساد في المجتمع دائماً وأبداً .

فالمنافق لا تهمة الرسالة في شيء ، بل همّة منحصر في مصالحه الشخصية ، فهو كالعقرب التي لا تستطيع أن تسير إلا إذا كانت شوكتها أمامها تضرب بها الأخضر واليابس دون وعي أو إدراك .

فلربما كان الكثير من المنافقين كذلك ، أي أنهم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وآله فقط وليقال بأن فلان عارض أو ناقش رسول الله صلى الله عليه وآله .

ومنهم من كان يعمل لمصلحة خارجية وجهات معادية كما هو واضح في قصة

ص: 527

1- سورة التوبة (9) : الآية 107 .

2- عوالي اللآلي : ج2 ص32 ح 81 .

مسجد ضرار ، أي يكون ((جاسوساً)) بين صفوف المسلمين ينقل الأخبار والمواقف إلي العدو ، ويبت الشائعات ليثبط عزائم جيش المسلمين ، وبالتالي تختل الجبهة الداخلية ، ويضعف تماسك الأمة كلها .

3 - المؤمنون : أو المسلمون :

وهؤلاء رغم أنهم مسلمون إلا أنّ حداثة الإيمان في قلوبهم ، وعدم نفوذه واستقراره في قلوبهم جعلهم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وآله بقصد أو دونه ، بل عن عدم رويته ، وهي أمور نابعة من تربيتهم السيئة ، وأخلاقهم الرديئة ، وطباعهم الفظة الغليظة .

فمثلاً كان البعض منهم ينادونه من وراء الحجرات ، ومنهم من قالوا عنه أنه ((جاسوس)) أو أولئك الذين اتّهموا إحدي نسائه بالفاحشة - والعياذ بالله - بقصة الإفك المشهورة والمذكورة في سورة النور المباركة ، فبرّاه الله منها تماماً وأظهر كذب القائلين (1).

كما أنّهم اعترضوا عليه حتي في زواجه من زينب بنت جحش وقد زوجه الله تعالى بها بقوله : «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا (2)» .

إيذاء الرسول صلى الله عليه وآله في أهل بيته عليهم السلام

ولم يقتصر أولئك علي أذية الرسول صلى الله عليه وآله في حياته بالكثير من المواقف وإنما أخذوا يؤذونه بعد انتقاله من خلال أذية ذريته الطاهرة ، لا سيما فاطمة الزهراء عليها السلام

ص: 528

1- للإطلاع علي قضية الإفك راجع تفسير القمّي : ج 2 ص 99 تحت عنوان «الإفك علي مارية» .

2- سورة الأحزاب (33) : الآية 39 .

سَيِّدَةَ نَسَاءِ الْعَالَمِينَ وَزَوْجَهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَإِبْنَاهُمَا الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَسَبْطَا نَبِيِّهَا إِذْ أَنْتَهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَتَلُوا جَمِيعاً عَلَيَّ أَيَادِي هَذِهِ الْأُمَّةِ .

هَذَا فَضْلاً عَنْ بَقِيَّةِ الذَّرِيَّةِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي شَتَّتْ وَمَزَّقَتْ وَوَزَّعَتْ تَحْتَ كُلِّ شَجَرٍ وَمَدْرٍ عَلَيَّ وَجِهَ الْأَرْضِ وَالْمَزَارَاتِ فِي الْعَالَمِ الْيَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيَّ ذَلِكَ ، فَلَا تَكَادُ تَرِي أَوْ تَسْمَعُ بِبَقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا وَفِيهَا مَزَاراً مَعْرُوفاً أَوْ مَجْهُولاً لِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

بَيْنَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ

خِلَاصَةُ الْقَوْلِ : إِنَّ الْآيَةَ الْمُبَارَكَةَ تَنْهِي الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أُذْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا آذَى بَنُو إِسْرَائِيلَ نَبِيَّهِمْ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ الْكَلِيمِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) حَيْثُ قَالُوا فِيهِ : أَنَّهُ قَتَلَ هَارُونَ أَخَاهُ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ مَا لِلرِّجَالِ ، وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ بِمُوسَى لِكَيْ تَقْذِفَ مُوسَى نَبِيَّ اللَّهِ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) إِلَّا أَنِّي أَشْعُرُ - وَأَكَادُ أَجْزِمُ - أَنَّ أَكْبَرَ أُذْيَةِ لِنَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كَانَتْ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَتَرْكِهِمْ لِهَارُونَ وَحِيداً .

فَهُمُ الَّذِينَ لَمَّا اجْتَاَزَ بِهِمُ الْبَحْرَ وَجَدُوا أَنْسَاءً يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ قَالُوا : اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَالْهَيْتِهِمْ ، فَهَذَا هُوَ مِنْ أَصْعَبِ الْأُذْيَةِ لِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

وَكَذَلِكَ فَعَلَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِهَارُونِهَا الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي حَقِّهِ : ((يَاعَلِي أَنْتَ مَنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي)) (1).

وَقَدْ قِيلَ عَنْ لِسَانِ الزُّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ :

ص : 529

1- راجع كل من : تاريخ دمشق ج 1 ص 334 رقم 403 ، مجمع الزوائد : ج 9 ص 110 ، أسني المطالب : الباب السادس : ص 29 رقم 23 ، مطالب السؤول : ص 43 ، كفاية الطالب : ص 11 ، منتخب كنز العمال هامش مسند أحمد : ج 5 ص 31 .

أبتاه هذا السامري وعجله

تبعاً ومال الناس عن هارون

فأكبر أذي يلحق صاحب الرسالة عندما يري رسالته ترك ويلتفّ عليها ويطرد عن قيادتها وصيّيه عليه أفضل الصلاة والسلام .

ص: 530

إشارة

(66) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا» (سورة الأحزاب : 70)

في رحاب المفردات

اتَّقُوا: التقوي جعل النفس في وقاية ممّا يخاف ، هذا تحقيقه ، ثمّ يسمّي الخوف تارة تقوي ... وصار التقوي في تعاريف الشرع حفظ النفس عمّا يؤثم ، وذلك بترك المحظور(1).

سديداً: السداد والسّد الاستقامة(2).

شأن النزول

أخرج علامة الشافعية محمد بن أحمد بن عثمان (الذهبي) في ميزانه عن عكرمة عن ابن عباس قال سمعته يقول : ((ما نزلت آية فيها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا وعلي رأسها وأميرها وشريفها ، ولقد عاتب الله عزّوجلّ أصحاب محمد صلي الله عليه وآله في غير آية

ص: 531

1- مفردات الراغب : ص 568 .

2- مفردات الراغب : ص 233 .

من القرآن وما ذكر علياً إلا بخير)) (1).

عبر من الآية

مقدمة لابد من معرفة القول السديد : فهو كما قال شيخ المفسرين الطبرسي : الذي يكون صواباً بريئاً من الفساد ، خالصاً من شائبة الكذب واللغو ، موافق للظاهر والباطن (2).

أي إنه القول الصادق الموافق للحق والواقع ، فلا يكون فيه كذب أو لغو أو إيذاء أو فساد أو ما أشبه ذلك من آفات اللسان المعروفة عند العلماء .

وهذه الآية الكريمة تلقي الضوء علي مشكلة اجتماعية عظيمة وهي مشكلة ((الذين يلقون الكلام علي عواهنه)) دون أي تفكير أو تدبير ، ولا يتقون الله - تعالي - في ذلك أبداً ، مما يسبب الكثير من الإشكالات الاجتماعية ، وتأجيج الخبايا منها بالذات ، وتسعير المشتعل .

فكم من الفتن الاجتماعية تولدت علي أثر كلمة ، بل ربما تولدت الحروب ولأن الشائعات الباطلة قد تتلاقفها الألسن (وتنقلها بسرعة) ولذلك فقد دعا الله المؤمنين إلي الكلمة الصالحة ، وإلي تحمّل مسؤولية الكلام ، ولا يتم ذلك إلا بالتفكير الجيد والاستقراء المنطقي ، وقبل ذلك كله بتقوي الله ، لأن التقوي تصنع في النفس نوعاً من الرقابة الذاتية والمحاسبة ، فالمتقي يخشي من اتهام الآخرين ، ومن المشي بالغيبة والنميمة والبهتان ، وما شابه ذلك من الأمور .

ص: 532

1- ميزان الاعتدال : ج3 ص311 .

2- مجمع البيان : ج22 مج8 ص185 .

وبطبيعة الحال إنّ القول لا- يكون سديداً حتى يكون سليماً صادقاً، وفي وقته المناسب، ولا يكون كذلك إلا بالتفكير والنظر إلى الواقع والمستقبل، ولعلّ الذي يميّز المؤمن عن المنافق أنّ المؤمن يتحمّل مسؤولية كلامه، فهو يفكر كثيراً قبل الكلام، بينما المنافق يبادر بالحديث دون رويّة فيبتلي بالكلام وكما عن أمير المؤمنين: ((إنّ لسان المؤمن من وراء قلبه، وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه))⁽¹⁾.

وقال أمير المؤمنين(عليه السلام) في أبيات نسبت إليه :

فزن الكلام إذا نطقت ولا تكن

ثرثارة فيما تقول وتكتب

وقد أحصي بعض العلماء الأعلام في كتبهم أكثر من ثلاثين (آفة من آفات اللسان).

وقد ورد عن الإمام الصادق(عليه السلام) نصيحته إلى عبّاد بن كثير البصري الصوفي فقال فيها: ((ويحك يا عبّاد، غرّك أن عفت بطنك وفرجك؟ إنّ الله - عزّوجلّ يقول في كتابه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً»⁽²⁾. اعلم أنّه لا يقبل الله عزّوجلّ منك شيئاً حتّى تقول قولاً عدلاً.

وقد ورد في بعض التفاسير أنّ ((قولاً سديداً)) هي الشهادة ((أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله صلي الله عليه وآله)) دون غيرها لأنّها من أسدّد الكلام مطلقاً.

فعلي الإنسان المؤمن أن يتّقي الله سبحانه وتعالى في كل حركاته وخلجاته، لا- سيّما في لسانه، وقلبه، واللسان أولاً لأنّه مفتاح هامّ وأساسي من مفاتيح القلب.

ص: 533

1- نهج البلاغة : خ176 في نصائح للناس .

2- سورة الأحزاب (33) : الآية (70) الكافي : ج8 ص92 ح81 .

أهل البيت عليهم السلام والدعوة إلي حفظ اللسان

وقد أكد الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام بشدة علي حفظ اللسان إلا في طاعة الله ولزوم الصمت في قبال المحرمات .

فعن رسول الله صلي الله عليه وآله : ((من صمت نجاً))⁽¹⁾.

وقال صلي الله عليه وآله : ((أمسك لسانك فإنها صدقة تصدق بها علي نفسك)) ، ثم قال صلي الله عليه وآله : ((ولا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتي يحرس لسانه))⁽²⁾.

ومرّ أمير المؤمنين (عليه السلام) برجل يتكلم بفضول الكلام فوقف (عليه السلام) وقال : ((يا هذا فإنك تملي علي حافظيك كتاباً إلي ربك ، فتكلم بما يعينك ودع ما لا يعينك))⁽³⁾.

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((المرء مخبوء تحت لسانه))⁽⁴⁾.

وعن أبي علي الجوّاني قال : شهدت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول لمولي له يقال له سالم ووضع يده علي شفتيه وقال : ((ياسالم احفظ لسانك تسلم ولا تحمل الناس علي رقابنا))⁽⁵⁾.

وعن قيس أبي إسماعيل قال : جاء رجل إلي النبي صلي الله عليه وآله فقال : يارسول الله أوصني ، فقال : ((احفظ لسانك)) ، قال : يارسول الله أوصني ، قال : ((احفظ لسانك)) ، قال : يارسول الله أوصني ، ويحك وهل يكبّ

ص: 534

1- وسائل الشيعة : ج 12 ص 251 ح 16228 .

2- الكافي : ج 2 ص 114 ح 7 .

3- من لا يحضره الفقيه : ج 4 ص 396 ح 5841 .

4- نهج البلاغة : ق 148 .

5- الكافي : ج 2 ص 113 ح 3 .

الناس علي مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»(1).

ولا يخفي فإن آفات اللسان كثيرة منها : الخطأ والكذب ، والغيبة غير المأذون فيهما ، والنميمة ، والفحش ، والمراء ، والفضول ، والخوض في الباطل ، والتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، وإيذاء الخلق ، وهتك العورة ، وإفشاء السرّ ، والسخرية والاستهزاء ، وغير ذلك .

من هنا فقد عظم فضل الصمت مع ما فيه من جمع الهَمِّ ، ودوام الوقار والفراغ في الفكر والذكاء والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة لأنّ الله تعالى قال : «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(2)».

عاقبة التزام القول السديد

أما نتائج الالتزام بالقول السديد المعزّز بتقوي الله تعالى فهي ؟

1 - إصلاح الأعمال : وهي تفضّل ورحمة من الله بأن يتلطف علي العبد بالطف خاصة فتستقيم أعماله وتصطلح شؤونه كلّها ، لأنّ بداية كل (ملكة) في الإنسان هي (الحركة) والعمل .

فالإنسان يولد بلا ملكات ، أو أنّها تكون ضعيفة ومختفية وغير ظاهرة للعيان أبداً ، وكلّما مارس الإنسان الأعمال قويت تلك الملكات ، أو ضعفت ، فالإنسان كلّما تعوّد وأعطى الفقراء كلّما قويت لديه ملكة (الكرم والجود) (وكذلك) العطف والحنان .

والعكس كذلك صحيح ، فكلّما منع ضعفت فيه تلك الملكة الخيرة .

ص: 535

1- الكافي : ج2 ص115 ح14 .

2- سورة ق (50) : الآية 18 .

وبعبارة أخرى كلما واطب الإنسان علي أفعاله (الخيرة) وأقواله (السديدة الصحيحة) حصلت فيه ملكات الخير ، وأفضلهنّ ملكة التقوي ، فتستقيم أعماله ، وتصلح حياته ويسدده مولاه - سبحانه - إلي ما فيه خيره وصلاحه في الدنيا والآخرة ويجنبه المفسد كلها .

2 - غفران الذنوب ، هذا في الدار الآخرة حيث إنّ الله سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء فقد قال تعالي : «إنّ الحسّنات يذهبن السيئات (1)» فعلي الإنسان المؤمن أن يكثر من الحسنات وإلا فإن السيئات تتراكم بلا انتباه فتكون كالجبل علي عاتق صاحبها .

وقد نفهم كذلك من (إصلاح الأعمال) أنّ المراد ترميمها يوم القيامة بحيث إذا كانت هناك صلاة ناقصة ، أو خلل في صوم ، أو تراكم زكاة ، أو إهمال في خمس ، أو خوف وتهرب من الجهاد أو غير ذلك فيجبرها الله سبحانه وتعاللي لنا ، فتكتب لنا لا علينا .

وقد ورد عن الأئمة الأطهار عليهم السلام العديد من الروايات الناصّة علي هذا وذلك عند تجسيد الأعمال في الدار الآخرة .

إذن إنّ تفضّل الله سبحانه وتعاللي علينا إذا ما اتّقينا وقلنا قولاً سديداً ، فإنّه يصلح لنا أعمالنا ويغفر لنا ذنوبنا وهو الغفور الرحيم .

ص: 536

(67) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» (سورة محمد : 7)

في رحاب المفردات

تنصروا : النصر والنصرة هي العون ، قال تعالى : «إِن يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ (1)» ، ونصرة الله للعبد ظاهرة ، ونصرة العبد لله هو نصرته لعباده والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده واعتناق أحكامه واجتناب نهيه (2).

يثبت : الثبات ضد الزوال يقال ثبت يثبت ثباتاً ، قال الله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا (3)».

ص: 537

1- سورة آل عمران (3) : الآية 160 .

2- مفردات الراغب : ص 516 .

3- سورة الأنفال (8) : الآية 45) مفردات الراغب : ص 74 .

شأن النزول

روي الحافظ الأصبهاني أبو نعيم في حليته عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : ((ما أنزل الله آية فيها «يا أيها الذين آمنوا» إلا وعلي رأسها وأميرها)) (1).

عبر من الآية

العديد من الناس عندما يقرأون آيات القرآن الكريم يراودهم السؤال التالي وهو : لماذا يؤكد القرآن الكريم علي مسألة الجهاد ؟

الجواب : كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : لأنَّ ((الجهاد باب من أبواب الجنة ، افتتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوي ودرع الله الحصينة ، فمن تركه رغبة عنه ، ألبسه الله الذل)) (2).

ولأنَّ الجهاد عزَّ الإسلام وسنانه .

والجهاد لغة : هو بذل الجهد أو أقصى ما يمكن من الجهد من أجل القضية المجاهد من أجلها ، وله عندنا في الإسلام معنيان وهما :

1 - الجهاد الأكبر : والذي يعني جهاد النفس لتزكيتها .

2 - الجهاد الأصغر : وهو جهاد العدو في ساحات القتال ، وفي ميادين النضال الحياتية كافة .

ص: 538

1- حلية الأولياء : ج 1 ص 64 .

2- نهج البلاغة : خ 27 في فضل الجهاد .

وكلا المعنيين وردا في الحديث الشريف ، فقد نقل أن رسول الله صلى الله عليه وآله استقبل قوماً من أصحابه وهم قادمون من غزوة غزوها فقال لهم : ((مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر)).

فقالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟

فقال صلى الله عليه وآله : ((هو جهاد النفس)) (1).

فالجهاد والقتال في الإسلام حالة استثنائية تفرضها الظروف الخارجية عليه ، وإلا فإنه - الإسلام - يدعو إلى المحبة والسلام في جميع أمور الحياة ومع كل الملل والطوائف ، أما إذا تعرّضت بيضة الإسلام للخطر أو تعرّضت الأمة الإسلامية إلى هجوم معادي ، فهل يكون ساكتين ساكتين ؟ وإن بقوا كذلك هل يمكن أن تبقى أمة من الأمم هكذا دون دفاع عن ذاتها ومصالحها وشعبها وقيمها ؟

بالتأكيد لا يمكن ذلك ، فعلي الإنسان كحالة طبيعية أن يردّ الاعتداء ، ولذلك خلق الله له القوة وأعطاه العقل والتفكير لكي يصنع السلاح ليدافع عن نفسه به ، فالشرّ يجب أن يقابل بشرّ مثله لكي يردّه إلى الصواب ، والمعادلة الفيزيائية تقول : إنّ أي فعل هو بحاجة إلى ردّ فعل مساوي ومعاكس له ليستطيع الصمود .

وقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((رُدُّوا الحجر حيث جاء فإنّ الشرّ لا يدفعه إلا الشرّ)) (2).

فجهادنا لردّ الاعتداء علينا ، أو لإبلاغ الناس والأمم عن أفكارنا وعقائدنا وديننا الحنيف علّنا نخرجهم من الظلمات إلى النور ، فمن قبلنا فأهلاً وسهلاً ... له ما

ص: 539

1- الكافي : ج 5 ص 9 ح 3 .

2- نهج البلاغة : ق 314 .

لنا وعليه ما علينا ، ومن صدّ منّا فالقتال بيننا وبينه وعليهم من ثم دفع الجزية عن يد وهم صاغرون وليعبدوا ما شاؤوا من عبادات أتاح الإسلام لهم التعبّد بها .

ولذلك فآية البحث تقول : «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ(1)» وربما يتسائل البعض هنا قائلاً : كيف يمكن أن نصر الله ؟

الجواب : من الواضح أنّ الله - سبحانه - ليس عاجزاً بل هو «ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(2)» الذي لا يقوم أمامه شيء ، علي الإطلاق حيث إنّ القدرة الإلهية والقوة الربّانية قدرة مطلقة (لا متناهية) فكيف نصر الله - إذن - ونحن الضعفاء جداً ؟

إنّ نصر الله تعالي تكون بنصر دينه ، ونصرة نبيّه ورسوله ، والانتصار إلي الرسالة التي جاء بها الرسول صلي الله عليه وآله من عنده ، وهي عائدة بالفائدة لنا جميعاً (كآدميين) لأنّ الله هو الغني الحميد عن الخلق جميعاً وعباداتهم وأرزاقهم وكلّ أحوالهم ، ولكن عندما يلتزموا بمناهج ووسائل السماء فإنّهم يعيشون بسعادة لا توصف وبأناة لا تصدق وباطمئنان وأمن كاملين .

وهذا التعبير هو تعبير عظيم يتضمّن الكثير من المعاني ، وهو يدلّ علي عظمة الجهاد في سبيل الله تعالي ، وهذا نظير قوله تعالي : «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ(3)» فهل أنّ الله سبحانه بحاجة إلي المال ؟ أم أنّ الفقراء والمحتاجين واليتامي والمساكين من بني البشر هم المحتاجون له ؟

فنصرنا لله : هو بالعبادة الكاملة له ، والطاعة التامة لرسوله ووليّه ، والالتزام

ص: 540

1- سورة محمّد (47) : الآية 7 .

2- سورة الذاريات (51) : الآية 58 .

3- سورة البقرة (2) : الآية 245 .

الكلّي بمناهجه الحياتية .

وقد أشار أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى ذلك فقال : ((وخذوا من أجسادكم فجدودوا بها علي أنفسكم ولا تبخلوا بها عنها ، فقد قال الله سبحانه : «إِنْ تَصْرَبُوا لِلَّهِ يُنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» فلم يستنصركم من ذلّ وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً وبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره))⁽¹⁾.

أما كيفية نصر الله لنا فهو علي غرار قوله تعالي في الآية المباركة حيث قال عزّوجلّ : «يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»⁽²⁾ » وكقوله تعالي : «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ»⁽³⁾.

وقوله تعالي : «اذْكُرُونِي أَذْكَرْكُمْ»⁽⁴⁾.

وقوله تعالي : «أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ»⁽⁵⁾.

إذن إنّ الله وعدنا بأن ينصرنا الله ويثبت أقدامنا ؟ وهو لا يخلف الميعاد .

طرق النصر الإلهي

أما كيفية نصره الله تعالي لنا فقد قيل إنّها تتحقّق في وجهين إثنين وهما :

1 - عبر المعادلات الغيبية : حيث إنّ أزمة الكون كلّها بيد الله سبحانه ، وكما

ص: 541

1- نهج البلاغة : خ 183 في قدرة الله وفضل القرآن .

2- سورة محمّد (47) : الآية 7 .

3- سورة إبراهيم (14) : الآية 7 .

4- سورة البقرة (2) : الآية 152 .

5- سورة البقرة (2) : الآية 40 .

قال تعالى : «وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ(1)» وما نراه من (عالم الشهود (لا- يمثل كل شيء في (الوجود) بل هو جزء بسيط فقط من (الوجود) الكلي .

والجزء الغائب هو الجزء الأعظم ويمثله (عالم الغيب) فينصر الله عباده المؤمنين بمعادلات غيبية لا يمكن للإنسان العادي استيعابها في معظم الأحيان .

كما نصر الله رسوله والمؤمنين في غزوة بدر الكبرى (حيث أمدهم بالملائكة حين كانوا) أذلة (فأعزهم الله ونصرهم رغم كل المعادلات الظاهرية التي كانت ضدهم .

وفي غزوة أحد كذلك نصرهم الله تعالى علي عدوهم عندما كانوا ملتزمين بأوامر وقرارات القائد الأعلى ولكن عندما تخاذلوا وبهرهم بريق الغنائم وتركوا أماكنهم خسروا وفرّوا وقتل الكثير منهم ، ورغم ذلك فقد نصر الله سبحانه رسوله وأركس عدوّه .

وفي غزوة الأحزاب التي اشترك فيها الريح والحصي والرمال بتوجيهه وتديبر من الملائكة الكرام عليهم السلام حتي نصرهم الله تعالى ، وعندما اجتاز عمرو بن عبد ود الخندق ، أيّد الله رسوله صلي الله عليه وآله بأمر المؤمنين (عليه السلام) فقتله شرّ قتلة وهرب الباقي ورجعوا من حيث أتوا .

2- عبر المعادلات الطبيعية : حيث إنّ الإيمان بالله تعالى ورسوله وكتبه واليوم الآخر يمنح قلب المؤمن قوّة عالية ، وإرادة وتصميماً نافذاً ، فترفع معنويات الإنسان المقاتل ، وتتماسك أعصابه فيقوي عند المواجهة .

ومن الواضح أنّ الإنسان الذي يعلم أنّ الله معه ، أو أنّ مصيره سيكون إلي

ص: 542

1- سورة الزمر (39) : الآية 67 .

الجنة إذا قتل ، وأنه بين إحدى الحسنين ((إما النصر وإما الشهادة)) فإنه يكون أقوى جنائماً من الإنسان الذي يري نفسه وحيداً في الميدان ، فإن مات فهو الفناء ، فتذهب لذائد الدنيا ومتعتها وإن جرح تشوه وأصبح سبّة وإن قطع منه عضو يصبح منبوذاً في مجتمعه ، وهكذا فيعيش المقاتل القلق علي نفسه ، ولا يحسب أي حساب آخر .

أمّا المؤمنون فإنهم ((يرجون من الله ما لا يرجوه)) الآخرون فيزدادوا قوة علي قوتهم ، وثباتاً علي موقفهم ، فكان الواحد منهم يغلب مئتين من الأعداء أو أكثر .

ولعلّ خير مصداق لهؤلاء المؤمنين الواثقين بالله وبقضائه هم أنصار الإمام الحسين(عليه السلام) الذين خلعوا الدروع وألقوها جانباً وراح كل واحد منهم يكرّر علي ثلاثين ألف اجتمعوا لقتالهم فيطاردهم المئات فتفرّ من أمامه كفرار المعزي .

فهذا عابس بن شبيب راح يلقي درعه وعتاده وسط الميدان ولما قيل له : أجننت يا عابس ؟ قال : نعم ، حبّ الحسين أجنّني .

أجل ، هكذا تفعل العقيدة بأصحابها فتجعل قلوبهم والهة ، وأفئدتهم عاشقة بحبّ الله ومن يوصلهم إلي الله فتتهون عليهم نفوسهم .

فالثبات علي الموقف ، وتثبيت الأقدام علي الأرض ، كل ذلك ضروري للمقاتل عند المواجهة ... فيبدو وكأنه واقف علي أرض صلبة وعزيمة لا- تلين ، ففي الآية الشريفة جاء : «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَدِّ بَرًا وَتَبَّتْ أَعْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَي الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(1)» .

فما النصر إلا من عند الله ، سواء أكان بمعادلات الغيب أم قضايا الشهود

ص: 543

والحضور ، فمجري الأُمور هو بيد الله - تعالى - وهو يأتي بالنصر حيث يوشك أن ييأس المؤمنون وإلي ذلك يشير قوله تعالى : «حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ(1)».

فعلي الإنسان المؤمن أن يكون بهذا المستوي من الثبات واليقين حتي ينزل الله تعالى نصره علي عباده المؤمنين .

ص: 544

1- سورة البقرة (2) : الآية 214 .

(68) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» (سورة محمد : 33)

في رحاب المفردات

أطيعوا : الطوع الانقياد ويُضادّه الكره .. والطاعة مثله لكن أكثر ما تقال في الائتثار لما أمر والارتسام فيما رسم(1).

الرسول : أصل الرّسل الانبعث علي التّودة ويقال ناقة رَسَلَةٌ سهلة السير وإبل مراسيل منبعثة انبعثاً سهلاً ، ومنه الرسول المنبعث وتصوّر منه تارة الرّفق فليل علي رسلك إذا أمرته بالرفق ، وتارة الانبعث فاشتقّ منه الرسول(2).

ص: 545

1- مفردات الراغب : ص 318 .

2- مفردات الراغب : ص 201 - 200 .

شأن النزول

عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((من قال سبحان الله غرس له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة ومن قال : لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنة)) فقال رجل من قريش : يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير ؟ قال : ((نعم ، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقونها ، وذلك أن الله عز وجل يقول : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» (1)).

عبر من الآية

كثيرة هي الآيات القرآنية التي تقرن طاعة الله تعالى وعصيانه بمسألة طاعة الرسول الأكرم صلي الله عليه وآله وهذه الآية المباركة من هذا القبيل حيث إنها جاءت بهذا الأمر الإرشادي الناص علي أن طاعة الله تعالى لا يمكن إحرازها إلا مع طاعة الرسول صلي الله عليه وآله . والأمر الإرشادي - كما يقول الأصوليون - يعني : أن العقل يأمر بالمادة وهي ((الطاعة)) والشارع يؤكد ذلك . وبعبارة أخرى : أن المصلحة مترتبة علي المادة ، وأما الهيئة فهي تأكيد لما في ((المادة)) من ((الملاك)) ، ولا يترتب علي نفس الهيئة شيء

ص: 546

فطاعة الرسول صلي الله عليه وآله هي طاعة لله ((بالإمتداد والتبعية والعطف)) فهي إذن نفس تلك الطاعة التي عبّر عنها القرآن فقال عزّ من قائل : «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ(1)» .

وقال تعالي : «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ(2)» .

والطاعة لغةً تعني : الإقتياد الواعي والتام للأوامر الإلهية الواردة في الكتاب الكريم ، أو عن طريق الرسول العظيم صلي الله عليه وآله أو الولي المعين من الله ورسوله صلي الله عليه وآله .

فالآية المباركة تدعو إلي طاعة الرسول التي هي ميزان قبول الأعمال ورفضها ، فقد جاء في الحديث أنّ رسول الله صلي الله عليه وآله قال : حدّثني جبرائيل عن ربّ العزة جلّ جلاله أنه قال :

((من علم أنه لا إله إلا أنا وحدي ، وأنّ محمّداً عبدي ورسولي ، وأنّ علي بن أبي طالب خليفتي ، وأنّ الأئمة من ولده حججتي أدخلته الجنة برحمتي ، ونجّيته من النار بعفوي ، وأبحت له جوارتي وأوجبت له كرامتي ، وأتممت عليه نعمتي ، وجعلته من خاصّتي وخالصتي ، إن ناداني لبيته ، وإن دعاني أحبته ، وإن سألتني أعطيتة ، وإن سكت ابتدأته ، وإن أساء رحمتة ، وإن فرّ منّي دعوته ، وإن رجع إليّ قبلته ، وإن قرع بابي فتحتة .

ومن لم يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي ، ولم يشهد أنّ محمّداً عبدي ورسولي ، أو شهد بذلك ولم يشهد أنّ علي بن أبي طالب خليفتي ، أو شهد بذلك ولم يشهد أنّ الأئمة

ص: 547

1- سورة النساء (4) : الآية 80 .

2- سورة النساء (4) : الآية 59 .

من ولده حججبي ، فقد جحد نعمتي ، وصعّر عظمتي ، وكفر بآياتي وكتبي .

إن قصدني حجبتة ، وإن سألني حرمته ، وإن ناداني لم أسمع ندائه ، وإن دعاني لم أسمع دعاءه ، وإن رجاني خيبتة ، وذلك جزاؤه مني ، وما أنا بظلام للعبيد)) (1).

وقال الإمام الباقر (عليه السلام) : قال الله تبارك وتعالى : ((لأعدّبن كل رعيّة في الإسلام بولاية كل إمام جائر دانت ليس من الله ، وإن كانت الرعيّة في أعمالها برّة تقيّة ، ولأعفونّ عن كل رعيّة في الإسلام دانت بولاية كل إمام عادل من الله وإن كانت الرعيّة في أنفسها ظالمة مسيئة)) (2).

وعن أبي يعفور قال : قال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((لا دين لمن دان بولاية إمام جائر ليس من الله ، ولا عتب علي من دان بولاية إمام عدل من الله)).

قال : قلت : لا دين لأولئك ، ولا عتب علي هؤلاء ؟

فقال : ((نعم ، لا- دين لأولئك ولا- عتب علي هؤلاء ، ثم قال (عليه السلام) : أما تسمع لقوله تعالى : «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» .

يخرجهم من ظلمات الذنوب إلي نور التوبة والمغفرة لولايتهم كل إمام عادل من الله وقال : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ (3)» .

قال : قلت : أليس الله عني بها الكفار حين قال : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا» ؟

فقال (عليه السلام) : ((وأي نور للكافر وهو كافر ، فأخرج منه إلي الظلمات ؟ إنّما عني

ص: 548

1- بحار الأنوار : ج27 ص119 - 118 ح99 .

2- الكافي : ج1 ص376 ح4 .

3- سورة البقرة (2) : الآية 257 .

اللّٰه بهذا أنّهم كانوا علي نور الإسلام فلمّا أن تولّوا كل إمام جائر ليس من اللّٰه ، خرجوا بولايتهم إيّاهم من نور الإسلام إلي ظلمات الكفر ، فأوجب لهم النار مع الكفّار .

فقال : أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)) (1).

فالطاعة إذن يجب أن تكون للرسول صلي الله عليه وآله أو من عيّنهم الرسول صلي الله عليه وآله من بعده كقادة لهذه الأمة .

حبط الأعمال في مخالفة الأئمة عليهم السلام

ولا يخفي أنّ الاستكبار علي هولاء القادة الكرام وتولّي غيرهم يحبط العمل ويبطله بلا شكّ ، لأنّه بلا دليل والسائر بلا دليل لا يزيد كلفاً ابتعد في مسيره عن هدفه إلا بعداً .

وبطلان الأعمال فيها وجهان :

1 - الإبطال : بعضيان اللّٰه والرسول صلي الله عليه وآله وهذا يسمّي ب ((الحبط)) والمراد من الحبط هو سقوط ثواب العمل الصالح بالمعصية المتأخّرة ، كما أنّ المراد من ((التكفير)) هو سقوط الذنوب المتقدّمة بالطاعة المتأخّرة .

وبعبارة أخرى : إنّ الإحباط في عرف المتكلّمين عبارة عن إبطال الحسنه بعدم ترتيب ما يتوقّع منها عليها ، والتكفير هو إسقاط السيّئة بعدم جريان مقتضاها عليها ، فهو في المعصية نقيض الإحباط في الطاعة .

وهذه المسألة من المسائل الكلامية التي كثر الحديث حولها بين المتكلّمين من كافّة الفئات الإسلامية ، فالأشاعرة والإمامية ذهبوا إلي أنّه لا تحابط بين الطاعات

ص: 549

1- الكافي : ج 1 ص 375 ح 1 .

والمعاصي ، أمّا ((المعتزلة)) فقد ذهبوا إلي تحابط الأعمال ، ولكل قوم أدلّة ولكل منهم رأيه الخاص به ، ولذلك نجد أنّ الاتجاه الواحد مختلف بمعني الإحباط الوارد في الآيات والروايات الواردة في الكتاب الكريم - كآية البحث - أو السنّة المطهّرة .

من أسباب حبط الأعمال

وقد قيل إنّ أسباب حبط الأعمال كما في كتاب الله إلي إثني عشر سبباً وهي :

1 - الإرتداد بعد الإسلام (الآية 217 من سورة البقرة).

2 - الشرك المقرون بالعمل (الآية 17 من سورة التوبة).

3 - كراهية ما أنزل الله (الآية 9 8 من سورة محمّد صلي الله عليه وآله).

4 - الكفر .

5 - الصدّ عن سبيل الله .

6 - مجادلة الرسول ومشاقته (الآية 32 من سورة محمد صلي الله عليه وآله).

7 - قتل الأنبياء .

8 - قتل الأمرين بالقسط من الناس (الآية 22 21 من سورة آل عمران).

9 - إساءة الأدب مع النبي صلي الله عليه وآله (الآية 2 سورة الحجرات).

10 - الإقبال علي الدنيا والإعراض عن الآخرة (الآية 16 15 سورة هود).

11 - إنكار الآخرة (الآية 147 سورة الأعراف).

12 - النفاق (الآية 19 18 سورة الأحزاب).

كما أنه يحتمل أن يراد به العموم ، أي لا ترفعوا يديكم عن العمل العبادي ، كإبطالكم الصلاة مثلاً ، أو الرجوع عن الطريق وأنت ذاهب إلي الجهاد ، أو تنوي

ص: 550

أو حتّى أنّك تعمل عملاً خيراً فتفرّج يدك عنه وتتركه دون أن تتمّه ، فمن عمل خيراً عليه أن يتمّه حتّى النهاية .

صور من التاريخ

هناك الكثير من الناس - قديماً وحديثاً - أحبّطوا أعمالهم والأمثال التاريخية تشهد علي ذلك .

فحسّان بن ثابت شاعر الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله الذي رافق النبي صلي الله عليه وآله ردحاً كبيراً من الزمن ومدح وذمّ كما يريد منه رسول الله صلي الله عليه وآله إلا أنه في النهاية أحبّط عمله في الحياة الدنيا وكان يحذّره رسول الله صلي الله عليه وآله من ذلك قائلاً : ((ياحسّان لا تزال مؤيِّداً بروح القدس ما نافحت عنّا بلسانك))⁽¹⁾.

كما أنّ الزبير بن العوّام ابن عمّة الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله والذي كان أحد صحابة رسول الله صلي الله عليه وآله ومن الذين وقفوا مع الإمام علي (عليه السلام) في أيّام محنته الأولى بعد (رزية يوم الخميس).

تجدّه قد رفض البيعة لأبي بكر وأعلن الحرب علي أعداء الإمام (عليه السلام) وبقي علي هذا الحال حتّى تولّى الإمام علي (عليه السلام) الخلافة فكان أوّل من بايعه راضياً طائعاً .

ولم تمض علي بيعته أيّام حتّى نكث وقاد معركة الجمل الشهيرة ، التي انتهت بقتله حيث احتزّ ابن جرموز الخارجي رأسه .

ص: 551

وقد قال الإمام علي (عليه السلام) عنه : ((ما زال الزبير رجلاً منّا أهل البيت حتّى نشأ ابنه المشؤوم عبدالله)) (1).

فقتل غيلة وهو عاص لله ولرسوله بعصيانه لإمامه مولاه أمير المؤمنين (عليه السلام) .

وهكذا فإنّ تقديم طاعة الرسول صلي الله عليه وآله ومعصيته هي من أشدّ موارد إحباط الأعمال في الدنيا والآخرة .

ص: 552

1- نهج البلاغة : ق 453 .

(69) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (سورة الحجرات : 1)

في رحاب المفردات

يدي : اليد الجارحة ، أصله يديّ لقولهم في جمعه أيد ويديّ ... وشبه الدهر فجعل له يد في قولهم يد الدهر ويد المسند وكذلك الريح في قول الشاعر : بيد الشمال زمامها لما له من القوّة ، ومنه قيل أنا يدك ويقال وضع يده في كذا إذا شرع فيه(1).

عليم : أمّا قوله : «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ(2)» فعليم يصحّ أن يكون إشارة إلي الإنسان الذي فوق آخر ويكون تخصيص لفظ عليم الذي هو للمبالغة تنبيهاً أنه بالإضافة إلي الأول عليم وإن لم يكن بالإضافة إلي من فوقه كذلك ، ويجوز أن يكون قوله عليم عبارة عن الله تعالى وإن جاء لفظه منكراً إذا كان الموصوف في الحقيقة

ص: 553

1- مفردات الراغب : ص 575 .

2- سورة يوسف (12) : الآية 76 .

شأن النزول

يقول أرباب التفاسير إن شأن نزول هذه الآية المباركة هو: أن وفداً من تميم، وهم عطارد بن حاجب بن زرارة، في أشراف من بني تميم، ومنهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهم، وقيس بن عاصم، في وفد عظيم. فلما دخلوا المسجد، نادوا رسول الله صلي الله عليه وآله من وراء الحجرات، أن اخرج إلينا يا محمد. فأذی ذلك رسول الله صلي الله عليه وآله، فخرج إليهم. فقالوا: جئناك لنفاخرک، فأنذن لشاعرنا وخطيبنا.

فقال: قد أذنت. فقام عطارد بن حاجب، وقال: الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً، الذي له الفضل علينا، والذي وهب علينا أموالاً عظيماً، نفعل بها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثر عدداً وعدة، فمن مثلنا في الناس. فمن فاخرنا فليعد مثل ما عددنا، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكننا نستحي من الإكثار، ثم جلس.

فقال رسول الله صلي الله عليه وآله لثابت بن قيس بن شماس: قم فأجبه.

فقال: الحمد لله الذي في السماوات والأرض خلقه، قضی فيهنّ أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفي من خير خلقه رسولاً، أكرمهم نسباً، وأصدقهم حديثاً، وأفضلهم حساباً، فأنزل الله عليه كتاباً، وائتمنه علي خلقه، فكان خيرة الله علي العالمين، ثم

ص: 554

دعا الناس إلى الإيمان بالله ، فأمن به المهاجرون من قومه ، وذوي رحمته ، أكرم الناس أحساباً ، وأحسنهم وجوهاً ، فكان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن ، فنحن أنصار رسول الله صلى الله عليه وآله وردؤه ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن نكث جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .

ثم قام الزبرقان بن بدر ينشد : وأجابه حسان بن ثابت . فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع : إن هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلي من أصواتنا . فلما فرغوا أجازهم رسول الله صلى الله عليه وآله فأحسن جوائزهم ، وأسلموا(1).

عبر من الآية

إن القرآن الكريم كتاب تأديب وتعليم ، كما هو كتاب تشريع وتقنين .

وسورة الحجرات المباركة هي من السور التأديبية التعليمية للمسلمين عامة إذ أنها تعلمهم كيفية التعامل مع الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وتذكّرهم ببعض الأحداث الناشئة من قبل بعض الصحابة ، وتنهاهم عن الإتيان بما يؤدي النبي صلى الله عليه وآله وترشدهم إلى كيفية وأصول التعامل معه صلى الله عليه وآله .

وبالتالي تعطي قوانين الأدب والأخلاق للمجتمع من أجل التعامل مع القادة والمصلحين بشكل عام ، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله هو أعظم قائد أنجبهته الحياة كلها .

ص: 555

وصحيح أن النبي صلي الله عليه وآله إنسان وبشر كما قال تعالى : «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ(1)» إلا أنه ليس بشراً عادياً بل يوحى إليه فيتميز علي سائر البشر بالوحي الإلهي والتسديد الرباني والقرب والحب من رب العالمين .

فهو صفوة الصفوة في هذا الوجود ، وهو العلة الغائية للوجود - كما يقول الفلاسفة وأرباب الكلام - وإلي هذا يشير الحديث المعروف : ((لولاك لما خلقت الأفلاك)) (2).

فكل ما في الوجود من أجله صلي الله عليه وآله وجد ، وهو الوساطة بين الخالق والخلق ، والوسيلة المثلي لبني البشر من أجل السمو والارتفاع في أرقى مدارج الكمال لدي رب العالمين .

فلولا رسول الله صلي الله عليه وآله لكانت البشرية كلها تسبح في متاهات الضلال ، وتعم في بحور من الظلمات والظلام الدامس كما وصفها تعالى فقال : «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(3)».

لذلك فإنه لا يمكن التعامل مع هذا العظيم كما تتعامل مع بعضنا البعض ، بل يجب أن تكون له آداباً خاصة وأخلاقيات عالية للتعامل مع شخصه الشريف ، فلا يمكن التعامل معه كإنسان عادي أو حتى قائد عادي ، فهو فوق ذلك بكثير .

ص: 556

1- سورة الكهف (18) : الآية 110 .

2- تأويل الآيات : ص 430 .

3- سورة آل عمران (3) : الآية 164 .

ولا تتقدّموا بين يدي الرسول صلي الله عليه وآله

ومن الآداب التي ذكرتها هذه الآية المباركة هي مسألة بسيطة في المظهر عظيمة في اللبّ والجوهر ، وهي مسألة التقدّم علي رسول الله صلي الله عليه وآله .

ويدخل ضمنها التقدّم في المشي أو الدخول أو الكلام والحديث وما شابه ذلك . ولا يخفي أنّ معني التقدّم بين اليدين يعني الأمام ، لأنّ ما بين يدي الإنسان أمامه ، ومعناه : لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله ولا تعجلوا به .

أو لا تعجلوا وتقدّموا لأعمال الطاعة قبل الوقت الذي أمر الله ورسوله به .

أو لا تمكّنوا أحداً من أن يمشي أمام رسول الله صلي الله عليه وآله بل يجب أن يكون الجميع تبعاً له ، كما أن يؤخّروا الأقوال والأفعال عن قوله وفعله صلي الله عليه وآله .

وفي واقع الأمر إنّ المعني شامل وجامع لكل ذلك ، لأنّ أي عمل أو قول يجب أن يتّبع ويلحق فيه رسول الله صلي الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وكما جاء في الحديث : ((لا تقدّموهم ولا تخلفوا عنهم ، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم))(1).

من جانب آخر الآية الكريمة تذكر التقوي لأنّها تستوعب كافّة شؤون الحياة ، فما من شيء إلا ولله فيه حكم لا يجوز تجاوزه ، والملتقون يبحثون عن حكم الله أولاً وقبل أن يبادروا في العمل في أي حقل من الحقول .

ولذلك يجب التّفقه في الدين ، وتعلّم أحكامه تمهيداً للعمل بها ، ففي تفسير قوله تعالى : «قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ(2)» .

قال الإمام الصادق(عليه السلام) : ((إنّ الله - تعالى - يقول للعبد يوم القيامة : عبدي

ص: 557

1- بحار الأنوار : ج 31 ص 422 .

2- سورة الأنعام (6) : الآية 149 .

أكنت عالماً؟

فإن قال : نعم ، قال له : أفلا عملت بما علمت .

وإن قال : كنت جاهلاً ، قال له : أفلا تعلّمت حتي تعمل .

فيخصم بتلك الحجّة البالغة)) (1).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((لا يسع الناس حَتَّى يسألوا أو يتفَقَّهوا)) (2).

وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((أفٍ لكل مسلم لا يجعل في كل جمعة يوماً يتفقه فيه أمر دينه ، ويسأل عن دينه)) (3).

وقال النبي صلي الله عليه وآله : ((العلم مخزون عند أهله وقد أمرتم بطلبه منهم)) (4).

وإذا لم يجد المؤمن في الفقه حكم الحوادث المستجدة أو المتطورة والطارئة عليه أن يراجع الفقهاء الذين يستنبطون ذلك الحكم من القواعد العامة الموجودة في الشريعة .

إذ أنه ما من حادثة إلا وللدین فيها حكم مفصل حتي في أرش الخدش .

والي ذلك تشير الآية الشريفة قائله : ((مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)) (5).

وقد قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((أيها الناس اتقوا الله ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه وأمرتكم به)) (6).

ص: 558

1- بحار الأنوار : ج 1 ص 177 ح 58 .

2- بحار الأنوار : ج 1 ص 176 ح 42 .

3- بحار الأنوار : ج 1 ص 176 ح 44 .

4- بحار الأنوار : ج 1 ص 177 ح 52 .

5- سورة الأنعام (6) : الآية 37 .

6- الكافي : ج 2 ص 74 ح 2 .

وسواء أكان الحكم الإلهي وارداً في خصوص المورد ، أم في الأصل العام الذي يشملُه ، فإنه بالتالي حدّ لا يمكننا تجاوزه ، ولا يجوز لنا أن نزعِم أن الله فوّض أمره إلينا .

وحتّى الأئمّة المعصومين عليهم السلام لابدّ لهم أن يفتوا ويحكموا وفق كتاب الله وسنّة نبيّه ، وقد أكّدوا ذلك في أحاديثهم لنفي مزاعم بعض القائلين بالتفويض ، ففي الحديث أنّ رجلاً سأل الإمام الصادق (عليه السلام) فأجابه فيها .

فقال الرجل : إن كان كذا وكذا ما كان القول فيها ؟ فقال له (عليه السلام) : مهما أجبته في شيء فهو عن رسول الله صلي الله عليه وآله لسنا نقول برأينا من شيء) (1).

وروي سماعاً عن الإمام أبي الحسن (عليه السلام) أنه قال : ((كل شيء تقول به في كتاب الله وسنّة نبيّه أو تقولون برأيكم ؟

قال (عليه السلام) : ((بل كل شيء نقوله به في كتاب الله وسنّته)) (2).

فلكي لا نتقدّم علي الرسول صلي الله عليه وآله ولا يسوقنا الهوي والجهل ، لابدّ من التفقّه في الدين ومعرفة أصول الحكم فيه ، والإنطلاق منها لمعرفة حكم الحياة وتفاصيل سلوكنا فيها .

وبذلك نتقي الله في أنفسنا ولا نتقدّم بشيء علي الله ورسوله ووليّه أبداً .

لماذا الأمر بعدم التقديم ؟

ولسائل أن يسأل هنا فيقول : لماذا تدعو الآية الكريمة إلي عدم التقديم بين

ص : 559

1- الكافي : ج 2 ص 74 ح 2 .

2- بصائر الدرجات : ص 301 .

يدي الرسول صلي الله عليه وآله ؟

الجواب : إنَّ طبيعة الإنسان عادةً ما تجعله يحكم علي الأمور وفقاً لمرتكزاته النفسية ومنظومته الفكرية والثقافية ، ولذلك ينبغي للمؤمن أن ينتظر أمر الله ورسوله صلي الله عليه وآله في كل قضية عالقة حتي يحفظ عمله من الإحباط .

أمّا أن يتخذ القرارات الارتجالية والمخالفة لأمر الله ورسوله ، أو أن يتقدّم علي قائده بالحديث أو بالكلام والمشى ، فهذا غير لائق بالقائد العادي ، فكيف بالرسول الأعظم صلي الله عليه وآله إذ أنه لو كان الإيمان قوياً وراسخاً عند الإنسان لما شك وما تقدّم علي رسوله أبداً .

ولذا يؤكّد قوله تعالي «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ(1)» أي أنه تنتفي صفة الإيمان عن الإنسان الذي لا يجعل كلام وأحكام ومواقف رسول الله صلي الله عليه وآله هي الحكم العدل والقول الفصل في كل شي ء لديه في هذه الحياة الدنيا .

ولذلك تذكّر الآية المباركة في نهايتها بعنصر التقوي الضروري جداً ، للفوز في الدنيا والفلاح في الآخرة ، لأنّ الجنّة لا يدخلها إلاّ المتّقين من عباد الله المخلصين .

وتؤكّد بأنّ الله ((سميع)) للأقوال ((عليم)) بالأفعال والأعمال فيجازي المحسن بإحسان والمسيء بعذاب أليم .

ص: 560

1- سورة النساء (4) : الآية 65 .

إشارة

(70) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» (سورة الحجرات : 2)

في رحاب المفردات

تجهروا : جهر يقال لظهور الشيء ، يفراط حاسة البصر أو حاسة السمع ، أما السمع ، فمنه قوله تعالى : «سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ (1)».

تحبط : حبط الأعمال علي أضرب : أحدها أن تكون الأعمال دنيوية فلا تغني في القيامة غناءً ، والثاني أن تكون أعمالاً أخروية لكن لم يقصد بها صاحبها وجه الله تعالى ، والثالث أن تكون أعمالاً صالحة ولكن بإزائها سيئات توفّي عليها (2).

ص : 561

1- سورة الرعد (13) : الآية (10) مفردات الراغب : ص 99 .

2- مفردات الراغب : ص 105 .

تشعرون : شعرت أصبت الشَّعْرَ ومنه استعير شعرت كذا أي علمت علماً في الدقّة كإصابة الشَّعْر ، وسدَّجِي الشاعر شاعراً لفطنته ودقّة معرفته(1).

شأن النزول

في تفسير علي بن إبراهيم القمّي جاء : يا أيّها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله واتّقوا الله إنّ الله «يا أيّها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يديّ الله ورسوله واتّقوا الله إنّ الله سمّيعٌ عليّم» نزلت في وفد من بني تميم ، كانوا إذا قدموا علي رسول الله صلي الله عليه وآله وقفوا علي باب حجرته فنادوا : يا محمد اخرج إلينا . وكانوا إذا خرج رسول الله صلي الله عليه وآله تقدّموه في المشي ، وكانوا إذا كلّموه رفعوا أصواتهم فوق صوته ، ويقولون : يا محمد يا محمد ما تقول في كذا كما يكلمون بعضهم بعضاً ، فأنزل الله «يا أيّها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يديّ الله ورسوله» الآية(2).

عبر من الآية

هذا درس أخلاقي آخر ، خاصّ بالتعامل مع رسول الله صلي الله عليه وآله وذلك عبر مسألتين أساسيتين وهما :

1 - عدم رفع الصوت فوق صوته صلي الله عليه وآله أي : علي من يريد أن يخاطب رسول

ص : 562

1- مفردات الراغب : ص 268 .

2- تفسير القمّي : ج 2 ص 318 .

اللّه صلي الله عليه وآله منكم - أيها المؤمنون - أن تكون وتيرة صوته أخفض وأقل من نبرة صوت الرسول صلي الله عليه وآله أو مساوياً لها علي الأقل ، وأن لا يكون أعلي مطلقاً .

وهذا راجع إلي أدب المحادثة والخطاب مع رسول الله صلي الله عليه وآله إذ أن رفع الصوت في المجلس يشير إلي أنك إما أن لا تراعي من في المجلس أو أنك مستهتر به .

وهذا أدب علي الإنسان أن يتأدب به مع أبويه ومعلمه وكل أصحاب الفضل عليه سواء أكان ذلك في البيت أم خارجه ، ولذا فمن باب أولي أن يتأدب الإنسان أمام رسول الله صلي الله عليه وآله بهذا الأدب البسيط .

2 - عدم الجهر بالقول :

وهذا الأمر كذلك مرتبط بأدب الحديث مع الرسول صلي الله عليه وآله ومعناه : أن غصّوا أصواتكم عند مخاطبتكم إيّاه ، وفي مجلسه ، فإنه ليس مثلكم ، إذ يجب عليكم تعظيمه وتوقيره علي كل وجه .

وعليكم أن لا تقولوا : يا محمد كما يخاطب بعضكم بعضاً ، بل خاطبوه بالتعظيم والتبجيل وقولوا : يا رسول الله صلي الله عليه وآله (1).

ولا يخفي أنّ عدم مراعاة هذين الأدبين يسبّب ((إحباط العمل)) أي إبطاله ، وذهاب ما فيه من خير أو ما له من ثواب ، والإنسان غير ملتفت إلي ذلك .

والسؤال هنا هو : ما السبب في ذلك ولماذا تحبط الأعمال ؟

الجواب : لأنّ الأمر في عدم مراعاة الأدب مع الرسول صلي الله عليه وآله لا يخلو من حالتين :

1 - إما أن يكون ذلك نابغاً من عدم الاعتقاد بالنبي صلي الله عليه وآله ورفع الصوت ،

ص: 563

1- مجمع البيان : ج 26 مج 9 ص 217 .

والجهر به كان بقصد الإساءة إليه - والعياذ بالله - وهذا كفر بحدّ ذاته .

والكفر - بلا شك - محبط للأعمال مهما كانت خيرة .

2- أن يكون نابعاً من المسامحة ، والمساهلة ، فلا مانع كذلك أن تسبّب بعض الأعمال كهذه إحباط العمل - كما ثبت في علم الكلام - .

وهذا الأمر ربما نجد له نظيراً في الأمور التكوينية ((أو الكونية العادية)) ففي الطب مثلاً ثبت في الدراسات الطبية الحديثة أنّ بعض الأطعمة تزيد وتبطل أثر الدواء ، ولذلك تري الطبيب أول ما يصف لك الحمية الغذائية ، ومن بعدها يصف لك العلاج الدوائي .

وكما جاء في الحديث الشريف ((الحمية رأس الدواء))⁽¹⁾.

فإذا لم يحتم المريض فإنّ ذلك يبطل مفعول الدواء تماماً ، والالتزام بها يعدّ نصف الشفاء ويساعد في تسريع عملية العلاج كما هو معروف حالياً .

فلا مانع - إذن - من أن يكون ذلك في إطار التشريع أيضاً (كإطار) التكوين (فيثبت أنّ بعض الأعمال البسيطة إذ لم نلتزم بها فإنّ العمل لا شك يحبط .

والمشكلة أو النكتة اللطيفة التي تشير إليها الآية المباركة ماثلة في قوله تعالى : «وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ⁽²⁾» أي دون أن تحسّوا بذلك .

وأنتم لا تعلمون أنّكم أحببت أعمالكم بجهر الصوت أو رفعه فوق صوته صلي الله عليه وآله وترك تعظيم الرسول صلي الله عليه وآله وعدم مراعاة الأدب في مخاطبته والتحدّث معه وإليه .

ولذلك : لمّا نزلت هذه الآية قال ثابت بن مرّة : أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق

ص: 564

1- مستدرک الوسائل : ج 16 ص 452 ح 20523 .

2- سورة الزمر (39) : الآية 55 .

صوت رسول الله صلى الله عليه وآله وأجهر له بالقول ، حبط عملي أنا من أهل النار .

وكان ثابت رفيع الصوت ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله فقال : هو من أهل الجنة(1).

وقال بعض العلماء في معني ((أن تحبط أعمالكم)) أنه ينحبط ثواب ذلك العمل .

لأنهم لو أوقعوه علي وجه تعظيم النبي صلى الله عليه وآله وتوقيره لأستحقوا الثواب ، فلمّا فعلوا علي خلاف ذلك الوجه أستحقوا العقاب ، وفاتهم ذلك الثواب ، فإنحبط عملهم(2).

من آثار الاستخفاف بالرسول صلى الله عليه وآله

وقد يتبادر إلي الذهن سؤال يقول : لماذا يسبب الاستخفاف بالقيادة الشرعية حبطاً للعمل لا سيّما قيادة الرسول صلى الله عليه وآله أو الإمام(عليه السلام) ؟

الجواب : لعلّ ذلك يتلخّص في أمرين :

1 - أنّ أغلب الفرائض تروّض النفس وتطهّرها من الكبر ، فإذا طغت النفس وتكبّرت علي القيادة الشرعية ، فإنّها تتكبّر عن بقية الفرائض كذلك ، وعند ذلك يكون الهدف من الفرائض لم يتحقّق ، فتحبط الصلاة لأنّها تكرّس الذاتية بدل الخشوع والخضوع لله .

والزكاة تزيد الهوّة والطبقية بدل إلغاءهما .

والحجّ الذي يورث صاحبه التعالي والتفاخر ، عوضاً عن الوقار والتواضع .

ص: 565

1- مجمع البيان : ج26 مج9 ص217 .

2- مجمع البيان : ج26 مج9 ص218 .

والصيام الذي يورث التقوي في القلب ، ينقلب إلى عادة يقوم بها الإنسان ، فلولا خشية الناس لم يصم أبداً .

إذن ، فجميع العبادات معرضة إلى الإحباط في حال استكبار النفس وتعاليتها عن القيادة الشرعية المتمثلة بالرسول صلي الله عليه وآله أو الإمام(عليه السلام) أو من ينوب عنه من العلماء الأعلام .

2 - وهو ناتج من الأول لأنّ الولاية هي عماد من أعمدة الدين الإسلامي ، فإذا سقط هذا العماد فإنّ بناء الدين لا شك يتضعضع ، وباعتبار الدين هو نظام اجتماعي متكامل يتمحور ويدور حول القيادة الشرعية ، فإنّ فقد المحور معناه إنه يدور علي غير هدي ولا كتاب منير ، أي أنّ الأمة سوف تشتت وتضلّ طريقها المرسوم لها من الله .

وفي ذلك هو الإحباط ، وأوّل إحباط يصيب العمل لأنه يكون بلا دليل ولا مرشد وهاوي فيكون هباءً منثوراً .

وفي الحقيقة إنّ أعظم الأمراض خطراً هو المرض الذي لا يحسّ به المبتلي ، لأنّه لا يبادر لمعالجته حتّى يستفحل فيصعب معالجته ، وكذا هو الحال بالنسبة إلى الذنوب ، فأخطرها هو الذنب الذي لا يشعر به المتورّط فيه ، لأنّه يسير به في طريق جهنّم ، وهو يزعم أنه من أهل الجنة .

ومخالفة الرسول صلي الله عليه وآله والقيادة الشرعية من هذه الذنوب ، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك في كتابه الحكيم فقال : «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ صَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً(1)» .

ص: 566

فلماذا لا يشعر الإنسان بخطر ذنب مخالفة القيادة الشرعية أو الاستخفاف بها حتّى؟

إنّ ذلك نابع من النفس التي تسوّّل لصاحبها وتصوّر له بعض الذنوب بصورة تجعلها حسنة، فهي كمرض النوم الذي يجعل ضحيته تخلد إلي النوم حتّى الموت، وكلّما اقترب الشخص إلي نهايته كلّما أوغل في اللاوعي أكثر.

الأمة تخالف القيادات الإسلامية

ولعلّ أبسط دليل علي تزيين الشيطان اللعين للناس مخالفة القيادة الشرعية: هو ما قرأناه في التاريخ عن أحوال الصحابة وكثرة مخالفتهم للرسول القائد صلي الله عليه وآله بل اعتراضاتهم المتكرّرة علي أقواله وأفعاله - كما حدّثتنا الآية ذاتها - .

ومن بعده المخالفات المتكرّرة للقيادة الحقيقيين للأمة الإسلامية ابتداءً من الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وحتّى آخر الأئمّة الكرام عليهم السلام فلا تكاد تقرأ عن حياة إمام من الأئمّة حتّي تتعجّب من قلّة أصحابه المخلصين، وتتعجّب من كثرة المخالفين والشانين.

وعند مراجعتنا لأنفسنا في الوقت الحاضر نعرف حال الماضي - فالشيء بالشيء يذكر - والناس هم نفس الناس والزمان هو نفس الزمان، وما أشبه اليوم بالبارحة.

فهم اليوم يتولّون عن القيادة الشرعية دون أدني إحساس بالذنب، بل تري الكثير منهم يزعم أن لا علاقة له بالمراجع، ولا علاقة للدين بشؤون الحياة الفعلية، لأنّ وظيفة الدين لا تخرج عن إطار العبادات من صوم وصلوات وما شابه أمّا الطب

والهندسة والقضاء وغير ذلك من علوم الحياة فلا ربط للدين بها أصلاً .

فالدين صار غريباً وغير لائق لهذا العصر ، لذلك تجد هكذا أشخاص عادةً ما يستهزؤون بالدين .

وهنا نعود ونقول : أليس هذا محبطاً للعمل ؟

بلي والله ، بل هو محبط للعمل والعزيمة والإيمان والعقيدة معاً ، اجرنا يامجير بمحمد وآله عليهم أفضل الصلاة والسلام .

ص: 568

(71) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَبَيِّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ» (سورة الحجرات : 6)

في رحاب المفردات

فاسق : يقال فسق فلان أي خرج عن حَجْرِ الشرع وذلك من قولهم فسق الرطب إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر . والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير لكن تعورف فيما كان كثيراً(1).

نبأ : النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتّي يتضمّن هذه الأشياء الثلاثة - الخبر والفائدة والعظمة(2).

نادمين : الندم والندامة هو التحسّر من تعيّر رأي في أمر فانت ، قال الله تعالى : «فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ(3).

ص: 569

1- مفردات الراغب : ص 394 .

2- مفردات الراغب : ص 500 .

3- سورة المائدة (5) : الآية (31) مفردات الراغب : ص 506 .

ذكرت كتب التفسير قصة طريفة في أسباب نزول هذه الآية وهي : أنها نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط عندما بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله في صدقات بني المصطلق ، فخرجوا يتلقونه فرحاً به ، وكانت بينهم عداوة في الجاهلية ، فظنّ أنهم همّوا بقتله ، فرجع إلي رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : إنهم منعوا صدقاتهم ، وكان الأمر بخلافه ، فغضب النبي صلى الله عليه وآله وهمّ أن يغزوهم ، فنزلت الآية .

وقيل : إنها نزلت فيمن قال للنبي صلى الله عليه وآله : إنّ مارية أم إبراهيم يأتيها ابن عم لها قبضي فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً(عليه السلام) وقال : يا أخي ! خذ هذا السيف فإن وجدته عندها فاقتله .

فقال : يا رسول الله ! أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكة المحمّاة أمضي لما أمرتني ، أم الشاهد يري ما لا يري الغائب ؟ فقال صلى الله عليه وآله : بل الشاهد يري ما لا يري الغائب . قال علي(عليه السلام) : فأقبلت متوشّماً بالسيف ، فوجدته عندها ، فاخترطت السيف ، فلمّا عرف أنّي أريده أتني نخلة فرقي إليها ، ثم رمي بنفسه علي قفاه ، وشعر برجليه ، فإذا أنه أجب أمسح ، ما له ممّا للرجال قليل ، ولا كثير ، فرجعت فأخبرت النبي صلى الله عليه وآله .

فقال : الحمد لله الذي يصرف عنّا سوء أهل البيت(1).

ص: 570

عبر من الآية

من خلال هذه الآية المباركة تتجلّى منهجية الإسلام العزيز في التعامل مع الأخبار والأنباء التي يبلغها الآخرون ، ففي القديم الغابر كانت وسائل نقل الأخبار هي الكتابة أو السمع والمشاهدة ، أو الرؤية المباشرة ، وجميعها كان يشوبها الكذب ، وذلك بميل الإنسان إلي تضخيم الأمور أكثر ممّا هي عليه في الحقيقة والواقع .

بل في بعض الأحيان تتدخل مسألة المصالح الشخصية والعداوة القبلية والأطماع وما شابه في مسألة نقل الأخبار وتحويرها علي الواقع الذي كانت عليه .

والسؤال الذي يطرح هنا هو : من الفاسق ؟ قيل في الجواب عليه : إنه الخارج عن طاعة الله إلي معصيته .

أو إنه التارك لواجب عبادي ، أو الفاعل لأمر محرّم شرعاً ، كما هو معروف في كتب اللغة والتفسير والفقه .

فعلي الإنسان أن لا يأخذ الأخبار ويصدّقها من أي مصدر صدرت ، أو من أي وكالة أنتجت بل عليه التبيّن ، والبحث عن مدي صدق وواقعية هذا الخبر ومطابقته للحقيقة ومدي نسبة الصدق به لأنه قد تكون الأخبار بجملتها لا صحّة لها ، بل هي مجرد إشاعة أو دعاية أو فخّ إعلامي - كما يقال - يبيّن صفوف شعب ما ليري المسؤول عنه مدي استجابة ذاك الشعب أو تفاعله مع مثل تلك الأخبار الكاذبة ، وربما كان من ورائه هدف خبيث يعمل للوصول إليه ، وهذا كثير جداً وواضح جداً في أيّامنا هذه .

تزييف الأخبار في التاريخ

أمّا التاريخ القديم - لا سيّما في صدر الرسالة الأوّل - فإنه شهد أفراد كثر عرفوا

ص: 571

بالكذب والدجل والتدليس ، بحيث أصبح تخصص الوحيد في تحريف الأحاديث والأخبار الكاذبة .

والرسول الأعظم صلي الله عليه وآله حذر كثيراً منهم في أكثر من حديث وفي أكثر من مناسبة حيث قال صلي الله عليه وآله : ((ستكثر من بعدي الكذابة ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)).

وقال صلي الله عليه وآله : ((وستكثر من بعدي القالة ، فما أتاكم عني فأعرضوه علي كتاب الله فإن وافق فهو عني وإن عارض فاضربوا به عرض الحائط)).

وبالفعل ، فهذا أبو هريرة الدوسي راح يصنع لكل ما أراد معاوية أو بني أمية حديثاً علي المقاس أو حسب الطلب تماماً(1).

فقد روي أبو هريرة أن آية تحريم الخمر نزلت في الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وأنه (عليه السلام) قال : شربنا وسكرنا - نستجير بالله .

وبنفس الوقت أن الآية التي قالت : «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ أُثْغَاءً مَّرْضَاءً لِلَّهِ(2)» أنها نزلت في عبدالرحمن بن ملجم المرادي - شقيق عاقر ناقة صالح (عليه السلام) الذي اغتال الإمام علي (عليه السلام) وهو في المحراب يصلي أي أنه اشترى نفسه بقتل الإمام علي وأن ثوابه الجنة(3).

وللأسف الشديد إن كتب الصحاح - لا سيما الشيخين - لم يتفقا في فضائل فاطمة الزهراء عليها السلام سيّدة النساء ، إلا علي حديث واحد وهو أن الإمام علي (عليه السلام) أراد الزواج من ابنة أبو جهل كضرة لفاطمة عليها السلام وأن رسول الله صلي الله عليه وآله غضب وخطب

ص: 572

1- راجع كتاب أبو هريرة : لشرف الدين وأبورية .

2- سورة البقرة (2) : الآية 207 .

3- راجع شرح نهج البلاغة : ج4 ص73 ط دار إحياء الكتب العربية .

لا تجتمع بنت عدو الله مع بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في بيت واحد أبداً، فإن أراد أن يفعل فعله أن يطلق ابنتي (1).

فما أعظمها من فرية علي الله ورسوله!؟

كما أنهم جاءوا بمثل عبد الله بن مروان وكعب الأحمق وقربوهم فأخذوا يدسون إسرائيلياتهم بين الأحاديث علي أنها من أقوال رسول الله صلى الله عليه وآله وقد ألفت كتب كثيرة حول هذا الموضوع .

فالكذب والدجل وإفتاء الأحاديث علي لسان رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر من أن يذكر في مثل هذه الصفحات وما علي المتتبع إلا العودة إلي الكتب المختصة في هذا المجال .

وقد ورد أن أحدهم دخل عند أحد الخلفاء وكان يلعب بالطيور حيث كان محبباً لها ، فقام ذاك الوضاع وروي حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : عن النبي صلى الله عليه وآله قال : لا سبق إلا في خف أو حافر ، أو جناح .

أي أنه أضاف (الجناح) من عنده ، فصار الحديث موضوعاً ولا شأن لرسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببعضه فقط .

ص: 573

1- راجع كل من : صحيح البخاري - بشرح ابن حجر : ج6 ص162 - 161 ، ج9 ص270 - 268 ، ج8 ص152 ، صحيح مسلم بشرح النووي ، هامش إرشاد الساري : ج9 ص333 - 335 ، صحيح الترمذي : ج5 ص699 - 698 ، سنن ابن ماجه : ج1 ص644 ، الصحيح من سيرة المصطفى : ج1 ص324 - 323 ، المستدرک علي الصحيحين : ج3 ص158 ، مسند أحمد : ج4 ص328 - 326 ، فضائل الصحابة : ج2 ص754 ، مجمع الزوائد : ج9 ص203 ، المطالب العالیه بزوائد المسانيد الثمانية : ج4 ص67 ، كنز العمّال : ج13 ص677 وغير ذلك ومع الأسف الشديد أنّ مصنفات العامة تروي هذا الحديث الذي يقدر في أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء عليهما السلام بل في قداسة نفس رسول الله صلى الله عليه وآله .

واللطيف أنه عندما خرج من عند الخليفة قال : إشهدوا إنّ قفاه قفا كذاب ، كذب علي رسول الله صلى الله عليه وآله (1).

من هنا فإنّ الشارع المقدّس يأمرنا بالحدّ الشديد ، فعلياً ملاحظة (مصدر) الخبر فإن لم تتوفّر فيه شروط العدالة الشرعية كالوثاقة وما شابه ، فيجب علينا أن لا نرتّب الأثر علي الخبر والتثبت من صدقه وكذبه أولاً وقبل كل شيء .

وقد قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : للإمام الحسن(عليه السلام) : ((وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب : يقرب عليك البعيد ، ويبعد عليك القريب)) (2).

فالذي يعتمد علي مثل هؤلاء المنافقين في الأخبار فإنه بلا شك سيقع في الظلم الشديد حيث إنه يظلم نفسه أولاً وبالذات ، ويظلم أناساً آخرين ثانياً وبالتبع ، وكل ذلك بجهل وجهالة ، فيندم في الأخير علي ترتيبه للأثر علي أخبار هؤلاء ولكن ولات حين مندم فأين نحن يا أخوة وكيف يجب أن تتعامل مع الأخبار ؟ تجيبنا الآية المباركة ب ((تبينوا)).

ص: 574

1- راجع مستدرک الوسائل : ج14 ص83 ح16155 .

2- نهج البلاغة : ق38 .

إشارة

(72) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (سورة الحجرات : 11)

في رحاب المفردات

يسخر : يقال سخرت منه واستسخرته للهزء منه ، قال تعالى : «إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ(1)».

تلمزوا : التمز هو الاغتياب وتتبع المعاب ، يقال لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ وَيَلْمِزُهُ ، قال تعالى : «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ(2)».

ص: 575

1- سورة هود (11) : الآية (38) مفردات الراغب : ص 232 .

2- سورة التوبة (9) : الآية (58) مفردات الراغب : ص 474 .

شأن النزول

روي بعض المفسرين أنّ شأن نزول هذه الآية المباركة هو : أنّ الرجل كان يعيّر بأصله بعد إسلامه ، فيقال له : يا يهودي ، يا نصراني .

وقال البعض : إنّ الرجل كان له الإسمان والثلاثة فيدعي ببعضها فيكره ذلك(2).

وقال علي بن إبراهيم القمّي : نزلت - الآية - في صفة بنت حبي بن أخطب وكانت زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك أنّ عائشة وحفصة كانتا تؤذيانهما وتشتمانها وتقولان لها : يا بنت اليهودية ، فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال لها : ألا تجيينهما ، فقالت : بماذا يارسول الله ؟ قال : قولي أبي هارون نبي وعمّي موسى كلّم الله وزوجي محمّد رسول الله ، فما تنكران منّي ؟ فقالت لهما ، فقالتا : هذا علّمك رسول الله صلى الله عليه وآله فأنزل الله في ذلك : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمًا مِنْ قَوْمٍ(3) ».

ص: 576

1- مفردات الراغب : ص 502 .

2- تفسير القرطبي : ج 16 ص 328 .

3- سورة الحجرات (49) : الآية 11) تفسير القمّي : ج 2 ص 318 .

كما أنّ بعض آيات القرآن الكريم تؤكد علي بناء الذات والسعي الحثيث من أجل تهذيبها وتزكيتها من الصفات السيئة كذلك توجد في القرآن الكريم آيات أخر تدعوا إلي بناء المجتمع الإسلامي الفاضل والعمل علي صيانتة من شتى الآفات والخصال السلبية . وهذه الآية الكريمة من سورة الحجرات تتناول موضوع بناء المجتمع الإسلامي بناءً أخلاقياً رصيناً ، ولكن بشرط أن يلتزم بالتعليمات والتوجيهات الربانية التي نصّت عليها الآية المباركة .

فقد تبدو بعض هذه الأمور التي نهت عنها الآية عادية بالنسبة للكثير منّا ، بل ومعظمها مألوفة لدينا كثيراً ، إذ أنه لا يوجد مجتمع إلا وفيه مثل هذه القضايا من ((غمز ولمز وتناز باللقاب)) ، إلا أنه وبالتدقيق فيها نجد أنّها ربما كانت ((شرارات)) توقد عداوات اجتماعية ، وتسبب مشاحنات ومطاحنات قد تدوم علي مرّ الأجيال .

وتاريخنا القديم يشهد علي مثل ذلك كثيراً ، وما حرب (البسوس) وحرب (داحس والغبراء) وغيرها من الحروب التي دامت بعضها حوالي نصف قرن تقريباً ، وكانت بدايتها كلمة أو موقف بسيط أو ربما نظرة إلي امرأة أو بيت شعر من شاعر ، أو غير ذلك من الأسباب التافهة إلا كشاهد بسيط علي ذلك .

عوامل انحراف المجتمعات

وأما النقاط الأساسية التي تحذّر منها الآية من أجل حفظ المجتمع الإسلامي من الضياع فهي :

1 - السخرية : وهي من الأمراض الاجتماعية الشائعة في المجتمع كلّهُ ، حيث إنّ كثيراً من الناس يعانون من عاهات خلقية (كالأعرج ، والأبرص ، والأصلع) ، أو

يعانون من سوء سمعة الآباء أو الأمهات (كأب مجرم أو أم ناشزة، أو أخت خارجة)، أو يكون عملهم عملاً وضيعاً في المجتمع (كعامل النظافة، أو عمال الكنائف).

وازاء مثل هؤلاء الناس ينبغي أن يلتزم المجتمع بالأدب في التعامل معهم ففي تفسير قوله تعالى: «لَا يَسْعَى قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» قال الطبرسي رحمه الله: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنه قر، وكان إذا دخل المسجد تفسحوا له حتى يقعد عند النبي، فيسمع ما يقول. فدخل يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة، وأخذوا مكانهم، فجعل يتخطى رقاب الناس، ويقول: تفسحوا تفسحوا حتى انتهى إلي رجل، فقال له: أصبت مجلساً فاجلس. فجلس. فجلس خلفه مغضباً. فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان. فقال ثابت: ابن فلانة، ذكر أمّا له كان يعير بها في الجاهلية. فنكس الرجل رأسه حياءً، فنزلت الآية (1).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ((لا تستخف بأخيك المؤمن، فيرحمه الله عز وجل عند استخفافك، ويغير ما بك)) (2).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ((لا تستخفوا بفقراء شيعة علي (عليه السلام)، فإن الرجل منهم يشفع في مثل ربيعة ومضر)) (3).

فالسخرية إذن هي مثار للفتن في المجتمع، وربما تكون السبب بالإحساس ب ((عقدة النقص)) في هؤلاء الأفراد، وقد يتحولون إلي أفراد معقدين، يدورون المجتمع انتقاماً لعقدتهم الدفينة تلك.

فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: لعبد الله بن جندب: ((ولا تسخر بمن هو دونك ولا

ص: 578

1- مجمع البيان: ج 26 مج 9 ص 224.

2- مستدرک الوسائل: ج 9 ص 106 - 105 ح 10361.

3- مستدرک الوسائل: ج 9 ص 106 ح 10362.

تنازع الأمر أهله)) (1).

من هنا فإنّ الشارع المقدّس شدّد في عقوبته ، ففي خبر المعراج أنّ رسول الله صلي الله عليه وآله قال : ((ثم مضيت فإذا أنا بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل تقرض اللحم من جنوبهم وتلقي في أفواههم ، فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ فقال : هؤلاء الهمّازون اللّمّازون)) (2).

2 - ولا تلمزوا أنفسكم .

اللمز : هو الاغتياب وتتبع المعاب ، يقال لمزه يلمّزه ويلمّزه ، قال تعالى : ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ (3)).

و ((أنفسكم)) الواردة في الآية المباركة ذات دلالة رائعة ، إلي أنّ المؤمنين إخوة ، فكيف يعيب الأخ أخاه بالإشارة أو الغمز أو اللسان وما شابه ذلك ؟ ألا يعلم أنّه يمثل هذا العمل يسخر ويلمز نفسه دون أن يدري ؟

إنّ اللمز - كما السخرية - هو خطوة في طريق إفساد العلاقات الاجتماعية ، وجرثومة الصراعات الخطيرة ، فلا بدّ لنا من الوقوف دونها بحزم وشدة حتي لا تتطوّر .

3 - التنايز بالألقاب .

التنايز : هو أن يجعل كل واحد من الناس لقباً سيئاً للآخر ، أي أن يلقّب بعضنا بعضاً بالألقاب البغيضة ، وهذا مذموم في الشريعة الإسلامية وقد أكّد الأئمّة الأطهار عليهم السلام علي أن ينادي الأخ أخاه المؤمن بأحب الأسماء إليه .

ص: 579

1- مستدرك الوسائل : ج9 ص79 ح10263 .

2- بحار الأنوار : ج18 ص323 .

3- سورة التوبة (9) : الآية 58) مفردات الراغب : ص474 .

فعن معمر بن خيثم قال : قال لي أبو جعفر(عليه السلام) : ((ما تَكْنِي؟ قال : ما اكتنيت بعد وما لي من ولد ولا امرأة ولا جارية ، قال : ((فما يمنعك من ذلك؟)) قال : قلت : حديث بلغنا عن علي(عليه السلام) قال : ((من اكتني وليس له أهل فهو أبو جعر ، فقال أبو جعفر(عليه السلام) : ((شوة ليس هذا من حديث علي(عليه السلام) ، إنا لنكني أولادنا في صغرهم مخافة النبز أن يلحق بهم))[\(1\)](#).

وعن أبي عبدالله(عليه السلام) قال : ((من السنّة والبرّ أن يكتني الرجل باسم ابنه))[\(2\)](#).

ولا يخفي أنّ الألقاب تختلف باختلاف المجتمعات عموماً ، فإنّ كل لقب لا يرضي به صاحبه يجب أن نمتنع عن النداء به .

التأكيد علي عدم التناز

والسؤال الذي يطرح هو : لماذا تؤكّد الآية علي عدم التناز بالألقاب ؟

الجواب : لأنه كما قال تعالي : «بِسِّ الْإِسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيْمَانِ(3)» أي بسّ الشيء للرجل أن تسمّيه باسم الفسوق أو الكفر بعد الإيمان كأن تناديه ((يانصراني ، يايهودي ، يامجوسي)) إلي غير ذلك .

أي أنه : بسّ الاسم الدالّ علي الفسوق أو الفسوق تنادي به أخوك المؤمن ، وأنت تعلم أنه مؤمن بالله ورسوله تمام الإيمان ، وذلك لأنه ((من حقّ المؤمن علي المؤمن أن يسمّيه بأحب أسمائه إليه))[\(4\)](#).

من جانب آخر إنّ من يعيّر الآخرين وينابزهم بالألقاب عليه أن يتوب إلي

ص: 580

1- وسائل الشيعة : ج 21 ص 397 ح 27397 .

2- وسائل الشيعة : ج 21 ص 27398 .

3- سورة الحجرات (49) : الآية 11 .

4- تفسير القرطبي : ج 16 ص 330 .

اللّٰه تعالي ويلزم التقوي التي قال تعالي عنها : « وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(1)» إذ أنّ من يقترف مثل هذه الأعمال إنّما يظلم ثلاثة أطراف وهي :

1 - نفسه : وهو أشدّ أنواع الظلم لأنه سيؤدّي بها إلي النار وغضب الجبّار .

2 - الآخرين : وذلك بالسخرية أو الهمز أو اللمز فنظلمهم حيث نعيهم في المجتمع .

3 - المجتمع : لأنه سوف تشيع فيه أنواع الحزازات والمشاجرات فتضعف فيه الروابط الإنسانية والأخلاقية بين أفرادها ، ممّا يؤذّن له بالفناء والإبادة والإنهيار عن بكرة أبيه .

وذلك لأنّ بداية فساد العلاقة بين الإنسان ونظيره ، تضاؤل قيمة الإنسان كإنسان في عينه ((أي غياب : نظير لك في الخلق)) وأنّذ لا يحترم الناس بعضهم ، ويبحث كل عن منقصة في صاحبه ليسخر منه بها ، ويدّعي لنفسه مكرمة يفتخر بها .

بينما لو أنصفنا أنفسنا لعرفنا أنّ سرّ احترامنا لأنفسنا هو أنّنا بشر ، نملك العقل والإرادة ، ونتحسّس بالألم واللذة ، ونتحلّي بالحبّ والعواطف الخيّرة .

فلماذا أطالب الناس باحترامي وتقديري ، ولا يجد أحد منهم حرمة عندي !؟

فإنّهم كما قال أمير المؤمنين(عليه السلام) لمالك الأشتر لمّا ولّاه علي مصر : ((صنّفان : إمّا أخ لك في الدين ، أو نظير لك في الخلق))⁽²⁾.

وقال رسول اللّٰه صلي الله عليه وآله : ((من أذاع فاحشة كان كمبتديها ، ومن عبّر مؤمناً بشيء لا يموت حتّي يركبه))⁽³⁾.

ص : 581

1- سورة الحجرات (49) : الآية 11 .

2- نهج البلاغة : كتاب 53 لمّا ولّي مالك الأشتر ملك مصر .

3- الكافي : ج2 ص356 ح 2 .

وقال الإمام الباقر(عليه السلام) : ((إنَّ أقرب ما يكون العبد إلي الكفر أن يواخي الرجل علي الدين ، فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعتقه بها يوماً ما))⁽¹⁾.

وقال الإمام الصادق(عليه السلام) : ((إنَّ لله تبارك وتعالى علي عبده المؤمن أربعين جنّة ، فمن أذنب ذنباً كبيراً رفع عنه جنّة ، فإذا عاب أخاه المؤمن بشيء يعلمه منه انكشفت تلك الجنن عنه ، فيبقي مهتوك الستر فيفتضح في السماء علي السنة الملائكة ، وفي الأرض علي السنة الناس .

ولا يرتكب ذنباً إلا ذكره ، ويقول الملائكة الموكلون به : ياربنا ، قد بقي عبدك مهتك الستر ، وقد أمرتنا بحفظه ، فيقول عزوجلّ : ملائكتي ، لو أردت بهذا العبد خيراً ما فضحته ، فارتفعوا أجنتكم عنه فوعزّتي لا يؤول بعدها إلي خير أبداً))⁽²⁾.

الله أكبر ، ما أعظم حرمة المؤمن عند الله ، وبالفعل فهي أعظم من حرمة الكعبة .

ص: 582

1- مشكاة الأنوار : ص 105 .

2- مستدرک الوسائل : ج 11 ص 329 - 328 ح 13172 .

إشارة

(73) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ» (سورة الحجرات : 12)

في رحاب المفردات

إثم : الإثم والآثم اسم للأفعال المبطنة عن الثواب ، وجمعه آثام ، وقوله تعالى : «فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (1)» أي في تناولها إبطاء عن الخيرات (2).

تجسسوا : جسّ الخبر وتجسسّه : بحث عنه وفحص . قال اللحياني : تجسّست فلاناً ومن فلان بحثت عنه كتجسّست (3).

يغتب : الغيبة هي أن يذكر الإنسان غيره بما فيه من عيب من غير أن أخرج

ص: 583

1- سورة البقرة (2) : الآية 219 .

2- مفردات الراغب : ص 5 .

3- لسان العرب : مادة جسّ .

شأن النزول

روي أنّ الخليفة الأول والثاني بعثا سلمان إلي رسول الله صلي الله عليه وآله ليأتي لهما بطعام ، فبعثه إلي أسامة بن زيد وكان خازن رسول الله صلي الله عليه وآله علي رحله ، فقال : ما عندي شيء .

فعاد إليهما ، فقالا : بخل أسامة ، ولو بعثنا سلمان إلي بئر سميحة لغار ماؤها ، ثم انطلقا إلي رسول الله ، فقال لهما : ما لي أري خضرة اللحم في أفواهكما ؟ قال : يارسول الله صلي الله عليه وآله ما تناولنا اليوم لحماً . قال : ظللتم تأكلون سلمان وأسامة . فنزلت(2).

عبر من الآية

من ضمن الآيات القرآنية التربوية المؤكدة علي تهذيب المجتمع الإسلامي الفاضل هي هذه الآية المباركة ، فقد تتابعت الأوامر والنواهي الربانية للأمة حتي تثبت لهم أنهم ((إخوة)) كما نصّت الآية المباركة حيث قال تعالى : «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ(3)» فالعمل الجيّد يجب أن ينطلق بشكل متكامل في الظاهر والباطن .

ص: 584

1- مفردات الراغب : ص 381 .

2- كنز الدقائق : ج 12 ص 347 .

3- سورة الحجرات (49) : الآية 10 .

فكما أنّ الباطن أساس ، كذلك الظاهر أساس ، وإن كان المعوّل عليه هو الباطن إلا أنه لا غني في نفس الوقت عن الظاهر .

وهذه الآيات تلتفت إلي الظاهر والباطن بالنسبة للفرد والمجتمع معاً بحيث إنّنا إذا أردنا بناء مجتمع إسلامي فاضل فلا بدّ لنا من ملاحظة هذه الأوامر الربّانية ومنها :

1 - اجتناب الظن حيث قال تعالى : «اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ (1)».

وفي الواقع : إنّ معظم الظنون تكون علي خلاف الواقع والحقيقة بل هي من الخيال والشعور الباطني للإنسان وخاصّة في أوقات المحن والبلاء فيجب أن نتجنّب الكثير منها لأنّها من وسوسة الشيطان اللعين وتسويلاته .

وقد نهى الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام عن ظنّ السوء في أحاديثهم فعن رسول الله صلي الله عليه وآله قال : ((إياكم والظن فإنّ الظنّ أكذب الكذب)) (2).

وقال الإمام علي (عليه السلام) : ((اطلب لأخيك عذراً فإن لم تجد له عذراً فالتمس له عذراً)) (3).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((اطرحوا سوء الظنّ بينكم فإنّ الله عزّ وجلّ نهى عن ذلك)) (4).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : ((ضع أمر أخيك علي أحسنه حتّي يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظننّ بكلمة خرجت من أخيك سوءً وأنت تجد لها في الخير محملاً)) (5).

ص: 585

1- سورة الحجرات (49) : الآية 12 .

2- بحار الأنوار : ج 72 ص 195 .

3- بحار الأنوار : ج 72 ص 195 ح 4 .

4- بحار الأنوار : ج 72 ص 195 ح 4 .

5- بحار الأنوار : ج 72 ص 196 ح 11 .

2 - تتبّع عثرات الناس ، والبحث عمّا يكتُمون في منازلهم ، الذي نهى عنه الشارع المقدّس بشدّة وحذّر من تبعاته الخطيرة علي المجتمع الإسلامي .

فقد نُقل أنّ الخليفة الثاني هو أوّل من عمل بالتجسّس علي الناس في الليل والقصّة التالية هي خير شاهد علي ذلك :

فعن أبي قلابة قال : إنّ ... حدّث أنّ أبا محجن الثقفي يشرب الخمر في بيته ، هو وأصحابه . فانطلق ... حتي دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلاّ رجل ، فقال أبو محجن : يا أمير المؤمنين ! إنّ هذا لا يحلّ لك وقد نهك الله عن التجسّس .

فقال الخليفة : ما يقول هذا ؟ قال زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الأرقم : صدق يا أمير المؤمنين . قال : فخرج الخليفة ، وتركه . وخرج الخليفة الثاني أيضاً ، ومعه عبدالرحمن بن عوف ، يعسّان . فتبيّنت لهما نار ، فأتيا واستأذنا . ففتح الباب فدخلا ، فإذا رجل وامرأة تغني ، وعلي يد الرجل قدح . فقال الخليفة : من هذه منك ؟ قال : امرأتي . قال : وما في هذا القدح ؟ قال : ماء . فقال للمرأة : ما الذي تغنين ؟ قالت : أقول :

تطاول هذا الليل ، وأسودّ جانبه

وأرقني ألاّ حبيب الأعبه

فوالله لولا خشية الله ، والتقي

لزعزع من هذا السرير جوانبه

ولكن عقلي ، والحياء ، يكفني

وأكرم بعلي أن تناول مراكبه

ثم قال الرجل : ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين . قال الله تعالى : «وَلَا تَجَسَّسُوا(1)» .

فقال الخليفة : صدقت وانصرف(2).

ص: 586

1- سورة الحجرات (49) : الآية 12 .

2- مجمع البيان : ج 26 مج 9 ص 225 .

وما أكثر ما روي عن الخليفة الثاني التجسس علي رعيته في الليالي المظلمة(1).

3 - الغيبة المحرّمة :

والغيبة : هي ذكر العيب في ظهر الغيب علي وجه تمنع الحكمة منه ، أو هي تناول الأخ المؤمن بشيء ما أو بخصلة أو خلق فيه وهو غير موجود في المجلس الذي يذكر فيه .

ولا يخفي علي أحد أنّ الغيبة عمل جدّاً في المجتمع وهي متفشّية جدّاً في مجتمعاتنا الحاضرة للأسف الشديد بحيث إنه قلّما يوجد مجتمع يخلو منها .

لذلك شبّهت الآية الكريمة الغيبة بأكل اللحم الميت حيث قال تعالى : «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً(2)» فكم هي عظيمة هذه الآية المباركة حيث عبّرت عن الغيبة ب ((أكل لحم الإنسان)) وهو من المحرّمات ، ناهيك إذا كان مَيْتاً ((فالحرمة)) تكون أشدّ ، وخاصة إذا كان هذا التجاسر بحقّ الأخ الذي تعتبر هتك حرمة من أكبر المحرّمات فيصير ((حراماً مشدداً ومغلظاً)) كما يقال .

وقد شبّهت الآية الكريمة المغتاب ب ((الميت)) لأنه غائب ولا يشعر بما يفعلون به كالميت تماماً ، فكما أنّ الذي يقطع قطعة من لحم أخيه ويبدأ يلوكها في فمه ويمضغها ليأكلها يعدّ قبيحاً ، كذلك الذي يقطع قطعة من شرفه وعرضه وأخلاقه .

ولذا ورد في الحديث عن رسول الله : ((إذا ذكرت الرجل بما فيه ممّا يكرهه الله

ص: 587

-
- 1- راجع الكامل في التاريخ : ج3 ص57 ط بيروت ، والعقد الفريد : ج1 ص341 ط مصر عام 1321هـ ، وحياة الصحابة للكاتب دهلوي : ج2 ص406 ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج1 ص61 ، والمستطرف : ج2 ص94 ، وقصص العرب : ج3 ص18 .
 - 2- سورة الحجرات (49) : الآية 12 .

فقد اغتبتته ، وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهته))⁽¹⁾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشد من الزنا)) ، ثم أردف قائلاً : ((إن الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتي يغفر له صاحبه))⁽²⁾.

وقال : ((إياكم والغيبة فإنها إدام كلاب أهل النار))⁽³⁾.

وقد ورد في دعاء يوم الاثنين للإمام علي بن الحسين (عليه السلام) حيث قال : ((أو غيبة اغتبتته بها أو تحامل عليه بميل أو هوي ، أو أنفة ، أو حمية ، أو رياء أو عصبية ، غائباً كان أو شاهداً وحيّاً كان أو ميتاً ، فقصرت يدي وضاق وسعي عن ردها إليه والتحلل منه))⁽⁴⁾.

إذن فمن اللازم علي الإنسان أن يلتزم بالتقوي لأنها الجذر العميق لجميع الأخلاقيات الفاضلة سواء أكان علي مستوي المجتمع أم الأفراد فإنه تواب يقبل التوبة وهو ((رحيم)) بالمؤمنين والتائبين فيدخلهم في رحمته ويدخلهم إلي جنّته . رزقنا الله جميعاً أيّاهما .

ص: 588

1- أمالي الطوسي : ص 537 المجلس 19 ح 1 .

2- مستدرک الوسائل : ج 9 ص 120 - 119 ح 10409 .

3- وسائل الشيعة : ج 12 ص 283 ح 16315 .

4- المصباح الكفعمي : ص 113 .

إشارة

(74) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (سورة الحديد : 28)

في رحاب المفردات

كفلين : الكفّل هو الكفيل ، وقوله «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ(1)» أي كفيلين من نعمته في الدنيا والآخرة وهما المرغوب إلي الله تعالى فيهما بقوله «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً(2)» وقيل لم يعن بقوله كفلين أي نعمتين إثنين ، بل أراد النعمة المتوالية المتكفلة بكفايته(3).

ص: 589

- 1- سورة الحديد (57) : الآية 28 .
- 2- سورة البقرة (2) : الآية 201 .
- 3- مفردات الراغب : ص454 .

شأن النزول

عن سماعة بن مهران عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» قال: ((الحسن والحسين)) «وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا» قال: ((إمام تأتمون به)) (1).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية قال: ((الكفلين الحسن والحسين والنور علي)) (2).

عبر من الآية

لا يخفي أن للإيمان مراتب ودرجات مختلفة باختلاف الاعتقادات والسرائر الخفية التي لا يطلع عليها إلا علام الغيوب ومن أذن له تعالى من الأنمة الأطهار عليهم السلام وبعض الخاصة من أوليائه الأبرار. ففي الحديث الشريف عن عبدالعزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): ((يا عبدالعزيز إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة فلا يقولن صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست علي شيء حتي ينتهي إلي العاشرة فلا تسقط من هو دونك فيسقط من هو فوقك وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق ولا تحملن عليه ما لا يطيق فتكسره فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره)) (3).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ((الإيمان عشر درجات، فالمقداد في الثامنة وأبو

ص: 590

1- الكافي: ج 1 ص 430 ح 86.

2- مناقب آل أبي طالب: ج 3 ص 380.

3- وسائل الشيعة: ج 16 ص 162 ح 21244.

فعلي الإنسان المؤمن أن لا ينخدع بالظواهر وإنما يشغل نفسه في إصلاح باطنه الذي أكّدت الشريعة الإسلامية عليه أكثر من مرّة .

ومن أهمّ الأمور النفسانية الباطنية التي سلّطت عليها الشريعة الأضواء هي ما يسمّى ((بالتقوي)) فلكي يتّقي الإنسان عليه أن ينمّي معرفته باللّه تعالي وهذا لا يتأتّى إلا بالعبادة والمجاهدة للوصول إلي المراقي السامية في سلّم الإيمان الحقيقي ، ولذلك تأمر الآية عباد اللّه المؤمنين بأن :

1 - اتقوا : والخطاب هنا علي وزن ((اتق اللّه يارجل)) وافعل كذا ، أو لا تفعل كذا ، أي اجعل فعلك نابعاً من التقوي للّه ، أو تركك نابعاً من تقوي اللّه التي تصدّ عن فعل المحرّمات كلّها .

فقد قال اللّه عزّ وجلّ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ (2) » أي اجعلوا إيمانكم نابعاً من تقوي اللّه بكل معني الكلمة .

2 - آمنوا برسوله : أي أنّ الإيمان الحقيقي بالرسول صلي الله عليه وآله ويجب أن يكون صادقاً خالصاً لا يشوبه شبهة ولا نفاق ولا غير ذلك من القضايا الأخرى .

فالإيمان بالرسول هو محك الإيمان والتقوي معاً ، وإلا فما هي قيمة إيمان لا يتحوّل في واقع الإنسان إلي ولاء ديني ؟ وما قيمة الإيمان الذي لا يصنع مجتمعاً صالحاً ، يعمر الأرض ، وينصر الضعفاء ، ويقاوم الطغاة والمحتلين والمجرمين ؟

عاقبة التقوي

وقد أشارت الآية الكريمة إلي عاقبة هذا الإيمان والتقوي . وهي :

ص: 591

1- بحار الأنوار : ج22 ص341 ح52 .

2- سورة الحديد (57) : الآية 28 .

ففي الحياة الدنيا السعادة والسرور والبهجة بالإيمان الحقيقي النابع من القلب السليم .

وفي الآخرة : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر .

ومما يؤسف له حقاً إنّ كثيراً من الناس يظنّ أنّ الإيمان الحقيقي يعني : الفقر والفاقة ، وخراب الحياة الدنيا لعمران الحياة الآخرة ، وهذا بحدّ ذاته تفكير سقيم ، وظنّ باطل ، لأنّ الدين ليس في موقع ((الضدّ)) للدنيا ، بل هو يريد للإنسان أن يضمّ الدنيا إلي الآخرة لكي يعيش كما أمر الله ورسوله . فإذا اجتمعت الدنيا والدين في رجل فهذا أمر حسن وفي غاية الطرافة والجمال ، من جانب آخر فإنّ اجتماع الكفر والفقر يعتبر أقبح وأبشع شيء في هذه الحياة الدنيا .

فالعلاقة بين الدنيا والآخرة بنظر الإسلام ليست علاقة ((التناقض)) بل هي علاقة ((التكامل)) وضمّ إحداهما إلي الأخرى من أجل استقامة الحياة الدنيا والفوز بالجنة في الحياة الآخرة ونعيم الأبد عند مليك مقتدر .

فعن أبي عبدالله(عليه السلام) قال : ((ليس ممّا من ترك دنياه لآخرفته ولا آخرفته لدنياه))⁽¹⁾.

وعن العالم(عليه السلام) أنّه قال : ((اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً))⁽²⁾.

وعن أبي عبدالله(عليه السلام) قال : ((نعم العون الدنيا علي الآخرة))⁽³⁾.

وهكذا فإنّ الدنيا بما فيها من نعم وأفراح ، لا تعدّ شيئاً بالنسبة إلي نعم الآخرة

1- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص156 ح3568 .

2- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص156 ح3569 .

3- من لا يحضره الفقيه : ج3 ص156 ح3567 .

التي عبّرت عنها الرواية بأن لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا حتي خطر علي قلب بشر .

2 - يجعل لكم نوراً : فياتري ما هو هذا النور الذي عبّرت عنه بعض الآيات ب : «يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ(1)» . وقوله تعالى : «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ(2)» .

الجواب علي هذا السؤال بأنّ النور معني عام يشمل كل خير ، فالإيمان نور ، ولذلك ورد في الحديث عنه صلي الله عليه وآله : ((توقّوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ)) (3).

والعلم نور .. كما أنّ النور هو الإمام(عليه السلام) في كل عصر ومصر بدلائل كثيرة ، والأحاديث الشريفة الواردة عن أئمّتنا الكرام عليهم السلام تؤكد أنّ ((نوراً تمشون به)) يعني إماماً(4) تأتمّون به(5).

وهنا قد يسأل سائل فيقول : ما هي أهمية هذا النور بالنسبة للمؤمنين بحيث إنّ الآية تجعله كجزء أمتنا يمنّ به الباري علي المؤمنين ؟

الجواب عليه : المتتبع للأحاديث والآيات القرآنية يعرف مدي ضرورة القائد بالنسبة لأئمة أمة علي وجه الأرض والآية الكريمة تصرّح بذلك حيث قال تعالى : «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ(6)» .

وقال رسول الله صلي الله عليه وآله قال : ((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة

ص : 593

-
- 1- سورة الحديد (57) : الآية 12 .
 - 2- سورة المائدة (5) : الآية 15 .
 - 3- الكافي : ج 1 ص 218 ح 3 .
 - 4- راجع الكافي : ج 1 ص 194 وص 430 ، بحار الأنوار : ج 9 ص 242 ، تأويل الآيات : ص 642 ، تفسير فرات الكوفي : ص 468 ، تفسير القمّي : ج 2 ص 352 ، شواهد التنزيل : ج 2 ص 308 ، المناقب : ج 3 ص 380 .
 - 5- نور الثقلين : ج 5 ص 252 .
 - 6- سورة الإسراء (17) : الآية 171 .

جاهلية)) (1)، وفي حديث آخر: ((مات يهودياً أو نصرانياً)) (2) وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا المجال .

وقد يقول البعض هنا: ما هو حاجتنا لمثل هذا القائد مع وجود كتاب الله الذي نرجع إليه عند كل معضلة؟ فإنه يقال لهم ما أحوجنا إلي القيادة الربانية التي تؤوّل وتفسّر لنا الوحي (لأنّها الأقرب إلي حقائقه، فهي المرآة الصافية التي تعكس حقائق القرآن بصدق وأمانة ووعي، فليس المهم أن يتحرّك الإنسان أو يمشي، بل المهم أن تكون حركته في الطريق المستقيم نحو الأهداف التي خلق من أجلها .

وهذا لا يتأتّى إلا بالنور، الذي يجعله الله في قلب من يشاء حيث قال: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» (3).

والجعل إمّا يكون مباشراً عبر الوحي، وإمّا غير مباشر عبر المقاييس والموازن التي يشخص بها القائد للناس ((وهو الإمام(عليه السلام)) ()).

فما أحوجنا اليوم إلي هذا النور، ونحن نعيش في عالم كثر فيه البدع والمذاهب الضالّة، ووسائل الإعلام، وتنوّع الثقافات الضالّة .

فالإمام نور ووجوده ضرورة عقلية ونقلية وحضارية كذلك .

الملفت للانتباه أنّ الآية الكريمة ختمت بقوله تعالي «يَغْفِرْ لَكُمْ» إذ أنّ غفران الذنوب يكون عبر الإيمان بالله ورسوله صلي الله عليه وآله والتسليم إلي القيادة الربانية الحقّة، لأنّ الله ((غفور)) للعاصين ((رحيم)) بالمؤمنين .

اللهمّ ارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

ص: 594

1- وسائل الشيعة: ج16 ص246 ح21475 .

2- المحاسن: ج1 ص92 ح45 .

3- سورة النور (24): الآية 35 .

إشارة

(75) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» (سورة المجادلة : 9)

في رحاب المفردات

تناجيتهم : ناجيته أي ساررته ، وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض وقيل أصله من النجاة وهو أن تعاونه علي ما فيه خلاصه أو أن تنجو بسرّك من أن يطلع عليك ، وتناجي القوم ، قال : «إِذَا تَنَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ (1)».

الإثم : الإثم والآثام اسم للأفعال المبطنة عن الثواب ، وجمعه آثام ، ولتضمّنه لمعني البطئ قال الشاعر :

جماليّة تغتلي بالروادف

إذا كذب الآثامات الهجيرا

ص: 595

وقوله تعالى : «فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (1)» أي في تناولهما إبطاء عن الخيرات (2).

شأن النزول

نقل أن سبب نزول الآية الكريمة هو أن اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم - دون المؤمنين - وينظرون إلي المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، ولما رأى المؤمنون نجواهم يقولون : ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقرارنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل ، أو مصيبة ، أو هزيمة ، فيقع ذلك في قلوبهم ، ويحزنهم .

فلما طال ذلك شكوا إلي رسول الله صلي الله عليه وآله ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلي مناجاتهم ، فنزلت الآية (3).

عبر من الآية

قبل أن نخوض غمار البحث حول مسألة التناجي لا بأس أن تكون لنا وقفات عابرة نوصّح من خلالها أقسام النجوي ، وما هو الإثم والبرّ والتقوي التي أكدت عليها الآية الكريمة ؟

مقدمة نقول أن للنجوي أنواعاً تختلف من ناحية الحكم الشرعي ، وذلك طبقاً

ص: 596

1- سورة البقرة (2) : الآية 219 .

2- مفردات الراغب : ص 5 .

3- مجمع البيان : ج 28 مج 9 ص 414 - 413 .

لاختلاف)محتوي النجوي(و)ظروف النجوي(كذلك .

فالنجوي قد يكون محتواها :

1 - الظلم والعدوان ومعصية الرسول صلي الله عليه وآله والعياذ بالله .

2- البرّ والتقوي .

3- أو تحتوي علي أمر عادي من الأمور الحياتية اليومية .

وتبعاً لذلك تنقسم النجوي إلي أنواع الأحكام الخمسة المعروفة في الفقه .

فتنقسم إلي)واجب(و)مندوب(و)مباح(و)مكروه(و)حرام(حسب ما ذكره الفقهاء والعلماء في كتبهم الكثيرة .

أمّا)الإثم(فهو فعل الحرام كما كان يفعل اليهود والنصارى والمنافقون في مجتمع المدينة ، فكانوا لا يتوانون عن بثّ الذعر والفوضى بين صفوف المسلمين بأقوالهم وأفعالهم الخبيثة .

و)البرّ(هو أي عمل أو فعل للخير ، كالإنفاق وشبهه .

و)التقوي(هي التزام الطاعات واجتناب المعاصي علي كل حال .

وقد يكون الفرق بين)الإثم(و)العدوان(هو أنّ الأول ذنب ذو بُعد فردي وخاص ، كشرب الخمر مثلاً .

أمّا الثاني ذنب له بُعد اجتماعي عام ، كالظلم والفساد وأكل حقوق الآخرين بالباطل ، أو السعي لتفتيت وحدة الصفّ وهدم البنيان الإسلامي الرصين .

فالبرّ هو الحق والإحسان وسائر المضامين الخيرة المرضية عند الله ، وهي التي تقرب إليه ، وهو نقيض)الإثم(وقد قال تعالى : «وَتَعَاوَنُوا عَلَي البرِّ وَالتَّقْوِي وَلَا

ص: 597

تَعَاوَنُوا عَلَيَّ الْإِثْمَ وَالْعُدْوَانَ (1)».

كما أنّ العدوان صورة للتعدّي علي حدود الله في العلاقة مع المجتمع ، والتقوي هي الداعي الأكبر للالتزام بأحكامه وشرائعه وحدوده .

وتأتي أهمية التناحي بين المؤمنين علي الصعيد الاجتماعي ، كوسيلة فضلي إلي النقد البناء بالنصيحة ، قال الإمام العسكري (عليه السلام) : ((من وَعَظَ أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ زَانَهُ ، وَمَنْ وَعَظَهُ عِلَانِيَةً فَقَدْ شَانَهُ)) (2).

فالنجوي المحرّمة هي النجوي السيّئة ، لأنّ الشيطان هو من يقف وراءها ، ويغذيها بسمومه ولذا فإنّ بيان أهدافها الخبيثة ، والتوكّل علي الله ، تعد ضرورة من أجل مقاومتها والعمل لإبطال مفعولها السلبي والمدمّر في النفوس وفي واقع المجتمع .

ولذلك تبرّر الآية المذكورة هذا النهي قائلة : إنّما النجوي من الشيطان .

فهو العدو الأول والأخطر للإنسان المؤمن ، وإنما يتناحي المنافقون مع بعضهم بتلك المضامين السيّئة (الظلم والعدوان ومعصية الرسول صلي الله عليه وآله) لأنّ الشيطان كان يأمرهم بذلك ، ولذلك فإنّ كلّ نجوي سلبية فهي بدافع شيطاني (كالهوي ، والطمع ، والمصالح الماديّة ، وحبّ التفريق بين المؤمنين).

الأصل في النجوي

وقد يستشعر من الآية أنها تدل علي أنّ الأصل في النجوي الكراهية ، لأنّها مظنة الغيبة والتهمة ، ومركز المؤامرة ، ضدّ المجتمع والنظام ، ولأنّ الشيطان يكون عند

ص: 598

1- سورة المائدة (5) : الآية 2 .

2- بحار الأنوار : ج 71 ص 166 ح 29 .

النجوي أقوى منه في أي حال آخر ، لذلك يحسن تجنبها قدر الإمكان إلا عند الحاجة إليها .

فمن رسول الله صلي الله عليه وآله قال : ((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج إثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه)) (1).

ومن هذا المنطلق جاء في آخر الآية المباركة التذكير (بالحشر) أي يوم القيامة حيث قال تعالى : «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» (2).

أي خافوه وتوقوا غضبه وسخطه وناره التي وقودها الناس والحجارة ، تلك النار الذي سجرها جبارها لغضبه - نستجير بالله من غضبه - فتذكير المؤمنين بيوم الحساب هو ضمانه قويّة للورع والتقوي ، ودافع حقيقي لفعل الخيرات وعمل الصالحات .

أي أنها ضمانه حقيقية لتطبيق جميع قوانين الإسلام الحنيف في الحياة .

وهذا التذكير ضروري جداً للإنسان ، لأنّ من طبيعته النجوي وخاصة إذا كان الاجتماع كبيراً ، وهذه طبيعة ثابتة في النفوس ، لا يمكن أن يرتدع الإنسان عنها إلا بالتقوي والورع والخوف من الله سبحانه وتعالى .

فالتذكير (بالحشر) ضروري لأنّ الإحساس بشهادة الله وحضوره مع المتناجين ، هو الضمان الوحيد لنبذ وساوس الشيطان من جلسات المؤمنين الخاصّة ، خاصّة أنّ أكثر الروادع التي تمنع السقوط في وادي الغيبة والنميمة والتهمّة والتعصّب لجماعة ضدّ جماعة أُخري تتلاشي في جلسات الخلسة والخلوة حيث يحسّ الإنسان

ص: 599

1- مجمع البيان : ج 28 مج 9 ص 416 - 415 .

2- سورة المجادلة (58) : الآية 9 .

برفع الكلفة والتحرّز من ضغط المجتمع ، ولكن أليس الله ينظر إليهم ويسمع تحاورهم؟

ألا يؤمنون أنه - تعالي - سيحاسبهم علي الملاء غداً يوم الحشر والنشر؟

أفلا يتّقون الله في كل ذلك؟

ص: 600

إشارة

(76) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَقَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (سورة المجادلة : 11)

في رحاب المفردات

التفسيح : قوله تعالى : «تَقَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ» أي توسدوا فيها ، يقال فسحت له في المجلس فسحاً من باب نفع : فرجت له عن مكان يسعه (1).

انشروا : قوله تعالى : «وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا» أي انهضوا وارتفعوا عن مجلس النبي (عليه السلام) إلي الصلاة والجهاد وأعمال البرّ ، وقرئ بضمّ الشين وكسرهما (2).

ص : 601

1- مجمع البحرين : مادة فسح .

2- مجمع البحرين : مادة نشر .

شأن النزول

قيل إنَّ المسلمين الأوائل كانوا يتنافسون في مجلس النبي صلي الله عليه وآله وكان رسول الله صلي الله عليه وآله في الصفة خلف جدار المسجد، وفي المكان ضيق، وذلك في يوم الجمعة، وكان رسول الله صلي الله عليه وآله يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، ف جاء أناس من أهل بدر، وفيهم ثابت بن قيس بن شماس وقد سبقوا في المجلس، فقاموا حيال النبي صلي الله عليه وآله فقالوا: السلام عليك أيها النبي، ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليهم النبي صلي الله عليه وآله. ثم سلّموا علي القوم بعد ذلك، فردّوا عليهم، فقاموا علي أرجلهم ينتظرون أن يوسّع لهم، فلم يفسحوا لهم. فشقَّ ذلك علي النبي صلي الله عليه وآله فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان، بقدر نفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر. فشقَّ ذلك علي من أُقيم من مجلسه، وعرف الكراهية في وجوههم. وقال المنافقون للمسلمين: أستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس، فوالله ما عدل علي هؤلاء أن قوماً أخذوا مجالسهم، وأحبّوا القرب من نبيهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم! فنزلت الآية (1).

عبر من الآية

في الآية الكريمة بيان أخلاقي رائع، يختص بمجلس الرسول صلي الله عليه وآله ومعاملة العلماء واحترام مكانتهم وهذا غير مقتصر علي أولئك بل يشمل سائر مجالس المؤمنين الإسلامية، فالأخلاقيات الحضارية في الإسلام تنال كل شيء صغيراً كان أو كبيراً،

ص: 602

فهي تشمل ((الأكل والشرب ، والقيام والنوم ، والزينة واللباس ، حتّى المحادثة والمخاطبة والمجالسة)) فلعلّ ذلك آداب يجب التقيّد بها ، وعلي كل فإنّ الآية تشتمل علي أمرين مهمّين وهما :

1 - التفسّح في المجلس للقادم .

2 - التقيّد بالأوامر القيادية .

إذن إنه من أدب المجلس إنّه إذا قدم شخص فعلي الحاضرين أن يفسحوا له المجال فيما بينهم ، ويجمعوا له أنفسهم حتي يتّسع المكان له ولغيره .

علماً أنّ لهذا التصرف البسيط أثراً كبيراً علي الرجل القادم من عدّة جهات أساسية منها :

1 - تحترم إنسانيته وكرامته وتقيه من المهانة والذلّ .

2 - ينقذه من الحيرة والإرباك .

3 - يقوّي أواصر المحبّة والتعاطف ويقوّي المجتمع ككل .

4 - يعلمّ الناس الاهتمام بالآخرين واحترامهم .

وكلّ هذه الآثار دنيوية وقتية ، يمكن ملامسة آثارها المهمّة علي المجتمع في الحياة الدنيا ناهيك عن أثرها الأخروي . ويعبارة أدقّ أنّ الله سبحانه وتعالى يجازيكم جزاءً من جنس العمل الصالح ذاك ، فكما (أفسحتم) المجال للآخرين كذلك يفسّح الآخريين لكم ويحترمونكم في الدنيا و) يفسح الله لكم (في الآخرة .

ولا يخفي أنّ الفسحة في الدنيا تشمل السعة في المال ، والطول في العمر ، والزيادة في الرزق ، وعمق في الفكر والعقل ، وما أشبه ذلك ، فلعلّ منها فسحة خاصّة بها يتفضّل المولي - سبحانه - علي العبد بها إذا التزم بالأوامر الإلهية .

فالجزء في الآخرة يكون من سنخ العمل في الحياة الدنيا ، وهذا ما يسمّونه

تجسيم الأعمال أو تشخيصها في الدار الآخرة كما هو وارد في كثير من الأحاديث الشريفة .

من جانب آخر فالآية تدعوا إلي التقيد بأوامر القيادة الشرعية .

لا سيما قيادة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت الكرام عليهم السلام التي هي امتداد رسالي لقيادة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، فالقائد إذا طلب من الناس طلباً ما طلب أو أمرهم بأمر فينبغي لهم التقيد التام به والتنفيذ الحرفي والسريع للأمر دون أي تباطؤ أو تردد أو مناقشة .

صور من معاناة الرسول صلى الله عليه وآله

وقد عانى رسول الله من هذه النقطة - وهي عدم التقيد بالأوامر أشد المعاناة - فمن أسباب انكسار المسلمين في معركة أحد - بعد النصر الساحق علي جيوش الكفر بقيادة أبو سفيان - هو عدم التزام رماة السهام بأوامره صلى الله عليه وآله لهم بالثبات في أماكنهم مهما كانت الأسباب المبررة للترك .

فما أن رأوا انتصار المسلمين وهروب المشركين وكثرة الغنائم في ساحة الميدان حتي تركوا أماكنهم جرياً وراء الغنائم ، بينما كان قائدهم المباشر ينهاهم عن ترك الأماكن ، ولما رأى خالد بن الوليد ذلك منهم النف من ورائهم وجاءهم بغتة وراح يقتل بهم ، حتي قتل أسد الله وأسد رسوله (حمزة بن عبدالمطلب) عليه السلام ((فصاحوا قتل حمزة ، ففرّ المسلمون وولّوا الدبر إلا المؤمنون الخالص الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتي أنزل الله بهم نصره بسيف أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب) عليه السلام) .

وأما في غزوة الأَحزاب فالتخاذل كان واضحاً وذلك عندما استولي الخوف علي المسلمين حتي أن الباري تعالي وصف حالهم فقال :
«وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ

وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَ(1)» آنذاك قتل الإمام علي(عليه السلام) الطاغية الجبار(عمرو بن عبد ودّ العامري)، فكانت ضربته(عليه السلام) يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين إلي يوم القيامة(2).

وفي خيبر عندما تحصّن الأعداء في الحصون انهزم الجيش الإسلامي أكثر من مرّة وذلك لضعف قيادته وتخاذله عن مقاومة الأعداء الأمر الذي بعث الخوف في نفوس المسلمين حتّى أعطي الرسول صلي الله عليه وآله الراية إلي رجل قال عنه رسول الله صلي الله عليه وآله يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كزار غير فزار يفتح الله علي يديه، واللطف في ذلك أنه صلي الله عليه وآله عندما أعطاه الراية قال له: انطلق إلي القوم ولا تلتفت إلي الوراء.

فأخذ الراية الأمير(عليه السلام) ومشى خطوات ونادي يا رسول الله علي ماذا أقاتل القوم؟

فقال له صلي الله عليه وآله: علي أن يقولوا لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

فقال له: سمعاً وطاعة يا رسول الله وراح يهرول إلي الحصن الذي كان يعجز عن هزّه أربع وأربعون رجلاً فقلعه ورمي به جانباً، وقد أشار إلي ذلك ابن أبي الحديد فقال:

ياقالع الباب الذي عن هزّه

عجزت أكف أربعين وأربع

نعم، هكذا يكون الإلتزام بأوامر القائد حرفية ودون أي نقاش في ذلك أبداً لا سيّما إذا كان القائد مسدداً ومؤيداً من عند الله - تعالي - بالوحي المنزل.

ص: 605

1- سورة الأحزاب (33): الآية 10.

2- إقبال الأعمال: ص 466.

الملفت للانتباه أنّ الآية تقول : «وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا» أي إذا قيل لكم قوموا ، فقوموا دون أي انزعاج من ذلك ، فهو أمر أولاً من القائد العام ، وأدب ثانياً للمجالس الإيمانية .

فقد يأتي شيخ كبير في السن لا يستطيع الوقوف أكثر من اللازم ، أي أنه يحتاج إلي الجلوس ولا يوجد له محل مناسب ، وقد يكون عالماً محترماً أو نحو ذلك ، فيجب أن تقوم لأجلهم .

وربما يكون هذا نوع من أنواع الإيثار والاحترام والتقدير معاً .

والأثر الرائع لهذا الامتثال : هو ((الرفعة)) في الدنيا والآخرة وكما قال تعالى : «يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا(1)» أي أنّهم كلّما تواضعوا يرفعهم الله ، ولنعم ما قال الشاعر :

ولا تكن كالمدخان يعلو بنفسه

إلي طبقات الجو وهو وضع

فإنّ من التواضع أن يقوم الإنسان للأكبر منه سناً ، أو للعالم ، ومن قلة الأدب أن يجلس مسترخياً في مجلس مزدحم وفيه أناس واقفين لا يجدون المكان الذي يجلسون فيه .

فالرفعة بالإيمان والعلم لا بالشرف والمال ، والشريف من شرفه الله بطاعته وعبادته وتقواه كل ذلك إنّ الله به خبير بصير .

ص: 606

إشارة

(77) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (سورة المجادلة: 12)

في رحاب المفردات

ناجيتم : ناجيته أي ساررتة ، وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض ، وقيل أصله من النجاة وهو أن تعاونه علي ما فيه خلاصه أو أن تنجو بسرك من أن يطلع عليك(1).

صدقة : ما يخرجها الإنسان من ماله علي وجه القربة كالزكاة لكن الصدقة في الأصل تقال للمقطوع به والزكاة للواجب وقد يقال للواجب صدقة إذا تحرّي صاحبها الصدق في فعله(2).

ص: 607

1- مفردات الراغب : ص 504 .

2- مفردات الراغب : ص 286 .

شأن النزول

عن ابن عباس في قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ (1) » قال إنه حرم كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ثم رخص لهم في كلامه بالصدقة فكان إذا أراد الرجل أن يكلمه تصدق بدرهم ثم كلمه بما يريد قال : فكف الناس عن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وبخلوا أن يتصدقوا قبل كلامه فتصدق علي (عليه السلام) بدينار كان له فباعه بعشرة دراهم في عشر كلمات سألهن رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يفعل ذلك أحد من المسلمين غيره وبخل أهل الميسرة أن يفعلوا ذلك ، فقال المنافقون : ما صنع علي بن أبي طالب الذي صنع من الصدقة إلا أنه أراد أن يتزوج لابن عمه فأنزل الله تبارك وتعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ (2) » .

عبر من الآية

بالرغم أن هذه الآية تنص علي فضل أن الله يؤتية من يشاء ، إلا أنها في نفس الوقت توحى بأن ذلك يحتاج إلي قابليات ، وإلي قلوب سليمة وعقول جبارة ، ونفوس طاهرة وأجسام مجاهدة ، وهمم عالية ، وخصوصيات أخري كثيرة ، تفرّد بها الإمام علي (عليه السلام) .

إذ أن الأغنياء عادة ما يطلبون الربح ويهربون من الخسارة ، ولا يخفي أن

ص: 608

1- سورة المجادلة (58) : الآية 12 .

2- سورة المجادلة (58) : الآية 12) تأويل الآيات الظاهرة : ص 648 .

إمتثالهم لمثل هذه الآية المباركة يقودهم إلي خسارة أموالهم لقاء تكلمهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهذا لا يُحتمل بالنسبة إليهم ، فالجلوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله والإكثار من الحديث معه ومناجاته مطلوبة لديهم لأمرين اثنين وهما :

1 - قضاء الوقت الكبير من الفراغ لديهم .

2 - الظهور أمام الناس أنهم من المقرّبين والملازمين لرسول الله صلى الله عليه وآله .

وأما الأمر إذا بلغ إلي دفع غرامة مالية للحديث معه صلى الله عليه وآله تجدهم يفرّون من ذلك الحديث معه صلى الله عليه وآله وحيث إنهم لم يكونوا أصلاً يتحدّثون بأمور وقضايا ذات أهمية ، فيمكن الاستغناء عن الحديث من أوّله ، فتفرّقوا من ساعتهم ولم يعودوا لمناجاة الرسول صلى الله عليه وآله .

وبالجملة : إنّ ثمن القائد ثمين جدّاً ، وعلي الأّمة أن تعرف ذلك جيداً ، وعليها أن تراعي هذا أيضاً ، فإن كان هناك ضرورة حقّ للناس أن يسألوا ويبحثوا كما يشاؤون ، أمّا إذا لم تكن هناك ضرورة فينبغي لهم أن يراعوا وقت القائد بقدر الإمكان .

فالقائد بحاجة إلي كل لحظة من أجل خدمة الرسالة الإلهية ، فهو ليس لأشخاص معينين فقط بل هو للدنيا وللعالمين وللثقلين من إنس وجنّ ، وهو يوزّع وقته بين :

1 - تلقّي الوحي الإلهي واستقبال جبرائيل (عليه السلام) .

2 - إبلاغ الوحي إلي جماعة المسلمين في حينه أو عند الضرورة له .

3 - تعليم المسلمين الأحكام والشرائع وآيات القرآن .

4 - تأديب المسلمين بأداب القرآن وأخلاقه الكريمة .

5 - إقامة العبادات من صلوات وأدعية وأذكار وتهجّد في الليل مع الصلاة

المختصّ بها .

6 - استقبال الناس ودعوتهم إلى الرسالة الجديدة مع الإيضاح ، والردّ علي شبهات الكفّار والملحدين وأهل الكتاب وما شابه ذلك .

7 - مراعاة شؤون العائلة وتدبير أمور البيوت حيث كان لرسول الله صلي الله عليه وآله عدداً كبيراً منها .

8 - مراعاة حقّ نفسه عليه من سكون وطمأنينة وراحة .

وغيرها من الأمور التي يختصّ بها القائد أكثر من غيره ، من هذه الأمة فإذا لم يتوفّر له الوقت المناسب لكل ذلك ، فلربما خللاً تصاب به الرسالة ، وهذا غير مسموح به عند الله - سبحانه - لذلك أنزل مثل هذه الآيات التأديبية والأخلاقية والتربوية الكثيرة في القرآن الكريم .

الافتداء بأمر المؤمنين (عليه السلام)

إذن علينا أن نقتدي بأمر المؤمنين (عليه السلام) الذي قال عندما نزلت الآية : ((إنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي)).

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ (1)».

فقال صلوات الله عليه : ((بي خفف الله عن هذه الأمة ، ولم ينزل في أحد قبلي ، ولم ينزل في أحد بعدي)).

وقال عمر بن الخطاب : وكان لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) ثلاثة لو كانت لي واحدة منهنّ ، لكانت أحب إليّ من حُمُر النعم .

ص: 610

1 - تزويجه فاطمة عليها السلام .

2 - وإعطاؤه الراية يوم خيبر .

3 - وآية النجوي(1).

ففي هذه الآية مباحث هي :

1 - أنها تثبت فضيلة تفرّد بها أمير المؤمنين(عليه السلام) ولم يسبقه إلي ذلك أحد ، لا من الأولين ولا من الآخرين وذلك إلي قيام يوم الدين .

2 - لماذا شرّع هذا الحكم؟ ولماذا نسخ مباشرة وبنفس السورة؟

البحث حول الناسخ والمنسوخ

إنّ هذا السؤال يقودنا إلي دراسة الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم ، وهذا ما لا مجال لذكره الآن .

إلا أن يقال : إنّ الأمر ليس بالأهواء والمزاج ، بل التشريع هو من الله - سبحانه - وهو العالم بالمصالح والمفاسد فإنّ التشريع الذي هو بحاجة إلي تدرّج فهو يدرجه من أجل أن يستأنس الناس ويروضهم لتقبّله شيئاً فشيئاً ، لأنّ التشريع يراعي حرمة العقل وكذلك العواطف والمشاعر في الإنسان العادي .

كتحريم الخمر الذي تدرّج شيئاً فشيئاً فنزلت فيه ثلاث أو أربع آيات متتالية حتي نزل التحريم القطعي به .

وربما تكون المصلحة هنا هي امتحان الناس الذين كانوا في عهد الرسالة لا سيّما أصحاب الأموال والأغنياء ، ليعلم من يقدم حبّ السؤال من رسول الله وتعلّم مسائل الدين علي ماله الذي سيفني في يوم ما .

ص: 611

1- الطرائف : ص 40 ح 33 .

وصدق أبو عبد الله الحسين (عليه السلام) حيث قال : ((الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق علي أسنتهم ، يحوطونه ما درّت عليهم معاشهم ، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون))⁽¹⁾.

وعلي كل حال فالصدقة بحدّ ذاتها ((طهارة)) للنفس والمال ، ولذلك وصفها سبحانه بقوله ((خير لكم)) لأنّ فيها أداء لواجب وتحصيل للثواب وهي كذلك ((وأطهر)) أي : أدعي للمؤمنين ، وأزكي لهم ، ليتطهّروا بدفع الصدقة الرسول صلي الله عليه وآله ، كما تقدّم الطهارة والوضوء علي الصلاة .

وهذا الواجب علي الأغنياء فقط أمّا الفقراء والذين ((لا يجدون)) ما يتصدّقون به ((فإنّ الله غفور)) يتستّر عليهم ويغفر ذنوبهم وينعم عليهم في الدنيا والآخرة .

فالمسألة إذن ليست مسألة تعجيز أو ما شابه بل هي مسألة حكمة وتأديب وتعليم للأمة كلّها ، ولم يعرف لها حقّها إلا أمير المؤمنين (عليه السلام) فبادر إلي العمل بها دون غيره .

ص: 612

1- بحار الأنوار : ج 75 ص 116 ح 2 .

(78) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (سورة الحشر : 18)

في رحاب المفردات

لتنظر : النظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته ، وقد يُراد به التأمل والفحص ، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية(1).

نفس : النفس الروح في قوله : «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ(2)» وقال : «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ(3).

خبير : قوله تعالي : «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(4)» أي عالم بأخبار أعمالكم ، وقيل : أي عالم ببواطن أموركم ، وقيل : خبير بمعنى مخبر كقوله : «فَيَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

ص: 613

1- مفردات الراغب : ص 519 - 518 .

2- سورة الأنعام (6) : الآية 93 .

3- سورة البقرة (2) : الآية 235) مفردات الراغب : ص 522 .

4- سورة التوبة (9) : الآية 16 .

تَعْمَلُونَ(1)» وقال تعالى : «وَتَبَلَّغُوا خَبَارَكُمْ(2)» و«قَدْ نَبَّأْنَا اللَّهَ مِنْ خَبَارِكُمْ(3) أي من أحوالكم التي نُخْبِرُ عنها(4).

شأن النزول

قال مفتي العراقين محمد بن يوسف بن محمد القرشي (الشافعي) (في كتابه) كفاية الطالب (عن محمد بن عبدالواحد بن المتوكل عن ابن عباس قال : ((ما نزلت آية فيها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إِلَّا وَعَلِي رَأْسَهَا ، وَأَمِيرَهَا وَشَرِيفَهَا ، وَلَقَدْ عَاتَبَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَا ذَكَرَ عَلِيًّا إِلَّا بِخَيْرٍ)) (5).

عبر من الآية

بين الفترة والأخري تعاود آيات الذكر الحكيم وصاياها وإرشاداتها لعباد الله المؤمنين الذين يعتبرون بمثابة الدعامة الأساسية لبناء المجتمع الإسلامي الفاضل .

ومن أهمّ الوصايا التي أكّدت عليها آيات القرآن الحكيم هي مسألة التقوي ، فما هي التقوي ؟ وكيف نتقي ؟ ولماذا هذا الحصر بالمؤمنين ؟ وماذا عن غير المؤمنين ، فهل إنهم مطالبون بالتقوي كذلك أم لا ؟

ص: 614

- 1- ((- سورة المائدة (5) : الآية 105 .
- 2- سورة محمد (47) : الآية 31 .
- 3- سورة التوبة (9) : الآية 94 .
- 4- مفردات الراغب : ص 142 .
- 5- كفاية الطالب : ص 140 .

الجواب علي ذلك إنّ كل الناس مطالبون بالتقوي والطاعة والعبادة لأنها سبب خلقتهم جميعاً كما صرّحت الآية بذلك فقال عزّ من قائل :
«وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(1)» ولكن التخصيص هنا جاء لسببين :

1 - أنّ الذي ينتفع بهذا النداء هو المؤمن وحده ، أمّا الكفّار والمنافقون فقلوبهم لاهية وساهية عن الذكر والتذكير ، فلا ينفعهم مثل هذا النداء .

2 - في هذا إشعار وتذكير للمؤمنين ، بأنكم مؤمنون حقّاً ، أي أنكم قد أبرتم عقداً مع الله ، أو أخذ الله عليكم عهداً ، فلا بدّ من أن تلتزموا بلوازم الإيمان ، وتتحلّوا بصفات المؤمنين حقّاً لأنّ الالتزام بالشيء هو التزام بلوازمه وخصوصياته .

ولا يخفي أنّ المؤمنين يتميّزون عن غيرهم بثلاث خصال وهي :

1 - تقوي الله التي تسوقهم إلي الطاعة وتحجزهم عن المعصية وهي روح الإيمان .

2 - الإيمان بالآخرة كدار للبقاء ، والسعي الجاد والمستمر من أجل إعمارها ، باعتبارها دار مقرّ الإنسان ، فلا يصدّهم عن الإستعداد لها والتزوّد إليها شخص ولا شيء أبداً .

3 - الإحساس العميق برقابة الله في جميع أعمالهم ، وهذا ما ينمي فيهم روح التقوي والإيمان .

وحيث إنّ الشيطان يسعي إلي مسخ شخصيتهم من خلال سلب مثل هذه الصفات الفاضلة ، وجرّهم إلي الفسوق بأساليبه الخفيّة كالوساوس والاعغراءات المضلّة لهم فقد وجّه الباري تعالي نداءه إليهم بلطفه وعظيم منّته ، لكي يظهر هذا النداء الربّاني علي ما يلقي الشيطان من نداءاته الخبيثة في القلب ، ووساوسه الداعية

ص: 615

1- سورة الذاريات (51) : الآية 56 .

إلي التمرّد والعصيان ونسيان الآخرة .

فالتقوي كما قال الإمام الصادق(عليه السلام) : هي ((أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك))⁽¹⁾.

وقد جعل الإسلام مقياس التفاضل بين الناس هي التقوي : ((فلا فضل لعربي علي عجمي ، ولا لعجمي علي عربي ، ولا لأبيض علي أسود إلا بالتقوي))⁽²⁾.

وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((ألا إنكم لآدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم))⁽³⁾.

وقال الإمام علي(عليه السلام) : ((من اتقى الله وقاه))⁽⁴⁾.

وقال الإمام علي(عليه السلام) : ((من اتقى الله جعل له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً))⁽⁵⁾.

الوصول إلي التقوي

وبما أنّ التقوي أرفع درجة من الإيمان فقد دعت آية البحث المؤمنين لينمّوا إيمانهم ليصلوا إلي درجة التقوي ، لأنّ الإنسان بحاجة إلي درجة رفيعة من الإيمان ، ليواجه بها الضغوط والتحديات الشيطانية ، ولكي لا ينحرف المؤمن عن الصراط المستقيم ، الذي أمر باتّباعه في الحياة الدنيا .

ويمكن القول بأنّ التقوي هي : التحصّن دون أسباب عذابه وسخطه ، أو

ص: 616

1- بحار الأنوار : ج 67 ص 285 .

2- معدن الجواهر : ص 21 .

3- بحار الأنوار : ج 73 ص 348 ح 13 .

4- غرر الحكم : 5949 .

5- غرر الحكم : 5951 .

الحرمان من رحمته ، والعرض لعقابه ، بحيث تشمل الكلمة العمل بالواجب والمندوب وترك المحرّم والمكروه .

وقد وصف أمير المؤمنين(عليه السلام) المتّقين وصفاً رائعاً عندما سأله تلميذه همّام عن صفات المتّقين فقال له :

((المتّقون فيها هم أهل الفضائل : منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، ومشيمهم التواضع ، غصّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم ، ووقّفوا أسمعهم علي العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء ، ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين ، شوقاً إلي الثواب ، وخوفاً من العقاب .

عظم الخالق في أنفسهم ، فصغر ما دونه في أعينهم ، فهم والجنّة كمن قد رآها فيهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معدّبون ، قلوبهم محزونة ، وشروهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، صبروا أيّاماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسرها لهم ربّهم ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها))⁽¹⁾.

الله ، الله ، نعم يحقّ لهمام أن يشهق شهقة تكون بها نفسه ، من تأثير مثل هذه المواعظ البليغة ، فقد جعل أمير المؤمنين(عليه السلام) هماماً يلامس الحقائق التي يعايشها المتّقون فلم يتحمّل ذلك وهوي إلي الأرض صريعاً .

العلاقة بين التقوي والآخرة

والسؤال الذي يطرح هنا هو : ما هي العلاقة بين التقوي والنظر إلي الآخرة

ص: 617

1- نهج البلاغة : خ193 يصف فيها المتّقين .

الذي أمرت به الآية المباركة ؟

الجواب عليه أنّ الإنسان الممتّعي دائماً ينظر إلي الدار الآخرة ، ففي كل عمل ينظر إليه بعين الآخرة فإن كان مرضياً عند الله ومقرباً إليه تعالى فإنه يقبل عليه أما إذا كان العمل مسخطاً للباري تعالى وموجباً لغضبه فإنّ الممتّعي يتجافاه ويفرّ منه كفراره من الأسد .

ففي الحديث القدسي إنّ الله تعالى خاطب نبيّه موسى فقال : ((والمؤمن من زُيّت له الآخرة ، فهو ينظر إليها ما يفتر قد حالت شهوتها بينه وبين لذة العيش فأدلجته بالأسحار كفعل الراكب السائق إلي غايته يظللّ كئيباً ويمسي حزيناً فطوبى له لو قد كشف الغطاء ماذا يعاين من السرور))⁽¹⁾.

وأخيراً نقول : إنّ الدنيا مزرعة الآخرة ، واليوم عمل ولا حساب ، وغداً النتائج تصدر والمحاصيل تحصد ، وكل يحصد نتائج غرسه وزرعه في هذه الدنيا .

فلا يتوقّع زارع الشوك حصاد القمح أو حتّى الشعير .

ص: 618

1- الكافي : ج 8 ص 41 ح 8 .

إشارة

(79) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» (سورة الممتحنة : 1)

في رحاب المفردات

عدوي : العدو هو التجاوز ومنافاة الالتئام فتارةً يعتبر بالقلب فيقال له العداوة والمعاداة ، وتارةً بالمشي فيقال

ص: 619

له العَدُو، وتارةً في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له العَدُوَان والعَدُو(1).

أولياء : الولاية هي النصره ، والولاية بمعنى تولي الأمر(2).

بالمودّة : الودّ هو محبّة الشيء وتمني كونه ، ويستعمل إلي كلّ واحد من المعنيين علي أنّ التمتي يتضمّن معني الودّ لأنّ الودّ هو تشهّي حصول ما تودّه(3).

شأن النزول

تحدّث المفسّرون وكتّاب السيرة والتفسير أنّ الآية المباركة نزلت في حاطب ابن أبي بلتعة ، وذلك أنّ سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام ، أتت رسول الله صلي الله عليه وآله من مكّة إلي المدينة ، بعد بدر بسنتين ، فقال لها رسول الله صلي الله عليه وآله : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا . قال : أمهاجرة جئت ؟ قالت : لا . قال : فما جاء بك ؟ قالت : كنتم الأصل والعشيرة والموالي ، وقد ذهب مواليّ ، واحتجت حاجة شديدة ، فقدمت عليكم لتعطوني ، وتكسوني وتحملوني ! قال : فأين أنت من شبّان مكّة ؟ وكانت مغنية نائحة . قالت : ما طلب منّي بعد وقعة بدر . فحثّ رسول الله صلي الله عليه وآله عليها بني عبدالمطلب ، فكسوها ، وحملوها ، وأعطوها نفقة . وكان رسول الله صلي الله عليه وآله يتهجّز لفتح مكّة ، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة ، وكتب معها كتاباً إلي أهل مكّة ، وأعطها عشرة دنانير ، وكساها برداً علي أن توصل الكتاب إلي أهل مكّة ، وكتب في الكتاب :

ص : 620

1- مفردات الراغب : ص 338 .

2- مفردات الراغب : ص 570 .

3- مفردات الراغب : ص 553 .

((من حاطب بن أبي بلتعة إلي أهل مكة: إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذرکم)).

فخرجت سارة، ونزل جبرائيل فأخبر النبي صلي الله عليه وآله بما فعل، فبعث رسول الله صلي الله عليه وآله علياً وعماراً وعمر والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود، وأبا مرثد، وكانوا كلهم فرساناً، وقال لهم: انطلقوا حتي تأتوا روضة خاخ، فإن بها طعينة معها كتاب من حاطب إلي المشركين، فخذوه منها، فخرجوا حتي أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله صلي الله عليه وآله فقالوا لها: أين الكفار؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها وفتشوا متاعها، فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع، فقال علي (عليه السلام): والله ما كذبنا، ولا كذبنا، وسل سيفه وقال لها: أخرجي الكتاب، وإلا والله لأضربن عنقك! فلما رأته أخرجته من ذؤابتها، قد أخبأته في شعرها. فرجعوا بالكتاب إلي رسول الله صلي الله عليه وآله.

فأرسل إلي حاطب فاتاه، فقال له: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم. قال: فما حملك علي ما صنعت؟ قال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت عريراً فيهم (أي غريباً). وكان أهلي بين ظهرائهم، فخشيت علي أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله صلي الله عليه وآله وعذره. فقام عمر بن الخطاب وقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله صلي الله عليه وآله: وما يدريك يا عمر، لعل الله أطلع علي أهل بدر، فغفر لهم، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت

عبر من الآية

كيف نتعامل مع الكفار؟ وكيف ينبغي أن تكون علاقتنا معهم؟

هذا ما تجيب عليه الآية الأولى من سورة الممتحنة .

فالآية المباركة تتحدث وتتناول فرع من فروع الدين المهمة وهو التبرّي من أعداء الله الذي يقابله التولّي لأولياء الله الكرام عليهم السلام .

وربما تعتبر مسألة ((التبرّي)) بالمفهوم العام - أصل من أصول الدين الإسلامي الحنيف ، والأحاديث الواردة عن الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام كثيرة جداً وكلّها تدلّ علي ذلك .

ففي الحديث عن الإمام الباقر : ((وهل الدين إلا الحبّ والبغض في الله))⁽²⁾.

وقال الإمام علي(عليه السلام) : ((إمّا أن تحبّ أعداء أو تصفّي ودك لغير أولياء الله ، فإنّ من أحبّ قوماً حُشر معهم))⁽³⁾.

وقال الإمام علي(عليه السلام) : ((لا تمنحنّ ودك لمن لا وفاء لها))⁽⁴⁾.

قال الإمام الحسين(عليه السلام) : ((القريب من قرّبه المودّة وإن بعد ، والبعيد من

ص: 622

1- مجمع البيان : ج 28 مج 9 ص 446 - 445 .

2- الكافي : ج 8 ص 79 ح 35 .

3- غرر الحكم : في رضي الله وسنخه 4015 .

4- غرر الحكم : 9560 .

باعدته المودّة وإن قرب)) (1).

وعن الإمام علي (عليه السلام) قال : ((عين المحبّ عميّة عن معائب المحبوب ، وأذنه صمّاء عن قبح مساويه)) (2).

المسلمون يوادون أعداء الله

وبالرغم من ذلك إلا أنّ كثيراً من المسلمين دأبوا علي اتّخاذ الأعداء أولياء من يهود ونصاري وملحدين ، يوادّونهم ويحبّوهم بل ويتّخذونهم خواصاً ومقربين ((بطانة)) ، ويفشون إليهم أسرارهم ، ويستشرونهم في كل قضاياهم الكبيرة والصغيرة ، يأخذون بمشورتهم مهما كانت تضرّ في مصالح الأمة ، لأنّهم يزيّنونها ويظهرونها أنّها تصب في مصالح الحاكم .

ألم يقاتل معاوية الإمام علي (عليه السلام) ويبيد الآلاف في صفين بمشورة شخص نصراني ؟

وألم يقتل الإمام الحسن (عليه السلام) بمشورة نفس هذا النصراني ؟

وألم يقتل الإمام الحسين (عليه السلام) بمشورته أيضاً ؟

فالحاكم إذا قرب الفاسق سوف يبعد الصالح والمؤمن ، وإدخالهم وتداخلهم في جميع شؤونهم - وهم يحسبون أنّهم لهم ناصحون - وللأسف يدسّون له ولأمنه السمّ بالعسل دون أن يدري ، ورحم الله الشاعر حيث قال :

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة

وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

ص: 623

1- الكافي : ج 2 ص 643 ح 7 .

2- غرر الحكم : 11061 .

لذلك أخذت الآية المباركة تدم هذا الشعور ، لأنه هناك فاصلاً عقائدياً بين المسلمين ، والشقة بعيدة جداً ، ومع وجود هذا الفاصل كيف يحصل لهم الاطمئنان بهم وكيف يسلمونهم رقابهم ؟

فالجذور العقائدية مؤثرة حتماً ، في الإنسان - مهما كان - ولو كان فاسقاً في عمله أو كافراً في عقيدته ، فالعقيدة تبقى مترسخة ومتجذرة في أعماق النفس وفي صميم القلب ، والعاقل أو الذكي النبي لا يعطي أي فرصة لعدوه للنيل منه .

فلا يمكن أن نجمع جذوة من نار وقطعة من ثلج في يد واحدة ، ولا يمكن أن يجتمع حبّ أولياء الله وأعداء الله في قلب قط .

فعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : ((لا يجتمع حبنا وحبّ عدونا في جوف إنسان إن الله عزوجل يقول : «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ» (1)).

وفي رواية عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله : «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ» (2) قال علي بن أبي طالب (عليه السلام) : ((لا يجتمع حبنا وحبّ عدونا في جوف إنسان ، إن الله لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه فيحب هذا ويبغض هذا ، فأما محبنا فيخلص الحب لنا كما يخلص الذهب بالنار لا كدر فيه ، فمن أراد أن يعلم حبنا فليمتحن قلبه فإن شاركه في حبنا حبّ عدونا فليس منا ولسنا منه والله عدوهم وجبرئيل وميكائيل والله عدو للكافرين)) (3).

ص: 624

1- سورة الأحزاب (33) : الآية (4) بحار الأنوار : ج 24 ص 318 ح 24 .

2- سورة الأحزاب (33) : الآية 4 .

3- تفسير القمّي : ج 2 ص 171 .

وعلي كل فإنّ في الآية إشعاراً بسبب الحكم والحكم معاً .

فالحكم هو حرمة التعامل وحرمة المودة لأعداء الله .

وأما الأسباب فهي :

1 - اتّهم أعداء الله (أي أنه هناك فاصل عقائدي (أو) تناقض عقائدي بحت).

2 - اتّهم أعداء لكم لأنّ التناقض في المصالح الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وما إلي ذلك).

فالذي يفعل ذلك لا شك أنه كما قالت الآية المباركة : «فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(1)» أي الذي يودّ الأعداء وينصرهم ، ويكره المسلمين ويخذلهم فإنّه يضيّع طريق الحقّ المستقيم الواضح الذي لا إعوجاج فيه أبداً ، وهو طريق المسلمين ونهج المؤمنين بقيادة رسول الله صلي الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام .

الجدير بالذكر أنّ الآية تحتوي علي لفظة لطيفة بقوله تعالى : «إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي(2)».

أي أنّ الذي يخرج مهاجراً وغرضه الجهاد في سبيل الله ، وأمله رضا الله - عزّوجلّ - فعليه أن يبقى علي ذلك لا أن يقوده هواه إلي غير ذلك .

وقد أشار رسول الله صلي الله عليه وآله إلي المعني في حديث له فقال : ((من كانت هجرته إلي الله ورسوله ، فهجرته إلي الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلي امرأة ينكحها ، أو دنياً

ص: 625

1- سورة الممتحنة (60) : الآية 1 .

2- سورة الممتحنة (60) : الآية 1 .

يصيبها ، فهجرته إلي ما هاجر إليه)) (1).

فالهجرة يجب أن تكون إلي الله لا إلي النساء أو الأموال أو المتاع الفاني حتّي أنّ التاريخ يقول : بأنّ أحدهم قتل من أجل الحمام فسّمّي شهيد الحمام .

والله سبحانه كما يقول في كتابه : «أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ (2)» «لأنّه أقرب إلي الإنسان من حبل الوريد فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويعلم النفس ووسوستها ، والقلب وخلجاته ، وما يقع فيه والفكر وما يدور فيه - سبحانه وتعالى - .

ص: 626

1- بحار الأنوار : ج 67 ص 249 ، مستدرک الوسائل : ج 1 ص 90 ح 57 .

2- سورة الممتحنة (60) : الآية 1 .

إشارة

(80) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مِمَّا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (سورة الممتحنة : 10)

في رحاب المفردات

فامتحنوهنّ : المحن والامتحان نحو الابتلاء ... قال الله تعالى : «أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِتَتَّقُوا (1)».

ص: 627

جناح : سُمِّي الإثم المائل بالإنسان عن الحقِّ جُنَاحاً ، ثم سُمِّي كل إثم جناحاً نحو قوله تعالى : «لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ (1)» .

بعصم : العِصام ما يُعصم به أي يشد (2) .

شأن النزول

قبل أن نتناول الآية بالشكل الكامل لا بأس أن نمرّ بقصّة نزولها فإنّ لها فائدة قد تفيدنا أثناء البحث .

فقد قال ابن عباس : صالح رسول الله صلي الله عليه وآله بالحديبية مشركي مكّة ، علي أنّ من أتاه من أهل مكّة ردّه عليهم ، ومن أتى أهل مكّة من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وآله فهو لهم ولم يردّوه عليه ، وكتبوا بذلك كتاباً ، وختموا عليه .

فجاءت سُبَيْعة بنت الحرث الأسلمية ، مسلمة بعد الفراغ من الكتاب - والنبي صلي الله عليه وآله بالحديبية - فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم ((أو صيفي بن الراهب)) في طلبها - وكان كافراً - .

فقال : يا محمد ! اردد عليّ امرأتي ، فإنّك قد شرطت لنا أن تردّ علينا من أتاك ممّا . وهذه طينة الكتاب لم تجفّ بعد .

فنزلت الآية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ (3)» من دار الكفر إلي دار الإسلام ((فامتحنوهنّ)) .

ص: 628

1- سورة البقرة (2) : الآية (235) مفردات الراغب : ص 98 .

2- مفردات الراغب : ص 349 .

3- سورة الممتحنة (60) : الآية 10 .

((وامتحانهنّ أن يستحلفن ، ما خرجت من بغض زوج ، ولا رغبة عن أرض إلي أرض ، ولا التماس دنيا ، وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله))

فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وآله علي أنّها ما خرجت بغضاً لزوجها ، ولا عشقاً لرجل منّا ، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام ، فحلفت بالله الذي لا إله إلا هو علي ذلك ، فأعطي رسول الله صلى الله عليه وآله زوجها مهرها ، وما أنفق عليها ، ولم يردها عليه ، وفيما بعد تزوّجها عمر بن الخطاب(1).

عبر من الآية

من المسائل المهمّة التي كانت محل ابتلاء المسلمين في صدر الإسلام هي مسألة كيفية التعامل مع النساء المهاجرات ، فكيف ينبغي أن نتعامل معهنّ ؟ وما هو نظر الإسلام في ذلك ؟ مثل هذه الآية المباركة جاءت لترشد المسلمين إلي ذلك .

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يردّ من جاءه من الرجال ، ويحبس من جاءه من النساء ، إذا امتحنّ ويعطي أزواجهنّ مهرهنّ .

وهذه الآية الكريمة تهدينا إلي أسلوب العمل ازاء النساء المهاجرات من دار الكفر إلي دار الإسلام ، من خلال المنهجية التالية :

1 - الامتحان : أي يجب أن يقسمن بالله علي الإخلاص في النية التي هاجرن لأجلها ، فهل كانت هجرتهنّ إيمانية أو لأسباب أخري دنيوية أو مصالح مكتسبة أو شرور مدفوعة ؟

إذ أنّ المرأة قد تقرّ من زوجها الظالم ، أو لأنّها تعشق رجلاً من القوم الذين تقرّ

ص: 629

1- مجمع البيان : ج 28 مج 9 ص 452 .

إليهم ، أو طمعاً في السكن في بلاد غير بلادها ، وما شابه ذلك .

ولكن كيف يكون الامتحان ؟

هل كان بنفس الأسلوب المستخدم لدي النصاري في القرون الوسطي (بمحاكم التفتيش) وما شابه ذلك من الوسائل الظالمة ؟

كلاً ، فأسلوب الإسلام رائع وسهل وبسيط للغاية ، وهو الاستحلاف (حيث إنّ المرأة تحلف علي ذلك ، فالإسلام الحنيف لم يعقد الأمور بل جعلها في غاية البساطة ، فلا تعقيد ولا التواء ، بل يكفي مجرد كلمات لإحقاق الحقّ ودحض الباطل .

وقد يرد تساؤل علي ذهن البعض وهو : أنه يمكن أن تكون هذه الكلمات فارغة وغير نابعة من القلب بل مجرد لقلقة لسان ، فهي بالتالي لا تعبّر عن حقيقة المشاعر الباطنية للإنسان الحالف ؟

وللجواب نقول :

1 - الحلف بالله تعالى : له خصوصية لدي جميع البشر ، وهو يشكّل عقبة (يصعب علي الكثيرين تجاوزها - إلاّ علي الكذّابين المحترفين - ولذا تقلّ نسبة الكذب في الحلف بالله تعالى إلي حدّ ما .

2 - نحن لا- نعلم البواطن : ولسنا مكلفين بالبواطن وما يدور فيها ، ولذا ورد الحديث : ((إنّما أمرت أن أفضي بينكم بالأيمان والبيّنات)) (1).

فعلينا العمل وفق الظواهر فقط والبواطن يترك حسابها علي علام الغيوب ، وكم من الموارد - وقد مرّت بعض القصص - الذي يقول فيها رسول الله صلي الله عليه وآله لمن قتل رجلاً بعد أن شهد الشهادتين : ((هلاً شققت قلبه)) (2).

ص: 630

1- الكافي : ج7 ص414 ح 1 .

2- بحار الأنوار : ج66 ص140 .

من جانب آخر فإنّ الرجال يختلفون عن النساء ولذلك نجد أنّ الرسول صلي الله عليه وآله كان يردّ الرجال إلي أهل مكّة - حسب الاتفاق - ولا يردّ النساء وذلك لضعفهنّ وقلة حيلتهنّ ، فهنّ لا يستطعن المقاومة والعناد وتحمل المشاقّ والعذاب في معظم الأحيان .

2 - لا يجوز تزويج المؤمنة أو المسلمة إلا من المؤمن أو المسلم فلا يجوز أن تعطىها إلي الكفّار أو المشرك أو الملحّد ولا بشكل من الأشكال لأنّها كما قال تعالى : «لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ(1)» وقال تعالى : «الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ(2)» وكما في الحديث الشريف : ((المؤمن كفؤ المؤمنة)) (3) وغيرها من الأحاديث والأحكام المفصّلة في كتب الفقه .

وبالمقابل نجد أنّ المسلم يجوز له أن يأخذ من بقية الملل والطوائف إذا شعر الرشد والاستجابة فيها إذا دعاها إلي الإسلام والإيمان بالله تعالى ، أمّا الكافرة فلا يجوز الاستمرار معها لقوله تعالى : «وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ(4)».

من شواهد التاريخ

وقد ذكرت كتب التفسير قصصاً كثيرة حصلت بعد نزول هذه الآية منها :

أنّ عمر بن الخطّاب طلق امرأتين كانتا له بمكّة مشركتين وهما : قرنية بنت أبي أمية بنت المغيرة ، فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان ، وهي علي شركهما بمكّة ، والأخري أمّ كلثوم بنت عمرو بن جروال الخزاعية أمّ عبد الله بن عمر ، فتزوجها أبو

ص : 631

1- سورة الممتحنة (60) : الآية 10 .

2- سورة النور (24) : الآية 26 .

3- وسائل الشيعة : ج 20 ص 67 ح 25055 .

4- سورة الممتحنة (60) : الآية 10 .

جهم بن حذافة بن غانم ، وكذلك كانت عند طلحة بن عبدالله أروي بنت ربيعة بن الحرث بن عبدالمطلب التي كانت كافرة ، ففرّق بينهما الإسلام حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر .

وكان طلحة قد هاجر وهي بمكة عند قومها كافرة ، ثم تزوّجها في الإسلام بعد طلحة ، خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وكانت ممّن فرّت إلي رسول الله صلي الله عليه وآله من نساء الكفار ، فحبسها وزوّجها خالداً ، وكذلك كانت أميمة بنت بشر ، كانت عند ثابت بن الدحاحه ، فرّت منه ، وهو يومئذ كافر ، إلي رسول الله صلي الله عليه وآله فزوّجها رسول الله صلي الله عليه وآله سهل بن حنيف ، فولدت عبدالله بن سهل(1).

الاختلاف الفقهي في المسألة

وبما أنّ البحث انتهى إلي الزواج من أهل الكتاب فلا بأس من الإشارة إلي نظر الفقهاء فيها ، فإنّ المسألة - الزواج من أهل الكتاب - محلّ خلاف بين الفقهاء ، خاصّة إذا نظرنا إلي سورة المائدة التي جاء فيها : «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ(2)» التي جعلت الفقهاء يختلفون في أنّ أيّهما تنسخ الأخرى .

فقد قال صاحب الجواهر رحمه الله : إنّ التحقيق الجواز مطلقاً أي جواز نكاح أهل الكتاب بصفة مطلقة() ، واستدلّ بداية علي عدم الجواز بالكثير من الأقوال والروايات المشهورة عن أئمتنا الكرام عليهم السلام لا سيّما الرواية التالية الموثّقة التي تفيد عدم الجواز .

فعن ابن الجهم قال : قال لي أبو الحسن الرضا(عليه السلام) : ((ياأبا محمد ما تقول في

ص: 632

1- مجمع البيان : ج 28 مج 9 ص 453 - 452 .

2- سورة المائدة (5) : الآية 5 .

رجل يتزوج نصرانية علي مسلمة؟)).

قلت : جعلت فداك وما قولي بين يديك ؟

قال(عليه السلام) : ((لتقولنَّ فَإِنَّ ذَلِكَ تعلم به قولي)).

قلت : لا يجوز تزويج النصرانية علي مسلمة ولا علي غير مسلمة .

قال(عليه السلام) : ولم ؟ قلت : لقول الله - عز وجل - «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ (1)».

قال : فما تقول في هذه الآية «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (2)».

قلت : قوله : «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ (3)» نسخت هذه الآية ، فتبسّم ثم سكت ((4)).

ثم نقضها كلّها بالكثير من الأحاديث الموثقة عن أهل البيت عليهم السلام كالحديث الوارد عن الإمام الصادق(عليه السلام) في الرجل المؤمن يتزوج النصرانية واليهودية .

قال(عليه السلام) : ((إذا أصاب المسلمة فما يصنع باليهودية والنصرانية؟)).

فقلت : يكون له فيها الهوي ؟ فقال(عليه السلام) : ((إن فعل فليمنعها من شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، واعلم أنّ عليه في دينه في تزويجه إيّاها غضاضة)) (5).

ويبدو من هذه الروايات المؤيدة للجواز أنّ المسألة فيها كراهة لا غير .

ففي هذه الآية المباركة درساً بليغاً جدّاً في الحقل الاجتماعي والأسري ، وبالتحديد في موضوع هجرة النساء المؤمنات إلي ديار الإسلام والمجتمع المؤمن ، فإنه لا يعتبر ولاية الزوج عقبة في قبول هجرتهم إذا تبينّ منهم الصدق .

ص: 633

1- سورة البقرة (2) : الآية 221 .

2- سورة المائدة (5) : الآية 5 .

3- سورة البقرة (2) : الآية 221 .

4- الكافي : ج 5 ص 357 ح 6 .

5- من لا يحضره الفقيه : ج 3 ص 407 ح 4422 .

بل يُحرم علي المؤمنين إرجاعهنّ لأزواجهنّ الكفرة ، وهذا لون من الحماية التشريعية والاجتماعية ، فإنه ليست للكافر الولاية علي المؤمنة ، كما لا يجوز للمؤمن أن يتزوَّج الكافرة بالأصل أو بالردّة ، ويبيح الدين الزواج من الكافرات إذا آمنَ لأنّ الإسلام يجبّ ما قبله .

وعلي الإنسان المؤمن أن يحتاط لدينه ما استطاع لا سيّما بمثل هذه الأوضاع والمسائل الاجتماعية الحسّاسة جدّاً .

ص: 634

إشارة

(81) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ» (سورة الممتحنة : 13)

في رحاب المفردات

تتولّوا : الولاية النصره ، والولاية هو تولّي الأمر(1).

يئسوا : اليأس هو انتفاء الطمع ، يقال يأس واستيأس مثل عجب واستعجب وسخر واستسخر ، قال تعالى : «فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا(2)».

ص: 635

1- مفردات الراغب : ص 570 .

2- سورة يوسف (12) : الآية (80) مفردات الراغب : ص 574 .

شأن النزول

قال أمين الإسلام الطبرسي رحمه الله : «يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» أي لا تتولوا اليهود . وذلك أن جماعة من فقراء المسلمين ، كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين ، يتواصلون إليهم بذلك ، فيصيبون من ثمارهم ، فنهى الله عن ذلك(1).

عبر من الآية

نداء رحماني جديد بأن «يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ(2)» كأن تقول لولدك : يا بني لا تصحب الكاذب فإنه يقرب منك البعيد ويبعد عنك القريب .

أو كما قال لقمان الحكيم لابنه عند موعظته إياه هذه الآية : «يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(3)».

ولا- يختلف إثنان إن هذا النداء من الله سبحانه لعبادة المؤمنين هو رافة منه تعالي بهم لأن تولي من ((غضب الله عليهم)) سيؤدي إلي غضبه سبحانه الذي يستوجب دخول الجحيم الحارقة .

من هنا كان علينا أن نميّز بين ثلاثة أمور مهمّة في هذا المجال وهي :

ص: 636

1- مجمع البيان : ج 28 مج 9 ص 457 .

2- سورة الممتحنة (60) : الآية 13 .

3- سورة لقمان (31) : الآية 13 .

1 - (التعامل) والمعاملة بين المؤمنين وأولئك القوم .

2 - (الإحسان) بأن يحسن الإنسان المؤمن إلي بعض أولئك القوم .

3 - (التولي) بأن نجعلهم أولياء لنا ونصفي لهم الودّ والحبّ وما أشبه ذلك .

ولا يخفي أنّه بالنسبة للكفار والمشركين وأهل الكتاب لا يوجد نهى وتحريم بالنسبة للأولين - أي أن نتعامل معهم بالبيع والشراء والعمل والأجار وما شابه ذلك أو حتي الزواج منهم إذا ما رأينا أنه هناك مصلحة دينية في ذلك - علي اختلاف في المسألة بين الفقهاء كما ألمعنا في بحوث سابقة .

وكل ذلك لا بأس به في حدّ ذاته ما لم يطرأ في المسألة عنوان ثانوي آخر قد يقلب الموازين والأحكام وكذا هو الحال بالنسبة إلي مسألة (الإحسان) إليهم فهو لا بأس به علي كل الأحوال وقد قال تعالى : «وَتَقَسَّطُوا إِلَيْهِمْ (1)» .

الرسول صلي الله عليه وآله يحسن إلي مشركي مكّة

كما أنّ النبي صلي الله عليه وآله أحسن إلي مشركي قريش بعد فتح مكّة بعد فعلهم الأفاعيل ، حيث لم يتركوا شيئاً يضّر الرسالة والرسول صلي الله عليه وآله إلاّ وفعلوه ، سواء أكان ذلك في مكّة المكرّمة ، أم بعد أن هاجر إلي المدينة المنوّرة ، فجهّزوا عليه الجيوش وقادوا القبائل والكتائب وخاضوا الحروب المتتالية في بدر وأحد والأحزاب وغيرها ، وقتلوا من قتلوا من أقاربه الهاشميين كحمزة سيّد الشهداء فضلاً عن أصحابه المخلصين كعبدالله بن الحارث .

ورغم كل ذلك ، لمّا ظفر بهم جمعهم في ساحة الكعبة المشرفة بعد أن كسر

ص: 637

الأصنام التي فيها ، ووقفوا أمامه أذلاء خاسئين منكسي رؤوسهم إلي الأرض ، ووقف أمامهم كالطود الشامخ ، والقائد الفاتح المنتصر وجنده تحوط بهم من كل ناحية ، وقال لهم : ما تظنون أنني فاعل بكم ؟

فقالوا : أخ كريم وابن أخ كريم .

فقال صلي الله عليه وآله : إذهبوا فأنتم الطلقاء(1).

يالله ، فإنّ مثل أبي سفيان وزوجته هند آكلة الأكباد وغيرهما ممّن آذوا الرسول وحاربوه تلك الحروب الدامية الطويلة لمّا يقعون في قبضة يده يعفون عنهم بهذا الشكل الإنساني وبهذه الكيفية التي لم تخطر في بالهم أصلاً .

لكن يبقى القول إنّ هذا ليس بغريب علي صاحب الرسالة السماوية والأخلاق القرآنية ، والإحسان المحمّدي الخالص .

كما أنّ الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، فعل مثل ذلك مع أعدائه في معركة صفّين لمّا سبقه جيش معاوية واحتل شاطئ الفرات ومنعوا الماء عن جيشه (عليه السلام) فبعث إليهم من أجل الإنصاف وترك ماء الفرات إلي الجميع فرفضوا ذلك ، فأرسل مالك الأشر رحمة الله بأربعة آلاف فأجلوهم بقوة السلاح واحتلّوا مشرعة الفرات .

آنذاك أشار بعض من كان في عسكر الإمام علي (عليه السلام) بأن دعنا نحبسهم عن الفرات كما منعونا عنه .

فرفض ذلك وترك الفرات وماؤه إلي الجميع(2) ... نعم إنّها أخلاق علوية رفيعة ، وإحسان منقطع النظير .

ص: 638

1- ذكرت هذه العبارة في البحار : ج 19 ص 181 .

2- راجع بحار الأنوار : ج 41 ص 146 - 145 .

ولكن مع الأسف الشديد فإنهم مقابل هذا الإحسان العظيم حسبوا الإمام الحسين (عليه السلام) وأبنائه ونسائه وجيشه عن نهر الفرات في كربلاء حتى كادوا يموتون عطشاً من جِراء ذلك ، وإنك لتعجب إذا عرفت أن أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) لا يتجاوزون المئة وخمسين رجلاً في أكبر الروايات والجيش الأموي يبلغ لا أقل من ثلاثين ألف كافر؟

وتزداد عجباً إذا عرفت أن الإمام الحسين (عليه السلام) هو الذي أنقذ مقدمة الجيش الأموي وذلك حين قابل الحرّ الرياحي ومعه ألف فارس كادوا يموتون عطشاً ، فأمر أصحابه بأن يسقوا القوم ويرشفوا الخيل ترشيفاً .

حتى أنه (عليه السلام) بيديه الكريمتين قد ساعد أحدهم للشرب من فم الراوية (1) ، نعم إنها الرسالة الإسلامية المباركة والأخلاق الحسينية العالية ، وصدق الشاعر الذي يقول : ((كلّ إناء بالذي فيه ينضح)) .

فالإحسان إلي الآخرين هو من شيم المؤمنين الملتزمين بمبادئ الإسلام المنادية إلي الإحسان إلي الآخرين .

فعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال إلي أصحابه : ((افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً ، فإن صغيره كبير وقليله كثير ، ولا يقولنّ أحدكم : إنّ أحداً أولي بفعل الخير منّي ، فيكون والله كذلك ، إنّ للخير والشرّ أهلاً ، فمهما تركتموه منها كفاكموه أهله)) (2) .

والتاريخ مليء بالقصص - لا سيّما عن المعصومين عليهم السلام - الذين يحسنون لليهود

ص: 639

1- الإرشاد : ج2 ص78 .

2- نهج البلاغة : ق422 .

والنصاري فيسلمون بدين الإسلام من جرّاء ذلك ، وربما يكون هذا هو حكمة الحكم بحلّية التعامل مع الكفّار وأهل الكتاب وغيرهم ، من أجل أن يروا ويعيشوا الأخلاق الإسلامية ويسمعوا كلام الله - تعالي - وأحاديث الرسول العظيم صلي الله عليه وآله .

فقد قال أحد النصاري للإمام الباقر(عليه السلام) : أنت بقر !

فقال له : ((أنا باقر)).

قال : أنت ابن الطباخة !

قال : ((ذاك حرفتها)).

قال : أنت ابن السوداء الزنجية البذيّة !

قال : ((إن كنت صادقاً غفر الله لها ، وإن كنت كذبت غفر الله لك)) ، فأسلم النصراني(1).

وعن الإمام الصادق(عليه السلام) : ((رحم الله عبداً حبّينا إلي الناس ولم يبغضنا إليهم ، أما والله لو يرون محاسن كلامنا لكانوا به أعزّ وما استطاع أحد أن يتعلّق عليهم بشيء ، ولكن أحدهم يسمع الكلمة فيحطّ إليها عشراً)) (2).

النهي عن تولّي أعداء الله

أمّا ((التولّي)) الذي نهت عنه الآية الكريمة فهو أن تتخذهم أصدقاء وأحباب وبطائن نعطيهم الأسرار ، ونشاورهم في الأعمال والأفكار ، فهذا ما لا يجوز أبداً عند الله ورسوله الكريم صلي الله عليه وآله لأنّ هؤلاء :

ص: 640

1- مناقب آل أبي طالب : ج 4 ص 207 .

2- الكافي : ج 8 ص 229 ح 293 .

1 - غضب الله عليهم .

فكيف نوالي من غضب الله عليه ، وندّعي أننا أحبّاء الله ، ورسول الله صلي الله عليه وآله يصفنا في ذلك قائلاً : ((أولئك أحبّائي ، آمنوا بي ولم يروني ، يودّ أحدهم أن يفتديني بماله وولده والناس أجمعين)) (1).

وقيل إنّها نزلت في اليهود خاصّة ، ولا سيّما الذين فسّروا وأولوا آيات سورة الفاتحة المباركة وذهبوا إلي أنّ ((غير المغضوب عليهم)) أنّهم اليهود خاصّة ، وأمّا ((الضالّين)) فهم النصاري خاصّة (2).

2 - إنّهم يسوا من الآخرة .

فهم لا دنيا ولا آخرة لهم لأنّهم في الدنيا منبوذين وفي الآخرة مطرودين عن ساحة القرب المقدّسة .

لأنّ الاعتماد علي الآخرة ، والأمل بها ، أو الخوف منها ((أي الأمل بالجنّة ، والخوف من النار)) يشكّل وازعاً داخلياً يمنع الإنسان من الخيانة والكذب والافتراء والدجل وما شابه ذلك من الأمور التي يشتهر بها اليهود والمشركين .

أمّا الإنسان الذي لا يعتقد بالآخرة ، فلا وازع لديه من دين ولا رادع من ضمير يردعه عن ارتكاب أي محرّم أو أي عمل يضرّ بالمؤمن ، فكيف إذن يطمئن إليه ؟

أو كيف يطمئن أن لا يغشّ أو يخذل أو يكذب علي الآخرين أو حتّي يقتلهم عند الضرورة ؟

ص: 641

1- بصائر الدرجات : ص 84 ح 4 .

2- راجع تفسير كنز الدقائق : ج 1 ص 80 .

نعم ، لقد يئس هؤلاء من أي خير في الدار الآخرة ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور حيث ظنوا أن لا فائدة في من يموت بل يتحلل جسمه ويعود إلي أصله التراب ، كحال الماديين اليوم الذين يعتقدون بأن الحياة مادة ، وأن لا فائدة ممن يموت أبداً .

فعلي المؤمن أن يودّ المؤمن ويتّخذه أخاً وصديقاً وكاتماً لأسراره لأنه أمين منه كل الأمان ولأنّ الله سبحانه يقول : «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»⁽¹⁾ والأخ لا يفرض بأخيه بأي شكل من الأشكال .

ص: 642

1- سورة الحجرات (49) : الآية 10 .

(82) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ» (سورة الصف : 2)

في رحاب المفردات

تقولون : القول يستعمل علي وجه أظهرها أن يكون للمركب من الحروف المبرز بالنطق مفرداً كان أو جملة ، فالمفرد كقولك زيد وخرج .
والمركب زيد منطلق ، وهل خرج عمرو(1).

تفعلون : الفعل التأثير من جهة مؤثر وهو عام لما كان بإجادة أو غير إجادة ولما كان بعلم أو غير علم وقصد أو غير قصد ، ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات(2).

ص: 643

1- مفردات الراغب : ص 430 .

2- مفردات الراغب : ص 396 - 397 .

شأن النزول

نقل أصحاب التفاسير أنّ شأن نزول هذه الآية هو: أنّ رجلاً يوم بدر قد آذى المسلمين فقتله صهيب في القتال ..

فقال رجل: يا رسول الله قتلت فلاناً ..

ففرح الرسول بذلك ، فقال عمرو بن عبدالرحمن لصهيب : أخبر النبي صلي الله عليه وآله أنك قتلته ، وإنّ فلاناً ينتحله .. فقال صهيب : إنّما قتلته لله ورسوله .. فقال عمر بن عبدالرحمن : يا رسول الله إنّما قتله صهيب .

فقال صلي الله عليه وآله : كذلك يا أبا يحيى ؟

قال : نعم يا رسول الله صلي الله عليه وآله (1).

عبر من الآية

إحدى الابتلاءات الكبيرة في المجتمعات المختلفة هي حالة ((الانفصام بين القول والعمل)) الذي كان وما زال منتشرًا بين صفوف المسلمين في كل مكان ، وهذا يمكن أن يتحقق علي نحوين إثنيين :

1 - أن يقول الإنسان شيئاً - كأن يعدّ بالمساهمة في عمل خيري معيّن - وهو لا يريد منذ البداية القيام به - فيكون هذا شعبة من شعب النفاق ، لأنّ النفاق هو أن يظهر الإنسان شيئاً ويبطن عكسه تماماً .

2 - أن يقول الإنسان شيئاً وهو يريد القيام به فعلاً ، ولكنّه عندما يحين موعد

ص: 644

1- مجمع البيان : ج28 مج9 ص461 - 460 .

التنفيذ فإنه يتراجع ويتراخي عن القيام به ، وهذا ليس دليلاً علي النفاق بل هو دليل علي ضعف الهمة وخور الإرادة لا أكثر .

وعلي كل إن هذين النوعين مذمومان عقلاً وشرعاً ، وينبغي للإنسان أن يتجنبهما قدر المستطاع .

بل ينبغي للإنسان أن يكون قوله مطابقاً لعمله ، وعمله مطابقاً لقوله ، وكلا هذين العاملين ناشئين من منشأ واحد ألا وهو ((القلب النقي النقي)).

فقد نقل المؤرخون : أنّ بعض المسلمين بعد غزوة بدر الكبرى كانوا يقولون : إنّنا إذا لقينا العدو فلن نفرّ ، وقد كان حديثهم هذا بعد أن حثّهم رسول الله صلي الله عليه وآله علي الجهاد ورغّبهم بالثواب وأنذرهم من العقاب ، ودعاهم إلي الشهادة .

ومع الأسف الشديد لم يطل عليهم العهد حتّي فرّوا عن رسول الله صلي الله عليه وآله في معركة أحد حتّي شجّ وجهه الكريم وكسرت رباعيته ، ولم يلتقوا حوله بل إنّ بعضهم ركض إلي سيف البحر ، والآخرين وصلوا إلي مشارف الشام وعلي بعد ثلاثة أيام من المدينة حتّي قال لهم رسول الله صلي الله عليه وآله : لقد ذهبت بها عريضاً .

إذن فهؤلاء قالوا ، وما فعلوا ، أي أنّهم ناقض قولهم فعلهم .

وقيل : إنّ أناساً من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد كانوا يقولون : ودنا لو أنّ الله دلّنا علي أحبّ الأعمال إليه ، فنعمل به ؟

فأخبرهم الله ، أنّ أفضل الأعمال الإيمان ، والجهاد في سبيل الله .

فقبل الناس الأولي باللسان ، وشقّ عليهم الثانية وتباطؤوا عنه ، وتناقلوا وتكاسلوا عن ذلك كلّ .

وهنا ربما نتذكّر قصة بني إسرائيل مع نبيّهم حين قالوا له إنّهم يريدون الجهاد والقتال في سبيل الله ، فقال لهم نبيّهم (عليه السلام) أخاف أن تنكثوا عهدكم ولا تفعلون ما

تقولون ، فوعده الخير وأنهم سينصرونه علي كل حال .

فقال لهم : إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْكُمْ طَالَوتَ مَلَكًا تَجَاهِدُونَ تَحْتَ رَايَتِهِ وَقِيَادَتِهِ ، فَكَانَ أَوَّلَ اعْتِرَاضٍ لَهُمْ عَلَي الْقَائِدِ بِالذَّاتِ ، وَلَيْسَ لِعَدَمِ الْكِفَاةِ ، بَلْ لِعَدَمِ الْجِدَّةِ وَالْمَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا وَعَمَلِقًا فِي الْجِسْمِ ، فَقَدْ نَقَلَ عَزَّ مِنْ قَائِلِ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَقَالَ : «وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةَ مِنْ الْمَالِ (1)» .

فقال لهم(عليه السلام) ووضّح : أَنَّ الْقِيَادَةَ بِمُؤَهَّلَاتٍ أُخْرَى غَيْرِ الْمُؤَهَّلَاتِ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا بَلْ بِالْعِلْمِ وَالتَّقِي وَالْوَرَعِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ ، وَالْقِصَّةُ طَوِيلَةٌ وَارْدَةٌ فِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ .

وأخيراً قالوا : اِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبِّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ .

ومع الأسف الشديد فقد اقتفي بعض المسلمين أثر هؤلاء ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا لِلرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذْهَبْ وَرَبِّكَ فَقَاتِلَا ، وَإِنَّمَا خَالَفُوهُ عَمَلِيًّا فِي كَثِيرٍ مِنْ وَصَايَاهُ الْخَالِدَةِ .

كَمَا أَنَّ هُنَاكَ أَقْوَالًا تَقُولُ إِنَّ الْمِرَادَ بِالْآيَةِ هُوَ : أَنَّ قَوْمًا كَانُوا يَقُولُونَ : جَاهِدْنَا ، وَأَبْلِينَا ، وَفَعَلْنَا وَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا أَبَدًا بَلْ تَكُونُ الْأَقْوَالُ لَهُمْ ، وَالْأَفْعَالُ لغيرهم .

فكَمْ كَانَ يَقْتُلُ وَيَأْسِرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) وَيَأْتِي فُلَانٌ وَفُلَانٌ مِنَ النَّاسِ لِيَقُولَ لَهُ : لِمَاذَا لَمْ تَسْلُبْ يَاعْلِي (كقصة عمرو بن عبد ود)) فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ ، حَيْثُ إِنَّ الْإِمَامَ (عليه السلام) قَطَعَ رَأْسَ النِّفَاقِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ ، وَرَكَضَ الْآخِرُونَ لِسَلْبِ عَمْرٍو لِأَنَّ دَرْعَهُ كَانَتْ أَعْلَى الدَّرْعِ الْعَرَبِيَّةِ .

أَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَأْتِي إِلَي الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَيَمْتَشِقُ سَيْفَهُ وَيَقُولُ لَهُ : دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ ذَاكَ الْأَسِيرِ ، أَوْ ذَاكَ الْمَنَافِقِ ، أَوْ مَا شَابَهُ ذَلِكَ ، وَهُوَ فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ لَمْ

ص: 646

يضرب بسيف ولم يطعن برمح ولم يرم بنبل .

فأمثال هؤلاء وغيرهم نزلت فيهم هذه الآية المباركة وغيرها من الآيات .

تحذير المؤمنين من خطر النفاق

والسؤال الذي يطرح هنا هو : كيف يتوجّه النداء للمؤمنين ويصفهم بصفات المنافقين ؟

الجواب : إنّ المؤمن لو لم يكن في حذر وقع في حفرة من حفر النفاق ، وباستثناء المعصومين فإنّ كل فرد (حتّى المؤمنين) يمكن أن تراودهم بعض صفات النفاق (كالخلف بالوعد أو الكذب) وإذا ما بلغ الأمر إلي حدّ سيطرة هذه الصفات علي مجمل حياته لحقّ بالمنافقين .

والقصص التي تدلّ علي ذلك كثيرة ، وقصّة فتح خيبر هي من أعظم القصص عبرة في ذلك ، حيث إنّ ما من عمل إلا وتري المتطفّلين يركضون في أوّل الناس لا لشجاعة أو مكرمة ، بل من أجل أن يري الآخرون أنّهم تقدّموا .

ففي اليوم الأوّل أرسل رسول الله صلي الله عليه وآله أحدهم وهو يقود المسلمين وعند المساء عاد يجيّن أصحابه وهم يجيّنونه .

وفي اليوم الثاني أرسل الآخر وعاد عند المساء كذلك يجيّن أصحابه وهم يجيّنونه .

فانزعج رسول الله صلي الله عليه وآله وقال : ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كزاراً غير فراراً يفتح الله عليه يديه)) (1).

آنذاك استشرف القوم لها ، حتّى قال أحدهم : ما أحببت الإمارة كذاك اليوم .

ص: 647

1- مسند أحمد بن حنبل : ج5 ص354 - 353 ، خصائص النسائي ص5 .

الملفت للانتباه أنّ هذه الحالة بقيت عليّ مرّ التاريخ وقد ابتلي أمير المؤمنين (عليه السلام) بمثل هؤلاء وظلّ يعاني منهم أشدّ المعاناة حتّى أنّه (عليه السلام) قال في كلام له : ((أيّها الناس ، المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم كلامكم يوهي الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء ، تقولون في المجالس كيت وكيت ، فإذا جاء القتال قلتُم : حيدي قتاد ! ما عزّت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم ، أعاليل بأضاليل ، وسألتموني التطويل ، دفاع ذي الدين المطوّل ، لا يمنع الضيم الذليل ، ولا يدرك الحقّ إلّا بالجدّ! أي دار بعد داركم تمنعون ، ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون ؟ المغرور واللّه من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز - واللّه - بالسهم الأخبب ، ومن رمي بكم فقد رمي بأفوق ناصل أصبحت واللّه لا أصدّق قولكم ، ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طبّكم ؟ القوم رجال أمثالكم أفعالاً بغير علم (عمل) (وغفلة) (عفّة) (من غير ورع ، وطمعاً في غير حقّ)) (1).

فالواجب عليّ المؤمن أن يقرن قوله بفعله ، ويبادر نصيحته لتقواه وعمله وورعه عن المحارم وكما جاء في الحديث الشريف عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((كونوا دعاة إليّ أنفسكم بغير ألسنتكم وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً)) (2).

ص: 648

1- نهج البلاغة : خ 29 يستنهض فيها أصحابه .

2- الكافي : ج 2 ص 77 ح 9 .

(83) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» (سورة الصف : 10)

في رحاب المفردات

أدلكم : الدلالة ما يتوصّل به إلي معرفة الشيء كدلالة الألفاظ علي المعني ودلالة الإشارات والرموز والكتابة والعقود في الحساب ، وسواء كان ذلك بقصد ممّن يجعله دلالة أو لم يكن بقصد كمن يري حركة إنسان فيعلم أنه حي ، قال تعالي : «مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ(1)»، وأصل الدلالة مصدر كالكناية والأمانة ، والدالّ من حصل منه ذلك ، والدليل في المبالغة كعالم ، وعليم ، وقادر وقدير ، ثمّ يسمي الدالّ والدليل دلالة كتسمية الشيء بمصدره(2).

تجارة : التجارة التصرف في رأس المال طلباً للربح يقال تَجَرَ للتاجر وتَجَرَ كصاحب وصحب(3).

ص : 649

1- سورة سبأ (34) : الآية 14 .

2- مفردات الراغب : ص 173 .

3- مفردات الراغب : ص 69 .

شأن النزول

عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» فقالوا: لو نعلم ما هي لنبدلن فيها الأموال والأنفس والأولاد، فقال الله: «تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ» إلى قوله: «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (1)».

عبر من الآية

دعت هذه الآية المباركة إلى متاجرة عظيمة بين الله وعباده المؤمنين، إلا أن الربح دائماً في هذه التجارة هم المؤمنون لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يريد متاً شيناً إلا العبادة، أما الربح الذي يطمح إليه العباد فهو النجاة من عذاب جهنم وهوانها.

فيالها من صفقة رابحة، فمثل هذه الآية جاءت لترغب المؤمنين في (التجارة) إلا أنها بربح دائم ولا خسارة فيها أبداً.

فالمؤمنون - إذن - تجار، ولكن ليس كالكفار بتجارتهم، إذ أنه هناك فرق كبير جداً بين التجارتين حيث إن هناك نوعين من التجار، بنوعين من التجارات.

فهناك تجارة يقوم بها أناس قصيري النظر.

وهناك تجارة يقوم بها أناس بعيدي النظر.

وهذا هو الفرق الجوهرى بين التجارة التي يقوم بها المؤمن والتجارة التي يقوم بها غيرهم من الناس.

ولإيضاح الفكرة نضرب مثلاً من أرض الواقع والحياة اليومية.

ص: 650

1- تفسير القمّي: ج 2 ص 365.

طالبان أحدهما يلهو طيلة أيام السنة ولا يدرس ولا يكتب الواجبات المدرسية ، ويخلد في أيام الامتحان إلي الدعة والراحة والكسل ، أو يقضي أوقاته الثمينة في اللعب واللهو ، فهل يربح مثل هذا الطالب ؟

نعم ، ربح)ربحاً أنياً(فهو ربح)الراحة(و)اللهو(و)اللعب(ولكنه خسر المستقبل حيث إنه سقط في الامتحان الذي سبب له خسارة المستقبل والوظيفة والراتب ، وربما يسقط حتّي من العيون القريبة إليه .

أمّا الآخر فقد درس دروسه بالترتيب وكتب واجباته كلّها ، وهو يرهق نفسه ، ويسهر ليله ، ويضغط علي أعصابه ، وربما فقد بصره من كثرة الدراسة .

ولكنّه)ربح(المستقبل والوظيفة والراتب والكرامة والرفعة في عيون الناس كلّهم .

فأيّهم الرابع حقيقة ؟ لا شك أنّه الثاني دون الأول .

ولذا فإنّ ما قاله عمر بن سعد قائد الجيش الذي قاتل وقتل الإمام الحسين(عليه السلام) وأصحابه الكرام - رضوان الله عليهم - حيث قال : ((وما عاقل باع الوجود بدين)).

فهذا القول هو خطأ كبير ، بل هو نفث من الشيطان ، وتبرير من نفس عمر بن سعد الشيطانية الخبيثة ، إذ أنّ كل العقلاء يبيعون الوجود بالدين .

ولولا ذلك لما كان هناك حاجة إلي الأنبياء والرسل عليهم السلام ولا الكتب المنزلة من السماء بل نقول كما يقول الملحدون : إنّ الحياة مادّة ولا شيء سواها .

فما الفرق إذن بين أي واحد من الملحدين وعمر بن سعد وغيره ممّن قالوا بمقالته الخبيثة تلك ، فإذا كانت الجذّة والنار دين ، فإنّ الله - سبحانه - كذلك دين ؟

آثار التجارة مع الله عزّ وجلّ

وعلي كل فإنّ الآية المباركة تدعو المؤمنين إلي)تجارة(، مريحة جدّاً ، وليس

أثرها كأثر بقيّة التجارات ، بل لا قياس بين التجارتين أبداً لأنّ أثرها هو :

1 - غفران الذنوب : إذ أنه لا يوجد إنسان ليس له ذنوب إلا من عصمهم الله تعالى ، فلكل إنسان ذنوب عادة ، وغفرانها ضرورة ملحّة في الدارين ، إذ أنه لا يمكن تسويق البضاعة إذا كان فيها عيب ، فيجب أن تكون بضاعتك مزجاة لتقبل وتباع .

لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يستغفر الله سبعين مرّة في كل يوم ، وهو الذي غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، فكيف لا نستغفر نحن ؟ بل كيف لا يجب علينا الاستغفار ؟

وهذا ما نأخذه من أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي قال بحضرته رجلاً من أصحابه : أستغفر الله وأتوب إليه فقال له : ((ثكلتك أمّك ، أتدري ما الاستغفار ؟

الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع علي ستّة معانٍ :

أولها الندم علي ما مضى ، والثاني العزم علي ترك العودة إليه أبداً ، والثالث أن تؤدّي إلي المخلوقين حقوقهم حتّي تلقي الله أملس ليس عليك تبعه ، والرابع أن تعمد إلي كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها ، والخامس أن تعمد إلي اللحم الذي نبت علي السحت فتذيبه بالأحزان ، حتّي تلتصق الجلد بالعظم ، وينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس أن تذيق الجسم ألف طاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : ((أستغفر الله))⁽¹⁾.

فلكي يغفر الله ذنوب الإنسان عليه أن يفعل ما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) بأن يندم ، ويعزم ، ويؤدّي الحقوق للناس ، ويؤدّي الفرائض المطيعة ، ويذيب اللحم الثابت من الحرام ، ويذيق نفسه ألم الطاعة (وعند ذلك يقول - ويحقّق له - أن يقول : أستغفر الله ربّي وأتوب إليه ، فالاستغفار ليس لقلقة لسان ، بل عمل عظيم الشأن .

ص: 652

1- نهج البلاغة : ق 417 .

وهذا طموح عالٍ جداً ، فدخل الجنة التي قال عنها تعالى : « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً(1)» يحتاج إلي إخلاص وصدق نية ترفع الإنسان إلي نيل هذه المرتبة التي لا ينالها إلا ذو حظٍ عظيم .

ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله يصف فيه الجنة فقال : ((هو قصر لؤلؤ في الجنة ، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء .

في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء .

في كل بيت سبعون سريراً .

علي كل سرير سبعون فراشاً من كل لون .

وفي كل بيت سبعون مائدة .

علي كل مائدة سبعون لوناً من الطعام .

في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة .

قال : ويعطي الله المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي علي ذلك كله((2).

فمثل هذه الجنة خلقها الله تعالى لعباده المؤمنين مقابل إخلاصهم وحرصهم علي طاعته في هذه الدنيا الفانية .

3 - النصر الإلهي ، والفتح القريب .

فالنصر بيد الله - تعالى - يهبه لمن يشاء ، إذا ما كان هناك مقومات النصر وأسبابه أو كمعجزة إلهية كنصر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في معظم غزواته لا سيما في غزوة بدر الكبرى والأحزاب ، وغيرها .

وأما الفتح فهو أشمل وأعم من النصر الآني أو المحدود فقد كان فتح مكة فاتحة

ص: 653

1- سورة التوبة (9) : الآية 72 .

2- بحار الأنوار : ج8 ص149 ح84 .

لفتح الجزيرة العربية أمام المسلمين ، وفتح الجزيرة كان فاتحة لفتح الدنيا .

فهذه الآيات الكريمة تحدّد الاستراتيجيات الأساسية للجهاد بنوعيه ، فهو عليّ صعيد الآخرة - وقبل كل شيء ء - يجب أن يستهدف النجاة من النار وغفران الله وكذلك يشمل الفوز بالجنة وقد قال تعالى مشيراً إلي ذلك : «فَمَنْ زُحِرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (1)».

أمّا عليّ صعيد الدنيا فإنّ الفتح أهمّ من النصر لأنّ النصر هو هزيمة العدو عسكرياً وقد يكون محدوداً بالزمان والمكان ، بينما الفتح فهو الانتصار الشامل في كل الأبعاد . كما أنّ في الآيات بياناً لمسيرة الصراع بين الأفكار والأمم ، ففي المرحلة الأولى يدور الصراع بين الفلسفات الدينية والقيم البشرية ، فتتصرّ الفكرة الدينية عليّ الآخرين . وسوف يستمر هذا التحوّل حتّى يأتي اليوم الذي تعود فيه البشرية إليّ الله والدين ، فتبدأ المرحلة الثانية ، التي يدور فيها الصراع بين الدين الخالص ، والأديان المنحرفة ، وقد تكفّل ربّنا بإظهار دينه الحقّ عليّ كل الأديان حيث قال عزّ وجلّ : «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (2)».

فما أحوجنا اليوم إليّ المصلح المنتظر - عبّجّل الله تعالى فرجه الشريف - ليخرجنا من الظلمات إليّ النور ، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

سهّل الله مخرجك سيّدي يا صاحب الزمان وجعلنا من أصحابك وأعوانك عليّ أعدائك ومن المستشهدين بين يديك إله الحقّ آمين .

ص: 654

1- سورة آل عمران (3) : الآية 185 .

2- سورة التوبة (9) : الآية 33 .

إشارة

(84) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لَلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا نَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ عَدُوَّهُمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ» (سورة الصف : 14)

في رحاب المفردات

أنصار : النصر والنصرة هي العون ، قال تعالى : «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا(1)».

للحواريين : هم أنصار عيسى (عليه السلام) وقال بعض العلماء : إنما سموا حواريين لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين والعلم(2).

ص: 655

1- سورة غافر (40) : الآية 51) مفردات الراغب : ص 516 .

2- مفردات الراغب : ص 135 - 134 .

طائفة : الطائفة من الناس هي الجماعة منهم ، ومن الشي ء القطعة منه(1).

شأن النزول

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((إن حواربي عيسى صلي الله عليه كانوا شيعته ، وإن شيعتنا حواريوننا ، وما كان حواربي عيسى بأطوع له من حواربيننا لنا ، وإنما قال عيسى (عليه السلام) : ((من أنصاري إلي الله قال الحواريون نحن أنصار الله)) فلا والله ما نصره من اليهود ، ولا قاتلوه من دونه ، وشيعتنا والله لم يزالوا منذ قبض الله عز ذكره رسوله صلي الله عليه وآله ينصروننا ويقاتلون دوننا ويخوفون ويحرقون ويعذبون ويشردون في البلاد ، جزامهم الله عتاً خيراً ، وقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((والله لو ضربت خيشوم(2) محبيننا بالسيف ما أبغضونا ، والله لو أدنيت إلي مبغضينا وحثوت لهم من المال ما أحبونا)) (3).

عبر من الآية

العديد من الناس لما يقرأون مثل هذه الآية المباركة تراودهم التساؤلات التالية وهي : هل إن الله سبحانه بحاجة إلي أنصار ؟

وكيف يمكن لنا أن نكون أنصاراً لله عز وجل ؟

ص: 656

1- مفردات الراغب : ص 320 .

2- الخيشوم : أقصى الأنف .

3- الكافي : ج 8 ص 224 ح 396 .

ولماذا تدعو الآية المؤمنين إلى نصره الله؟

مقدمة ينبغي الالتفات بأن الله تعالى هو الغني المطلق وإلى هذا تشير الآية الكريمة قائلة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(1)»، والذي يتّصف بهذه الصفات القدسية لا يحتاج إلى نصره بشر ضعيف ذليل حقير مسكين مستكين، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا حياة ولا نشوراً.

من جانب آخر الإنسان الذي لا يستطيع أن ينفع نفسه هل يستطيع أن ينفع الله سبحانه؟

الجواب: لا، ولكن الله - تعالى - أرسل رسلاً، وبعث أنبياء كراماً إلى الأمم على الأرض، وأنزل معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط، فشرع لهم شرائع ووضع لهم قوانين ناظمة للحياة كلها.

لذلك فإن نصره الله - سبحانه - هي عبارة عن نصره أولئك الرسل والأنبياء العظام عليهم السلام والالتزام بذلك القانون والدفاع عن تلك الشرائع السماوية الحقّة ليست إلا .

بالطبع فإن نفع ذلك كله يعود لنا جميعاً نحن بني البشر - أفراداً ومجتمعات - وليس عائداً إلى الله سبحانه تعالى عن ذلك علواً كبيراً، لأنه لا تتفقه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصي . بل إن المنفعة التامة هي للمطيعين الذين ستشملهم عناية الله وألطافه فيخلدون في دار النعيم التي أعدّها الباري تعالى لهم .

من هنا فإن النصر لله هي من باب التشريف والتفضيل للرسول صلي الله عليه وآله وللرسالة السماوية، حيث نسبت نصرتهما إلى نصره الله تعالى، وقد ورد هذا في القرآن الكريم في موارد عديدة منها اقراض الله الذي قالت عنه الآية: «مَنْ ذَا الَّذِي

ص: 657

1- سورة فاطر (35): الآية 15 .

يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ (1)».

أنصار الله عز وجل في القرآن

وقد ضرب لنا القرآن الكريم - في آية البحث - مثلاً رائعاً، ونموذجاً تاريخياً لأنصار الله، الذين تقاتلوا في دين الله الذي أنزله علي رسوله الكريم عيسى المسيح (عليه السلام) ألا وهم (الحواريون).

وذلك ليكون محفزاً للمسلمين حتى يكونوا أنصار الله - تعالي - كأصحاب عيسى المسيح (عليه السلام) بل وأفضل منهم إن استطاعوا، لأن رسولهم هو الأفضل ورسالتهم الأكمل والأعم والأشمل من كل الرسائل السابقة لها.

فإن النماذج الحية والأمثلة الحياتية عادة ما تحرك الناس وتترك فيهم أثراً طيباً أكثر مما تحركهم الأفكار المجردة والنظريات المجردة، فمن هم الحواريون إذن؟

إنهم خاصة الأنبياء، وقد سموا بذلك لأنهم أخلصوا من كل عيب.

وقد كانوا (12) رجلاً مخلصاً، بعثهم نبي الله عيسى (عليه السلام) رسلاً عنه ومبلغين لرسالته إلي بلدان متعددة للدعوة إلي الله، ونصرة ونشر دين الله تعالي.

والتاريخ يقول: إنهم ظلوا علي خط السيد المسيح (عليه السلام) إلا واحداً منهم فسق عن أمر ربه وهو (يهوذا الاسخريوطي).

وربما تسأل عزيزي القارئ وتقول: كم هم صحابة الرسول وحوارييه؟

ولا أبيحك سرّاً إذا قلت لك إن جواب هذا السؤال هو من السهل الممتنع، وذلك لأنه تبهرك الأعداد التي تقرأها في التاريخ مما يسمونهم ويقولون عنهم أنهم كلهم عدول.

ص: 658

فبالرغم أنه في حجة الوداع فقط كان مع الرسول صلي الله عليه وآله أثناء الحج ما يزيد عن (124) الف(1) وعلي قولهم أنهم صحابة النبي صلي الله عليه وآله .

إلا أنه وبعد وفاته صلي الله عليه وآله ظلمت إبنته وصودرت أموالها المنقولة وغير المنقولة بأمر من الخليفة الأول شخصياً، حتى أنها الوحيدة في الدنيا كلها لا يحق لها أن ترث أباه صلي الله عليه وآله ولماذا؟ لست أدري؟!

فقد احتجّت علي المهاجرين بكتاب الله وبأول من هاجر، واحتجّت عليها السلام علي الأنصار بكتاب الله، وبالأنصار، واستنجدت وذكرتهم عهدهم للرسول صلي الله عليه وآله إلا أنهم جميعاً لم يجيبوها بشيء... لماذا؟ لست أدري؟

بل إنهم جمعوا الحطب علي باب دارها بعد أن هجموا وحاولوا اقتحامه بالقوة، فصدّتهم بجسدها النحيل - روعي فداها - فكسروا ضلعها، ومزقوا أحشاءها حين أسقطوا جنينها، ولطموا وجهها حتى تناثر قرطها، وضربوا ظهرها حتى أنها توفيت وفي جسدها الطاهر أثراً كالدملج .

وبعد أيام من انتقال والدها العظيم صلي الله عليه وآله استشهدت عليها السلام وقيل بأشهر ودفنت في الليل سرّاً ولم يحضر جنازتها إلا أربعة أو خمسة، وهي غاضبة علي أقوام ظلموها حقها، وغضبوا إرثها واعتدوا علي حرمتها، لماذا؟ لست أدري؟

ونعود إلي السؤال ونقول: هل عرفت لماذا هو من السهل الممتنع؟

أين الحواريون إذن، ومن هم؟

إن كان لروح الله المسيح(عليه السلام) (12) حوارياً فلم نجد لرسولنا محمد صلي الله عليه وآله إلا ثلاثة(، فعن أبي جعفر(عليه السلام) قال: ((ارتدّ الناس بعد النبي صلي الله عليه وآله إلا ثلاثة نفر: المقداد

ص: 659

1- راجع الغدير للعلامة الأميني: ج 1 ص 9 .

ابن الأسود ، وأبو ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي ثم إنَّ الناس عرفوا ولحقوا بعد)) (1).

وهكذا فمن الطبيعي أن ينخرط جميع الناس في خطِّ التفاني في بادئ الأمر ، إلا أنَّهم ينقسمون إلى فريقين (مؤمن وكافر) وهنا يأتي دور أنصار الله في حمل راية الحق والمحافظة عليها عالية خفاقة فوق الرؤوس ، والجهد ضدَّ تعدّي وظلم وطغيان الفئة الكافرة . وبالطبع فإنَّ الله سبحانه لن يترك أنصاره بلا مدد ولا عدد ، حيث إنَّهم نصره ، لذلك فإنَّه سبحانه قد تكفل بنصرهم وإلي ذلك تشير الآية : «لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» (2).

وعلي كل فالآية تشير إلي المراحل الأساسية في الحركات الرسالية وهي أربع مراحل :

- 1 - انبعاث القائد الرسالي في المجتمع ، وهو يمثل بذرة الخير والنور الأساسية للحركة والإصلاح والتغيير الجذري للمجتمع .
 - 2 - التفاف مجموعة من الناس حول القائد ، وإيمانهم بفكره ، وتسليمهم الأمور كلّها لقيادته الحكيمة ، ويشكّلون هم الطلائع الثورية الرسالية .
 - 3 - توسّع دائرة الحركة وتيارها في المجتمع ، الأمر الذي يقسّمه إلي جبهتين : جبهة الحقّ ، وجبهة الكفر ، ممّا يؤدي إلي الصراع بين الجبهتين .
 - 4 - انتصار الحقّ وأهله علي جبهة الباطل كعاقبة نهائية للصراع .
- وعلي الإنسان المؤمن دائماً وأبداً أن يكون في جبهة الحقّ ضدَّ جبهة الكفر والنفاق حتّي آخر قطرة من دمه ، وإلي آخر نفس من أنفاسه .

ص: 660

1- الاختصاص : ص 6 .

2- سورة الحجّ (22) : الآية 40 .

إشارة

(85) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»

(سورة الجمعة : 9)

في رحاب المفردات

نودي : النداء رفع الصوت وظهوره ، وقد يقال ذلك للصوت المجرد ، ويقال للمركب الذي يفهم منه المعنى ذلك ، قال تعالى : «وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ (1)» وكذلك «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ (2)»، ونداء الصلاة مخصوص في الشرع بالألفاظ المعروفة (3).

فاسعوا : السعي المشي السريع وهو دون العدو ويستعمل للجهد في الأمر خيراً كان أو شراً (4).

ص: 661

- 1- سورة الشعراء (26) : الآية 10 .
- 2- سورة الجمعة (62) : الآية 10 .
- 3- مفردات الراغب : ص 507 .
- 4- مفردات الراغب : ص 238 .

شأن النزول

قيل أنه أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر ، فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام ، والنبي صلي الله عليه وآله يخطب يوم الجمعة ، فلمّا رأوه قاموا بالبقيع ، خشية أن يسبقوا إليه ، فلم يبق مع النبي صلي الله عليه وآله إلا رهط ، فنزلت الآية فقال صلي الله عليه وآله : ((والذي نفسي بيده ! لو تتابعتم حتّي لا يبقى أحد منكم لسال بكم الوادي ناراً)) (1).

عبر من الآية

علي الرغم أنّ ترك الاشتغال الزائد بمتعلّقات الدنيا ومشاغلها محبّبٌ إسلامياً وقد أكّدت عليه العديد من الآيات والروايات إلّا أنّ ترك الاشتغال بذلك في يوم الجمعة له خاصيةٌ أخرى ، فياتري ما هي هذه الخاصية الموجودة في يوم الجمعة ؟

الجواب إنّ الخصوصية هي في يوم الجمعة وليلته حيث إنه يوم عيد للمسلمين ، وللعيد تهيئةٌ خاصة ، فلذلك نجد أنّ ليلة الجمعة هي ليلة مباركة يجب أن تحيي بالعبادة والتهجّد والصلاة والدعاء والتضرّع إلي الله سبحانه وتعالى .

فقد وصف الإمام الباقر (عليه السلام) اهتمام الرعيل الأول من المسلمين بالجمعة فقال : ((والله لقد بلغني أنّ أصحاب النبي صلي الله عليه وآله كانوا يتجهّزون للجمعة يوم الخميس)) (2).

فيوم الجمعة هو يوم عيد للأمة الإسلامية التي لها استقلالها في شعائرها ورسالتها عن الأمم الأخرى والديانات الأخرى كاليهود والنصارى الذين لهم رسالتهم ولهم أعيادهم . وكما نقرأ في بعض الأخبار أنّ رسول الله صلي الله عليه وآله قال : ((كيف

ص : 662

1- مجمع البيان : ج 28 مج 10 ص 11 .

2- الكافي : ج 3 ص 415 ح 10 .

أنتم إذا تهيأ أحدكم للجمعة عشية الخميس كما تهيأ اليهود عشية الجمعة لسبتهم)) (1).

من معطيات يوم الجمعة

وقد أشار القرآن الكريم إلي الموقع المهم لصلاة الجمعة ويومها ، فالجمعة علي الصعيد الخارجي رمز استقلال الأمة ، وعلي الصعيد الداخلي رمز الوحدة والائتلاف . فالصلاة يوم الجمعة مثلاً لها ما يميّزها عن غيرها من الصلوات ، فهي صورة مصغرة عن الحج ، الذي هو صورة مصغرة عن يوم الحشر والنشر حيث يقف الناس لرب العالمين ليروا أعمالهم . فالتجمع الصغير يوم الجمعة هو اسبوعياً ، أي أنه مؤتمر إسلامي اسبوعي يجتمع فيه المسلمون من أجل مصالحهم الدينية والدنيوية ، كما أنّ الحج مؤتمراً إسلامياً عاماً يعقد كل عام مرّة لتداول الشؤون العامة واتخاذ القرارات المناسبة من أجلها ، وهذا ما لا يوجد له مثيل في الأديان كلّها علي وجه الأرض . فلا يخفي ما لتلك المؤتمرات من فائدة علي كل المستويات الحياتية للأمة الإسلامية فهي ضرورة حضارية وذات تأثير واضح وفوائد جمّة علي كل الصعد ، ومنها :

1 - الصعيد السياسي : إذ أنّ لهذه التجمّعات والاجتماعات فائدة للقائد الذي يقود الجماهير ، فيشرح لهم المعطيات السياسية المستجدة علي أرض الواقع وربما كانت الجمعة مقراً لاتخاذ القرارات المناسبة .

2 - الصعيد الاجتماعي : حيث إنّ هذا الاجتماع العظيم يؤدي إلي تعارف الأمة إلي بعضهم البعض ، ممّا يعزز أواصر المحبة والألفة ويقوّي ويغذّي عنصر الوحدة فيها .

3 - الصعيد الاقتصادي : لا شك أنّ التعارف ، يمكن أن يؤدي إلي التبادل التجاري ، هذا فضلاً عن الأمر الوارد في الآية التالية : «إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا

ص: 663

1- مستدرك الوسائل : ج6 ص43 ح6387 .

في الأَرْضِ(1)»، الأمر الذي يؤدي إلى توسع الحركة التجارية بين الأرياف والمدن كما هو معروف ومألوف .

4 - الصعيد الثقافي : إذ أنّ للجمعة خطبتين أحدهما ثقافية تعمق الثقافة الرسالية في الأمة وتحصّنها مقابل الأفكار الدخيلة الأخرى ، والثانية للدعاء والموعظة ، فمؤتمر الجمعة مؤتمر ثقافي رسالي بكل ما تعنيه الكلمة .

5 - الصعيد العبادي : فهي صلاة والصلاة صلة بين العبد وربّه ، والصلاة هي عمود الدين فمن أقامها أقام الدين ، إلي غيرها من الأحاديث الواردة في هذا الشأن .

السعي لصلاة الجمعة

من هذا المنطلق المهم أكد الشارع المقدّس علي السعي إلي صلاة الجمعة وترك كل ما سواها من شؤون الدنيا ، ولذلك أصبح السعي إلي الجمعة لدي بعض المسلمين أمراً مفروضاً بإجماع الأمة عند توفّر جميع شروطها ، وكما ورد في الحديث : إنّه كان بالمدينة إذا أذن المؤذن يوم الجمعة ، نادي منادٍ حرام البيع لقول الله : «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ(2)». ولا يخفي الأمر فإنّ الكثير من فقهاء الإسلام اعتبروا وجود الحكم الشرعي والإمام العادل شرطاً أساسياً لإقامة صلاة الجمعة ، ولعلّ ذلك مرتكزاً علي كونها من الشعائر الدينية السياسية التي ينبغي أن لا ينتفع منها الظلمة في تضليل الناس وتمكين أنفسهم . فهي من أبرز المناسبات وأهمّها لأنّه يجتمع فيها المسلمون ممّا يسمح للظلمة اتّخاذها كمنبر جماهيري لتضليل المجتمع ، ونحن نقرأ في التاريخ كيف أصبحت خطبة الجمعة مركزاً لحرب أولياء الله(وسبّهم والعياذ بالله) كما فعل الحزب الأموي تجاه الإمام علي وأهل بيته عليهم السلام .

ص: 664

1- سورة الجمعة (62) : الآية 10 .

2- سورة الجمعة (62) : الآية 10 .

وبإعادة قراءة الآية نرى بأن هناك فرق بين تعبيرين :

1 - صلاة الجمعة .

2 - الصلاة من يوم الجمعة .

والآية الكريمة أمرت بالثاني دون الأول فلا تكون الآية إذن دليلاً علي وجوب (صلاة الجمعة) (في الآية ، بل منتهي الأمر أن الآية تأمر بالاهتمام) (بالصلاة في يوم الجمعة) وهذا حاصل وموجود عندنا بلا شك .

مستحبات يوم الجمعة

إذن - وكما يستفاد من الأخبار الشريفة - إن يوم الجمعة هو يوم عيد للمسلمين وهو سيد الأيام ، وليلتها ليلة عبادة وتهجد ودعاء ، ويستحب فيها المزيد من الابتغال إلي الله ، والانشغال في المستحبات كصلاة الليل وبعض النوافل الأخرى وزيارة القبور لتذكّر الموت والموتى والترحم عليهم والاعتبار بمصيرهم ، وبالذات قبور أئمة الهدى عليهم السلام ومرقد سيّد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) وأبنائه وإخوته وأصحابه الكرام عليهم السلام . وهي ليلة تجديد العهد مع الرسول صلي الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام والإمام الحجّة صاحب العصر والزمان - عبّّل الله تعالي فرجه الشريف - لأنه صاحب يوم الجمعة - كما يقال - والمتوقّع فيه ظهوره بإذن الله تعالي .

كما ينبغي صلة الأرحام والتزاور وإحياء جلسات الذكر في ليلة الجمعة ويومها ، والتوجّه إلي المساكين وتذكّر الفقراء والمحتاجين ببعض الصدقات ، والتزاور بين الإخوان لتتقوي عناصر الألفة والمحبة بين صفوف الأمة . ولا بأس بأن يقف الإنسان مع نفسه في ليلة الجمعة ليحاسبها محاسبة دقيقة وذلك لقوله صلي الله عليه وآله : ((حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم بميزان الحياء قبل أن توزنوا)) (1) وبذلك يتم

ص: 665

1- بحار الأنوار : ج68 ص265 ح8 .

تجديد العزم علي متابعة الخطط السليمة ومقاومة الانحرافات والضلالات .

الاهتمام بالأمر المهمة

إذن إن يوم الجمعة ليس يوم لعب ولهو باطل وانشغال بالتوافه ، وإنما هي فرصة للمؤمنين للتفرغ للعبادة وذكر الله بخير الأعمال . ولذلك نري بأن الكثير من العلماء الأعلام أفتوا بحرمة البيع حين الصلاة ، ومنهم من قال ببطان العقود كذلك إذا كانت الجمعة مستوفية الشروط فقد قال المحقق الحلّي في الشرائع : إن باع (عند النداء) أثم وكان البيع صحيحاً علي الأظهر(1) ، ومنهم من ذهب إلي الحرمانية .

ولا يخفي أن ترك البيع يوم الجمعة ليس مفسدة أبداً كما يظن بعض البسطاء بل هي (خير لكم) بل وكل خير وهناك أحاديث كثيرة توضّح ذلك .

فعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال : ((إذا كان يوم الجمعة نزل الملائكة المقرّبون معهم قراطيس من فضّة وأقلام من ذهب ، فيجلسون علي أبواب المسجد علي كراسي من نور ، فيكتبون الناس علي منازلهم الأوّل والثاني ، حتّي يخرج الإمام ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ، ولا يهبطون في شيء من الأيام إلا في يوم الجمعة)) (2) .

وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((أفّ لرجل لا يفرغ نفسه في كل جمعة لأمر دينه فيتعاهده ويسأل عن دينه)) (3) . وقال صلي الله عليه وآله : ((إنّ لكم في كل جمعة حجّة وعمرة ، فالحجّة الهجرة إلي الجمعة ، والعمرة انتظار العصر بعد الجمعة)) (4) .

ص: 666

1- شرائع الإسلام : كتاب الصلاة - في صلاة الجمعة - ج 1 ص 76 .

2- الكافي : ج 3 ص 413 ح 2 .

3- الكافي : ج 1 ص 40 ح 5 .

4- بحار الأنوار : ج 86 ص 214 .

(86) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (سورة المنافقون : 9)

في رحاب المفردات

تلهمكم : اللهو ما يشغل الإنسان عما يعينه ويهمه ، يقال لهوت بكذا ولهيت عن كذا اشتغلت عنه بلهو ، قال : «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ(1)».

ذكر : الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه ، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ، ولذلك قيل الذكر ذكران : ذكر بالقلب وذكر باللسان(2).

ص: 667

1- سورة محمد (47) : الآية 36) مفردات الراغب : ص 475 .

2- مفردات الراغب : ص 181 .

ضُمَّتْ هذه الآية المباركة أمر صعب عظيم ، خصَّ الله - سبحانه وتعالى - به المؤمنين في هذه السورة (المنافقون) التي جاءت في سياق الآيات الواصفة لبعض أحوال المنافقين .

فالأموال والأولاد زينة الحياة الدنيا ولكن الباقيات الصالحات خير ثواباً وخير عقباً ، فيجب علي الإنسان دائماً أن يذكر الله ، خاصة في الخلوات حيث يكون المجال مفتوحاً للمعصية والعياذ بالله . وعمل كل حال فإنّ الذكر علي نوعين :

1 - الذكر الواجب : وهو ما يشمل ويتضمّن فعل الواجبات الشرعية ، وترك المحرّمات حيث إنّ تذكّر الله يجعل الإنسان يفعل الأولي ويترك الثانية .

ولعلّ خير شاهد علي ذلك هي قصّة نبي الله يوسف (عليه السلام) وزليخا امرأة عزيز مصر .

حيث إنّها لما طلبت نبي الله يوسف (عليه السلام) وغلّقت الأبواب وكانت قد أعدّت واستعدّدت بكامل استعدادها لذلك ذهبت إلي صنم كانت تعبده وألقت عليه غطاءه ، فقال لها نبي الله يوسف (عليه السلام) : لماذا فعلت ذلك ؟ فقالت : أخشي أن يراني وأنا في هذه الحال من المعصية .

ثمّ التفتت إليه وقالت : «هَيْتَ لَكَ(1)» .

آنذاك تذكّر نبي الله يوسف (عليه السلام) ربّه وقال : «مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ(2)» .

2 - الذكر المستحبّ : الذي يتمثّل في الأوراد والأذكار كالتهجّد والدعاء ،

ص: 668

1- سورة يوسف (12) : الآية 22 .

2- سورة يوسف (12) : الآية 23 .

وصلاة الليل ، وبقية النوافل ، وقراءة القرآن والتحميد والتمجيد ، والتسبيح والتهليل وما إلى ذلك من الأذكار المعروفة .

منشأ الإعراض عن الله عز وجل

وهنا قد يرد سؤال علي الذهن اليقظ فيقول : ما هو المانع عن ذكر الله ، بكلا نوعيه الواجب والمستحب ؟

الجواب عليه بكلمة مختصرة : إنه الانشغال بالدنيا ، ومشاغلتها التي من أهمها هم الأولاد والأموال لذلك وصفهم ربنا سبحانه بالفتنة .

ولذا فإن الآية المباركة تنهانا عن الانشغال بهما عوضاً عن ذكر الله سبحانه وتعالى .

ولعل خير شاهد علي هذا المطلب هي قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، حيث كان هذا الرجل غاية في الفقر والعوز إلا أنه كان مواظباً علي الطاعات والعبادات والجمعة والجماعات ، وبين الفينة والأخرى كان يطلب من رسول الله صلي الله عليه وآله الدعاء له من أجل زيادة رزقه قائلاً : يارسول الله صلي الله عليه وآله ادع الله أن يرزقني مالاً ، والذي بعثك بالحق ، لأن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه .

وبعد تكرار الطلب والإلحاح قال رسول الله صلي الله عليه وآله : ((اللهم ارزق ثعلبة مالاً)).

فاتخذ غنماً فراحت تنمو وتكثر بسرعة حتي ضاقت عليه المدينة المنورة ، فتنحى عنها إلي وادياً من أوديتها ، فكثرت أكثر فضاقت عليها الوادي كذلك .

فأخذها وتباعدها عن المدينة ، فانشغل بذلك عن الطاعات والجمعة والجماعات ، وفي أحد الأيام بعث رسول الله صلي الله عليه وآله جامع الصدقات إليه ليأخذ صدقة الأموال الكثيرة عنده .

فأبى ثعلبة وأنكر واستنكر وبخل بحقّ الله تعالى في ماله وقال : ما هذه إلا أخذ لمال الناس بالباطل ، ولَمَّا عاد المحتسب إلي رسول الله صلي الله عليه وآله وأخبره بذلك .

قال صلي الله عليه وآله : يا ويح ثعلبة ، فأنزل الله سبحانه الآية التي تقول : ((ومنهم من عاهد الله ثم أتانا من فضله لنصدّقن)) فبخل واستغني ، فما هي إلا أشهر حتي عاد إلي رسول الله صلي الله عليه وآله بدون أي نوع من المال يبكي وينتحب حظّه التعيس(1).

ص: 670

1- مجمع البيان : ج 10 مج 5 ص 94 - 93 .

إشارة

(87) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَدَّقْتُمْ فَحُورًا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (سورة التغابن: 14)

في رحاب المفردات

أزواجكم : يقال - الزوج - لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج ... ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً زوج . قال تعالى : «فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (1)».

عدوا : العدو التجاوز ومنافاة الالتئام فتارة يعتبر بالقلب فيقال له العداوة والمعادة ، وتارة بالمشي فيقال له العدو ، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له العدوان والعدو (2).

ص: 671

1- سورة القيامة (75) : الآية (39) مفردات الراغب : ص 221 - 220 .

2- مفردات الراغب : ص 338 .

شأن النزول

عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : ((إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وذلك أنَّ الرجل كان إذا أراد الهجرة إلي رسول الله صلي الله عليه وآله تعلق به ابنه وامرأته ، وقالوا : نشدك الله أن لا تذهب عنّا وتدعنا فنضيع بعدك فمنهم من يطيع أهله فيقيم ، فحذّرهم الله أبناءهم ونساءهم ونهاهم عن طاعتهم ، ومنهم من يمضي ويذرهم ، ويقول : أما والله لئن لم تهاجروا معي لم يجمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبداً ، فلما جمع الله بينه وبينهم أمره الله أن يحسن إليهم ويصلهم ، فقال : «وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصَدَّقُوا فَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(1)».

عبر من الآية

لا- يخفي أنّ تخصيص المؤمنين في هذا الخطاب القرآني الجليل فيه بيان لحقيقة واقعية وهي : أنّ المؤمن الحقيقي هو مجاهد بطبعه ، لذلك تتوالي عليه الضغوط والتحدّيات ، ولأنّه من دون سائر الناس يتحمّل المسؤولية الرسالية ، وبالتالي فإنّه الأولي بمثل هذا الخطاب ، والأقرب لفهم معانيه .

فالعدو القليل الحقيق ، ربما فعل فعلاً كبيراً وعمل عملاً كثيراً ، فلا ينبغي الاستهانة بالعدو مهما صغر .

ولا يخفي أنّ أعداء الإنسان المؤمن كُثر ، فمن نفسه الأمانة بالسوء إلي أعداي أعدائه وهم أعداء الله وأعداء رسوله ووليّه عليهم السلام .

ص: 672

ولكن - وكما تنص الآية - أن أخطر هؤلاء الأعداء هو العدو الخفي الذي يتلبس بلباس الأخ والصديق فإن ضرره أخطر وأفتك لمعرفته الحقيقية بموطن الضعف في الإنسان ، واحصائه لعثراته وزلاته ، ومعرفته بخططه ومشاريعه الحالية والمستقبلية . فهذا العدو هو أخطر أنواع الأعداء ، فضلاً عن ذلك فإن مقاومته غاية في الصعوبة ... فالعدو الذي يتلبس بلباس صديق ناصح ومشفق ، وهو يضمّر الخيانة والوقية بنا هو من أخطر الأعداء وألدها .

من هنا ، فإن الأزواج والأولاد إذا كانوا فاسدين ، فهم من أخطر الأعداء علي الإنسان المؤمن لأنهم أعداء ملاصقون ، ويلبسون ثياب الصديق - بل الأهل - .

ولا يخفي أن لهؤلاء قدرة هائلة جداً علي التأثير في الإنسان ، ففي الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) يوضح فيه مدي خطورة الأهل والأولاد إذا كانوا يصدون الإنسان عن طاعة الله فقال (عليه السلام) : ((أن الرجل كان إذا أراد الهجرة إلي الرسول صلي الله عليه وآله تعلق به ابنه وامرأته وقالوا : نشدك الله أن لا تذهب عنا وتدعنا فنضيق بعدك .

فمنهم من يطيع أهله فيقيم ، فيحذرهم الله من أبنائهم ونسائهم ونهاهم عن طاعتهم .

ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول : أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم يجمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبداً)) (1).

خذلان الكوفة لسفير الحسين (عليه السلام)

إن التاريخ يشهد علي الكوفيين عندما تخاذلوا عن نصره الإمام الحسين (عليه السلام) ووقعوا تحت تأثير النساء حتى بلغ الأمر أن مسلم بن عقيل سفير الإمام الحسين (عليه السلام) عندما صلي صلواته كان المسجد غاص بالمصلين خلفه .

ص: 673

وإذا بالنساء يأتين كلّ تأخذ عزيزها وهي تقول : ما لنا والدخول بين السلاطين ، أو هم أبناء عمّ ، فلماذا نقتل أنفسنا من أجلهم ؟ وما إلي ذلك من الأقوال الباطلة .

فتفرّقوا جميعاً عن مسلم بن عقيل (عليه السلام) وبقي في المسجد وحيداً فريداً ، حيث إنهم تركوه يقابل ابن زياد بلا ناصر ولا دليل ولا مأوي إلي أن آوته (طوعة) المؤمنة في بيتها ، إلا أن ولدها الجاسوس بلّغ عنه طمعاً في الجائزة المالية التي أعلنها عبيدالله ابن زياد .

فهذا يدلّ علي أن الأمر غير مختصّ بالرجال أو النساء ، ولا البنين والبنات بل هو شامل للجميع دون استثناء ، فكل مؤمن إذا ما حاول أحد أن يصدّه عن عمل الخير والجهاد في سبيل الله وطاعة أولياء الله والدفاع عنهم فعليه أن يعتبره عدوّاً ويحاربه خاصّة أن كلمة (مؤمن) تشمل الرجل والمرأة علي حدّ سواء . إذن فليس كلّ الأزواج أو الأولاد هم أعداء ، ولذا عبّرت الآية المباركة ب (من) وهذا الحرف يفيد كما في اللغة العربية التبويض لا الشمول للجميع .

ولذا فعلي الإنسان أن يكون حذراً جداً حتّي لا -تورده زوجته أو أولاده في معصية الله ، بل يجب أن يكون كل منهم دافعاً للآخر باتّجاه الطاعة والعبادة .

ولذلك حثّت الروايات علي انتخاب الزوجة الصالحة ، فعن النبي صلي الله عليه وآله قال : ((ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة تسره إذا نظر إليها وتطيعه إذا أمرها وتحفظه إذا غاب عنها في نفسه وماله)) (1).

وقال رسول الله صلي الله عليه وآله : قال الله عزّ وجلّ : ((إذا أردت أن أجمع للمسلم خير الدنيا وخير الآخرة جعلت له قلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً وجسداً علي البلاء صابراً

ص : 674

وزوجة مؤمنة تسره إذا نظر إليها وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله)) (1).

بطولات المرأة في كربلاء

وفي هذا المضممار يتجلى دور زوجة زهير بن القين تلك المرأة الصالحة التي دفعت زوجها لالتحاق بركب الإمام الحسين (عليه السلام) وأصحابه البررة .

فبينما كان ركب الإمام الحسين (عليه السلام) باتجاه الكوفة ، كان ركب زهير بن القين في نفس الوقت يسير وكان يتحاشي الالتقاء مع الإمام (عليه السلام) وركبه ، إلي أن نزلوا جميعاً بقرب عين ماء ، فأرسل الإمام الحسين (عليه السلام) إليه . فجاء الرسول وقال له : أجب ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله . فتناقل زهير ، فقالت له زوجته الصالحة : ويلك يا زهير يدعوك ابن بنت نبيك ولا تجبه ؟ قم إليه وانظر ما يكون من أمرك .

وبالفعل قام زهير وذهب إلي الإمام الحسين (عليه السلام) ليعود بعد قليل فيطلقها ويرسلها إلي أهلها فتبكي تقول له : اذكرني عند فاطمة الزهراء عليها السلام .

انظر - عزيزي القارئ - إلي هذه المرأة المؤمنة التي دفعت زوجها إلي قمة المجد والسؤدد حيث الشهادة في ركب الإمام الحسين (عليه السلام) ليكون من قادة جيشه في الحياة الدنيا ، وفي جواره في الجنة في الدار الآخرة .

وهناك أكثر من قصة في واقعة كربلاء تحكي عن بطولات النساء ، فالأقلام مهما كتبت وسطرت فهي لا تقي بموقف واحد من مواقف أمّ المصائب ((زينب العقيلة عليها السلام)).

وفعلاً إن قول حسان بن ثابت كان رائعاً وجميلاً حين قال :

ولو أن النساء كمثل هذي

لفضّلت النساء علي الرجال

وكما أنّ للنساء تأثيراً خاصاً علي الإنسان كذلك هو تأثير الأولاد ، فهو لا

ص: 675

يقول عن النساء أثراً ، فمثل قصّة ((محمد بن أبي بكر مع أبيه)) و ((الزبير بن العوام مع ولده)) و ((معاوية الثاني من حكم أبيه وجدّه)) كلّها تكشف بوضوح عن مدى تأثير الأبناء علي الآباء ، ولذا فإنّ موقف الرجل المؤمن دائماً ينبغي أن يكون مع الحق لا مع سواه .

وفي نهاية هذه الآية المباركة وكعادة الخطاب للمؤمنين فهي دائماً وفي معظم الأحيان تنتهي بتحذير وتذكير .

تحذّر من الخشونة في التعامل مع الزوجة والأولاد والأقارب .

وتذكر بغفران الذنوب للعاصين ، والرحمة الواسعة من ربّ العالمين .

ولكن علي الإنسان أن لا يبغى ويصفح ويغفر . وربما تستوقفنا هذه الكلمات الثلاثة قليلاً حيث إنّ : العفو : هو التنازل عن حقّ الانتقام والمماثلة في القصاص - بالذات عند المقدرة - .

والصفح : درجة أرفع ، إذ أنّه قد يتنازل الإنسان عن حقّه في الاقتصاص مثلاً ولكن علاقته مع الطرف الآخر تبقى كدرة بسبب الإساءة ، أمّا إذا صفح عنه فهو يطوي صفحة الماضي ويفتح صفحة جديدة فتعود علاقته الظاهرة به علاقة طبيعية ، وليس بالضرورة أن تزول الآثار النفسية الداخلية بذلك ، بلي إذا غفر أزال حتي هذه الآثار ، بل وتنازل عن طلب الانتقام من الله عزّ وجلّ ، وهذه الصفات ينبغي أن يتحلّي بها المؤمن تجاه أسرته والآخرين علي كل حال وفي كل الظروف وبالذات عندما يحتدم الصراع المبدئي بينه وبينهم ، فإنّ هذا الصراع ينبغي أن يبقى في حدود المبدأ ولا يتحوّل إلي صراع شخصي مستمر ، فإذا عادت زوجته التي كانت تمنعه من العمل في سبيل الله إلي رشدها أو اقتنع أبؤه وسائر أسرته عليه أن ينسي الإساءات التي صدرت منهم تجاهه ، ولا يذكّرهم بها ، ولا يحمل في نفسه غصاضة ، ولا يطالبهم بالغرامة ، وما أشبه .

إشارة

(88) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» (سورة التحريم : 6)

في رحاب المفردات

قوا: الوقاية هي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاءً، قال تعالى: «وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (1)».

وقودها: يقال وَقَدَّتْ النار تقد وقوداً ووقداً، والوقود، يقال للحطب المجعول للوقود ولما حصل من اللهب (2).

غلاظ: الغلظة ضدّ الرقة .

ص: 677

1- سورة الطور (52) : الآية 18) مفردات الراغب : ص 568 .

2- مفردات الراغب : ص 566 .

ويقال غِلْظَةٌ وُغْلُظَةٌ وأصله أن يستعمل في الأجسام لكن قد يستعار للمعاني كالكبيرة الكثيرة ، قال تعالى : «وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً(1)» أي خشونة(2).

عبر من الآية

هذه الآية المباركة من سورة التحريم تدور حول علاقة الزوج بزوجه حيث ينبغي أن تكون وفق المقاييس الإلهية ، فلا يجوز لأحد أن يقيم الزوجة علي أساس زوجها سلباً أو إيجاباً .

وذلك لأن قيمة كل إنسان ما يحسنه هو لا ما يحسنه الآخرون مهما كانت الرابطة بينه وبينهم قريبة وحميمة .

كما أن مقياس القبح هو ما يقوم به الفرد من السيئات لا ما يقوم به الآخرون مهما قربوا منه .

إذن فالتقييم الموضوعي الدقيق لأي شخص إنما هو بقيمته كفرد منقطع عن أي أحد ، وهذا الذي يجعل زوجتي (نوح ولوط عليهما السلام) مثلاً من الكفار فتدخلان النار فهما كسائر الناس عند الله ، ومن جهة أخرى نفس هذه الحقيقة هي التي تجعل (آسية بنت مزاحم) زوجة فرعون مدعي الربوبية مثلاً للمؤمنين عبر التاريخ وكذلك السيدة مريم التي أحصنت فرجها وصدقت بكلمات الله وكتبت وقنتت إليه مع القانتين .

إذن فالتقييم شخصي ، والإنسان أولاً وقبل أي شيء مسؤولاً عن نفسه لكي

ص: 678

1- سورة التوبة (9) : الآية 123 .

2- مفردات الراغب : ص 376 .

ينقذها من النار وغضب الجبار وذلك بالتزام الطاعات واجتناب المعاصي .

وبعد أن يعمل الإنسان علي إنقاذ نفسه ، عادةً ما يسعى لتخليص أقاربه وأحبابه كالوالدين والزوجة وغيرهما ، فإنه يحبّ لهم جميعاً ما يحبّ لنفسه ، ويطمح لهم الخلاص من النار ليكونوا سوية هناك في الجنان ، فيعمل من أجل إنقاذهم بكل طريقة وأي أسلوب في الدعوة .

من هنا فإنّ الإسلام الحنيف أكّد علي أنّ كل إنسان مسؤول بالدرجة الأولى عن أهله وإن كان ذلك لا يلغي مسؤوليته عن المجتمع ، إلا أنه في الدرجة الأولى - ظاهراً - مسؤول عن عائلته وأسرته فقط .

حتّى أنّ الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله دعاه الباري تعالي في بداية الدعوة أن يدعو أقاربه إلي الإسلام بقوله - عزّ وجلّ - :

«وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(1)».

فجمعهم الرسول صلي الله عليه وآله وذبح لهم وأطعمهم وسقاهم وقال لهم - فيما قال صلي الله عليه وآله : ما عرفت أنّ أحداً من العرب جاء لأهله بالخير والهدى كالذي جئتكم به ؟ جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، فمن منكم يؤازرني ويعاضدني علي أن يكون أخي ووزير ووصي في أمّتي .

فسكت الجميع ، فقال الإمام علي(عليه السلام) : أنا يارسول الله صلي الله عليه وآله .

فأخذ في عنقه وقال : هذا أخي ووصي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا .

وكان الأمير(عليه السلام) آنذاك فتى في مقتبل العمر ، فراحوا يقولون لأبيه أبي

ص: 679

1- سورة الشعراء (26) : الآية 214 .

طالب(عليه السلام) يوصيك بأن تسمع لولدك الصغير وتطيعه(1).

وقد قال الله تعالى في آية أخرى: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا(2)».

فكان رسول الله صلي الله عليه وآله يأتي إلي باب علي وفاطمة عليهما السلام كل يوم ، ولمدة ستة أشهر لإيقاظهما قائلاً : الصلاة يا أهل البيت الصلاة ، «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(3).

فالرسول الأعظم صلي الله عليه وآله يوقظ أهل بيته ويناديهم بهذا الشكل اللطيف الرائع طيلة الستة أشهر للصلاة والحال أنهم أهل بيت أذهب الله عنهم جميع أنواع الرجس وطهرهم في أعلي أنواع الطهارة والتطهير .

أفلا يحق لنا التساؤل فنقول : لماذا صنع الرسول صلي الله عليه وآله ذلك ؟

الجواب أنها المسؤولية ، التي ألقتها هذه الآية المباركة علي كاهله ، وكاهل كل إنسان يطمح لخلاص نفسه وأهله في الدار الآخرة .

ولذلك كان علي الإنسان المؤمن أن يسعى جاهداً من أجل خلاص أهله وعياله من النار وذلك بتوفير وسائل الوقاية والتربية لهم كأن يصطحبهم معه إلي مجالس الذكر والدعاء والعبادة .

ص: 680

1- راجع كل من : مسند أحمد بن حنبل : ج1 ص159 ، نظم درر السمطين : ص82 ، كفاية الطالب للكنجي : ص205 ، تاريخ مدينة دمشق ترجمة الإمام علي : ج1 ص87 ح139 ، أسني المطالب في مناقب علي بن أبي طالب : ب3 ص12 ، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد : ج5 ص41 ، السيرة الحلبية : ج1 ص460 ، شواهد التنزيل : ج1 ص420 ، جامع البيان : ج19 ص131 ، الدر المنثور : ج5 ص97 ، تفسير القرآن العظيم : ج3 ص350 ح5 ، تفسير الخازن : ج3 ص371 .

2- سورة طه (20) : الآية 132 .

3- سورة الأحزاب (33) : الآية 33 سورة الأحزاب : 33 .

لا- سيّما مجالس أهل البيت عليهم السلام التي تحيي النفوس وتربي الأجيال علي المشاركة في مثل هذه المجالس العامرة بالإيمان والوعظ .

من جانب آخر يمكن أن يكون المؤمن قدوة صالحة لأهله وعياله من خلال التزامه أولاً بكل ما يأمرهم وينهاهم .

فمن خلال هذه الأمور نكسب أبنائنا وندفعهم إلي الطاعات بحب واطمئنان ، وبهذا نقيهم النار التي وقودها الناس والحجارة .

ففي الحديث أنّ سليمان بن خالد قال : قلت للإمام الصادق(عليه السلام) : إنّ لي أهل بيت وهم يسمعون منّي أفأدعوهم إلي هذا الأمر (الولاية) ؟

فقال : ((نعم إنّ الله عزّوجلّ قال : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً(1)» .

وعن أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله الصادق(عليه السلام) عن قول الله : «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً(2)» .

وقلت : هذه نفسي أقيها ، فكيف أقي أهلي ؟

قال(عليه السلام) : ((تأمرهم بما أمرهم الله به ، وتنهاهم عمّا نهاهم عنه ، فإن أطاعوك كنت قد وقيتهم ، وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك)) (3) .

وسئل الإمام الصادق(عليه السلام) عن قول الله عزّوجلّ : «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

ص: 681

1- سورة التحريم (66) : الآية (6) تفسير نور الثقلين : ج 7 ص 422 ح 17 .

2- سورة التحريم (66) : الآية 6 .

3- تفسير القمّي : ج 2 ص 377 .

ناراً(1)» كيف نقيهنّ؟

قال(عليه السلام): ((تأمرونها وتنهونها)).

قيل له: إنا نأمرهنّ وننهاهنّ فلا يقبلنّ.

قال(عليه السلام): ((إذا أمرتموهنّ ونهيتموهنّ فقد قضيتنّ ما عليكم)) (2).

ص: 682

1- سورة التحريم (66): الآية 6.

2- من لا يحضره الفقيه: ج3 ص442 ح4533.

إشارة

(89) - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورًا وَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (سورة التحريم : 8)

في رحاب المفردات

نصوحاً: هي من قولهم نصحت له الودّ أي أخلصته ، وناصح العسل خالصه(1).

يخزي : خزي الرجل أي لحقه انكسار إمّا من نفسه وإمّا من غيره ، فالذي يلحقه من نفسه هو الحياء المفرط ، ومصدره الخزية ، والذي يلحقه من غيره يقال هو ضربٌ من الاستخفاف ، ومصدره الخزي ، قال تعالى : «ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي

ص: 683

شأن النزول

أخرج الحافظ جمال الدين محمد بن يوسف (الحنفي) (الزرندي في كتابه) نظم درر السمطين (عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((ما أنزل الله تعالى آية فيها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إِلَّا وَعَلِي رَأْسَهَا وَأَمِيرَهَا)) (2).

عبر من الآية

نداء آخر لعامة المؤمنين ، يدعوهم الباري تعالى إلي التوبة النصوحة ، ويرغبهم بالجنة ، ويعدهم المغفرة ويبشّرهم بالشفاعة المقبولة من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل الأطهار عليهم السلام .

الملفت للانتباه أنّ النداء موجّه هنا للمؤمنين بأن توبوا والحال أنّ التوبة ينبغي أن تكون للعصاة والمذنبين ، فما المراد بذلك ؟

وفي جوابه يقال : إنّ التوبة ليست خاصّة بالمذنبين ، بل هي عامّة لكل الناس ، حتّى المقرّبين من العباد الصالحين .

لأنّ الله قد خلق الإنسان ليبتليه دوماً ، فإنه يتعرّض للسقوط والخطأ كثيراً ،

ص : 684

1- سورة المائدة (5) : الآية (33) مفردات الراغب : ص 148 - 147 .

2- نظم درر السمطين : ص 89 .

وحيث إنّ الله يعلم مراكز ضعف البشر وقوتهم ، فقد فتح أمامهم أبواب التوبة ، ودعاهم إلي الدخول في فسيح رحمته .

ولا يخفي أنّ للتوبة درجات - بحسب المذنب والذنب - وهي علي الشكل التالي :

1 - توبة العوام : (أو العموم) وهي التوبة من كل أنواع الذنوب والمعاصي التي يقترفها العبد خلال مسيرة حياته اليومية .

2 - توبة الخواص : وهي توبة الصالحين من ارتكاب بعض المكروهات ، وترك بعض المستحبات ، أو ربما العمل بخلاف الأولي ، كفعل أينا آدم (عليه السلام) وزوجته حواء .

3 - توبة خواص الخواص : وهي التوبة من الالتفات إلي غير الحقّ تعالي والغفلة والسهو عن الحقّ تعالي ، فهذا عندهم بحاجة إلي توبة لأنّه يعتبرونه ذنباً .

وقد جاء عن الإمام علي (عليه السلام) أنّه رأي شخص يقول : أستغفر الله فقال له : ((ثكلتك أمك ، أتدري ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم وقع علي سِنَّة معانٍ : أولها الندم علي ما مضى ، والثاني العزم علي ترك العود إليه أبداً ، والثالث أن تؤدّي إلي المخلوقين حقوقهم حتّي تلقي الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع أن تعمد إلي اللحم الذي نبت علي السحت فتذيبه بالأحزان ، حتّي تلصق الجلد بالعظم ، وينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس أن تديق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : ((أستغفر الله)) (1).

ص: 685

1- نهج البلاغة : ق 417 .

إذن فالتوبة يجب أن تكون نصوحاً: أي جامعة للشرائط التي ذكرت كلها، أي أنها توبة حقيقية وكاملة بحيث تحتوي علي :

1 - الندم علي ما مضى من الذنوب والمعاصي .

2 - العزم علي عدم العودة في المستقبل إلي أمثال تلك الذنوب .

3 - الاستغفار باللسان كثيراً .

4 - تدارك ما فات ، كردّ المظالم وإرجاع الحقوق إلي أصحابها ، وقضاء ما فات من الواجبات والفرائض المكتوبة .

فقد سأل أحدهم الإمام الهادي(عليه السلام) عن التوبة النصوح فكتب إليه : ((أن يكون الباطن ، كالظاهر وأفضل من ذلك))⁽¹⁾.

وقال الإمام عنها : ((يتوب العبد من الذنب ، ثم لا يعود فيه))⁽²⁾.

وعن الإمام الصادق(عليه السلام) : قال : ((إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة)).

فقلت - الراوي - : كيف يستر عليه ؟

قال(عليه السلام) : ((ينسي ملكيه ما كتب عليه من الذنوب ، ويوحى إلي جوارحه : اكنمي عليه ذنوبه ويوحى إلي بقاع الأرض : اكنمي ما كان يعمل عليك من الذنوب ، فيلقي الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب))⁽³⁾.

وعن الإمام الصادق(عليه السلام) قال : ((أوحى الله - عزّوجلّ - إلي داود النبي(عليه السلام) :

ص: 686

1- وسائل الشيعة : ج16 ص76 ح21025 .

2- تفسير القمّي : ج2 ص377 .

3- الكافي : ج2 ص430 ح1 .

ياداود وإنَّ عبدي المؤمن إذا أذنب ذنباً ثم رجع وتاب عن ذلك الذنب واستحيي منِّي عند ذكره غفرت له ، وأنسيته الحفظة ، وأبدلته بالحسنة ، ولا أبالي وأنا أرحم الراحمين))[\(1\)](#).

كما أنَّ للتائب صفات وعلامات تدلُّ عليه حدّدها رسول الله صلي الله عليه وآله عبر الحديث التالي حيث قال صلي الله عليه وآله : ((التائب إذا لم يستبن أثر التوبة فليس بتائب ، يرضي الخصماء ، ويعيد الصلوات ، ويتواضع بين الخلق ، وينقي نفسه عن الشهوات ، ويهزل رقبته بصيام النهار ، ويصفرّ لونه بقيام الليل ، ويخمص بطنه بقلّة الأكل ، ويقوِّس ظهره من مخافة النار ، ويذيب عظامه شوقاً إلي الجنة ، ويرقّ قلبه من هول ملك الموت ، ويجفّ جلده علي بدنه يتفكّر الأجل .

فهذا أثر التوبة ، وإذا رأيتم العبد علي هذه الصورة فهو تائب ناصح لنفسه))[\(2\)](#).

آثار التوبة النصوحة

وعلي كل فإنَّ الإنسان المؤمن إذا حافظ علي قربه من الله تعالي من خلال التوبة فإنَّ الباري عزّوجلّ بالمقابل يعطيه عدّة أمور منها :

1 - «يُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»[\(3\)](#).

والجنة هي أرفع ما يمكن أن يفكّر به المؤمن ، بل وما يصلح له لأنّها بجوار ربّ العالمين ورعاية رسوله الأمين ، وقيادة أمير المؤمنين ولا يوجد فيها إلا أناساً

ص: 687

1- وسائل الشيعة : ج16 ص74 ح2107 .

2- مستدرک الوسائل : ج12 ص130 ح13709 .

3- سورة التحريم (66) : الآية 8 .

2 - الشفاعة وهي في قوله تعالى :

«يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (1)» وكما في الحديث .

«وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» في أمر الشفاعة وردت (2).

3 - «نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ» : أي أنّ مؤمني كل حقبة وكل عصر يكونون بقيادة إمام ذلك العصر وذلك الزمان فيأخذ بأيديهم إلى أن يدخلهم إلى الجنة ويسكنهم في مساكنهم المخصصة لهم .

فالتائبون يكمل نورهم ، وتغفر ذنوبهم ، باعتمادهم وتوكلهم على الله ، ويقينهم بالله تعالى على كل شيء قدير .

اللهم تب علينا إنّك أنت التّوّاب الرحيم ، واغفر لنا ذنوبنا يا أرحم الراحمين إله الحقّ آمين .

ص: 688

1- سورة التحريم (66) : الآية 8 .

2- راجع تفسير الفرات : ص 570 .

وفي ختام هذه الدراسة الرحمانية الإيمانية المباركة ، التي قادتنا إلي شواطئ الإيمان الواسعة ، وتنقلت بنا في رياض العلم والمعرفة فرأينا العجب العجاب في توجيهات الحبيب للأحباب .

تسع وثمانون محطة نورانية ، استرحنا بها ، وأرحنا أنفسنا من العناء والتعب في أخبائها ، وأنرنا أبصارنا بقراءتها ، وبصائرنا بأنوارها ، وسكنت أرواحنا إلي هداها واطمأنت قلوبنا بذكر الله .

فندعوا الله متضرعين إلي مقامه الجليل وبهائه الجميل ، أن يعافنا ويعفو عنا ويرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء ، ويتجاوز عن خطايانا وسيئاتنا ويشفع بنا رسولنا الأكرم محمد صلي الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار الأبرار عليهم السلام لا سيما سيّدنا ومولانا صاحب العصر والزمان الإمام الحجّة بن الحسن (عليه السلام) .

اللهم إنّنا نرغب إليك في دولة كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذلّ بها النفاق وأهله ويجعلنا فيها من الدعاة إلي طاعتك والقادة إلي سبيلك والمستشهادين بين يديه في جملة أوليائك .

اللهم ما بنا من نعمة فمنك لا إله إلا أنت نستغفرك ربّنا ونتوب إليك .

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام علي المرسلين والحمد لله ربّ العالمين .

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباه اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
الغمامة
اصبحان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

